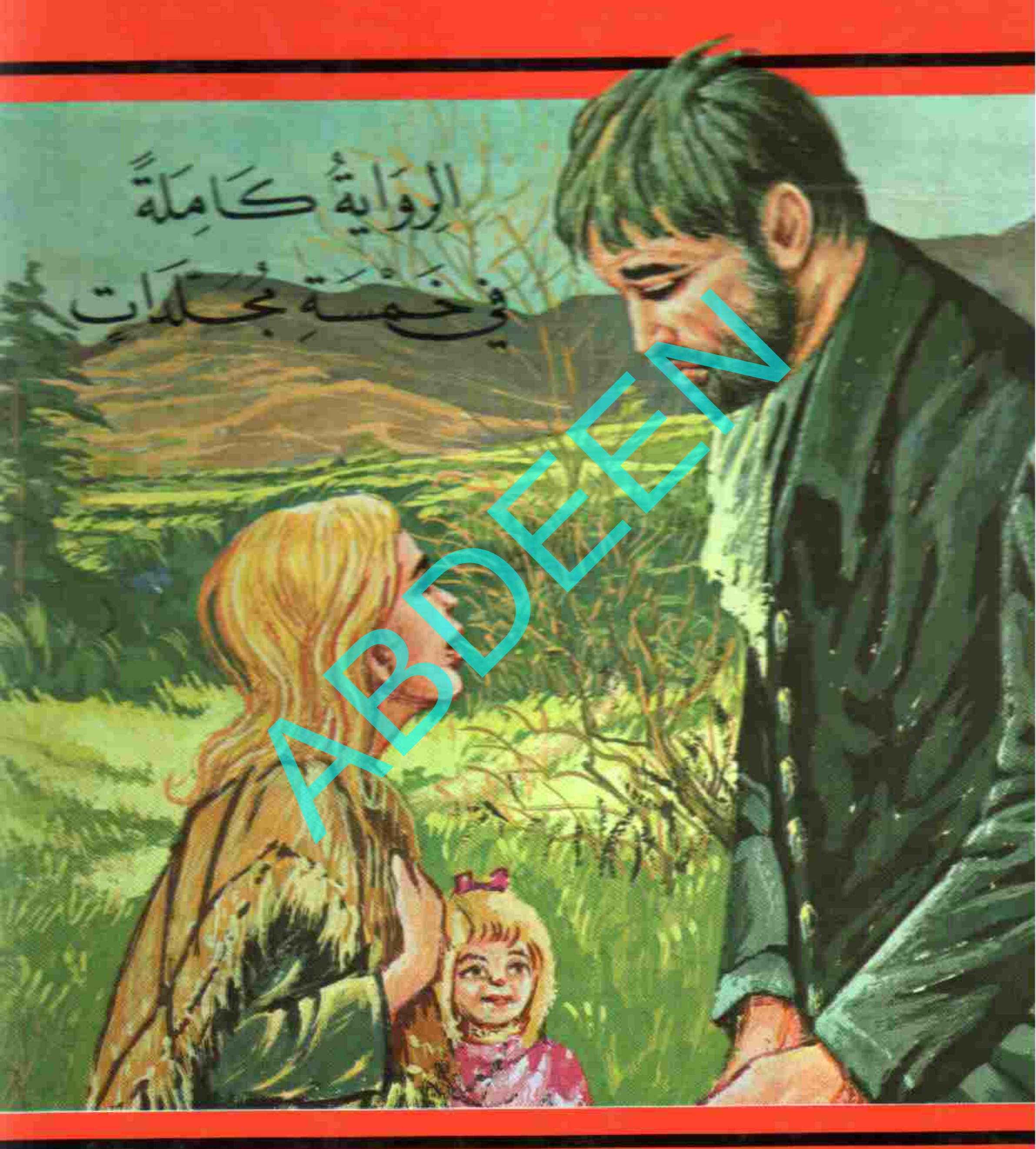
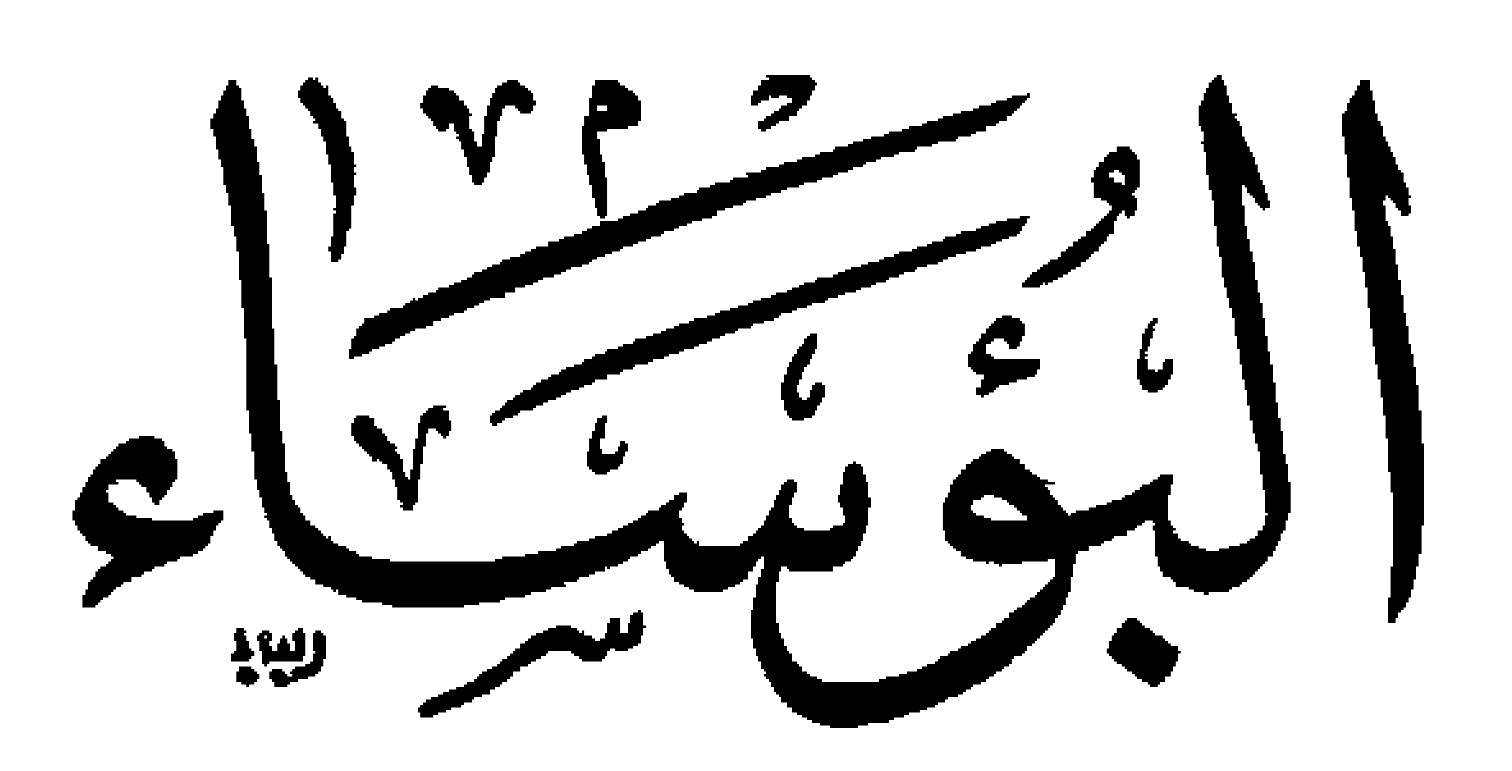
البؤساء



(٢)

دار العلم للملايين

البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

المجلد الثاني

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

الطبعة الأولى

١٩٥٥م

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القسم الثاني

كوزيت

الكتاب الأول

واترلو

١

ما الذي تلتقيه وانت مقبل من نيفيل

في العام الماضي (١٨٦١) ، ذات صباح جميل من ايام نوار ، كان احد المسافرين – وهو الرجل الذي يروي هذه القصة – يتجه من « نيفيل » الى « لا هوب » . كان يرتحل سعياً على قدميه ، سالكاً – بين صفين من الاشجار – طريقاً عريضة معبدة تتعرج فوق تلال كانت تتعاقب واحدة اثر اخرى ، فترفعها حيناً ، وتهبط بها حيناً ، مثل امواج هائلة . كان قد اجتاز « ليلوا » و « بوا – سينيور – ايزاك » . لقد رأى في ناحية الغرب قبة كنيسة « برين لالو » المصنوعة من حجر الآردواز ،

والتي يشبه شكلها شكل إناء مقلوب . وكان قد خلّف وراءه منذ لحظة غابة على شَرَف من الارض . وعند زاوية احدى الطرق الضيقة المختصرة ، الى جانب ضرب من المَعْلَم النَّخِر الحامل هذا الكلام : « **باب المدينة القديم رقم ٤** » كانت حانة على واجهتها هذه اللافتة : **حانة الرياح الاربع، ايشابو ، مقهى خصوصي** .

وعلى ثُمن فرسخ وراء هذه الحانة انتهى المسافر الى قعر وادٍ صغير حيث كان جدول يجري تحت قنطرة قائمة عند الطريق المردومة . وكانت باقة الاشجار ، المتناثرة ولكنها شديدة الخضرة ، والمالئة صفحة الوادي من احد جانبي الطريق — كانت هذه الباقة تتبدّد عند الجانب الآخر في المروج ، وتنبسط في فوضى دمثة نحو « برين لالو » .

هناك ، الى اليمين ، وعلى حافة الطريق ، كان فندقٌ امام بابه كارّةٌ ذات اربع عجلات ، وحزمة ضخمة من عيدان حشيشة الدينار ، ومحراث ، وركام من العواسج الجافة قرب سياج من الاشجار الشائكة ، وشيء من الكلس يرسل الدخان في حفرة مربعة ، وسلّم ملقاة في محاذاة سقيفة عتيقة ذات مذاود للتبن . كانت فتاةٌ صغيرة تقتلع الاعشاب الضارة من حقل كانت الريح تعبث فيه باعلان كبير أخضر ، لعله كان خاصاً بمسرح متجول يقدم الروايات لمناسبة سوقٍ سنويةٍ ما . وعند زاوية الفندق ، الى جانب مستنقع صغير كان يُبحِر فيه أُسَيطيلٌ من البط ، اقتحم احدُ الازقة المليئة بالاخاديد قلبَ الادغال ، فاضاع فيها نفسه . لقد اتخذ ذلك المسافر هذه السبيل .

وبعد ان خطا مئة خطوة ، مجتازاً بسور يرقى الى القرن الخامس عشر تعلوه واجهة مثلثة حادة الزاوية مشيدة بالآجر المنسّق على نحو يُظهر التضادّ بين اجزائه ، وجد نفسه تجاه باب كبير مبنيّ من حجارة مُقَنْطَرة ، ذي كوّة في اعلاه مستقيمة الاضلاع ، على طراز لويس الرابع عشر الوقور ، يحيط بها من جانبيها نقشان مدوران مستويان .

وفوق هذا الباب كانت واجهة كالحة ؛ وعلى خط عمودي مع الواجهة كان جدار يمس الباب أو يكاد ، ويدعمه بزاوية قائمة مقتضبة . وعلى المرج المنبسط امام الباب انطرحت ثلاث مجارف كبيرة مسنّنة انبثقت من خلالها ، على احسن ما استطاعت ، رياحين نوار كلها . كان الباب موصداً . وكان مغلقاً بمصراعين متداعيين للسقوط ، مزدانين بقارعة عتيقة صدئة .

كانت الشمس فاتنة . وكانت الافنان ترتعش ارتعاشة نوار الرفيقة التي تبدو وكأنها ناشئة عن اعشاش الطير لا عن الريح . وكان طائر متأنق ، لعله ان يكون عاشقاً ، يتغنى بيأس في شجرة عالية .

وتمهل المسافر ، وتأمّل الحجر الذي الى يسار الباب ، قرب الارض ، دارساً تجويفاً كبيراً دائرياً يشبه جوف كرة . وفي تلك اللحظة فُتح مصراعا الباب ، وخرجت منه امرأة ريفية .

وبصُرت بالمسافر ، وأدركت أيّ شيء كان يدرس .

وقالت :

— « إن احدى قذائف المدفعية الفرنسية هي التي فعلت ذلك . »

ثم اضافت :

— « وما تراه هناك ، في مكان أعلى ، في الباب ، قرب أحد المسامير ، هو ثقب احدثته بندقية ضخمة من ذلك النوع المعروف بالبنادق البشكنسية . * إن البندقية لم تستطع ان تخرق الخشب . »

فقال المسافر :

— « وما اسم هذا المكان ؟ »

فقالت الفلاحة :

— « هوغومون . »

ورفع المسافر رأسه . وخطا بضع خطوات ، وأنشأ ينظر من فوق الأسيجة .

---

* نسبة الى مقاطعة « البشكنس » أو « الباسك » في أسبانية .

لقد رأى عند الأفق ، من خلال الاشجار ، شبه أكمة ، ورأى فوق هذه الأكمة شيئاً بدا ، من بعيد ، وكأنه أسد .

كان في ساحة القتال بواترلو .

٢
هوغومون

هوغومون – كانت تلك هي البقعة المشؤومة ، وبدء المقاومة ، وأول عائق لقيه في واترلو حطّاب أوروبة العظيم ذاك ، الذي ندعوه نابوليون . أول عقدة تعترض سبيل الفأس .

كانت حصناً ، أما اليوم فلم تعد اكثر من مزرعة . وكانت هوغومون Hougomont تعرف عند جامعي النفائس الاثرية والمتاجرين بها بـ « هيغومون » *Hugomons* . وكان قد شيد هذا المعقل الاقطاعيّ هوغو ، سيد سوميريل ، وهو نفسه الذي وقف الاوقاف لوظيفة القسّ السادسة في دير « فيلير » .

ودفع المسافر الباب ، ودفر بمرفقه عربة عتيقة كانت تحت مدخلٍ مسقوف ، وتقدّم الى الفناء .

كان أول ما لفت نظره في هذه الساحة باب يرقى الى القرن السادس عشر ، بدا وكأنه قنطرة بعد ان تساقط كل شيء من حوله . إن المشهد الأثري لينشأ في كثير من الاحيان عن الخراب . وقرب القنطرة انفتح باب آخر في الجدار ذو أغلاق * من عهد هنري الرابع يكشف عن اشجار في بستان . والى جانب هذا الباب كانت مزبلة ، ومعاول ، ومجارف ، وبضع عربات من ذوات الدولابين ، وبئر قديمة ببلاطتها وبكرتها الحديدية ، ومُهرٌ يثب ، وديك رومي ينشر ريش زِمكّتِه ،

* جمع غلق ، وهو الحجر الذي تغلق به فجوة رأس القنطرة .

ومعبد يعلوه برج أجراس صغير ، وشجرة إجاص منوّرة معرّشة على جدار المعبد . ذلك هو الفِناء الذي كان احتلاله حُلمَ نابوليون . ولو قد وفق الى الاستيلاء على تلك الزاوية من الارض اذن لكان من الجائز ان تهبه الدنيا كلها . إن ثمة دجاجات تنثر التراب بمناقيرها . وإنك لتسمع زمجرة . ذلك كلب كبير يكشر عن أسنانه ، ويحل محلّ الانكليز .

لقد أبلى الأنكليز بلاء حسناً هناك . إن سرايا الحرس الاربع التي قادها كوك احتفظت بمواقعها سبع ساعات في وجه جيش شنّ عليها هجوماً ضارياً .

وهوغومون ، حين تُرى على مخطّط هندسي ينتظم الابنية والاراضي المسوّرة ، عبارة عن مستطيل غير متّسق بُترت احدى زواياه . في تلك الزاوية يقوم الباب الجنوبي ، يحميه هذا السور الذي يهيمن عليها في مدى البندقية الأقصر . إن لهوغومون بابين : الباب الجنوبي ، وهو باب الحصن ، والباب الشمالي وهو باب المزرعة . ولقد وجّه نابوليون اخاه جيروم لاحتلال هوغومون . لقد سيّرت عليه فِرقَ « غويمينو » * و « فوا » ** و « باشلو » *** ولقد جرّدت الكثرة الكبيرة من قوات « راي » **** ضده ، فهزمت عنده . واستُنفدت قنابل كيلرمان ***** على جزء السور البطوليّ ذاك . وكان قهر هوغومون

---

* Guilleminot جنرال وسياسي فرنسي . (١٧٧٤ – ١٨٤٠)

** Foy جنرال فرنسي (١٧٧٥ – ١٨٢٥) غطى انسحاب الجيش من اسبانية ، وشارك في معركة واترلو وجرح فيها .

*** Bachelu قائد فرنسي من قواد نابوليون الذين شاركوا في هذه المعركة ايضاً .

**** Reille مارشال فرنسة (١٧٧٥ – ١٨٦٠) ابلى بلاء حسناً في واترلو اكسبه مجداً عظيماً .

***** Francois - Etienne Kellermann قائد فرسان فرنسي (١٧٧٠ – ١٨٢٥) توشح بالمجد في معركة مارانغو ثم في معركتي لوتزن وواترلو .

من الشمال اكثر مما يطيقه لواء « بودوين » ؛ ولم توفق فرقة « سوا » الى غير تهديمها من الجنوب . لقد عجزت عن الاستيلاء عليها .

وانما تقوم ابنية المزرعة على الجانب الجنوبي من الفناء . ان جزءاً صغيراً من الباب الشمالي الجنوبي ، وقد حطمه الفرنسيون ، ليتدلى متأرجحاً من السور . انه مؤلف من اربعة الواح خشبية مسمّرة على عارضتين ، حيث يستطيع المرء ان يتبين ندوب * الهجوم .

والباب الشمالي ، الذي استولى عليه الفرنسيون ، والذي اضيفت اليه قطعة جديدة تعويضاً عن المصراع المتدلي من السور ينهض نصف منفتح عند ادني الفناء . لقد فُصّل على شكل مربع في جدار اسفله حجري وأعلاه آجريّ ، يحيط بالفناء من ناحية الشمال . إنه جدار كارّيّ ** بسيط ، كذلك الذي نجده في جميع المزارع الصغيرة ، يتألف من مصراعين ضخمين مصنوعين من الواح غلاظ . ووراء ذلك تنبسط المروج . لقد كان النزاع على هذا المدخل ضارياً . وطوال فترة غير قصيرة كان في إمكان المرء ان يرى ، على قائمة الباب ، بصمات الايدي الدامية على اختلافها . فهناك كان بودوين قد صُرع .

إن عاصفة الصراع لا تزال في هذا الفناء ؛ وان الهول لا يزال مشهوداً هناك . إن الدمار الناشيء عن القتال لمتحجّرٌ في تلك البقعة . هذا يحيا ، وهذا يموت ؛ لكأن ذلك كان بالامس . إن الجدران لتحتَضَر ، وإن الحجارة لتتساقط ، وإن الثُّلم لتصيح . ان الحُفَر جِراحات . وان الاشجار ، وقد انحنت وارتعشت ، تبدو وكأنها تبذل جهدها لكي تفر .

هذا الفناء كان ، في عام ١٨١٥ ، في حالٍ خيرٍ من حاله اليوم .

---

* الندبة : اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد . وجمعها نَدَب . وجمع الجمع ندوب .

** نسبة الى الكارّة وهي عربة الوسق ذات الدولابين ، او ذات الاربعة دواليب .

كانت الابنية التي دُكَّت منذ ذلك الحين تشكّل استحكامات ، وزوايا ، وزوايا مثلثة .

كان الانكليز متحصّنين هناك خلف المتاريس ؛ ووفق الفرنسيون الى اختراق هذه المتاريس ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقعهم الجديد . والى جانب المعبد ، ينهض جناح من الحصن - الاثر الوحيد الباقي من قصر هوغومون الاقطاعي - على نحوٍ منقضّ ، بل ان المرء ليستطيع القول انه ينهض مبقوراً مجرداً من احشائه . لقد اتُّخِذ من الحصن برجاً مركزياً للمقاومة ، واتخذ من المعبد معقلاً خشبياً ذا منافذ لاطلاق النار من البنادق . لقد عمل القوم على ان يُفني بعضهم بعضاً . لقد صُرع الفرنسيون بنيران البنادق تنصبّ عليهم من كل ناحية ، من وراء الاسوار ، من سطوح اهراء الحنطة ، من أغوار الأقبية ، من خلال كل نافذة ، من خلال كل منفذ من منافذ الهواء ، من خلال كل فرجة بين الحجارة ، فحملوا حزم الحطب واحرقوا الاسوار والرجال : لقد اجابوا على نيران البنادق والمدافع بنيران الحريق .

وفي وسع المرء ان يلمح في الجناح الخرب ، من خلال النوافذ المقضّبة بالحديد ، الغرفَ المهدّمة من بناء رئيسي مشيد بالآجر ؛ وكان الحرس الانكليزي يكمن للفرنسيين في هذه الغرف . إن السلّم اللولبية المصدوعة من الاساس الى السطح لتبدو مثل داخل صَدَفةٍ مكسورة . ولتلك السلم منبسَطان . وكان الانكليز ، وقد حوصروا في السلم ، واحتشدوا فوق درجاتها العليا ، قد ازالوا الدرجات الدنيا . وكانت هذه صفائحَ عراضاً من حجر ازرق تُرى الآن مركومةً بين القُرّاص . إن اثنتي عشرة درجة لا تزال عالقة بالسور ، ولقد نُقشت على أولاها صورة خُطّاف ثلاثي الشُّعَب . وهذه الدرجات التي لا سبيل الى بلوغها مكينةٌ في مغارزها ؛ وكل ما بقي يشبه فكاً أدْرَد . * ان ثمة

* الأدرد : من ذهبت اسنانه كلها .

شجرتين هرمتين ؛ احداهما ميتة ، والاخرى جريحـــة الساق ولا تورق الا في نيسان . ومنذ سنة ١٨٥٠ شرعت تنمو عبر السلّم .

ووقعت مذبحة في المعبد . إن الجزء الداخلي ، وقد استعاد سكينته ، لغريب حقاً . فلم يُحتفل فيه بقداس منذ تلك المجزرة . ومع ذلك فلا يزال المذبح قائماً — إنه مذبح من خشب غليظ مُسند الى جـدار من حجر لم تعالجه يد الصناعة . اربعة جدران مبيّضة بمـــاء الكلس ؛ باب مواجهٌ للمذبح ؛ نافذتان صغيرتان مقنطرتان ؛ وعلى الباب تمثال للمصلوب خشبيّ ضخم ، وفوق تمثال المصلوب فتحة مربعة سدّت بحزمة من التبن ؛ وعلى الارض في احدى الزوايا إطار نافذة مزجج قد تكسّر كلـــه : كذلك هي هذه الكنيسة . وقرب المذبح عُلّق تمثـال خشبيّ للقديـة آنّ يرجع عهده الى القرن الخامس عشر . اما رأس يسوع الطفل فكانت قد اطاحت به طلقة بندقية . لقد هيمن الفرنسيون ، لحظةً ، على المعبد ثم أخرجوا منه ، فأضرموا النار فيه . وملأت ألسنة اللهب هذه الخربة المتداعية فأمست اتوناً . لقد اشتعل باب المعبـد ، واشتعلت ارضيته ، ولكن المسيح الخشبيّ لم يشتعل . لقد التهمت النار قدميه اللتين لا نرى منهما بعدُ غير بقية مسودّة ، ثم وقفت عند هذا الحـــد . معجزة — كذلك يقول اهل المنطقة . أما يسوع الطفل ، الذي اقتُطـع رأسه ، فلم يُحالفه الحظ بقدر ما حالف المسيح .

إن الجدران مغطاة بالنقوش . فأمام قدمي المسيح نقرأ هذا الاسم : **هينكينيز** *Henquinez* . ثم نقرأ هذه الاسماء : **الكونت دو ريو مايور** . *Conde de Rio Maïor* . **المركيز والمركيزة دو آلماغرو (هابانا)** *Marques y Marquesa de Almagro (Habana)* وهناك اسماء فرنسية ملحقة بعلامات تعجّب ، إشارة الغضب . لقد بُيّض الجدار بماء الكلس عام ١٨٤٩ . كانت الامم تهين بعضها بعضاً على صفحته .

وعند باب هذا المعبد بالذات التُقطت جثة ممسكةٌ بيدهـــا فأساً .

كانت هي جثة الملازم الثاني ليغروس .

وحين يغادر المرء المعبد يرى الى يساره بئراً . إن في هـــذا الفناء بئرين . وقد تتساءل : لمَ لا يوجد دلو وبكرة لهذه البئر ؟ لأن احداً ما عاد يستقي الماء منها الان . ولكن لمَ لا يستقون الماء منها ؟ لأنها ملأى بالميا كل العظمية .

أما آخر من متح الماء من هذه البئر فكان غيليوم فـان كيلسوم . كان ريفياً يعيش في هوغومون ، وكان بستانياً هناك . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، فرّت أسرته ، واختبأت في الغابات .

وآوت الغابةُ المحيطة بدير « فيلير » هذه الاسرة البائسة المشتتة عدةَ أيام وعدةَ ليالٍ . وحتى اليــوم يُستطيع المرء ان يتبّين بعض الآثار ، من مثل جذوع الاشجار الهرمة المحترقة ، التي تعـــيّن مستقرّ هؤلاء المشردين البائسين ، المرتعدي الاوصال ، في أعماق الأجمة .

وظل غيليوم فان كيلسوم في هوغومون « لكي يحرس الحصن » ، واختبأ في أحد الاقبية . وعثر عليه الانكليز هناك . فانتزعوه من مخبأه . وبوابل من الضربات سُدّدت اليه بعرض السيف اكره الجندُ هذا الرجل المروّع على ان يخدمهم . كانوا عطاشاً ، فجاءهم غيليوم هذا بالمـــاء . وإنما استسقى الماء لهم من هذه البئر . وشرب كثير منهم آخر جرعاتهم . وكان لا بدّ لهذه البئر ، حيث شربت جمهرة من القتلى ، مــن ان تموت هي ايضاً .

وبعد انتهاء المعركة قضت الحاجة بالتعجيل في دفن الجثث . إن للموت أسلوبه في تنغيص النصر على المنتصرين ، فهو يُتبع المجد بالطاعون . والتيفوس ملحق من ملحقات النصر . وهذه البئر كانت عميقة ، فجعلها القوم قبراً . لقد أُلقي فيها ثلاثمئة قتيل . ولعل ذلك كان بأكثر مما ينبغي من السرعة . هل كانوا كلهم امواتــاً ؟ الاسطورة تقول لا . والذي يبدو انه في الليلة التي تلت دفنهم سُمعت اصوات واهنة تنطلق من البئر

مستغيثة .

والبئر معزولة في وسط الفِناء . وانما تحيط بها من جهات ثلاث جدران ثلاثة شُيّد نصف كل منها من حجر ونصفه الآخر من آجرّ ، وتثنّت مثل حجاب واقٍ من الهواء (بارافان) ، مشبهةً برجاً صغيراً مربّعاً . اما الجهة الرابعة فكانت مفتوحة . ومن تلك الجهة كان الناس يمتحون الماء . والجدار الخلفي شبه كوّة لا شكل لها ، ولعلها ثقب ناشيء عن احدى القذائف . ولهذا البُرَيج سقف لم يبق منه غير العوارض الخشبية الضخمة . والحديد الذي يدعم الجدار الايمن على شكل صليب . وتنحني فوق البئر ، فتصِلُ العين في بناء اسطوانيّ آجريّ صيق تملأه اكوام من الظلمات . وحول البئر كلها تختفي الاجزاء الدنيا من الجدران خلف القُرّاص .

وليس يوجد أمام هذه البئر تلك الصفيحة العريضة من الحجر الازرق التي تُصطَنع كحاجز واقٍ في جميع آبار بلجيكة . لقد استعيض عن الحجر الازرق بعارضة تستند اليها خمس قطع او ست قطع خشبية مشوّهة ، كثيرة العقد متصلبة ، تشبه عظاماً ضخمة . لم يبق ثمة لا دلو ، ولا سلسلة ، ولا بكرة . ولكن الحوض الحجري الخاص بالمياه الفائضة لا يزال هناك . إن ماء المطر ليجتمع في هذا الحوض ، وبين الفينة والفينة يفدُ اليه من الغابة المجاورة طائرٌ ما ، فيشرب ، ويتخذ سبيله في الجو .

ان بيتاً واحداً بين هذه الخرائب ، هو بيت صاحب المزرعة ، لا يزال آهلاً بالسكان . وباب هذا البيت ينفتح على الفناء . والى جانب صفيحة جميلة قوطية خاصةٍ بموضع المفتاح من القفل كانت فوق هذا الباب حفنة من حديد مائلة الى امام قُصد بها الى ان تكون حليةً على شكل ورق البرسيم . وفي اللحظة التي امسك فيها الملازم الهانوفري « ويلدا » بهذه الحفنة ليجد ملجأ في المزرعة قطع يده جندي فرنسي بضربة فأس .

وكان البستاني السابق ، فان كيلوم ، الذي توفي منذ عهد طويل ، جَدّ الاسرة التي تحتل هـذا البيت . إن امرأة ذات شعر اشيب تقول لك : « لقد كنتُ هناك . كان عمري ثلاث سنوات . لقد خافت اختي ؛ وهي اكبر مني سناً ، وصرخت . وانتقلوا بنا الى الغابات . لقد كنت بين ذراعي امي . لقد الصقوا آذانهم بالارض لكي يصغوا . اما انا ، فقلدت المدفع ورحت اقول : « بووم ! بووم ! » .

إن احد ابواب الفنـاء ، ذاك الذي يقوم الى اليسار ، ينفتح كما ذكرنا من قبلُ على البستان .

والبستان فظيع . إنه ذو اقسام ثلاثة ، بل ان استطاعة المرء ان يقول إنه ذو فصول ثلاثة . فالقسم الاول حـديقة ، والقسم الثـاني هو البستان ، والقسم الثالث غابة . ولهذه الاقسام الثلاثـة سور مشترك ؛ فالى جانب المدخل تقوم ابنية الحصن والمزرعة ، والى اليسار سياج ، والى اليمين جدار ، والى الوراء جدار ، والجدار الايمن آجريّ ، اما الجدار الخلفيّ فحجريّ . وانما يدخل المرء الى الحديقة اولاً . انهـا منحدرة ، نمت فيها شجيرات عنب الذئب ، وغطّتها النباتات البرية ، وتنتهي بسطيحة فخمة من حجر منحوت ، اعمدة درابزونهـا مزدوجة الثخانة . كانت حديقة جديرة بسيّد عظيم ، نُسّقت على الطراز الفرنسي الاول الذي سبق طراز عصرنا ، ولكنها اليوم خراب وعوسج . ان ركائزها المربعة والمستطيلة تعلوها كُرَات تبدو وكأنها قـذائف مدفعية حجرية . وفي امكاننا ان نحصي ثلاثة واربعين عموداً من اعمدة الدرابزون لا تزال في مواضعها . اما سائرها فمنطرح على العشب . وهي كلهـا تقريباً تتكشف عن خدوشٍ من اثر نيران البنادق . إن عمود الدرابزون المحطم ليظل منتصباً مثل رجل مكسورة .

وفي هذه الحديقة التي هي اشد انخفاضاً من البستان اضطرّ ستة من رجال فرقة المشاة الفرنسية الخفيفة الاولى كانوا قـد دخلوا الى هنـاك

وتعذر عليهم الفرار بعد ان وقعوا في الشرك كما تقع الدبة في وَجْرتها – اضطر هؤلاء الرجال الستة الى ان يخوضوا المعركة ضد سريتين هانوفريتين * كانت احداهما مسلحة بالكاربينات ** واصطف الهانوفريون على طول اعمدة الدرابزون هذه ، وانشأوا يطلقون النار من أعلى. واجابهم المشاة الفرنسيون من ادنى ، وكانوا ستة مقابل مئتين ، وكانوا باسلين لا يقيهم غير شجرات عنب الذئب ، فاحتاجوا الى ربع ساعة لكي يموتوا .

وتُصعّد بضع خطوات ، ومن الحديقة تنتقل الى البستان الحقيقيّ . هناكَ ، في هذه الامتار القليلة المربعة ، صُرع الف وخمسمئة رجل في اقلّ من ساعة . ان الجدار ليبدو مستعداً لاستئناف القتال . وإنّ المرامي *** الثانية والثلاثين التي فتحها الانكليز على مرتفعات متفاوتة من من ذلك الجدار لا تزال هناك . والى جانب المرمى السادس عشر يقوم قبران انكليزيان من الصوان . وليس ثمة من مرامٍ إلا في الجدار الجنوبي ؛ لقد جاء الهجوم الرئيسي من هناك . وهذا الجدار محجوب من الخارج بسياج كبير من الاشجار الشائكة . ووصل الفرنسيون ، معتقدين انهم لن يجدوا في طريقهم غير السياج . فعبروه ، فوجدوا هذا الجدار يعترضهم ، فهو عقبة وهو كمين ، ووجدوا الحرس الانكليزي خلفه ، واذا بالمرامي الثانية والثلاثين تَصبّ عليهم نارها دفعة واحدة – عاصفة من القنابل والرصاص . وتحطمت فرقة « سوا » هناك . لقد بدأت واترلو على هذا النحو .

ومع ذلك فقد تمّ الاستيلاء على البستان . ولم يكن عند الفرنسيين

* نسبة الى هانوفر بالمانية . وكانت في ذلك العهد مملكة مستقلة ، ثم غدت مقاطعة بروسية بعد الحرب النمسوية البروسية (سنة ١٨٦٦) .

** الكاربين carbine ضرب من البنادق القصيرة الخفيفة .

*** جمع مرمى ، ويقصد به هنا تلك الكوة التي تُفتح في جدار الحصن لكي تُطلق منها القذائف .

سلالم للتسوّر ، فتسلقوا الجدار بأظافرهم . لقد حاربوا ، متلاصقي الاجساد ، تحت الاشجار . ولقد نُقع هذا العشب كله بالدماء . وهناك مُحِق فوج من افواج ناسّو * ، عِدّته سبعمئة رجل محقاً خاطفاً . وفي الخارج ، ثُلم السور الذي سُدّدَت ضده وحدتا كيلرمان المدفعيتان ، من أثر القذائف .

وهذا البستان سريع الاستجابة ، شأن غيره من البساتين ، لشهر نوار . ان له براعمه الذهبية واقاحيه الصغيرة . إن العشب هناك عالٍ ؛ وخيل المحراث تَرعى . وان حبال السَّبِيب ** التي تجف عليها الملابس الداخلية لتخترقُ المسافات الفاصلة ما بين الاشجار ، مكرهة المارّة على ان يحنوا رؤوسهم . انك تسير فوق تلك الارض المهملة ، فتسيخ قدمك في أجحار المناجذ *** وفي وسط العشب تلحظ جذع شجرة مقتَلَع الجذور ، منطرحاً على الارض ، ولكنه لا يزال يخضَوْضر . لقد أسند المايجور بلاكمان ظهره الى هذا الجذع وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . وتحت شجرة كبيرة مجاورة سقط الجنرال الالماني ، دوبلا ، وهو من اسرة فرنسية فرّت عند إلغاء براءة نانت **** والى جانبها تماماً تنحني شجرة تفاح هرمة مريضة ضُمّدت بعصابة من التبن والصلصال . وجميع شجرات التفاح تقريباً تتساقط على الارض تحت ثقل

---

* Nassau دويلة المانية ألحقت ببروسية بعد الحرب النمسوية البروسية عام ١٨٦٦ .

** السبيب من الفرس شعر الذنب والناصية .

*** جمع خلد من غير لفظه ، وهو الفأر الاعمى الذي يعيش تحت الارض وليس له عينان ولا أذنان .

**** Edit de Nantes هي البراءة التي اصدرها الملك هنري الرابع ، عام ١٥٩٨ ومنح فيها البروتستانت حق ممارسة شعائرهم الدينية ، ولكن الملك لويس الرابع عشر ألغاها سنة ١٦٨٥ ، وقد ادى هذا الالغاء الى هجرة عدد كبير من البروتستانت الى خارج الاراضي الفرنسية .

الشيخوخة . وليس ثمة واحدة لا تتكشف عن اثر من كُرَة مدفع او طلقة بندقية . إن هياكل الاشجار الميتة العظمية لتكثرُ في هذا البستان . وإن الغربان لتطير على الاغصان . ووراء هذا البستان غابة ملأى بالبنفسج .

مصرع بودوين ؛ إصابة « فوا » بجرح ؛ الحريق ؛ الجزرة ؛ المذبحة ؛ جدولٌ يتكون من دم انكليزيّ ، ومن دم ألماني ، ومن دم فرنسي امتزجت في غضب عارم ؛ بئر مليئة بالجثث ؛ تحطيم سرية ناسو وسرية برونزويك ؛ مصرع دوبلا ؛ مصرع بلاكمان ؛ إصابة الحرس الانكليزي بالتشوّه الجسماني ؛ هلاك عشرين فوجاً فرنسياً من أصل اربعين فوجاً من قوات « راي » ؛ ثلاثة آلاف رجل قتلوا بحدّ السيف ، في طلل هوغومون هذا وحده ، وأثخنوا بالجراح ، وذبحوا ، وصرعوا برصاص البنادق ، وأحرقوا بالنيران ... وكل ذلك لكي يستطيع ريفي أن يقول ، اليومَ ، لأحد السياح : **« سيدي ، أعطني ثلاثة فرنكات ، اذا أحببت ، أشرح لك مسألة واترلو ! »**

٣

١٨ حزيران ، ١٨١٥

فلنرجع الى الوراء ، فذلك حق من حقوق القاصّ ، ولنضع أنفسنا في عام ١٨١٥ ، قبيل تلك الحقبة التي استُهلّت بها القصة التي روِيناها في القسم الاول من هذا الكتاب .

لو ان المطر لم يهطل ليل ١٧ — ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ إذن لكان مستقبل اوروبة قد تغير . إن بضع قطرات من الماء اكثر أو أقل جنحت بنابوليون الى السقوط . فلكيْ تكون واترلو خاتمة اوسترليتز لم تكن العناية الالهية في حاجة الى غير قليل من المطر ، فاذا بسحابة

تجتاز السماء في غير أوانها تكفي لانهيار عالم .

إن معركة واترلو – وهذا ما أعطى بلوخر * فرصة الوصول – لم يكن في الامكان أن تستهل قبل الساعة الحادية عشرة والنصف . لماذا ؟ لان الارض كانت ندية دمثة . وكان من الضروري انتظارها حتى تثبت بعض الشيء لكي تستطيع المدفعية ان تعمل .

كان نابوليون ضابط مدفعية ، وهو لم ينس ذلك قط . وانما كان أساس هذا القائد القدير المعجز هو ذلك الرجل الذي قال في التقرير الذي رفعه الى حكومة الادارة حول ابي قير ** : **« هذه الكرة من كرات مدافعنا قتلت ستة رجال . »** كانت كل خططه الحربية موضوعة للقذائف . وكان تركيز المدفعية على نقطة ما ، هو مفتاح النصر عنده . كان يعامل استراتيجية القائد العدو معاملته لقلعة تشرف على مدينة ، فهو يهاجمها بالمدافع . كان يُغطر النقطة الضعيفة بالقنابل ، وكان يُحكم عقدة المعركة ويحلها بالمدافع . كان ثمة حسن رماية في عبقريته . إن تحطيم القوات المجتمعة في مربعات ، وسحق الكتائب ، وقطع الخطوط ، وتفتيت الحشود وبعثرتها – كل ذلك كان نابوليون يتوسل الى تحقيقه بان يضرب ، ويضرب ، ويضرب من غير انقطاع ، وكان يعهد في اداء هذا الواجب الى قذيفة المدفع . طريقة رهيبة استطاعت ، وقد أردفت بالعبقرية ، ان تجعل من جبار ملاكمة الحرب هذا ، الكالح الوجه ، رجلاً لا سبيل الى قهره طوال خمسة عشر عاماً .

وفي الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ ، اعتمد على مدفعيته

---

* Blücher جنرال بروسي (١٧٤٢ – ١٨١٩) لمع نجمه خلال حملة فرنسة (١٨١٤) . هزمه نابوليون في ليني (١٨١٥) ولكنه وفق الى ان ينجد ولينغتون في واترلو وبذلك رجّح كفته في المعركة ، وكان ميزانها حتى ذلك الحين متأرجحاً بين نابوليون وولينغتون .

** المعركة التي انتصر فيها نابوليون على المماليك عام (١٧٩٩) اثناء الحملة الفرنسية على مصر .

اكثر واكثر لأنه كان يتمتع بالتفوق العددي من هذه الناحية . كان ولينغتون لا يملك غير مئة وتسعة وخمسين مدفعاً ؛ اما نابوليون فكان يملك مئتين واربعين .

ولو قد كانت الارض جافة ، ولو قد تمكنت المدفعية من ان تتحرك ، اذن لكان في إمكان القتال ان يبدأ في الساعة السادسة صباحاً ، واذن لكانت المعركة قد كُسبت واختُتمت في الساعة الثانية ، قبل ساعتين من ترجيح البروسيين كفةَ الميزان .

الى ايّ مدى تقع مسؤولية الانهزام في هذه المعركة على عاتق نابوليون ؟ أينبغي أن يُعزى غرق السفينة الى الربان ؟

هل كان انحطاط نابوليون الماديّ الواضح مصحوباً آنذاك بانحطاط ذهني ما ؟ هل استطاعت العشرون السنة التي قضاها في ميدان القتال ان تُبلي النصل كما أبلت الغمد ، وتوهن الروح كما أوهنت الجسد ؟ هل أحسّ القائد البارع بطيف الجنديّ المسرّح يُطلع رأسه في ذات نفسه على نحو مغضِب ؟ وبكلمة ، هل كانت تلك العبقرية ، كما اعتقد كثير من المؤرخين ، ترزح تحت وطأة الخسوف ؟ هل أخذ بأسباب الغيظ لكي يخفي ضَعفَهُ عن نفسه ؟ هل بدأ يترنح ، ذاهلاً ، في وجه عاصفة مفاجئة ؟ هل أمسى غافلاً — وهو خطأ جسيم يرتكبه جنرال — عن الخطر الذي يتهدده ؟ وفي هذه الطبقة من عظماء الرجال أولي الشأن الذين نستطيع ان ندعوهم عمالقة القتال ، هل ثمة سِنّ تصاب العبقرية فيها بقصر البصر ؟ إن الشيخوخة لا سلطان لها على عباقرة المثل الأعلى . فلأن يتقدم المرء في السنّ يعني ، بالنسبة الى أضراب دانتي وميكال آنجلو ، أن يزداد عظمةً . فهل يعني تقدُّم المرء في السنّ ، بالنسبة الى أضراب هنيبعل ونابوليون ، ان يتخلف في ميدان العظمة ؟ أكان نابوليون قد فَقَدَ حسّ النصر المباشرَ ؟ هل قد أمسى عاجزاً عن ان يتبيّن التهلكة منذ اليوم ، وعن ان يتكهّن بموقع الشَرَك منذ اليوم ، وعن ان

يرى شفا الهاوية المنهار ؟ أكان قد فقدَ القدرة على استرواح الكوارث ؟ أكان نابوليون – وهو الذي عرف في ما مضى جميع مسالك النصر ، والذي كان يوميء اليهـــا ، من أعلى عربته المومضة ، بأصبع ذات سلطان – قد أصيب بذهول كالمع حمله على ان يسوق ركب كتائبه الصاخب الى الهاوية ؟ هل استبدّ به ، في السادسة والاربعين ، خبلٌ رفيع ؟ أكان سائقُ القَدَرِ الجبارُ هذا قد أمسى مجرد متهوّر هائل ؟ لسنا نظن ذلك .

لقد كانت الخطة التي رسمها للمعركة ، باعتراف الجميع ، رائعة من الروائع . أن يزحف مباشرةً الى قلب الخط الحليف ، ويخرق العدوّ ، ويشطره شطرين ، فيدفع الشطر البريطاني الى « هال » * ، ويدفع الشطر البروسي الى « تونغر » * ، ويجعل ولينغتون وبلوخر شقين ، وينتزع « مون سان جان » ، ويستولي على بروكسل ، ويلقي بالألمـــاني في الراين ، ويقذف بالانكليزي الى البحر . كل ذلك كان ، عند نابوليون ، منطوياً في هذه المعركة . اما ما ينشأ عن هذا ففي ميسور كل امريء أن يراه .

وليس من ريب في انا لا نعتزم أن نقدّم ، هنا ، تاريخ واترلو . إن المشاهد التي أدت الى نشوء المأساة التي نرويها تتصلُ بهـذه المعركة ، ولكن هذا التأريخ للمعركة ليس موضوعنا . والى هذا فقد رُوي ذلك التاريخ ، وعلى نحو أستاذيّ بارع . رواه نابوليون ممثلاً وجهـة نظر ، وروته جمهرة من المؤرخين * ممثلةً وجهة نظر اخرى . اما نحن فسنترك المؤرخين يتنازعون . نحن لسنا غير شاهد من بعيد ؛ غير عابر يتخذ سبيله في السهل ؛ غير طالب منحنٍ فوق هذه الارض المعجونة باللحم البشري ،

* « هال » و « تونغر » من اعمال بلجيكة .

* هم والتر سكوت ، لامارتين ، فولابيل ، شارا ، كينيه ، تيير [هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي] .

ولعلنا ان نخدع عن نفسنا فنحسب المظاهر حقائق . وليس من حقنا ان أن نقاوم ، باسم العلم ، مجموعة من الحقائق لا ريب في ان فيها شيئاً من الوهم . وليس عندنا لا الخبرة العسكرية ولا المقدرة الستراتيجية التي تجيز لنا ان نفترض مذهباً منتسق الاجزاء . والذي نراه ان سلسلة من المصادفات هيمنت في واترلو على قائدي الجيشين . وحين يكون الكلام على القَدَر ، هذا المتهَم الخفيّ ، نحكم مثل الشعب ، ذلك القاضي الساذج .

٤

A

ليس على اولئك الذين يرغبون في ان يتصوروا ، بوضوح ، معركة واترلو إلا ان يطرحوا على الارض ، في اذهانهم ، حرف A مرسوماً بصورته الكبرى * فالقائمة اليسرى من الـ A هي الطريق من نيفيل ، والقائمة اليمنى هي الطريق من جيناب ، والقاطعة الموصلة ما بين قائمتي الـ A هي الطريق الغائرة من اوهين الى برين لالو . وقمة الـ A هي « مون سان جان » ؛ إن ولينغتون هناك . والنقطة السفلى من الذراع اليسرى هي هوغومون ؛ إن « راي » هناك مع جيروم نابوليون . اما النقطة السفلى من الذراع اليمنى فهي « لا بيل آليانس » ؛ ان نابوليون هناك . وتحت النقطة التي تلتقي فيها قاطعة الـ A بالقائمة اليمنى وتخترقها – تحت هذه النقطة بقليل تقع « لا هاي سانت » . في حين ان منتصف هذه القاطعة هو على وجه الضبط ، النقطة التي قيلت فيها كلمة المعركة الاخيرة . وهناك وُضع الأسد ، الرمز اللاإراديّ لبطولة الحرس الامبراطوري السامية .

---

* اي majuscule كما يعبر الفرنسيون .

والمثلث الذي تشتمل عليه قمة الـ A ، بين القائمتين والقاطعة ، هو نجدُ « مون سان جان » . كان الصراع على هذا النجد هو كلُّ المعركة .

وانتشر جناحا الجيشين الى يمين الطريقين من جيناب ومن نيفيل والى يسارهما . فاذا بـ « ديرلون » * يواجه « بيكتون » ** ، واذا بـ « راي » يواجه « هيل » ** .

وخلف رأس الـ A ، خلف نجدِ « مون سان جان » ، تقع غابة سوانْيِي .

أما فيما يتصل بالسهل نفسه فينبغي ان نتخيل رقعة من الارض واسعةً متموجة وكل ثنيٍ يشرف على الثني الذي يليه ، وجميع هذه التموجات تصعّد نحو « مون سان جان » ، وتنتهي ثمةَ الى الغابة .

والجيشان العدوّان في ساحة القتال اشبه ما يكونان بمصارعين . إن اذرعهما موثقة . وان احدهما ليحاول ان يطرح الآخر ارضاً . إنهما يتشبثان بكل شيء . فالدَّغل نقطة ارتكاز ، وزاوية الجدار متراس ؛ لأن الموقع السيء التحصين اذا استندت اليه كتيبةٌ ما ، زلّت بها القدم. إن انخفاضاً في السهل ، وحركة من حركات التربة ، وان زقاقاً معترضاً ملائماً ، وإن غابة من الغابات ، وشِعْباً من الشعاب قد تُثبّت عقِب هذا العملاق الذي ندعوه جيشاً ، وتنجيه من السقوط . ومن يغادر الميدان فذاك هو المهزوم . ومن هنا كان حتماً على القائد المسؤول ان يفحص اصغر باقة من العشب ، وان يُنعم النظر في اكثر النتوءات ضآلة .

وكان كل من القائدين قد درس ، في عنايةٍ ، سهل « مون سان جان » الذي ندعوه اليوم سهل واترلو . وكان ولينغتون ، بحكمة

---

* Drouet d'Erlon مارشال فرنسة (١٧٦٥ – ١٨٤٤) وقد ابلى بلاء حسناً في معركة واترلو .

** Picton و Hill من القادة الانكليز الذين شاركوا في معركة واترلو .

متبصِّرة ، قد درس هذا السهل في السنة المنصرمة ، بوصفه موقعاً يمكن ان تدور فيه رحى معركة عظيمة . وعلى هذه الارض ، ومن اجل هذه المبارزة كان ولينغتون في الجانب الافضل ، وكان نابوليون في الجانب الاسوأ . كان الجيش الانكليزي في الجزء الاعلى من الارض ، وكان الجيش الفرنسي في الجزء الادنى منها .

وانه ليكاد يكون سطحيـــاً ان نرسم هنا رسماً تخطيطيـــاً صورة نابوليون ممتطياً صهوة جواده ، والمنظار في يده ، فوق رابية روسّوم ، فجرَ اليوم الثامن عشر من عام ١٨١٥ . فقبل ان نومئ اليه كان الناس كلهم قد رأوه . إن هذا الوجه الجانبي الهادئ تحت القبعة الصغـــيرة الخاصة بمدرسة بريين ً * ، وهـــذا الثوب العسكري الاخضر ، وجانب المدالية الابيض الذي يحجب النجوم على صدره ، والمعطف الرمادي الذي يحجب الكتافتين ** ، وزاوية العصابة الحريرية الحمــراء تحت الصدرة ، والبنطلون الجلديّ ، والجواد الابيض بسرجه المخملي الارجــواني المزدانة زواياه بحروف N *** متوجة وبنسور ، وحـذاء الفرسان العالي الساق فوق جورب من حرير ، والمهامز الفضية ، وسيف مارانغو **** — إن هذه الصورة الكاملة للقيصر الأخير لتعيشُ في المخيّلات كلها ، يصفق لها نصف العالم ، وينظر اليها نصفه الآخر في عبوس .

لقد غُمِرت هذه الصورة ، دهراً طويـلًا ، بالضياء ، ولقـد ران عليها قتامٌ تقليديّ يُلمّ بمعظم الابطال ، ويحجب الحقيقة دائمـاً الى حين

* Brienne - le - Château بلدة فرنسية كان فيها ، خلال القرن الثامن عشر ، مدرسة حربية درس فيها نابوليون .

** الكتافة كلمة اصطنعناها لتؤدي معنى épaulette وهي ، هنا ، ما يكـون على كتف الجندي من زينة .

*** هو كما لا يخفى الحرف الاول من اسم نابوليون بالرسم الفرنجي .

**** Marengo قرية ايطالية جرت فيها معركة شهيرة انتصر فيها نابوليون على القوات النمسوية (١٤ حزيران ١٨٠٠)

قد يطول وقد يقصر . أما اليوم ، فالتاريخ مشرق وكامل .

إنّ ضوء التاريخ هذا لا يرحم . إن له هذه الخاصة الغريبة الالـهية وهي : أنه مهما يكن مشرقاً ساطعاً ، بل لانه على وجه الدقة مشرق ساطع ، يلقي ظلّاً حيث نرى الشعاع تماماً . إنه يجعل من الرجل الواحد طيفَيْن مختلفين ، فيهاجم احدهما الآخر ويقتصّ منه ، وتتصارع ظلمة الطاغية مع بهاء القائد العسكري . ومن هنا ينشأ مقياس أصحّ لأعطاء الحكم الاخير حول قيمة الشعوب . فبابل المنتَهَكة تضعُ من قَدْر الاسكندر ؛ وروما المثقَلَة بالاغلال تضع من قَدْر قيصر ؛ وبيت المقدس الذبيحة تضع من قدر تيطوس . ان الطغيان يتبع الطاغية . ومن تعاسة المرء ان يخلّف وراءه ظلمةً لها شكلُه هو .

٥

«الشيء المظلم» في المعارك

إن الناس جميعاً يعرفون وجه هذه المعركة الاول ؛ يعرفون البداءة العسيرة ، الغامضة ، المترددة ، المهددة لكل من الجيشين ، وإن يكن تهديدها للانكليز أشدّ من تهديدها للفرنسيين .

كان المطر قد هطل طوال الليل ؛ وكان قد جعل الارض دمثة لينة . كانت المياه مجتمعة ههنا وههناك في تجاويف السهل وكأنها في احواض ؛ وفي بعض المواطن غرقت الدواليب حتى المحاور . وكانت السيور المطوّقة بطون الخيل تقطر وحلاً سائلاً . ولو لا الحنطة والجاودار اللذان نشرتها جمهرة من العربات المنطلقة ، فملأ أثلام الارض وأقام مهاداً تحت الدواليب ، اذن لكانت كل حركة ، وبخاصة في الاودية الواقعة نحو بابيلوت ، أمراً متعذراً .

وابتدأ القتال في ساعة متأخرة . كان من عادة نابوليون ، كما شرحنا ، أن يمسك بكامل مدفعيته في يده وكأنها مسدس ، مصوباً النيران الى هذه النقطة من المعركة حيناً ، والى تلك النقطة حيناً . وكان قد رغب في الانتظار حتى تتمكن مدفعية الميدان من ان تجري وتعدُوَ في حرية . ولكي يتم ذلك كان يتعين على الشمس ان تبرز وتجفف التربة . ولكن الشمس لم تبرز . إنه الآن في ساحة غير ساحة اوسترليتز . وحين أطلقت النار من المدفع الاول نظر القائد الانكليزي ، كولفيل ، الى ساعته ، ولاحظ انها كانت الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين .

واقتتحت المعركة بهجوم ضارٍ ، ولعله ان يكون اشدّ ضراوة مما كان الامبراطور يودّ ، شنّه الجناح الفرنسي الايسر على هوغومون . وفي الوقت نفسه هاجم نابوليون الوسطَ ملقياً لواء « كيبوت » على « لا هاي سانت » ، وزحف « ني » بالجناح الفرنسي الايمن على الجناح الانكليزي الايسر المستند الى بابيلوت .

وكان في الهجوم على هوغومون شيء من المخادعة . لقد رمى الى استدراج ولينغتون الى هناك وحمله على الانحراف نحو الشمال — تلك كانت الخطة . ولقد كان خليقاً بتلك الخطة ان تنجح لو لم تثبت سرايا الحرس البريطاني الاربع ، والبلجيكيون الشجعان من فرقة « بيربونشية » في مراكزهم ثباتاً عنيداً ، وبذلك وفروا على ولينغتون حشد قواته في تلك النقطة ، ومكنوه من أن يكتفي بمدّهم باربع سرايا اضافية من الحرس وبفوج من افواج بروتزويك ليس غير .

أما هجوم الجناح الفرنسيّ الايمن على بابيلوت فكان مقصوداً به ان يسحق الجناح الانكليزي الايسر ، ويقطع طريق بروكسل ، ويصدّ البروسيين عن سبيلهم اذا ما أقبلوا ، ويستولي على « مون سان جان » ، وان يردّ ولينغتون كرة أخرى الى هوغومون ، ومن هناك الى برين لالو ، ومن هناك الى « هال » . لم يكن ثمة ما هو أوضح من ذلك .

وباستثناء بعض الاحداث الثانوية ، تكلل هذا الهجوم بالنجاح . لقـــد انْتزعت بابيلوت ؛ ولقد احتُلت « لا هاي سانت » .

وهنا مسألة ينبغي ان ننصّ عليها . كان بين المشاة الانكليز ، وبخاصة في فوج كمبت ، عدد كبير من الجندين الجدد . ولقد تكشّف هؤلاء الجنود الفتيان أمام رجّالتنا الرهيبة عن بطولة . ذلك ان قـلة تمرّسهم حملتهم على ان يسلكوا في القتال مسلكاً باسلاً . ولقد أدّوا خدمة ممتازة ، على الخصوص ، بوصفهم مناوشين . والجندي حين يكون مناوشاً يُترك وشأنه الى حد ما ، ويصبح اذا جاز التعبير قائدَ نفسه . لقد أظهر هؤلاء الجندون الجدد شيئاً من الابتداع والجيّشان الفرنسيين . لقد تكشّف هؤلاء الرجّالة الاغرار عن حماسة . وأغضب ذلك ولينغتون .

وبعد الاستيلاء على « لا هاي سانت » تأرجحت المعركة .

إن في ذلك اليوم ، من الظهر حتى الساعة الرابعة ، فترةً غامضة . فمنتصف هذه المعركة يكاد يكون غير واضح ، وهو يشارك القتال في إظلامه. كانت الشمس تجنح الى الغروب ، وكان في مسورك أن تلحظ تقلقلاً واسعاً في هذا الضباب الكثيف ؛ وسراباً باعثاً على الدّوار ، وادوات حربية تكاد تكون غير معروفة اليوم ، و « القلابق » * المتوهجة ، والجيوب الجلدية المنسدلة المتصلة بمناطق السيوف ، والحِمالات المتصالبة ، والصناديق المثقلة بالقذائف ، والملابس العسكرية الخاصة بقوات الفرسان الخفيفة ، والاحذية الحمراء العالية الساق ذوات الألف ثنية ، والقلانس الثقيلة المكللة بالاهداب الحلزونية الشكل ، ورجّالة برونزويك الذين يكادون ان يكونوا سوداً ، ممتزجين برجّالة انكلترة القرمزيين ؛ والجنود الانكليز وعلى اردانهم وسائد دائرية كبيرة بيضاء بدلاً من الكتافات ، والفرسان الهانوفريين بقلانسهم الجلدية المستطيلة ذات العصائب النحاسية والأعراف

* جمع قلبق ، وهو لباس الرأس التركي المعروف . وقد وردت الكلمة هكذا في الاصل الفرنسي colbacks

المصنوعة من السيب الاحمر ، والاسكتلنديين بُركبهم العارية ، واورديتهم ذات المربعات ، وساقيّات ، رماة قنابلنا * العريضة البيضاء ؛ لوحات فنية ، لا خطوط استراتيجية ، فهي في حاجة الى سلفاتور روزا ** لا إلى غريبوفال ***

ان مقداراً ما من العاصفة ليمترج دائماً بالمعارك الحربية *Quid obscurum quid divinum* . **** وكل مؤرخ يرسم الملامح التي تروق له في هذا المرج والمرج . ومهما تكن تدابير القادة العسكريين من اجل الفوز فان لتصادم الحشود المسلحة ردّاتٍ لا سبيل الى احصائها . فعند القتال تتداخل خطّتا القائدين احداهما في الاخرى ، وتتشوّه احداهما بالاخرى . إن هذه النقطة من ميدان القتال تلتهم عدداً من المحاربين اعظم من ذلك الذي تلتهمه تلك النقطة ، كما تتشرب التربة الماء على نحو اسرع او ابطأ تبعاً لطاقتها الاسفنجية . فانت مضطر الى ان تصبّ هناك مقداراً من الجنود أكبر مما ترغب فيه . نفقاتٌ لم تكن متوقعة . ان خطّ القتال ليتموج ويتلوى كالخيط ؛ وان سيولاً من الدم لتجري على نحو غير منطقي ؛ وان جبهات الجيوش لتتراوح ؛ وان السرايا الخائضة الميدانَ او المنسحبة منه لتُحدث رؤوساً وخلجاناً ؛ كل هذه المهالك تتذبذب ، واحدة في وجه الاخرى ، على نحو موصول . فحيث كانت الرّجالة ، تُقبل المدفعية ؛ وحيث كانت المدفعية ، تندفع الخيالة ؛ وما الافواج المقاتلة غير دخان . لقد كان شيء ما ، هناك . إبحث عنه ؛ لقد ولّى.

---

* الساقية كلمة وضعناها لما يعرف بـ « الطاق » او لفافة الساق (guêtre)

** Salvator Rosa رسام من نابولي ، ونقاش ، وشاعر ، وموسيقي (١٦١٥ – ١٦٧٣) وقد اشتهر برسم المعارك والمواقع الحربية .

*** Gribeauval جنرال مدفعي فرنسي (١٧١٥ – ١٧٨٩) ابتكر طرازاً من المدافع تفوقت بفضله المدفعية الفرنسية على مدفعيات سائر الجيوش الاوروبية في مطلع عهد الثورة .

**** تعبير لاتيني معناه : شيء مظلم ، شيء الٓهي .

إن فجوات الغابة لتنتقل من مكان الى مكان ، وان التغضنات القـــائمة لتتقدم وتتراجع ، وان ضرباً من ريح القبور ليندفع الى امام ، ويرتد الى وراء ، وينفخ ويبدّد هـــذه الجموع الفاجعة . ما القتـــال الذي تتلاحم فيه الاجساد ؟ انه ذبذبة . ان الخطة الرياضية الجـــامدة لتروي قصةَ دقيقةٍ واحـــدة لا قصة يوم كامل . وتصوير معركة ما ، يحتـــاج الى اولئك الرسامـــين الجبابرة الذين تنطوي ريشتهم عـلى هيولى * إن وامبرانت ** خير من فان در مولن *** . ان فان در مولن ، الدقيق عند الظهر ، يكذب في الساعة الثالثة . الهندسة تخدع ؛ والأعصار وحده هو الصادق . وهذا ما يعطي فولار**** الحق في ان يناقض بوليبيوس ***** وينبغي أن نضيف أن ثمة دائماً لحظةً معينة تنحطّ فيها المعركة الى ضرب من المبارزة ، وتنزع الى تجزئـــة نفسها ، وتتوزّع الى تفاصيل تتصل — اذا استعرنا تعبير نابوليون نفسه — « بسيرة الافواج ، اكثر مما تتصل بتاريخ الجيش . » وواضح ان للمؤرخ ، في هذه الحـــال ، الحقّ في الاختصار . إنه لا يستطيع ان يضع يـــده على غير خطوط الصراع الرئيسية . ولم يقيّض قط لأيما راوية ، مهما يكن حيّ الضمير ، ان يحدد على نحو مطلق شكلَ هذه السحابة الرهيبة التي ندعوهـا معركة . وهذا ، الذي يصحّ في جميع الاصطدامات الكبيرة المسلحة ، ينطبق

---

* الهيولى (chaos) اختلاط عناصر المادة في اوائل الكون .

** Rembrandt الرسام الهولندي المشهور (١٦٠٦ - ١٦٦٩)

*** Van Der Meulen رسام من الفلاندر (١٦٣٤ — ١٦٩٠) ، رسم المعارك التي وقعت خلال عهد الملك لويس الرابع عشر .

**** Jean - Charles Folard خبير فرنسي في شؤون الحرب (١٦٦٩-١٧٥٢) وله كتاب علق فيه على تاريخ بوليبيوس الذي يشير اليه المؤلف ، وهو بعنوان تعليقات عـــلى بوليبيوس Commentaires sur Polybe .

***** Polybe مؤرخ اغريقي (توفي حوالى سنة ١٢٥ ق.م) ويعتبر كتابه « التاريخ» الذي يقع في اربعين مجلداً من ذخائر التراث القديم الكبرى .

علي واترلو بخاصة .

وايآً ما كان ، فعند الأصيل ، في لحظة ما ، تحدّدت المعركة .

٦

الساعة الرابعة بعد الظهر

حوالى الساعة الرابعة كان وضع الجيش الانكليزي حرجـاً . كان البرنس اوف اورانج يقود القلب ، وكان « هيل » يقود الجناح الايمن ، وكان « بيكتون » يقود الجناح الايسر . وصاح البرنس اوف اورانج ، في يأس وجراءة ، مخاطباً القوات الهولندية البلجيكية : « **ناسّو ! برونزويك ! لا تتراجعوا قط !** » كان « هيل » قد ارتدّ ، وقد استبدّ به الاعياء ، متوكئاً على قوات ولينغتون . وكان « بيكتون » قد قضى نحبه . ففي اللحظة التي انتزع فيها الانكليز الراية رقم ١٠٥ من الفرنسيين قتل الفرنسيون الجنرال بيكتون بقذيفة اخترقت رأسه . وبالنسبة الى ولينغتون كانت للمعركة نقطتا ارتكاز : هوغومون و « لا هاي سانت » . كانت هوغومون لا تزال صامدة ، ولكنها تحترق . وكانت « لا هاي سانت » قد سقطت . ومن الفوج الألماني الذي دافع عنها ، لم يبق على قيد الحياة غير اثنين واربعين رجلاً ؛ كان جميع الضباط ، ما خلا خمسةً ، قد قُتلوا أو أُسروا . لقد ذُبح ثلاثة آلاف مقاتل في مخزن الحبوب ذاك . وكان رقيبٌ في الحرس الانكليزي ، مصارع انكلترة الاول الذي اشتهر عند رفاقه بالرجل الذي لا يُجرَح ، قد قُتِل بيد طبّال فرنسي ضئيل الجسم . كان « بيرينغ » قد زُحزح عن موقعه ، وكان « آلتن » قد ضُرب بحدّ السيف .

كانت رايات كثيرة قد فُقدت ، احداها خاصةً بفرقة « آلتن » ،

والاخرى خاصة بفوج « لونبورغ » * وكان يحملها أمـــير من أسرة « دو بون » . ولم يبقَ احدٌ من الاسكتلنديين الرماديين . وكانت خيالة بونسوني الثقيلة قد مُزّقت إرْباً إرْباً . وإنما انسحب هؤلاء الفرسان الشجعان في وجه رمّاحة « برو » وداوعي « ترافير » . ومن خيلهم الألف والمئتين لم ينجُ غير ستمئة . ومن ثلاثة عقداء طُرح عقيدان اثنان ارضاً ، فأما هاملتون فكان جريحاً ، وأما « ماتر » فكان صريعاً . وكان بونسوني قد سقط ، بعد ان مزقته سبع طعنات من احد الرماح . كان « غوردون » ميتاً ، وكان « مارش » ميتاً . لقد حُطّمت فرقتان اثنتان ، هما الفرقة الخامسة ، والفرقة السادسة .

واذ استسلمت هوغومون ، وانتُزعت « لا هاي سانت » لم يبق ثمة غير عقدة واحدة ، القلب . كانت هذه العقدة لا تزال صامدة ، وكان ولينغتون يدعمها بالامداد . لقد استدعي « هيل » الى هناك ، وكان في « ميرب براين » ، واستدعى « شاسيه » وكان في « برين لالو » .

كان قلب الجيش الانكليزي ، المقعّر بعض الشيء ، الكثيف جداً ، المحُكم جداً ، يحتلّ موقعاً منيعاً . لقد احتل نَجْدَ « مون سان جان » وقد قامت القرية وراءه ، وقام المنحدر أمامه ، وكان شديد التحدر آنذاك . وفي المؤخرة ، كان يتكىء على هذا البيت الحجري الحصين ، الذي كان وقتئذ من ممتلكات الدولة في نيفيلّ والذي كان يميز ملتقى الطرق : بناء يرقى الى القرن السادس عشر ، وطيد الى درجـــة جعلت قذائف المدافع تنبو عنه من غير ان تصيبه بأذى . وحوالى النجد كله كان الانكليز قد شذبوا الأسيجة هينا وهيناك ، جاعلين فُرَجاً بـــين الزعرور ، مقحمين فم مدفع بين غصنين ، محدثين في الادغال كوىً يتمترسون خلفها . كانت مدفعيتهم في المكمن الواقع تحت الأجمة . وكان هذا العمل الغادر المباح ، من غير شك ، في الحرب التي تجـــيز

* Lunebourg مدينة بروسية في هانوفر .

َنصب الأشراك ، متقناً الى درجـــة جعلت هاكسو * الذي وجّهه الامبراطور في الساعة التاسعة صباحاً لكي يستكشف مدفعية العدو لا يرى منها شيئاً ، فانقلب الى نابوليون ليقول له إنـــه لم يكن ثمة عائق غير المتراسين اللذين يعترضان طريقي « نيفيل » و « جيناب » . وانما جرى ذلك في الايام التي تبلغ فيها سنابل القمح ارتفاعاً حسناً . فعنـد حافة النجد جثم فوج من لواء « كمبت » ، هو الفوج الخامس والتسعون المسلّح بالكاربينات ، وسط القمح العالي .

واذ تمتّع قلبُ الجيش الانكليزي الهولندي بهذه الحماية وهـذا السناد فقد كان في موقع منيع .

وكان الخطر على هذا الموقع يتمثّل في غابة سوانيْ التي كانت ملاصقة آنذاك لساحة القتال ، والتي كان يشطرها مستنقعا غروندال وبواتسفور . فلم يكن في وسع الجيش ان يتراجع هناك من غير ان يتشتت شمـــله ويُمنى بالهزيمة . كانت الكتائب جديرة بأن تتفسّخ في الحال ، وكانت المدفعية خليقة بأن تضيع في المستنقعات . كان التراجع ، في رأي كثير من أهل الصناعة الحربية ـ يخالفهم في ذلك آخرون ، من غير شك ـ يعني الهزيمة التي لا تبقي ولا تذر .

وأمدّ ولينغتون هذا القلب بلواء من ألوية « شاسيه » جيء به من الجناح الايمن ، وآخر من ألوية « وينك » جيء به من الجناح الايسر بالاضافة الى فصيل كلينتون . ودعّم قواتـه الانكلـــيزية ، وسرايا « هالكيت » ، ولواء « ميتشيل » ، وحرس « مايتلند » برجّالة «برونزويك» ، ومجنّدي « ناسو » ، وهانوفريي « كيلمانسيغ » ، وألمان « أومبتيـدا » .
كان الجناح الايمن ، كما يقول شارّا ** ، قد أُميلَ الى ما وراء القلب .

---

* Haxo جنرال ومهندس عسكري فرنسي (١٧٧٤ – ١٨٣٨)

** Charras كولونيل فرنسي (١٨١٠ – ١٨٦٥) وضع عام ١٨٥٧ كتاباً هاماً عن معركة واترلو .

وُقنّعت وحدةٌ مدفعية هائلة باكياس رمل حيث يقوم اليوم ما يدعى بـ « متحف واترلو » . وكان عند ولينغتون بالاضافة الى هـذا ، وفي منخفض من الارض ، حرس « سومرست » الخيالة ، وعـدّتهم الف وأربعمئة . وكان هؤلاء يؤلفون النصف الآخر من سلاح الفرسان الانكليزي ذاك ذي الشهرة البعيدة التي يستحقها أحسن استحقاق . لقد قضي على بونسونبي ، ولكن سومرست كان لا يزال هناك .

وكانت الوحدة المدفعية ، الجدير بها لو أتمّت ان تكون متراساً تقريباً ، مُعَدّةً خلف جدار حديقة شديد الانخفاض . وقد غُطّيَت على عَجَل باكياس الرمل ، وبمنخفض من الارض كبير . ولكن هذا العمل لم يتمّ . انهم لم يجدوا متسعاً من الوقت لتسييجه .

كان ولينغتون قلقاً ولكنه ثبت الجنان ، وكان ممتطياً صهوة جواده . وقد ظل هناك طوال النهار ، محتفظاً بالوضع نفسه ، امام مطحنة « مون سان جان » القديمة التي لا تزال قائمة ، وتحت شجرة دردار اشتراها منذ ذلك الحين رجل انكليزي ، من المولعين بتخريب الآثار القديمة ، بمئتي فرنك ، وقطعها وذهب بها . كان ولينغتون باسلاً على نحو خالٍ من الشعور . لقد انهمرت القذائف انهمار المطر . وكان غوردون ، الضابط العامل في خدمته ، قد صُرع اللحظةَ الى جانبه . وأراه اللورد « هيل » قنبلة صغيرة منفجرة وقال : « ما هي تعليماتك ، ايها اللورد ، وما الاوامر التي تتركها لنا اذا ما سمحت لنفسك بان تُقتَل ؟ » فاجابه ولينغتون : « أن تنسجوا على منوالي . » وقال لـ « كلينتون » في ايجاز : « **اصمدوا هنا حتى الرجل الاخير .** » كان واضحاً ان كفة الفرنسيين آخذة في الرجحان ، فصاح ولينغتون برفاقه القدماء في

تالافيرا * وفيتوريا ** وسالامانكة *** : « ايها الغلمان ! يجب ان لا تُهزم ! فكروا بانكلترة العجوز ! » .

وحوالى الساعة الرابعة ترنح الخط الانكليزي الى الوراء . وفجأة لم يُرَ على ذروة النجد غير جنود المدفعية ومطلقي النار بتواتر ، اما الباقون فقد اختفوا . كانت كتائب الجند قد تقهقرت في وجه قنابل الفرنسيين وقذائفهم ، وارتدت الى واد لا يزال يقطعه الى اليوم ممرّ الابقار في مزرعة « مون سان جان » . وحدثت حركة تراجعية ، فقد كانت جبهة القتال الانكليزية تنهار . ورجع ولينغتون القهقرى .

وصاح نابوليون :

– « لقد بدأت الهزيمة ! »

٧

نابوليون طلق المحيا

ولم يكن الامبراطور ، برغم مرضه وتضايقه فوق صهوة جواده من ألم محليّ ، طلق المحيا في يوم من الايام باكثر مما كان في ذلك النهار . فمنذ الصباح وأسارير وجهه الغامضة تفترّ عن ابتسامة . ان تلك النفس العميقة المقنّعة بالرخام اضاءت من غير تبصّر في الثامن عشر من حزيران، ١٨١٥ . وإن الرجل الذي كان كالح الوجه في أوسترليتز ، كان جذلان

---

* Talavera مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين عام ١٨٠٩

** Vittoria مدينة اسبانية ايضاً انتصر فيها ولينغتون على القوات الفرنسية في ٢١ حزيران عام ١٨١٣

*** Salamanque مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون ايضاً على القوات الفرنسية ، سنة ١٨١٢

في واترلو . إن اكبر الرجال الذين اختارهم الله العظائم يتكشّفون عن هذه المتناقضات . ولكن مباهجنا يظللها القتام . فالابتسامة الكاملة لله وحده .

« يضحك قيصر ، ويبكي بومبيوس » Ridet Caesar, Pompeius flebit ذلك ما قاله رجال الفرقة المعروفة بفرقة الـ « فولميناتريكس » * إن بومبيوس ما كان ينبغي له هذه المرة ان يبكي ، ولكن من الثابت ان قيصر قد ضحك .

منذ الليلة البارحة ، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، بينما كان يرود – على صهوة جواده ، في قلب العاصفة وتحت المطر ، والى جانبه برتران – تلك الكثبان المجاورة لـ « روسوم » وقد أبهجه ان يرى خط النيران الانكليزية الطويل يضيء الأفق من « فريشمون » الى « برين لالو » – منذ تلك الليلة ، بدا له ان القدَر الذي عيّن له هو موعداً في يوم معلوم فوق ساحة واترلو هذه ، قد أقبل في الموعد المضروب . لقد اوقف جواده ، وظلّ فترةً من الوقت جامـــداً لا يتحرك ، يراقب البرق ويصغي الى الرعد . وقد سُمِـع هذا القدَري ينطق في غمرة الظلام بهذه العبارة الخفية : « نحن متفقان » . لقد خُدع نابوليون . إنهما ما عادا ، بعدُ ، متفقَيْن .

لم تكن عيناه قد أغمضتا دقيقة واحدة . لقد حملت اليـه كلّ لحظة من لحظات تلك الليلة بهجةً جديدة . وكان قـــد طاف بخطّ الحرس الامامي كله ، ووقف هنا وهناك ليتحدث الى الفرسان المكلفين بالحراسة . وعند الساعة الثانية والنصف ، قرب غابة هوغومونت ، سمع وقع خطى كتيبة تسير . وخيّل اليه لحظةً ان ولينغتون ينكص على عقبيه . وقال : « إنه حرس المؤخرة الانكليزي يشرع في الرحيل . سوف أأسر الستة آلاف انكليزي الذين وصلوا الان الى اوستاند » . وتحدّثَ في غير ما تحفّظ .

* légion Fulminatrix

لقد استعاد توقّد الذهن ذاك الذي أبداه يوم هبط البرّ في أول آذار ، حين لفت نظر المارشال الكبير الى فلاّح خليج جوان المتحمس ، صائحاً : « حسناً ، برتران * ، ها قد عثرنا على المدَدَ من اول الطريق ! » وفي ليل ١٧ حزيران تندّر على ولينغتون ، فقال : « هذا الانكليزي الضئيل الجسم في حاجة الى ان يتلقّى درساً ! » وتضاعف المطر . وقصف الرعد فيما كان الامبراطور يتكلم .

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً تبدّد وهمٌ من أوهامه . فقد أعلمه بعض الضباط الذي وُجّهوا للاستكشاف أن العدوّ ما كان يأتي باي حركة . إن شيئاً ما ، لم يتحرك ، وإن ناراً من نيران المعسكر لم تُطفأ . كان الجيش الانكليزي نائماً . وكان الصمت العميق يخيم على الارض . لم يكن ثمة ضجة ما ، إلا في السماء . وعند الساعة الرابعة جاءه الكشافون بأحد الفلاحين . وكان هذا الفلاح قد عمل دليلاً مرشداً لأحد ألوية الخيالة الانكليزية ، لعله لواء فيفيان في طريقه الى التمركز في قرية أوهين ، في أقصى اليسار . وعند الساعة الخامسة أبلغه هاربان بلجيكيان من الجندية انهما فارقا سريتيهما الحقلة ، وان الجيش الانكليزي كان يتوقع نشوب المعركة .

وصاح نابوليون :

— « فليهنأوا بذلك ! إني لافضل ان أقطّعهم إرباً إرباً على ان اردّهم على أعقابهم . »

وفي الصباح ، ترجّل في الوحل ، عند المنحدر الواقع على زاوية الطريق من بلانسنوا ، واستقدم من مزرعة « روسوم » طاولة مطبخ وكرسياً ريفياً ، وجلس ، متخذاً من حزمة من التبن بساطاً ، ونشر

---

* Bertrand جنرال فرنسي (١٧٧٣ – ١٨٤٤) ، وقد اشتهر باخلاصه لنابوليون اخلاصاً عظيماً تجلى في أنه لحق به الى جزيرة ألبا والى سانت هيلانة ، ومن هناك نقل رفاته سنة ١٨٤٠ .

على الطاولة خريطة ميدان القتال قائلا لـ « سولت » * : « رقعة شطرنج جميلة ! »

وبسببٍ من مطر الليل لم تصل قوافل المؤن ، التي ساخت عجلاتها في الطرق الندية ، مع انبلاج الفجر . ولم تكن اعين الجند قد اغتمضت ، وكانوا مبللين لم يذوقوا شيئاً من طعام . وبرغم هذا كله هتف نابوليون جذلانَ قائلًا لـ « ني » : « سوف نكسب المعركة تسعين في المئة . » وعند الساعة الثامنة حُمِل الفطور الى الامبراطور . كان قد دعا عدداً من الجنرالات الى تناول الطعام معه . وفيما هم يفطرون روى بعضهم ان ولينغتون كان في الليلة قبل البارحة يشهد حفلة راقصة في بروكسل اقامتها دوقة ريتشموند . فقال سولت ، وهو رجل حرب شرس ذو وجه كوجه رئيس اساقفة : « الحفلة الراقصة سوف تقام اليوم ! » وكان الامبراطور قد مازح « ني » الذي قال : « لن يكون ولينغتون من البساطة بحيث ينتظر جلالتكم » ذلك كان دأبه عادة . يقول فلوري دو شابولون : « كان مولعاً بالمزاح . » ويقول غورغو : « كانت البشاشة المداعِبة أساس شخصيته . » ويقول بنجامان كونستان : « كان خصب الفكاهة ، وكانت فكاهته غريبة ، مَضحكة اكثر منها ظريفة . » ومثل هذه الروح البهيجة حين تكون لعملاق من العمالقة تستحق ان يؤكَّد عليها . كان يدعو رماة القنابل (grenadiers) العاملين في جيشه « المتذمرين » (Les Grognards) ؛ وكان يقرص آذانهم ، ويشد بشواربهم . « إن الامبراطور ما كان يعمل شيئاً غير خداعنا والمكر بنا » . تلك هي كلمة واحد منهم . وخلال الرحلة الخفية من جزيرة ألبا الى فرنسة ، في اليوم السابع والعشرين من شباط ، وفي عرض البحر ، التقى « زيفير » المركبُ الشراعي الحربي الفرنسي بالـ « اينكونستان » المركب الشراعي الحربي الذي كان نابوليون مختبئاً

* Soult مارشال فرنسة (١٧٦٩ – ١٨٥١) وقد لمع نجمه في اوسترليتز وفي اسبانية .

فيه . فسأل رجاله رجالَ هذا المركب الأخير عن انبـــاء نابوليون ، الامبراطور ، الذي كان لا يزال يزين قبعته حتى هذه اللحظة بتلك الشارة المستديرة البيضاء والارجوانية المرشوشة بالنحل التي اصطنعها في جزيرة ألبا ؛ فما كان منه إلا ان تناول بوق الكلام ، وهو يضحك ، واجاب بنفسه : « **الامبراطور في حال جيدة .** » إن من يضحك بهذه الطريقة يكون على دالّة مع الأحداث . ولقد عرف نابوليون عدداً من نوبات الضحك هذه أثناء فطوره في واترلو . وبعد الفطور استجمع افـــكاره طوال ربع ساعة . ثم إن جنرالين قعدا على حزمة التبن ، وفي يد كل منهما قلم ، وعلى ركبته ورقة ، وأنشأ الامبراطور يملي مواقع الجنود استعداداً للقتال .

وفي الساعة التاسعة ، لحظةَ انتشر الجيش الفرنسي (وقد نُظّم في صفوف خمسة وصدر اليه الأمر بالحركة — فالجند صفّان ، والمدفعية بين اللواءين ، والموسيقي في الطليعة تقدّم الأكرام العسكري بقرع الطبول ونفخ الابواق) جباراً ، متراميا ، مبتهجاً ، بحراً منَ الخُوَذ والسيوف والحراب عند الافق ، في تلك اللحظة صاح الامبراطور طرباً ، معيداً كلمته مرتين :

— « رائع ! رائع ! »

وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة والنصف كان الجيش كله ، وهو في ما يبدو مستغرباً صعب التصديق ، قد اتخذ مواقعه ، مصطفاً في صفوف ستة ، مشكّلاً — اذا اصطنعنا تعبير الامبراطور نفسه — « صورة ستة من حرف V » . وبعد لحظات من تكوين جبهة المعركة ، وفي غمرة من ذلك الصمت العميق الذي يسبق القتال كما يسبق العـــاصفة ، رأى الامبراطور الى وحدات المدفعية الثلاث ذات القذائف التي تزن كل منها اثني عشر رطلاً — رأى اليها تتحرك ، وكانت قد فُصلت نزولاً عند إرادته من فيالق « ديرلون » و « راي » و « لوبو » لكي تستهل

القتال بالهجوم على « مون سان جان » عند متلقى طريقي « نيفيل » و « جيناب » ، فربّت على كتف هاكسو قائلاً :

– « ها هي ذي اربع وعشرون فتاةً حسناء ، أيها الجنرال ! »

واذ كان واثقاً من النصر ، فقد ابتسم مشجعاً سرية التحصينـــات من الفيلق الأول لدنْ مرّت امامه ، وكان قد عهد اليها في ان تقيم المتاريس في « مون سان جان » حالما يتمّ الاستيلاء علـى القرية . ولم يعكّر هذه الطمأنينة كلها غير كلمة تنضح بالرحمة المتغطرسة ؛ فما إن رأى اولئك الاسكتلنديين الرماديين الرائعين يحتشدون الى يساره ، على جيادهم البهيّة ، في بقعة يقوم فيها اليوم ضريح ضخم ، حتى قال :

– « يا للخسارة ! »

ثم امتطى صهوة جواده ، وانطلق مخلّفاً روسوم وراءه ، واختار لمراقبة المعركة رابيةً معشوشبة ضيقة ، الى يمين الطريق من جيناب الى بروكسل ، كانت هي محطته الثانية خلال المعركة . اما محطته الثالثة ، تلك التي اتخذها لنفسه في الساعة السابعة مساء ، بين « لا بيل آليانس » و « لا هاي سانت » فقطيعة . إنها أكمة مرتفعة لا تزال قائمة الى اليوم ، وكان الحرس قد احتشد خلفها في منخفض من السهل . وحول هـــذه الاكمة ارتدّت القذائف فوق الطريق المعبّدة حتى كادت تصيب نابوليون . كان صفير القنابل والكُرات فوق رأسه ، شأنهُ في « بريين » . ولقـــد التقط بعضهم حيث انتصبت قوائم جواده تقريباً ، عدداً من القنابـــل المسحوقة ، ونصال السيوف البالية ، والقذائف المشوّهة التي اكلهـــا الصدأ . ومنذ بضع سنوات أخرجت من بطن الثرى ، هناك ، قنبلة يبلغ وزنها ستين رطلاً ، وكانت لا تزال مشحونة ، وقـــد كُسِر فتيلها على مستواها . وفي هذه المحطة الاخيرة بالذات قال الامـبراطور لدليله ، لاكوست ، وهو فـلاّح حقود ، مروّع ، مشدود الى سرج

فارس من الفرسان ، كان يستدير كلما انفجرت قنبلة ويحاول ان يختبيء خلف نابوليون : « **أيها الابله ، هذا شيء معيب . انك تعرّض نفسك للموت برصاصة تصيبك في ظهرك !** » ولقد وجد كاتب هذه السطور هو نفسه في منحدر تلك الاكمة السريع التفتّت ، بعد ان "قلب" التراب ، بقايا قنبلة انحلّت بفعل الصدأ الذي تراكم عليها طوال ست واربعين سنة ، كما وجد بعض كسر الحديد التي تحطمت بين اصابعه مثل اغصان الدّبوغ *

إن تموّجات السهول المنحدرة على وجوه مختلفة حيث التقى نابوليون وولينغتون لم تكن كما كانت في الثامن عشر من حزيران ١٨١٥ . هذا شيء لا يجهله احد . ذلك أنهم بأخذهم من ذلك الميدان المشؤوم مـا يصنعون به نصباً له غيروا شكله الحقيقي . فاذا التاريخ ، وقد شُوّش ، لا يعرف نفسه بعدُ ، في ذلك المكان . لقد ارادوا تمجيده فشوّهوه . ولقد صاح ولينغتون حين رأى الى واترلو بعد سنتين : « **لقد غيّروا ميدان معركتي !** » فحيث ينهض اليوم ذلك الهرم من التراب الذي يعلوه الاسد ، كانت قنّة تتحدّر نحو طريق نيفيل تحدّراً يسهل سلوكه ، على حين كان تحدّرها ، فوق طريق جيناب ، وعراً جداً . واليوم لا يزال في الامكان ان يقاس ارتفاع هذا المنحدر بعلوّ أكمتيّ المدفنين الكبيرين اللذين يُطوّقان الطريق من جيناب الى بروكسل : القبر الانكليزي الى اليسار ، والقبر الألماني الى اليمين . وليس ثمة قبرٌ فرنسي . فالسهل كله قبرٌ لفرنسة . وبفضل آلاف وآلاف من أحمال التربة التي استعملت في التلة البالغ ارتفاعها مئة وخمسين قدماً ، ومحيطها نصف ميل ، أمسى الوصول الى نَجْدِ « مون سان جان » ميسوراً في انحدار رفيقٍ . ذلك انه كان ، يومَ المعركة ، وبخاصة من ناحية « لا هاي سانت » ، وعراً صعب المرتقى . والحق ان ذلك الجرف كان متحدراً الى درجة

** الدبوغ ضرب من الشجر يستخرج من أغصانه صبغ قرمزي وهو يستعمل في الدباغة .

جعلت المدفعية الانكليزية لا ترى المزرعة التي تحتها في قعر الوادي ، مركز الصراع . وفي ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ، كان المطر قد زاد هذا المنحدر وعورة ، وكان الوحل قد جعل ارتقاءه اكثر صعوبة . إنه لم يعد مضنياً وحسب ، ولكن أقدام الرجال كانت تسيخ في الطين فعلاً . وعلى طول ذروة النجد امتدّ شبه خندق ما كان في ميسور المراقب البعيد ان يتبيّنه .

ايّ شيء كان ذلك الخندق ؟ سوف نجيب عن هذا السؤال . إن « برين لالو » قرية من قرى بلجيكة ؛ وإن « أوهين » قرية أخرى . وهاتان القريتان ، وكلتاهما محجوبة بانعطاف الارض ، متصلتان بطريق يبلغ طولها نحواً من فرسخ ونصف وتخترق سهلاً غير مستوٍ ، فهي كثيراً ما تدفن نفسها في التلال مثل ثلم من الأثلام ، وذلك ما كان يجعل من هذه الطريق مسيلاً ، في بعض المواطن . وفي عام ١٨١٥ اخترقت هذه الطريق ، مثلها اليوم ، قمة نَجْد « مون سان جان » بين الطريقين من جيناب ومن نيفيلّ . بيد أنها اليوم على مستوى السهل ، في حين أنها كانت آنذاك طريقاً غائرة . لقد أزيل منحدرلها لأقامة الأكمة التذكارية . وانما كانت تلك الطريق ، ولا تزال ، خندقاً ، في القسم الاعظم من امتدادها . خندقاً يبلغ عمقه في بعض المواطن اثني عشر قدماً ، ويشتد تحدّر جوانبه الى حد يجعلها تنهار ههنا وههناك ، وبخاصة في الشتاء ، تحت الامطار . ولقد وقعت هناك عدة حوادث اصطدام . فقد كانت الطريق من الضيق ، عند مدخل « برين لالو » بحيث سحقت احدى العربات عابرَ سبيل ، على ما يؤخذ من صليب حجري قائم قرب المقبرة مدوّنٍ عليه اسمُ الميت : « **مسيو برنار**

دوبري ، تاجر مـــن بروكسل ، وتاريخ الحادث ، شباط ١٦٣٧ *
وكانت من العمق ، عند نَجْد « مون سان جان » بحيث سُحق هناك عابر سبيل آخر ، ماتيو نيكيس ، عام ١٧٨٣ ، بسببٍ من انهيار أحد جانبيها ، على ما يؤخذ من صليب حجري ثان . لقد ذهب استصلاح الارض برأس هذا الصليب ، ولكن قاعدته المنكوسة لا تزال تُرى عند الجانب المنحدر الى يسار الطريق بين « لا هاي سانت » ومزرعة « مون سان جان » .

وفي يوم المعركة ، كانت هذه الطريق الغائرة التي لا يـــنم شيءٌ عن وجودها ، والمحيطة بذروة « مون سان جان » — خندقٌ في قمـــة المنحدر ، أثرٌ من آثار مرور العربات مختبيء في الارض — نقول في يوم المعركة كانت هذه الطريق غير منظورة ، يعني فظيعة .

وانما يجري الكلام المنقوش على الحجر هكذا :

لله البالغ الرحمة البالغ العظمة
هنا سُحق
بسوء الحظ
تحت عجلات احدى العربات
مسيو برنار
دوبري ، تاجر
من بروكسل (كلمة غير مقروءة)
شباط سنة ١٦٣٧

٨

الامبراطور يوجه سؤالاً

الى الدليل لا كوست

واذن . ففي صباح واترلو كان نابوليون مسروراً .

وكان على صواب . فقد كانت الخطة التي وضعها للمعركة خطة رائعة حقاً .

حتى اذا استهلت المعركة لم يكن في تقلّباتها الشديـدة الاختلاف ، وفي صمود هوغومون ، وعناد « لا هاي سانت » ، ومصرع « بودوين » ، وإقصاء « فوا » عن الميدان ، بعد ان امسى عاجزاً عن القتال ، والسور غـير المرتقب الذي تحطم عليه لواء « سوا » ، وطيش « غوييمينو » المشؤوم وقد نفدت قنابله ونفـد بارودُه ، وغوص المدفعية في الوحل ، والخمسة عشر مدفعاً غير المخفورة التي اوقع بها « اوكسبريدج » في طريق غائرة ، والاثر الضئيل الذي احدثته القنابل الساقطة داخل الخطوط الانكليزية اذ كانت تدفن نفسها في التربة المنقوعة بالمطر فـلا توفق الى اكثر من إحداث براكين من الوحل بحيث تحوّل الانفجار الى رشاش ، وعدم جدوى الهجوم المضلل الذي شنه « بيريه » على « برين لولو » ، والقضاء على سلاح الفرسان هذا ، المؤلف من خمس عشرة كوكبة قضاء شبه كامل ، وعدم انزعاج الجناح الانكليزي الايمن إلا قليلاً ، وعـدم اصابة الجناح الايسر باكثر من أذىً ضئيل ، وغلطة « ني » الغريبـة التي تتمثل في حشده الفصائل الاربع التي يتألف منها الفيلق الاول بدلاً من ان ينشرها ويباعد ما بينها ، وعمق الصفوف السبعة والعشرين وجبهة المئتي رجل التي قـُدّمت عـلى هذا النحو طعاماً للقذائف ، والفجوات

الراعبة التي احدثتها القنابل في هذه الحشود ، وانقطاع الاتصال بين كتائب الجيش المهاجمة ، والمدفعية المنحرفة التي كُشف جناحها فجأة ، ووقوع « بورجوا » و « دونزيلو » و « دوريت » في الشرك ، وردّ « كيو » على عقبيه ، واصابة الملازم الاول ، « فيو » ، ذلك الجبار المنبثق من مدرسة البوليتكنيك ، بجرح في اللحظة التي كان يحطم خلالها بضربات فأس ، باب « لا هاي سانت » تحت النار المنصبّة من المتراس الانكليزي الذي يسد منعطف الطريق من جيناب الى بروكسل ، ووقوع فصيل « ماركوتيه » بين حجري الرجالة والخيالة ، وتصويب « بَسْت » و « باك » النار اليه ، من على مدى الذراع في حقل القمح ، وتضريب « بونسوني » اعناق رجاله بحد السيف ، وتسمير وحدته المدفعية المؤلفة من سبعة مدافع ، وصمود أمير ساكس — وايمار * في « فريشمون » و « سموهين » واحتفاظه بهما على الرغم من الكونت ديرلون ، وانتزاع راية الفوج الخامس بعد المئة ، وراية الفوج الخامس والاربعين ، وهذا الفارس البروسي الاسود الذي جاء به كشافة الكتيبة المتنقلة المؤلفة من ثلاثمئة قناص يضربون في المنطقة الواقعة ما بين « وافر » و « بلانسنوا » ، والاشياء المقلقة التي قالها هذا الفارس ، وتأخر « غروشي » ، والالف والخمسمئة رجل الذين قُتلوا في بستان هوغومون في اقل من ساعة ، والالف والثمانمئة رجل الذين صرعوا في فترة اشد قِصَراً حول « لا هاي سانت » — لم يكن في هذه الاحداث العاصفة كلها ، التي مرت مثل سحائب المعركة امام نابوليون ، ما كدّر محيّاه ، او عكّر انطباعة اليقين الامبراطوري عليه . فقد تعوّد نابوليون ان يحدق الى الحرب تحديقاً . انه ما كان يُجري جمع التفاصيل الموجعة رقماً رقماً . فلم تكن الارقام لتهمه الاّ اذا اعطت هذا الحاصل : النصر . وعلى الرغم من ان طلائع المعركة كانت سيئة فلم يزعجه ذلك ، وكيف يزعجه وهو

* ارشيدوقية سابقة في المانية الوسطى .

الذي اعتقد انه سيد النهاية ومالكها ؟ كان يعرف كيف ينتظر ، معتبراً نفسه في عصمة من الطوارىء ، معاملاً القدر كما يعامل الندّ الندّ . لقد بدا وكأنه يقول لهذا القدر : « انت لن تجرؤ . »

وحين اختلط نور النهار بظلام الليل استشعر نابوليون انه مصونٌ في الخير ، متجاوَزٌ عنه في الشر . كانت له او كان يعتقد ان له – موافقة على الاحداث ، بل مشاركةٌ فيها تعدِلُ الفكرة القائلة بالعصمة من الجروح ، عند القدماء .

وايّاً مـــا كان ، فحين يكون وراء المرء « بيريزينـــا » * و « لايبسيك » ** و « فونتينبلو » *** يبدو وكأن من الجائز ان يشكّ في واترلو . ان اكفهراراً خفياً قد شرع يظهر في اعماق السماء . ولحظة ارتدّ ولينغتون اخذت نابوليون هزة الطرب . لقـــد رأى نجدَ « مون سان جان » يعرى فجاءةً ، ورأى جبهة الجيش الانكليزي تختفي . واجتمع شمل هذا الجيش كرةً أخرى ولكنه ظلّ متوارياً . ونهض الامبراطور في ركابه نصف نهضة . لقد اخترق وميض النصر عينيه .

لقد حُصِر ولينغتون في غابة سواني وحُطمت قواته – تلك كانت الهزيمة الحاسمة تُنزلها فرنسة بانكلترة . ذلك كان الانتقامَ لـ « كريسي » ****

---

* Béréaina نهر في روسية البيضاء اشتهر بعبور الجيش الفرنسي له من ٢٦ – ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨١٢ .

** المدينة الالمانية المعروفة وقد نشبت فيها معركة بين الفرنسيين والحلفاء (معركة الامم) اضطر نابوليون على اثرها الى الجلاء عن المانية (سنة ١٨١٣)

*** اشارة الى « معاهدة فونتينبلو » التي سوّت ، في ١١ نيسان ١٨١٤ ، بعد استقالة نابوليون الاول ، وضعَ الامبراطور ووضع أسرته .

**** Crécy - en - Ponthieu بلدة في شمال فرنسة جرت فيها موقعة بين الفرنسيين بقيادة فيليب دو فالوا والانكليز بقيادة ادورد الثالث سنة ١٣٤٦ وكان النصر فيها حليف الانكليز .

و « بوانييه » * ، و « مالبلاكيه » ** « راميي » *** كان بطل مارانغو يمحو عار « آزينكور » . ****

وانشأ الامبراطور يتأمل هذا التطور الفظيع الذي طرأ على الموقف ، وأجال منظاره للمرة الاخيرة فوق كل نقطة من ساحة القتال . ونظر اليه حرسه – وكانوا واقفين خلفه وسلاحهم على أرجلهم – في ضرب من العبـــادة . كان يفكر . كان يدرس السفوح ، ويلاحظ المنحدرات ، ويتفحص الغابة الصغيرة ، وحقل الجاودار المربّع ، والمجاز الضيق . لقد بدا وكأنه يُحصي كل دغل من الادغال . ونظر فترة مـن الزمن الى المتاريس الانكليزية القائمة على الطريقين ، وكانا ركامَين ضخمين مـــن الاشجار ، احدهما على طريق جينـــابّ ، فوق « لا هاي سانت » ، وهو مسلح بمدفعين كانا وحدهما – بين المدفعية الانكليزية كلها – اللذين يريانِ قعر ساحة القتال ، والآخر على طريق نيفيلّ حيث التمعت حراب لواء « شاسيه » الهولندية . ولاحظ قرب ذلك المتراس كنيسة القديس نقولا العتيقة ، المدهونة باللون الابيض ، والقائمة عنـــد زاوية الطريق المختصرة المتجهة نحو « برين لالو » . وانحنى وهمس في اذن الدليل ، لاكوست . واومأ الدليل برأسه ايماءة نفي ، اغلب الظن انها كانت خادعة .

ونهض الامبراطور وفكّر .

---

* حيث انتصر ادورد الشهير بالامير الاسود (وهو ابن ادورد الثالث) على ملك فرنسة جان الثاني الملقب بالشجاع ، سنة ١٣٥٦ وأسره .

** Malplaquet في اقصى الشمال الفرنسي حيث هزم الانكليز الفرنسيين في ١١ ايلول سنة ١٧٠٩ .

*** Ramillies - Offus من اعمال بلجيكة حيث انتصر مارلبورو على مارشـــال فرنسة فيلاروا عام ١٧٠٦ .

**** Azincourt في منطقة الـ « با دو كاليه » شمالي فرنسة حيث هزم الانكليز بقيادة هنري الخامس القوات الفرنسية وعلى رأسها دوق اورليان (٢٥ تشرين الاول عام ١٤١٥) .

كانَ ولينغتون قد انقلب على عقبيه . ولم يبقَ غير إنجاز هــذا الارتداد بضربة ماحقة .

وفجأة التفت نابوليون ، ووجّه ، على جناح السرعـة ، رسولاً الى باريس ليعلن ان المعركة قد كُسِبت .

كان نابوليون واحداً من اولئك العباقرة الذين تصدر عنهم الرعود . وكان قد وجد صاعقته .

وأصدر أمره الى دارعي « ميلهو » * بالاستيلاء على نجـد « مون سان جان » .

٩
ما لم يكن متوقعاً

كانوا ثلاثة آلاف وخمسمئة رجل . ولقد شكلوا جبهةً تبلغ نصف ميل . كانوا رجالاً عمالقة على صهوات جياد ذات جسوم هائلة . وكانت تنتظمهم ستّ وعشرون كوكبةً ، ومن ورائهـــم فصيل « لوفيفر دينوويت » ** وهم مئة وستة من رجـــال الدرك المختارين ، وقناصة الحرس وعدّتهم ألف ومئة وسبعة وتسعون رجـــلًا ، وفرسان الحرس الرمّاحة وعدّتهم ثمانمئة وثمانون . كانوا يلبسون الخوذ من غـير سَبيب ، والدروع المصنوعة من الحديد المطرّق ، وقد شدّوا مسدسات الفرسان في غلافاتها الجلدية الى مقدّم السرج ، وتسلحوا بالسيوف الطويلة المتقوسة.

---

* Milhaud جنرال فرنسي اشتهر بجرأتــه البطولية على رأس قواتــه الدارعة . (١٧٦٨ — ١٨٣٣)

** Lefebvre — Desnouettes جنرال فرنسي (١٧٧٣ — ١٨٢٢) ابــلى في واترلو بلاء حسناً ، ثم هاجر الى اميركا بعد عودة آل بوربون الى العرش .

وفي الصباح ، كانوا موضع اعجاب الجيش كله عندما أقبلوا في كثافة عند الساعة التاسعة ، وقد ضجّت الابواق وأنشد جنود الموسيقى كلهم : « فلنسهر على سلامة الامبراطورية » * ، وسارت احدى وحداتهم المدفعية الى جانبهم ، والأخرى في وسطهم ، واندفعوا في صفّين بين طريق جيناب" و « فريشمون » ، واخـــذوا مواقعهم في ذلك الخط الثاني الجبار الذي اقامه نابوليون في كثير من الحكمة ، والذي كان له – وقد واكبه في أقصى يساره دارعو كيلرمـان وفي أقصى يمينه دارعو ميلهو – جناحان من حديد اذا جاز التعبير .

وحمل اليهم ضابط الارتباط برنار أمر الامـبراطور . وشهر « ني » سيفه ووضع نفسه على رأسهم . وشرعت كتائب الفرسان الهائلة تتحرك.

وعند ذلك رئيَ مشهد مروّع .

لقد اندفعت هذه الخيالة كلها ، مشهورةَ السيوف ، خفاقة الرايات ، صادحة الابواق ، في حركة واحدة وكأن افرادها رجـــل واحد وقد شكّل كل فصيل صفاً – وفي مثل دِقة آلة برونزية هادمة تشق ثلمة في جدار – وهبطت كثيب « لا بيل" آليانس » وغطست في ذلك العمق الهائل الذي سبق لكثيرٍ من الرجـــال ان سقطوا فيه ، واختفت في الدخان ، ثم نهضت من هذه الدجنّة ، وبرزت كرة" ثانية عند الجانب الآخر ، وهي لا تزال كثيفة" متلازّة ، مصعّدة" بأقصى الخبب ، وسط سحابة من قذائف المدفعية انبعجت فوقها في مرتقى نَجْد « مون سان جان » الموحل المخيف . لقد برزت كالحة" ، مهدّدة ، ثبتة الجنان . وخلال الفترات الفاصلة ما بين انطلاق النيران الجماعي" من البنادق وانطلاقها من المدافع ، كان في ميسور المرء أن يسمع صدى هـذا الوطأ الجبار .

---

* Veillons au salut de l'Empire اغنيـة وطنية كانت مـن أولى اغنيات الثورة الفرنسية . والواقع ان « الامبراطورية » هنا تعني « الدولة » . وقد خُدع كثيرون بعنوان هذه الأغنية فحسبوها من اناشيد عهد الامبراطورية الاولى .

واد كانا فصيلَيْن فقد شكّلا صفين . كان فصيل « واتيبه » الى اليمين ، وفصيل « دولور » الى اليسار . ومن بعيد ، كان يخيّل الى الناظر انهما افعوانان فولاذيان هائلان يتمدّدان نحو قنّة النجد . لقد اخترق ذلك المعركةَ وكأنه اعجوبة من الاعاجيب .

ان شيئاً مثل هذا لم تشاهده العيون منذ استيلاء سلاح الفرسان الثقيل على متاريس الـ « موسكوفا » . * إن مورا ** لم يكن هناك . ولكنْ كان هناك « ني » . لقد بدا وكأن هذا الحشد قد امسى غولاً ، وكأنما كانت له "نفسٌ" واحدة ليس غير . لقد تموجت كل كوكبة ، وانتفخت مثل حلقة الأخطبوط . كان ممكناً ان يُرَوا من خلال الدخان الكثيف ، اذْ كان ممزقاً ههنا وهنالك . انها فوضى من الخوذ والصيحات والسيوف ، ووثبُ خيلٍ ضار بين المدافع ونغمات الابواق - جَلَبةٌ فظيعة منظمة . وفوق ذلك كله ، كانت الدروع ، وكانت اشبه بحراشف أفعى هيدرية ذات سبعة رؤوس .

هذه الاخبار تبدو وكأنما اخبار عصر آخر . ولا ريب في ان شيئاً مثل هذا المشهد قد برز في الملاحم الأوربية القديمة التي تتحدث عن الرجال الخيل ، عن اولئك المخبولين الاقدمين الذين كانوا يتصورون انهم قد مُسخوا جياداً ، عن اولئك الجبابرة ذوي الوجوه البشرية ، والصدور الشبيهة بصدور الخيل ، الذين تسوّر خببُهم الاولمب *** ، المخيفين ، الرفيعين ، المعصومين عن الجراح ، والذين هم آلهة وبهائم في

---

* نهر في روسية الوسطى جرت عنده معركة دامية بين الفرنسيين والروس عام ١٨١٢ ، وكان النصر فيها حليف الفرنسيين .

** Murat صهر نابوليون ، وكان جنرالاً لامعاً من قادة سلاح الفرسان . وقد ابلى بلاءه حسناً في معركة الاهرام وفي معركة الـ « موسكوفا » التي يشير اليها المؤلف (١٧٦٧ - ١٨١٥)

*** جبل في بلاد الاغريق القديمة يقع بين مقدونيا وتساليا وكانت الاساطير تزعم انه مقر الآلهة .

آن معاً .

إنها لمصادفة عددية عجيبة . كان قد استقبل هذه الكوكبات الست والعشرين ستة وعشرون فوجاً . وخلف قنة النجد ووراء حجاب من المدفعية المقنّعة كان الرجالة الانكليز يشكلون ثلاثة عشر مربعاً ، في كل مربّع فوجان ، وعلى خطين – في الاول سبعة مربعات ، وفي الثاني ستة – واعقاب البنادق الى الاكتاف ، والعيون على « فمحات » البنادق – فهم ينتظرون هادئين ، صامتين ، غير متحركين . لم يكن في ميسورهم ان يروا الدارعين ، ولم يكن في ميسور الدارعين ان يروهم . لقد اصغوا الى ارتفاع هذا المدّ من الرجال . لقد سمعوا صدى الثلاثة الآلاف جواد ، المتعاظم شيئاً بعد شيء ، ووقع حوافرها التناوبي المتسق ، في خبب كامل ، وجلجلة الدروع ، وقعقعة السيوف ، وشبه هدير ضارٍ . وران الصمت المخيف لحظة . وفجأة بدا فوق القنة صف طويل من الاذرع المرفوعة التي تهز السيوف ، بخوذها وابواقها وراياتها ، وثلاثة آلاف وجه ذي شارب اشيب تهتف : « يحيي الامبراطور ! » لقد تفجرّت هذه الخيالة كلها فوق النجد ، فكان ذلك اشبه باستهلال زلزلة .

وفجأة – ذلك شيء فاجع – الى يسار الانكليز ، والى يميننا ، ارتدّت طليعة الدارعين في جلبة مهتاجة مروّعة . ذلك بأن هؤلاء الدارعين ما كادوا يبلغون أوج القنّة ، مطلقي الاعنة لخيلهم ، وقد عصفت بهم الحماسة البالغة ، واتخذوا سبيلهم نحو القضاء على المربعات والمدافع ، حتى رأوا ان بينهم وبين الانكليز حفرة ، بل قبراً . تلك كانت طريق « أوهين » الغائرة .

كانت لحظة مخيفة . كان الوادي هناك ، فاغراً فاه ، على نحو غير متوقّع ، تحت حوافر الخيل تقريباً ، وقد بلغ عمقه قامتين بين منحدره المزدوج . ودفع الصف الثاني الصفّ الأول ، ودفع الصفُ الثالث

الصفُّ الثاني . وشَبَتِ * الخيل ، وارتدّت الى وراء ، وانقلبت على أردافها ، وزلقت بقوائمها كلها في الهواء ، طارحةً فرسانها مكدّسةً إياهم على الارض . لم يكن ثمة وسيلة الى الانسحاب . ولم تكن الكتيبة كلها غير قذيفة . إن القوة المكتسبة لسحق الانكليز قد سحقت الفرنسيين . وما كان في ميسور الوادي المحجر القلب ان يذعن إلا بعد ان امتلأ ؛ لقد تدحرج الفرسان والجياد فيه على نحو فوضويّ ، ساحقاً احدهما الآخر ، وقد تمازجت لحومهم في تلك الهوة الرهيبة . وحين طفح هذا القبر بالرجال الأحياء مشى الباقون فوقهم واجتازوا بالمكان . لقد سقط ثلث لواء « دو بوا » تقريباً في هذه الهوة .

ومن هنا بدأ نابوليون يخسر المعركة .

ان ثمة رواية محلية ، مغالىً فيها من غير شك ، تذهب الى القول بأن ألفي فرس وألفاً وخمسمئة رجل دُفنوا في طريق اوهين الغائرة . ومن المحتمل ان يكون هذا الرقم شاملاً سائر تلك الجثث التي طُرحت في هذا الوادي خلال اليوم الذي تلا المعركة .

وينبغي ان ننصّ بالمناسبة على أن لواء « دو بوا » هذا الذي امتُحِن على هذا النحو المشؤوم هو الذي حمل ، قبل ذلك بساعة ، حملةً عنيفة على العدو ، فانتزع راية فوج لونبورغ .

وكان نابوليون ، قبل ان يصدر أمره الى دارعي « ميلهو » بالهجوم ، قد درس طبيعة الارض ، ولكنه لم يستطع ان يرى هذه الطريق الغائرة التي لم تحدث ولو مجرد تغضّن على سطح النجد . ومع ذلك فقد لفتت نظره تلك الكنيسة الصغيرة البيضاء المتصلة بطريق نيفيل ، فوجّه سؤالاً الى الدليل لاكوست ؛ وانما فعل ذلك في أغلب الظن بعد أن تراءى له ان ثمة عقبةً ما . وكان الدليل قد أجاب بقوله لا . ولعل في ميسور المرء ان يقول ان الكارثة التي حلّت بنابوليون إنما انبثقت من هزة

* شبا الجواد يشبو : قام على رجليه .

رأس هذا الفلاح .

وكان لا بدّ من وقوع كوارث اخرى .

أكان من الممكن ان يكسب نابوليون هذه المعركة ؟ نحن نجيب بقولنا لا . لماذا ؟ بسبب من ولينغتون ؟ بسبب من بلوخر ؟ لا . بسبب من الله .

فلأن ينتصر نابوليون في واترلو شيء لم يكن في قانون القرن التاسع عشر . كانت سلسلة جديدة من الحقائق على وشك الوقوع ، سلسلة لم يكن لنابوليون ايما مكان فيها . وكانت نية الاحداث السيئة قد تجلت منذ زمن طويل .

لقد حان سقوط هذا الرجل الهائل .

ان وطأة هذا الرجل المفرطة على المصير الانساني قد أخلّت بالتوازن ، فقد كان هذا الفرد يساوي ، وحده ، المجموع الكونيّ . وهذا الفيض من كامل الحيوية البشرية المركّز في رأس واحد ، وهذه الدنيا الممتطية دماغ رجل واحد ، خليق بهما ان يصبحا شؤماً على الحضارة اذا استمرا. لقد آن للعدالة العليا النزيهة ان تتدبر الامر . واغلب الظن ان المبادىء والعناصر التي تقوم عليها الجاذبيات القياسية في النظام الاخلاقي وفي النظام المادي جميعاً ، قد بدأت تتذمر . فالدماء التي يتصاعد منها البخار ، والمدافن المزدحمة بسكانها ، والامهـــات السافحات الدمع ، كل اولئك محامون مخيفون . ان ثمة ، حين تشكو الارض ضيقاً شديداً ، انّاتٍ خفيّة تنبعث من الاعماق ، فتسمعها السماء .

لقد شُكِيَ نابوليون الى اللانهاية ، وكان سقوطه امراً مقرراً .

لقد أغضب الله .

إن واترلو ليست معركة على الاطلاق . إنها تغيُّر جبهة الكون .

١٠

نجد «مون سان جان»

وفي الوقت نفسه كانت المدفعية قد اكتُشفت .

لقد أطلق ستون مدفعاً واطلقت المربعات الثلاثة عشر نيرانها على الدارعين مرعدةً مومضة . وأدّى دولور ، الجنرال الشجاع ، التحية العسكرية للمدفعية الانكليزية .

وفي سرعة بالغة اتخذت المدفعية الانكليزية المتنقّلة كلها موقعاً لها في المربّعات . ولم يجد الدارعون متسعاً من الوقت يأخذون فيه نَفَساً . لقد قضت كارثة الطريق الغائرة على عدد كبير منهم ولكنها لم تفتّ في عضدهم . لقد كانوا رجالاً كلما نقص عددهم كبرتْ قلوبهم .

إن كتيبة « واتييه » وحدها هي التي أصابتها النكبة . أما كتيبة دولور التي كان « ني » قد حملها على الانحراف نحو اليسار ، وكأنما أشعره قلبُهُ بوجود الشرَك ، فقد وصلت كاملةً .

وانقضّ الدارعون على المربعات الانكليزية .

الخيلُ تلامس بطونها الارض ، والأعنّة مُطلقة ، والسيوف بين الاسنان ، والمسدسات في الأيدي — كذلك بدأ الهجوم .

إن ثمة لحظات في المعركة تقسّي النفسُ أثناءها الرّجُلَ حتى ليتحول الجندي الى تمثال ، وحتى ليصبح لحمه كله صواناً . لقد أبت الافواج الانكليزية ، وقد هوجمت في بأس ، ان ترتدّ خطوه واحدة الى وراء . وكان ذلك فظيعاً .

لقد هوجمت جوانب المربعات الانكليزية كلها في آنٍ معاً . لقد احاطت بها عاصفة من جنون . وظلت هذه الرجّالة الباردة ثبتة الجنان . فأما الصف الاول ، وكان راكعاً على رُكَبِهِ على الارض ، فاستقبل

الدارعين على رؤوس الحراب ، واما الصف الثاني فأطلق عليهم النار من بنادقه . وخلْفَ الصف الثاني شحن المدفعيون مدافعهم ، وانفرجت طليعة المربّع ، لكي تفسح المجال لانطلاق القذائف المحمومة ، ثم انغلقت كرةً اخرى . وكان جواب الدارعين أن انقضّوا على الرجالة في قوة ماحقة . لقد تَشبّتْ جيادهم الضخام ، وتخطّت الصفوف في خطىً واسعة ، ووثبت فوق الحراب ، ثم سقطت – جبّارةً – وسط هذه الجدران الحيّة الاربعة . واحدثت القذائف فجوات في صفوف الدارعين ، واحدث الدارعون ثُلَماً في المربعات . لقد اختفت صفوف من الجند بعد أن سُحقت اجسادها تحت سنابك الخيل . ولقد غُيّبت الحراب في بطون هؤلاء السناطرة * ، ومن هنا تلك الجراح الشائهة التي يغلب على الظن أن احداً لم يشهد ضريباً لها من قبل . وانكمشت المربعات على نفسها ، وقد قرضتها هذه الخيالة المجنونة ، من غير ان تتحرك او تتردد . كانت تملك معيناً من القذائف لا ينضب ، فهي تفجّرها ابداً وسط العدو المهاجم . كان مشهداً رهيباً . إن هذه المربعات لم تعد أفواجاً من الجند ؛ لقد أمست فوهات براكين . وهؤلاء الدارعون لم يعودوا خيّالة ؛ لقد أمسوا إعصاراً . كان كل مربّع بركاناً تهاجمه سحابة . ولقد اصطرعت الحمم والصواعق .

وقضي قضاءً شبه كامل ، من الصدمة الاولى ، على المربّع الذي في اقصى اليمين ، وهو اكثر المربعات تعرضاً للخطر ، بوصفه قائماً في الميدان الطلق . وكان مؤلفاً من رجال السرية الخامسة والسبعين الجبليين الاسكتلنديين . وفيما كانت عملية الاستئصال دائرة كان النافخ بمزمار القربة ، قاعداً في الوسط فوق احد الطبول ، وقد غفل غفلة عميقة عن كل ما حوله ، خافضاً عينه الكئيبة الملأى بظلال الغابات والبحيرات ،

* Centaurs جمع « سنطر » ، وهو في الميثولوجيا مخلوق وهمي نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس .

وكان واضعاً مزماره الاسكتلندي * تحت ذراعه ، عازفاً أنغام الجبل. لقد مات هؤلاء الاسكتلنديون وهم يفكرون بـ « بن لوثيان » ، كما مات الاغريق وهم يذكرون « آرغوس » . ثم إن سيف احد الدارعين هوى على المزمار وعلى الذراع التي تحمله فقطع الاغنية بأن قتل المغني .

وتعيّن على الدارعين وقد غدا عددهم ضئيلاً نسبياً ، بعد كارثة الوادي ، ان يواجهوا كامل الجيش الانكليزي تقريباً . ولكنهم ضاعفوا انفسهم ، فاذا بكل رجل يَعْدِلُ عشرة . ومع ذلك فقد ارتدت بعض الافواج الهانوفرية الى الوراء . ورأى ولينغتون ذلك وتذكّر خيالته . ولو ان نابوليون تذكّر ، في تلك اللحظة نفسها ، رجالته إذن لكسب المعركة. لقد كان هذا السّهو هو غلطته الكبيرة المشؤومة .

وفجأة وجد الدارعون المهاجمون انهم مهاجمون . لقد انقضّت الخيالة الانكليزية على ظهورهم . كانت المربعات امامهم ، وكان سومرست وراءهم . سومرست بجرسه الفرسان البالغ عددهم الفاً واربعمئة . وكان الى يمين سومرست « دورنبرغ » بخيالته الالمان الخفاف ، السلاح والى يساره « تريب » على رأس حاملي الكاربينات البلجيكيين . واضطر الدارعون ، وقد هوجموا من الجبهة ومن الجناح ، ومن أمام ومن وراء ، وبواسطة الرجالة والخيالة معاً ، اضطروا الى ان يديروا وجوههم الى الجهات جميعاً . وما ضرّهم ؟ كانوا إعصاراً . وغدت بطولتهم ممتنعة على الوصف .

والى هذا ، فقد كانت خلفهم تلك المدفعية المرعدة ابداً . وكان ذلك كله ضرورياً لكي يُجرح امثال هؤلاء الرجال في الظهر . إن أحد

* وهو مؤلف من كيس للهواء مصنوع من جلد مزيت ومغطى بقماش من صوف تتصل بفوهته انبوبة ينفخ بواسطتها العازف فيمتلىء الكيس هواء ، ويتصل به مزمار ذو ثقوب مختلفة لتوقيع الانغام .

دروعهم ، وقد ثقبته عند صفيحة الكتف اليسرى طلقة مسدس ، محفوظة في مجموعة متحف واترلو .

ان امثال هؤلاء الفرنسيين لا يباريهم غير امثال هؤلاء الانكليز .

إنه لم يعد نزاعاً . لقد أمسى ظلامـــاً ، هيجـــاناً ، فورة نفوس وبطولات توقع الدوار في الرأس ، وإعصاراً مـن بريـق السيوف . وفي لحظة ، لم يبق من فرسان الحرس الألف والاربعمئة غير ثمانمئة . وخرّ « فولر » وهو ملازمهم الاول صريعاً . واندفع « ني » مع الرّماحة وقناصة « لوفيفر دينوويت » . واحتل الفرنسيون َنجْدَ « مون سان جان» ثم فقدوه ، ثم عاودوا احتلاله . وترك الداروعون الخيالةَ لكي ينقلبوا الى الرّجالة ، والاصح ان نقول إن هذه الجهرة الرهيبة كلها اصطرعت من غير ان يُفلت ايّ من الفريقين الفريقَ الآخر . وواصلت المربعات صمودها . لقد شُنّ اثنا عشر هجوماً . وُقتلت اربعة جياد تحت « ني ». وانطرح نصف الداروعين على ارض النجد . ودام هذا الصراع ساعتين .

وُزعزع الجيش الانكليزي على نحو راعب . ولا ريب في ان الداروعين كان خليقاً بهم ، لو لم توهن من عزائمهم تلك الصدمة الاولى التي اصابتهم اثر كارثة الطريق الغــائرة ، ان يسحقوا الوسط ، ويقرروا النصر . واذهلت هذه الخيالة الرائعة « كلينتون » الذي سبق ان رأى « تالافيرا » * و « باداغوز » ** . وأعجب ولينغتون بها عـلى الرغم من انه كان ثلاثةَ ارباع منهزم ، إعجـــاباً بطولياً ، وقال في صوت خفيض :

– « باهر ! »

وافنى الداروعون سبعة مربعات من ثلاثة عشر ، وانتزعوا أو سمّروا ستين مدفعاً ، واستولوا على ستٍّ من رايات الافواج الانكليزية ، حملها

---

* مدينة اسبانية انتصر فيها ولينغتون على الفرنسيين ، عام ١٨٠٩

** مدينة اسبانية استولى عليها الفرنسيون ، بقيادة الجنرال سولت ، عام ١٨١١

ثلاثة دارعين وثلاثة قناصين من الحرس الى الامبراطور ، امام مزرعة « لا بيلّ آليانس » .

كان وضعُ ولينغتون يزداد سوءاً . لقد كانت هذه المعركة العجيبة أشبه شيء بمبارزة بين جريحين مَغيظين يفقد كل منهما دمه كله ، ومع ذلك فهو يواصل الكفاح والمقاومة . ايّ الفريقين سوف يسقط على الارض قبل الآخر ؟

واستمر الصراع من اجل النجد .

الى ايّ مدى تقدّم الدارعونْ ؟ ليس في ميسور احد ان يجيب . ولكن شيئاً واحداً لا يعتريه الريب : ففي اليوم الذي تـلا المعركة وُجد دارعٌ وجواده ميتين تحت هيكل قبان العشب المجفّف في « مون سان جان » عند ملتقى طرق « نيفيلّ » ، و « جيناب » ، و « لا هولب » ، و « بروكسل » . وكان هذا الفارس قد اخترق الخطوط الانكليزية . وإن واحداً من الرجال الذين انتشلوا هذه الجثة لا يزال يحيا في « مون سان جان » . إنه يدعى دوهاز . ولقد كان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره .

واستشعر ولينغتون انه هُزم . كانت الازمة وشيكة .

ولم يوفق الدارعون ، بمعنى ان الوسط لم يُسحق . كان كل من الفريقين يحتلّ النجد ، ولم يكن ايّ منهما يحتله ، وفي الحق انه ظلّ في المحل الاول في أيدي الانكليز . كان ولينغتون يملك القرية والسهل الذي يتوجها . وكان « ني » لا يملك غير القنّة والمنحدر . لقد بدا كلّ من الفريقين راسخ الجذور في هذه التربة الفاجعة .

ولكن إضعاف الانكليز بدا عُضالاً . كان النزف الذي اصاب هذا الجيش فظيعاً . فقد طلب « كمبت » ، في الجناح الايسر ، ان يُنجَد ببعض الامداد . فاجابه ولينغتون : « **مستحيل ، يجب ان نموت فوق الارض التي نحتلها الآن !** » ، وفي اللحظة نفسها تقريباً — مصادفة

فريدة تصور الخسارة الفادحة التي حلّت بالجيشين جميعاً - ارسل « ني » الى نابوليون طالباً ان يمــدّه بقوّة من الرجالة ، فصاح نابوليون : **« رجالة ! ومن اين ينتظر مني أن اجيئه بهم ؟ ايريد مني ان اخلقهم له ؟ » .**

وعلى اية حال ، فقد كان الجيش الانكليزي هو الاشدّ مرضاً . ذلك بان الهجمات الضارية التي شنتها هذه الكتائب ذات الدروع الحديدية والصدور الفولاذية كانت قد سحقت الرجالة سحقاً . كان في وجود نفر قليل من الجند حول راية من الرايات اشارة الى موقع سرية من سرايا الجيش . وامست الافواج الآن تحت إمرة رؤساء (كابيتين) او ملازمين اولين . لقد حُطم فصيل « آلتن » ، وكان قد اصابه ضرر كبير في « لا هاي سانت » ، تحطيماً يكاد يكون كاملاً . وغطّى البلجيكيون البواسل الذين انتظمهم لواء « فان كلوز » سهل الجاودار عــلى طول طريق نيفيل . ولم يبق غير القليل القليل من رماة القنابل الهولنديــين اولئك ، الذين انضموا الى صفوفنا عام ١٨١١ ، في اسبانية ، وقاتلوا ضد ولينغتون ، والذين انضموا عام ١٨١٥ الى صفوف الانكليز وقاتلوا ضد نابوليون . كانت الخسارة في الضباط بالغة . كان اللورد اوكسبريدج ، الذي دفن رِجله في اليوم التالي ، قد اصيب بكسر في الركبة . واذا كان صراع الدارعين هذا قــد ادى ، عند الجانب الفرنسي ، الى ان يصبح « دولور » ، و « ليريتييه » ، و « كولبير » و « دنوب » و « ترافير » ، و « بلانكار » عاجزين عــن القتال ، فمن الجانب الانكليزي جُرح « آلتن » ، وجُرح « بيرن » ، وقُتل « ديلانسي » وقُتل « فان ميرلن » ، وصُرع « أومبتيدا » ، واصيبت هيئة اركان حرب ولينغتون كلها باعظم الخسارة ، ونالت انكلترة النصيب الاسوأ في هذا التوازن الدامي . كانت السرية الثانية من سرايا الحرس المشاة قد فقدت خمسة عُقداء ، واربعة رؤساء ، وثــلاث رايات . وكان الفوج

الاول من فرقة الرجالة الثلاثين قد فقد اربعة وعشرين ضابطاً ومئة واثني عشر جندياً . وكان اربعة وعشرون من ضباط القوات الاسكتلندية الجبلية قد جُرحوا ، وثمانية عشر ضابطاً قد قُتلوا ، واربعمئة وخمسون جندياً قد ذبحوا . وكانت خيالة كومبرلاند المانوفرية ، وهي سرية كاملة على رأسها « الزعيم هاكه » ، الذي حوكم فيما بعد وعُزل ، قد انقلبت على اعقابها قبل بدء القتال ، وولت هاربة في غابة سوانْيَ ، ناشرة الذعر حتى بروكسل . ولم تكد الكارّات ، وشاحنات الذخيرة الحربية ، وناقلات الامتعة ، وعربات الاسعاف الملأى بالجرحى ، لم تكد هذه كلها ترى الفرنسيين يتقدمون ، ويقتربون من الغابة ، حتى ولت على جناح السرعة . وصاح الهولنديون ، وقد انقضّت عليهم سيوف الفرسان الفرنسيين : « الى القتال ! » . ومن « فيرت كوكو » الى « غروننديل » ، وعلى مسافة فرسخين تقريباً في اتجاه بروكسل ، غصت الطرق ، وفقاً لشهادة شهود لا يزالون احياء ، بالفارين من الجند . وكان هذا الذعر من الشدة بحيث بلغ البرنس دو كونديه * في « مالين » ولويس الثامن عشر في « غان » . وباستثناء الاحتياطي الضئيل المرتب صفوفاً متتابعة خلف المستشفى المقام في مزرعة « مون سان جان » ولواءي « فيفيان » و « فانديلور » المواكبين للجناح الايسر ، لم يبق عند ولينغتون شيء من الخيالة . وكان عدد من المدافع ملقىً على الارض مفكك الاجزاء . تلك حقائق يعترف بها سيبورن . ويذهب برينغل ، مبالغاً في الكارثة ، الى حد القول إن الجيش الانكليزي الهولندي لم يسلم منه غير اربعة وثلاثين الف رجل . واحتفظ الدوق الحديدي ** بهدوئه ، ولكن شفتيه كانتا شاحبتين . وظن المفوض

---

* من امراء اسرة بوربون الفرنسية المالكة ، وكان قد هاجر من فرنسة عام ١٧٩٢ وشكل في كوبلنتز وعلى ضفاف الراين الجيش الموسوم بجيش دو كونديه .

** الدوق الحديدي Iron Duke هو اللقب الذي خُلع على ولينغتون لقوته الجسدية وإرادته التي لا تلين .

النمسوي ، فينسان ، والمفوض الاسباني ، آلافا ، اللذان شهدا المعركة الى جانب هيئة الاركان الانكليزية ، ان الدوق هالكٌ لا محالة .

وعند الساعة الخامسة سحب ولينغتون ساعته ، وسُمع يغمغم بهذه الكلمات الكالحة : « بلوخر ، او الليل ! » .

وفي هذه اللحظة تقريباً التمع صفٌّ من الحراب بعيدٌ فوق الربى القائمة وراء فريشمون .

تلك هي نقطة التحول في هذه المأساة العملاقة .

١١

دليل رديء لنابوليون ودليل جيد لبولوف *

كلنا نعرف غلطة نابوليون الموجعة ؛ كان يرجو أن يصل غروشي** ، فوصلَ بلوخر ؛ الموت بدلاً من الحياة .

إن للقدر مثل هذه الانحرافات . ففيما كان نابوليون ينتظر ان يتربع على عرش العالم ، اذا به يلمح جزيرة القديسة هيلانة .

لو ان راعي البقر الصغير الذي أرشد بولوف ، ساعد بلوخر الأيمن ، نصحه بأن ينطلق من الغابة التي فوق فريشمون بدلاً من الغابة التي تحت

---

* Bulow جنرال بروسي (١٧٥٥ – ١٨١٦) شارك مشاركة فعالة في معركتي ليبسيغ وواترلو .

** Grouchy مارشال فرنسا (١٧٦٦ – ١٨٤٧) ، وقد عهد اليه عشية واترلو بمطاردة البروسيين المهزومين في ليني ، ولكنه تركهم ينجون بانفسهم ويلتحقون بالانكليز ، على حين ظل هو بعيداً عن ميدان المعركة . وقد أنّب على تردده هذا الذي يعدّه الفرنسيون إجرامياً تقريباً .

بلانسنوا اذن لكان من الجائز أن يتغيّر شكل القرن التاسع عشر . كان خليقاً بنابوليون ، في هذه الحال ، ان يكسب المعركة . ذلك بأن ايما طريق غير الطريق الممتدة تحت بلانسنوا كانت خليقة بأن تقود الجيش البروسي الى واد تعجز المدفعية عن اجتيازه ، وإذن لما وصلَ بولوف .

ولو قد تأخر ساعة – بذلك يصرّح الجنرال البروسي موفلنج – لما وجدَ بلوخر ولينغتون صامداً . « كان الحلفاء قد خسروا المعركة » .

كان وصول بولوف قد حان ، كما رأينا . وكان قد تأخر كثيراً . لقد عسكر في الفضاء الطلق في « ديون لو مون » ، وانطلق عند الضحى . ولكن الطرق كانت غير سالكة ، وكان فصيله يغوص في الوحل . لقد ساخت المدافع في الثُّلَم حتى مراكز دواليبها . والى ذلك ، فقد تعيّن عليه أن يعبر الـ « ديل » * على جسر « فافر » الضيق . وكان الفرنسيون قد أضرموا النار في الشارع المؤدي الى الجسر. واذ لم يكن في ميسور عربات المؤن وناقلات المدافع أن تمرّ بين صفين من البيوت المحترقة فقد اضطرّ الى الانتظار حتى تُخمد النيران . كان النهار قد انتصف قبل ان يصل بولوف الى « شابيل سان لامبير » .

ولو قد بدأ القتال قبل ساعتين اثنتين اذن لانتهى في الساعة الرابعة، وإذن لبلغ بلوخر الميدان وقد كسب نابوليون المعركة . هكذا هي هذه المصادفات الهائلة التي حُفظت النسبة ما بينها الى لا نهاية لا نستطيع ان ندركها .

فمنذ الظهيرة كان الامبراطور قد لمح بمنظاره الحربي قبل أيّ من رجاله جميعاً عند أقصى الافق شيئاً سمّر انتباهه . وكان قد قال : « إني ارى هناك سحابة تبدو لي جيوشاً . » ثم سأل دوق دالماسية ** : « سولت ،

* La Dyle نهر في بلجيكة .

** هو اللقب الذي عرف به « سولت » بعد معاهدة « تلسيت » التي وقعت عام ١٨٠٧ بين نابوليون ، وألكسندر الاول امبراطور الروسيا ، وبروسية .

ماذا ترى نحو شابيل سان لامبير ؟ » وادار المارشال منظاره في ذلك الاتجاه ، واجاب : « خمسة آلاف رجل ، او ستة آلاف رجل ، يا مولاي . إنه غروشي من غير ريب . » وفي غضون هذا ، ظلّ ذلك الشيء جامداً وسط الضباب الكثيف . وفحصت مناظير اركان الحرب كلهم تلك « السحابة » التي اشار اليها الامبراطور . وقال بعضهم : « إنها كتائب تقف متمهلة . » وقال معظمهم : « إنها اشجار . » والحقّ ان السحابة كانت جامدة لا تتحرك . وعهد الامبراطور الى فصيل « دومون » المؤلف من خيالة خفيفة في استكشاف هذه النقطة الغامضة .

في الواقع ان بولوف لم يتحرك . كانت طليعة قواته ضعيفة جداً ، ولم تكن قادرة على شيء . لقد تعيّن عليه ان ينتظر جمّاع جيشه ، ولقد أُمِرَ بأن يركّز قواته قبل ان يتقدّم الى خط القتال . ولكنْ في الساعة الخامسة ، أصدر بلوخر أمره الى بولوف – وقد رأى الى الخطر يتهدّد ولينغتون – بأن يشنّ الهجوم ، ونطق بهذه الكلمة الرائعة :

– « يجب ان نعطي الجيش الانكليزي فرصةً للتنفس . »

وما هي الا برهة قصيرة حتى انتشرت فصائل « لوستين » ، و« هيلر » ، و « هاكه » و « رايسيلّ » أمام فيلق « لوبو » ، وانطلقت خيالة الامير وليم البروسي من غابة باريس ، وكانت النار تأكل بلدة بلانسنوا ، وشرعت قذائف المدافع البروسية تتساقط كالمطر حتى بين صفوف الحرس الاحتياطي خلف نابوليون .

١٢

الحرس

والبقية معروفة : غارة الجيش الثالث ، وتشوّش المعركة ، وإرعاد ستة وثمانين مدفعاً على نحو مفاجيء ، ومجيء بيرش الاول مع بولوف ، وخيالة زايتن يقودها بلوخر بنفسه ، وارتداد الفرنسيين الى الوراء ، وطَرْد « ماركونييه » من نَجْدِ أوهين ، وإخراج « دوروت » من « بابيلوت » ، ونكوص « دونزيلو » و « كييو » ، والهجوم على قوّات « لوبو » هجوماً جانبياً ، ومفاجأة كتائبنا المحطمة بمعركة جديدة عند هبوط الليل ، وانتقال الخط الانكليزي كله من الدفاع الى الهجوم وزحفه الى الامام ، والفجوة الهائلة التي حدثت في الجيش الفرنسي ، وتعاون المدفعية الانكليزية والمدفعية البروسية ، والافناء ، والكارثة التي حلّت بمقدّمة الجيش ، والكارثة التي حلّت بالجناح ، ودخول الحرس خطّ القتال وسط هذا الانهيار الفظيع .

واذ استشعروا انهم ذاهبون لملاقاة الموت فقد صاحوا : « فليحيي الامبراطور ! » وليس في التاريخ شيء يهز المشاعر اكثر من حشرجة الموت هذه المتفجرة في هتافات .

كانت السماء محجوبة بالغيوم طوال النهار . وفجأة ، وفي هذه اللحظة بالذات – كانت الساعة الثامنة مساء – انقشعت الغيوم عند الافق ، ومن خلال شجرات الدردار القائمة على طريق نيفيل تدفق ضياء الشمس المحتضرة الأحمر الكالح . كانت هذه الشمس قد اشرقت ، صباحاً ، على اوسترليتز .

وفي هذا الجهدْ الأخير ، كان كل فوج من أفواج الحرس يقوده جنرال . كان هناك « فرييان » ، و « وميشيل » ، « روغيه » ، و « هارليه » ، و « ماليه » ، و « بوريه دو مورفان » . وحين

برزت قبعات رماة القنابل من الحرس – تلك القبعات الطويلة ذات الصفائح النسرية – متسقةً، مصطفةً، رابطةَ الجأش، وسط دخان ذلك الصراع، استشعر العدوّ الاحترام لفرنسة. لقد حسبَ انه رأى عشرين انتصاراً تدخل ميدان القتال، منشورةَ الاجنحة، فاذا باولئـــك الذين كانوا غالبين يحسبون انفسهم مغلوبين، فينقلبوا على أعقابهم. ولكن ولينغتون صاح: « **انهضوا، أيها الحرس، وسدّدوا النار اليهم!** » ونهضت سرية الحرس الأنكليزية الحمراء، الجاثة خلف الاسيجة، وصبّت وابلاً من القنابل على الراية المثلثة الالوان الخافقة حـول نسورنا. واندفعوا جميعاً الى امام، وبدأت المجزرة الكبرى. واستشعر الحرس الامبراطوري ان الجيش يتقهقر من حولهم في الظـلام، كما استشعروا زلزلة الانهزام الهائلة. لقد سمعوا « **الفرارَ! الفرارَ!** » التي حلت محلّ « **فليحيي الامبراطور!** » ومع هروب الجند من ورائهم، استمروا في اندفاعهم الى امام، تسحقهم المدافع اكثر فاكثر، ويتلقّفهم المـــوتُ أسرع فأسرع عند كل خطوة. لم يكن ثمة لا مترددون، ولا جبناء. كان النفر في هذه الفرقة يضاهي الجنرال بطولة. إن رجلاً واحداً من أفرادها لم ينكص أمام الانتحار.

وتعرّض « ني » يائساً، متحققاً بكامل عظمة المـوت المرتضَى، لمختلف المخاطر في هذه العاصفة. لقد قُتل جواده الخامس من تحته. لقد صاح والعرق يقطر منه، والنار في عينيه، والزبد على شفتيه، وقـد فكّت ازرار سترته العسكرية، وقطعت احدى كتافتيه على نحو جزئي بضربة سيف من أحد الحرس الفرسان، واخترقت قنبلةٌ صفيحته التي تمثل نسراً كبيراً، وسال الدم منه، وتلوّث جسده بالوحل، واتشح بالبهاء، ولوّحت يده بسيف مكسور: « **تعالوا وانظروا كيف يموت مارشال من مارشالات فرنسة في ساحة المعركة!** » ولكن على غير طائل. إنه لم يمت. وعصفت به القسوة والغيظ. وطرح على « دروويه

ديرلون » هذا السؤال : « ماذا ! ألستَ تبذل جهدك لكي تموت ؟ »
وصاح وسط هذه الرجالة كلها التي تسحق حفنة من الجند : « **أليس ثمة شيء ، إذن ، من اجلي ؟ أوه ! اني أتمنى لو ان جميع هذه القذائف الانكليزية قد دُفنت في جسدي !** » يا لك من رجل بائس ! لقد ادُّخرتَ للقنابل الفرنسية !

١٣
النكبة

كان الانهزام من وراء الحرس فاجعاً .

لقد انكفأ الجيش فجاءةً ، ومن الجهات جميعاً في آن معاً ، من هوغومون ، من « لا هاي سانت » ، من بابيلوت ، من بلانسنوا . وأتبعت صيحة « خيانة ! » بصيحة « الفرارَ الفرارَ ! » . إن الجيش المنحلّ اشبه شيء بالثلج الذي يذوب . فكل شيء يلتوي ، ويتصدّع ، ويتقضقِض ، ويطفو ، ويتدحرج ، ويسقط ، ويتصادم ، ويُسرع ، ويغوص . ويستعير « ني » جواداً ، ويثب عليه ، من غير قبعة ، او ربطة عنق ، او سيف ، وينطلق الى طريق بروكسل ممسكاً بالانكليز والفرنسيين على السواء . انه يحاول الابقاء على الجيش . انه يدعوهم الى العودة ؛ إنه يعنّفهم ؛ إنه يصارع الهزيمة . ويفرّ الجند منه صائحين : « فليحيَ **المارشال** ني ! » وتجيء سريّتا « دوروت » وتروحان ، مذعورتين ، تتقاذفهما سيوف الفرسان الالمان ونيران ألوية « كمبت » ، و « بست » ، و « باك » ، و « رايلانت » . والحق ان الهزيمة اسوأ المعارك . فالاصدقاء يذبح بعضهم بعضاً لكي يفرّوا ، وكتائب الخيالة وافواج المشاة يسحق بعضها بعضاً ويشتت بعضها بعضاً ،

زَبَدُ المعركة الضخم . إن الفيضان ليجرف « لوبو » من ناحية ، و « ريّ » من ناحية اخرى . وعبثاً يحاول نابوليون ان يُقيم بالبقية الباقية من حرسه سدوداً . عبثاً يقذف بكوكبة فرسانه الاحتياطية في جهد أخير . ويتقهقر « كييوت » في وجه « فيفيان » ، و « كيلرمان » في وجه « فاندولور » ، و « لوبو » في وجه « بولاو » ، و « موران » في وجه « بيرش » ، و « دومون » و « سوبرفيك » في وجه الامير غليوم البروسي . ويخرّ « غويو » الذي قاد خيالة الامبراطور تحقيقاً للمهمة التي عهد اليه بها ، تحت سنابك الخيل الانكليزية . ويسرع نابوليون الى الجنود المدبرين ، ويخطب فيهم ، ويحضّهم ، ويهددهم ، ويتوسل اليهم . وتظلّ جميع تلك الافواه التي هتفت في الصباح « فليحيي الامبراطور » فاغرةً مشدوهة . إن جنوده لا يكادون يعرفونه . وإن الخيالة البروسية ، التي أقبلت اللحظة ، لتندفع الى امام ، وتلقي بنفسها على العدو ، وتُعمل سيوفها ، وتقطع ، وتحتزّ ، وتقتل ، وتبيد . إن الدوابّ المقرونة لتثب ، وإن المدافع لتُعنى بنفسها ، وإن جنود القُطُر ليحلّون الخيل من العربات ويمتطون متونها هاربين ؛ وإن العربات لتطرح على الارض وقد انتصبت عجلاتها الاربع في الهواء ، فهي تعترض الطريق ، وهي تشارك في المذبحة . إن الجنود لينسحقون ، وإنهم ليُداسون . إنهم يمشون على الاحياء وعلى الاموات . إن الأذرع لمبتورة . وإن جمهرةً توقع الدوار في الرأس لتملأ الطرق ، والازقة ، والجسور ، والسهول ، والتلال ، والاودية ، والغابات ، التي غصّت بهذا الفرار يقوم به اربعون الف رجل . لقد أُلقيَت الصيحات ، وأُلقي اليأس ، وأُلقيت الاكياس والبنادق في الجاودار : مجازٌ شُقّ بحدّ السيف . لم يعد ثمة رفاق ، ولم يعد ثمة ضباط ، ولم يعد ثمة جنرالات ، هلعٌ لا سبيل الى وصفه . كان « زايتن » يُعمل السيف في جسم فرنسة من غير ما عناء . وكان الأسود قد أصبحوا يحاميرَ * . كذلك كان هذا الفرار .

* جمع يحمور . واليحمور دابة تشبه العنز .

وفي جيناب بُذل جهدٌ للعودة ، لتكوين جبهة ، للمقاومة . وجمع « لوبو » شمل ثلاثمئة رجل . وكان مدخل القرية قد سُدّ بالمتاريس . ولكن ما ان انطلقت اول مجموعة من القذائف البروسية حتى عاودوا الفرار جميعاً ، وأُسِرَ « لوبو » . إن آثار تلك القذائف لا تزال تبدو اليوم على جدار مثلث جانبيّ عتيق من خربة قائمة الى يمين الطريق ، على مسيرة بضع دقائق من مدخل جيناب . وانقض البروسيون على جيناب ، وقد عصف بهم الغيظ من غير شك لهزال الفتح الذي تمّ لهم. وكان التعقب رهيباً . فقد اصدر بلوخر امره بالابادة . وكان « روغيه » قدوةً سيئة في هذا المضمار حين هدّد بالموت كل رامي قنابل فرنسي يسوق اليه أسيراً بروسياً . ولكن بلوخر فاق روغيه . فقد القي القبض على « دوهيزم » ، جنرال الحرس الفتيان ، عند باب فندق في جيناب ، فسلم سيفه الى فارس من « فرسان الموت » ، فما كان من هذا الفارس إلا ان اخذ السيف وقتل الأسير . لقد أكمل النصر بذبح المغلوبين . فلنعاقب ، ما دمنا نحن التاريخ : لقد تسربل بلوخر بالعار . وكانت هذه الوحشية ذروة الكارثة . واجتازت فلول المنهزمين البائسة « جيناب » ، واجتازت « كاتر برا » ، واجتازت « غوزيلي » ، واجتازت « فران » ، واجتازت « شارلروا » ، واجتازت « تون » ، ولم تقف إلا عند الحدود . واأسفاه ! ومن الذي كان يفرّ الآن على هذا النحو ؟ الجيش العظيم .

هذا الجنون ، هذا الهول ، هذا الانهيار الذي اصاب أسمى شجاعة قُدّر لها ان تُدهش التاريخ ، أيمكن ان يكون هذا كله من غير سبب ؟ لا . ان ظِلّ يد يمنى هائلة ليخيم على واترلو . إنه يوم القدر . لقد هيمنت قوة فوق الانسان على ذلك اليوم . ومن هنا ، فقدان الرشد بالذعر . ومن هنا استسلام هذه النفوس الكبيرة كلها . لقد سقط اولئك الذين فتحوا اوروبة على الارض ، بعد ان لم يجدوا شيئاً اضافياً

يقولونه او يعملونه ، مستشعرين وجوداً رهيباً في الظلام . *Hoc erat in fatis* * في ذلك اليوم ، تغيّر مستقبل الجنس البشري . إن واترلو هي مَفصِل الباب الذي دار عليه القرن التاسع عشر . فقد كان زوال الرجل العظيم ضرورياً لمجيء القرن العظيم . ولقد تولى القيام بهذه المهمة كائنٌ ما ، لا يُناقَش في ارادته . وهكذا يُفصح ذُعر الابطال عن نفسه . إن في معركة واترلو اكثر من سحابة ، إن فيها شهاباً . لقد مرّ الرب من فوقها .

وفيما الليل يهبط على ساحة قرب جينابّ أوقف « برنار » و « برتران » ، بعد ان امسكا بذيل معطفه ، رجلاً شكساً ذاهلاً كالح الوجه كان التيار قد استاقه حتى تلك النقطة ، ثم ترّجل وأمرّ زمام فرسه تحت ذراعه ورجع ادراجه وحيداً شارد النظرات نحو واترلو . كان هو نابوليون ، وكان يحاول الهجوم كرة اخرى : عملاقٌ يسير ، وهو نائم ، في غمرة هذا الحلم المنهار .

١٤

المربع الأخير

كانت بضعة مربعات من الحرس قد صمدت حتى الليل ، غير متحركة وسط تيار الانهرام ، فكأنها الصخور وسط المياه الجارية . لقد دنا الليل ، ودنا الموت ايضاً ، ولكنها انتظرت هذا الظلام المزدوج ، واستسلمت غير متزعزعة لعناقه . كانت كل سرية ، وقد انعزلت عن سائر السرايا ، وانقطع كل اتصال لها بالجيش ، الذي كان ينهار في

* تعبير لاتيني من كلام هوراس معناه : « ذلك ما كنت ارغب فيه » . وهو يذكر حين يتحدث عن أمنية يكون في تحقيقها استجابة لجميع الرغبات .

الجهات جميعاً – كانت كل سرية تموت وحدها . لقد اتخذت تلك السرايا مواقع لهذا الصراع النهائي : بعضها فوق روابي روسوم وبعضها في سهل « مون سان جان » . وهناك ، حشرجت هذه المربعات الكالحة مهجورةً ، مغلوبةً ، فظيعةً – على نحو رهيب . كانت « أولم » * و « واغرام » ** و « جينا » *** و « فريدلاند » **** تموت فيها .

وعند الغسق ، حوالي الساعة التاسعة مساءً ، وعلى سفح نجْدِ « مون سان جان » لم يبق غير مربع واحد . في هذا الوادي المشؤوم ، وعند قعر ذلك المنحدر الذي تسلّقه الدارعون والذي ازدحمت فيه الآن الحشود الانكليزية ، وتحت النيران المركزة التي صوّبتها مدفعية العدوّ المنتصرة ، وتحت عاصفة رهيبة من القذائف ، واصلَ هذا المربّع القتال . كان يقوده ضابط مغمور يدعى كامبرون . وعند كل طلقة ، كان هذا المربع يتناقص ولكنه يردّ على النار . كان يردّ على قذيفة المدفع برصاص البندقية ، مضيّقاً جدرانه الاربعة على نحو موصول . ومن بعيد ، كان الجنود الفارون يسمعون وسط الظلام – وقد وقفوا لحظةً لاهثين – هذا الرعدَ الكئيب يتضاءل .

وحين أمسى ذلك الفيلق مجرد حفنة من الرجال ليس غير ، حين أمست رايتهم مجرد خرقة ليس غير ، حين أمست بنادقهم ، وقد

* Ulm مدينة من مدن وورتمبيرغ ، الدويلة الالمانية القديمة ، وتقع على الداتوب واشتهرت بالمعركة التي دارت فيها (٢٠ تشرين الاول ١٨٠٥) بين النمسويين والفرنسيين وانتهت بهزيمة القوات النمسوية ، يقودها الجنرال « ماك » Mack في وجه نابوليون .

** Wagram قرية في النمسا ، قرب فيينا ، حيث انتصر نابوليون انتصاراً باهراً على الارشيدوق شارل ، في ٦ تموز ١٨٠٩ .

*** Jena مدينة المانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين (١٤ تشرين الاول ١٨٠٦)

**** Friedland احدى مدن بروسية الشرقية ، وقد انتصر فيها نابوليون على الروس (١٤ حزيران ١٧٠٨) وعلى اثر هذه المعركة عقدت معاهدة تلسيت الشهيرة .

أعوزتها الذخيرة ، بجرد عصيّ ليس غير ، حين امسى ركام الاموات اكبر من مجموع الأحياء ، دبّ في نفوس الفاتحين ضربٌ من الذعر المقدس حول هؤلاء الشهداء العظام ، واعتصمت المدفعية الانكليزية – وقد وقفت لتأخذ نفساً – بحبل الصمت . كان ذلك نوعاً من الاستراحة . ذلك بان هؤلاء المقاتلين وجدوا حولهم شبه جماعة من الاشباح ، وخيالات الرجال الداكنة على صهوات الخيل ، وصورة المدافع الجانبية السوداء ، والسماء البيضاء وقد تبدت من خلال الدواليب وعربات المدافع . لقد تقدم نحوهم رأس المنية الهائل الذي يلمحه الابطال دائماً وسط دخان المعركة ، وحدّق اليهم . لقد سمعوا في ظلمة الغسق شحْن المدافع بالقذائف ؛ وطوّقت الفتائل المشعَلة رؤوسهم وكأنها عيون الاغوار في الليل ، وواكبت المدفعيةَ الانكليزية جميعُ القضبان المزوّدة رؤوسها بفتائل لاطلاق النار من المدافع ، وفجأة انبرى جنرال انكليزي تأثر بتلك البطولة ، فأمسك بلحظة الموت المتدلية فوق رؤوس هؤلاء الرجال ، وكان هذا الجنرال هو « كولفيل » عند بعضهم و « ميتلاند » عند بعضهم الآخر – وصاح مخاطباً اياهم : « ايها الفرنسيون البواسل ، استسلموا ! » فأجابه كامبرون : « خِراء ! »

١٥
كامـــبرون

إن الاحترام للقاريء الفرنسي يقضي بأن لا نكرر على مسمعه كلمة قد تكون اروع ما نطق به فرنسيّ مدى الدهر . فمن المحظور علينا ان نتخلى عن الاسلوب الرفيع في التاريخ .

ولكننا ، على مسؤوليتنا ، ننتهك حرمة هذا الحظر .

واذن ، فقد كان بين هؤلاء العمالقة جبار ، إنه كامبرون .
واي شيء اعظم من ان تقول تلك الكلمة ، ثم تموت بعد ذلك ! لأنّ تقبُّلك الموت يعْدل الموت . وليس الخطأ على هذا الرجل اذا كان قد عُمّر وسط عاصفة من القذائف .
ان الرجل الذي كسب معركة واترلو ليس نابوليون المنقلب على عقبيه ، وليس ولينغتون المنكفيء في الساعة الرابعة ، اليائس في الساعة الخامسة . وليس بلوخر الذي لم يقاتل قط . إن الرجل الذي كسب معركة واترلو هو كامبرون ..
فلأن تفجّرَ مثل هذه الكلمة في وجه الصاعقة التي تقتلك يعني النصر . ولأن تردّ على الكارثة بهذا الجواب ؛ أن تقول هذا للقدَر ؛ ان يقدم عذه القاعدة لأسد المستقبل ؛ أن تصفع بهذه الاجابة مطَر الليلة البارحة ، وجدار هوغومون الخائن ، وطريق أوهين الغائر ، وتأخر غروشي ، ووصول بلوخر ؛ ان تكون ساخراً امام عتبة القبر ؛ أن تسلك و كأنك تريد ان تظل واقفاً بعد ان يتحتم عليك السقوط على الارض ؛ ان تُغرق بمقطعين اثنين التحالف الاوروبي ؛ أن تقدّم الى الملوك هذه المراحيض التي عرفها القياصرة من قبل ؛ ان تجعل آخر الكلمات أُولاها بان تضمّ اليها مجد فرنسة ؛ ان تختم واترلو ، في سفاهة ، بثلاثاء المرفع * ؛ ان تُكمل ليونيداس ** بـ « رابليه » *** ؛ ان تلخص هذا النصر بكلمة عليا لا يمكن ان

* هو آخر ايام الكارنفال عند الطوائف الغربية .
** ليونيداس الاول ملك اسبارطة من ٤٩٠ — ٤٨٠ ق . م وهو بطل فجاج الـ « تيرموبيل » في تسالية وقد دافع عنها ضد الفرس وليس معه غير الثلاثة رجل . واذ لم يستطع ملك الفرس ان يصدق ان في ميسور هذه الحفنة من الرجال ان تصده عن سبيله بعث الى ليونيداس برسالة يقول فيها : « الق سلاحك ! » فكتب الاسبارطي في ادنى الرسالة : « تعال وخذه ! »
*** Rabelais الاديب الفرنسي الانساني الشهير (١٤٩٤ — ١٥٥٣) ولم يكن يجد حرجاً في ان يضمن كتاباته بعض الالفاظ البذيئة .

تلفظ ؛ ان تخسر الميدان وتحتفظ بالتاريخ ؛ أن تكون الضحكة الى جانبك بعد هذه المجزرة كلها - أن تفعل ذلك كله شيء عظيم فائق كل حدّ .

إنها إهانة للصاعقة . وفي ذلك ما يسمو الى مرتبة العظمة الاشيلية .

ان كلمة كامبرون هذه لتخلّف أثراً كأثر الانفصاف . انها انكسار قلبٍ بالسخرية ؛ انها طِفاح الحشرجة الذي ينفجر . من الذي غَلَب ؟ ولينغتون ؟ لا . فلولا بلوخر لهلك . بلوخر ؟ لا . فلو لم يبدأ ولينغتون لما كان في ميسور بلوخر ان يُنهي . إن كامبرون هذا ، إن عابر اللحظة الاخيرة هذا ، إن هذا الجندي المغمور ، إن صغير الحرب هذا المتناهي في الصغر ليحسّ بان ثمة كذبة في كارثة — شيء مرير على نحو مزدوج — وفي اللحظة التي كان ينفجر خلالها من الغيظ تُقَدِّم اليه هذه السخرية اللاذعة : الحياة ! فكيف يستطيع ان يملك نفسه ؟ إنهم كلهم هناك ، ملوك اوروبة جميعاً ، والجنرالات السعداء ، والجوبتيرات * المرعدون . إن معهم مئة الف من الجنود المنتصرين ، وان خلف المئة الف ، مليوناً . إن مدافعهم ، وقد أشعلت فتائلها ، لتفغر أفواهها . لقد داسوا « الحرس الامبراطوري » و « الجيش العظيم » بأقدامهم . لقد سحقوا نابوليون ، ولم يبقَ غير كامبرون وحده . لم يبق احد غير حشرة الارض هذه لكي تحتجّ . ولسوف يحتجّ . ثم إنه يبحث عن كلمة كما يبحث المرء عن سيف . ويُزْبد فمه ، فيكون هذا الزبد هو الكلمة . فأمام هذا النصر الاعجوبي المزبل ، امام هذا النصر الذي لا منتصرين فيه ، يتصدّر هذا الرجل اليائس . انه يقاسي ضخامته ، ولكنه يستجلي عدميّته ، فلا يزيد على ان يبصق عليه . واذ كان يرزح تحت ثقل الارقام والقوة المادية ، يعثر في روحه على تعبير — الغائط .

* جمع جوبتير ، او المشتري ، وهو في الميثولوجيا الرومانية أبو الآلهة وسيدهم ؛ ويقابله « زيوس » عند الاغريق .

ونكرّر ما قلناه من قبل : إن قول ذلك ، إن عمل ذلك ، إن العثور على ذلك ، يجعل كامبرون هو المنتصر .

لقد نفذت روح الايام العظيمة الى هذا الرجل المغمور ، عند تلك اللحظة المشؤومة . ويجد كامبرون كلمة واترلو ، كما يجد روجيه دو ليل * المارسييز ، بإلهام علويّ . ان ومضة من الصاعقة الالهية لتنطلقُ ، فتمرّ من فوق هذين الرجلين فيرتعدان ، فأما احدهما فينشد النشيد الأسمى ، واما الآخر فيطلق الصيحة الفظيعة . وهذه الكلمة ذات السخرية الجبارة ، لا يقذف بها كامبرون في وجه اوروبة وحسب ، باسم الامبراطورية ، فجديرٌ بهذا ان يكون قليلًا . إنه يقذف بها في وجه الماضي ، باسم الثورة . وتسمع تلك الكلمة ، ويكتشف النـــاس ، في كامبرون ، روح العمالقة القديمةَ . لقد بدت وكأنها خطاب لدانتون ، او زأرة لكليبير . **

ورداً على كلمة كامبرون هذه أجاب الصوت الانكليزي : « النار ! » والتهبت المدافع ، وارتجفت التلة ، ومن جميع الافواه النحاسية انطلق قيء من القذائف نهائيّ ، مروّع . والتف دخان عريض باهت البياض على ضوء القمر الطالع ، وحين تبدّد الدخان لم يبق ثمة شيء . لقــد أبيدت تلك البقية المخيفة ؛ لقــد لقي الحرس حتفهم . كانت جدران المتراس الحيّ الاربعة قد انهارت ، فما يكاد المرء يتبين ههنا وههناك اختلاجة بين الجثث . وهكذا قضت الفيالق الفرنسية ، وهي اكبر من الفيالق الرومانية ، نحبها ، في « مون سان جان » ، فوق ارض منقوعة بالمطر والدم ، في حقول القمح القاتمة ، حيث يمرّ اليوم عند الساعة الرابعة

---

* Roger de l'Islé وهو الذي وضع ، عام ١٧٩٢ ، نشيد فرنسة الوطـــني ، المارسييز : Marseillaise

** Kléber جنرال فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٠٠) تولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر بعد عودة بونابرت . وقد قتل بيد احد المماليك .

صباحاً ، جوزيف الذي يقود عربة البريد من نيفيل ، صافراً مبتهجاً وهو يُلهب حصانه بالسوط .

١٦

كم بارة في الليرة ؟

إن معركة واترلو لغز . إنها مغلقةٌ دون أفهام الذين كسبوها والذين خسروها على السواء . لقد كانت في نظر نابوليون ، ذعراً * ولم يكن بلوخر ليرى فيها غير نار . أما ولينغتون فليس يفهم منها شيئاً . أنظر الى التقارير . إن البيانات الرسمية لمضطربة ، وإن الشروح لغامضة . الاولى تتلجلج ، والاخرى تتلعثم . لقد جزّأ جوميني معركة واترلو أدواراً اربعة . وقسمها موفلنغ الى ثلاث من دورات الحظ . أما شارّا فكان هو وحده – برغم اختلافنا معه في الرأي ، في بعض النقاط – الذي ادرك بثاقب نظره الملامح المميّزة لكارثة العبقرية الانسانية تلك في صراعها مع القَدَر الالهي . على حين ان سائر المؤرخين يعميهم البهاء ، فهم يتلمّسون طريقهم في ذلك الظلام . إنه في الحق يومٌ ساطعٌ كالبرق ، يومُ سقوط الملكية العسكرية الذي جرّ وراءه – ويا لدهشة الملوك ! – الممالكَ جميعاً ؛ يومُ انهيار القوة ، وانهزام الحرب .

وفي هذا الحدث ، الحامل طابع الضرورة فوق البشرية ، لم يكن دور الانسان شيئاً مذكوراً .

* « لقد اختُتمت معركة ، وأُكمل يوم ، وأُصلحت مقاييس فاسدة ، وضُمنت للغد انتصارات أعظم – ولكن كل ذلك ضاع في لحظة من الذعر . »

(نابوليون : أماليّ سانت هيلانة .)

[هذه الحاشية منقولة عن الاصل الفرنسي]

أيؤدي انتزاع واترلو من ولينغتون ومن بلوخر الى انتزاع شيء من انكلترة والمانيه ؟ لا . إن أياً من انكلترة المجيدة أو المانية الجليلة ليست هي المقصودة في مشكلة واترلو . ومن نعم السماء أن الشعوب لا تتأثر بحظوظ السيف الفاجعة . فلا المانية ، ولا انكلترة ، ولا فرنسة حُبست في غمد . ففي هذه الحقبة التي كانت واترلو فيها صليلَ سيوف ليس غير ، كانت المانية تزهو ، فوق بلوخر ، بـ « غوته » ، وكانت انكلترة تزهو ، فوق ولينغتون ، بـ « بايرون » . إن نهضة فكرية واسعة لتميز عصرنا ، وإن لانكلترة وألمانية نصيباً رائعاً في هـذا الفجر . إنهما عظيمتان لأنهما تفكران . وان المستوى الذي يرفعان الحضارة اليه جوهريّ فيهما . إنه ينبثق من ذاتيهما ، لا من حادثة بعينها . إن التقـدم الذي حققتاه في القرن التاسع عشر لا ينبع من واترلو . فالشعوب المتبربرة وحدها هي التي تنعم بنموّ مفاجيء بعد إحرازها نصراً ما . إنـه صَلَفُ السّيول الزائل وقد نفختها العاصفة . اما الشعوب المتمدنة ، وبخاصة في زماننا هذا ، فلا يرفع من قدرها او يحطّ منه حسن طالع قائدٍ عسكري او سوء طالعهِ . إن ثقلها النوعي في الجنس البشري لينشأ عن شيء اكثر من الحرب . إن شرفها — والحمـد لله — وكرامتها ، وضياءهـا ، وعبقريتها ، ليست ارقاماً يستطيع الابطال والفاتحون — اولئك المقامرون — ان يقذفوا بها في يانصيب المعارك . وكثيراً ما تكون المعركة الخاسرة تقدّماً يُحرَز . مقدار اقلّ من المجد ، يقابله مقدار أكثر من الحرية . إن الطبل ليصمت ، وإن العقل ليتكلم . تلك هي اللعبة التي يربح فيها الفريقُ الخاسر . فلنتحدث إذن عن واترلو ، في برود ، من الجانبين . فلنُرجع ما للحظ الى الحظّ ، ولنُرجِع ما لله الى الله . مـا هي واترلو ؟ نَصر ؟ لا . إنها يانصيب .

يانصيب ربحته اوروبة ، ودفعته فرنسة .

ولم يكن كثيراً ان يقام تمثال اسدٍ هناك .

وواترلو ، فوق هذا ، أعجب موقعة في التاريخ . نابوليون وولينغتون : إنهما ليسا عدوّين ، إنهما نقيضان . فلم يُقِم الله في يوم من الايام - وهو المولع بالمتناقضات - مغايرةً اكثر روعة ، والتقاء أشدّ خروجاً على نسق العادة . فمن جانب ، كانت الدقة ، والتبصّر ، والهندسةُ ، والفطنة ، والتقهقر المضمون ، والاحتياطي المقتصَد فيه ، ورباطة الجأش العنيدة ، وطريقة ثبتة الجنان ، واستراتيجية تقوم على الاستفادة من الارض ، وفنّ حربيّ يهدف الى اقامة الموازنة بين الافواج ، ومجزرة تُساق الى خط القتال ، وحرب تدار والساعة في اليد ، وعدم ترك شيء - على نحو إرادي - للمصادفة ، وشجاعة كلاسيكية قديمة ، والضبط المطلق . ومن جانب آخر ، كان الحدس ، والالهام ، والاعجوبة العسكرية ، والغريزة فوق البشرية ، واللمحة الملتهبة ، وشيء خفيّ يحدّق كالنسر ، ويصعق كالصاعقة ، وفنّ مدهش في اندفاع ينضح بالاحتقار ، وجميع اعاجيب النفس البعيدة الغور ، والألفة مع القدَر ، ودعوة النهر والسهل والغابة والكثيب ، بل إكراهها بمعنى من المعاني ، على الخضوع ، وذهاب الطاغية الى حدّ فرض طغيانه على ميدان المعركة ، والايمان بطالع مقرون الى العلم الاستراتيجي فهو يزيده ، ولكنه يكدره . كان ولينغتون « باريم » * الحرب ، وكان نابوليون « ميكال آنجها » ** ، وهذه المرة غلب الحسابُ العبقرية .

كان كل من الفريقين ينتظر شخصاً ما . وكان الحاسب الدقيق هو الذي نجح . نابوليون انتظر غروشي ، فلم يجيء . وولينغتون انتظر بلوخر ، وقد جاء .

إن ولينغتون هو الحرب الكلاسيكية تنتقم . وكان نابوليون ، وهو في فجره ، قد التقاها في ايطالية ، وهزمها بسموّ . لقد فرّت البومة

* B.F.Barême رياضي شهير وضع جدول حسابات حاضرة للاستعمال ، عرف باسمه .

** ميكال آنج ، العبقري الايطالي الشهير ، وكان رساماً ، ونقاشاً ، ومعماراً وشاعراً في آن معاً .

العجوز من وجـــه العُقاب الشاب . ان الفنّ الحربي القديم لم يُصعق فحسب ، ولكنه أُهين إهانة قاتلة . من كان هذا الكورسيكيّ ذو الستة والعشرين ربيعاً ؟ ما معنى هذا الجاهل الباهر الذي كان كل شيء ضده، ولا شيء معه ، والذي لم يكن عنده مؤن ، ولا ذخائر ، ولا مدافع، ولا احذية ، والذي كان من غير شيء تقريباً فليس معه غير حفنة من الرجال يواجه بها الحشود الغفيرة ، ومع ذلك فقد هجم عـــلى اوروبة المتحالفة و كـسب ، على نحو غير معقول ، انتصارات كانت مستحيلة ؟ من اين اقبل هذا المجنون الصاعق الذي وُفق من غير ان يأخذ نفَساً تقريباً ، وفي يده مجموعة المقاتلين نفسها ، الى ان يسحق جيوش امبراطور المانية الخمسة ، واحداً إثر واحـــد ، منكّساً « بوليو » * عـــلى « آلفينزي » ** ، و « وورمسر » *** عـــلى « بوليو » ، و « ميلاس » **** على « وورمسر » ، و « ماك » ***** عـلى « ميلاس » ؟ من هذا الوافد الجديد على دنيا الحرب بوقاحة كوقاحة الكواكب ؟ لقد اصدرت المدرسة الحربية الاكاديمية حَرْمها ضده فيما هي تولي فراراً . ومن هنا تلك الكراهية الحقود التي ابداها نظـام الحرب القديم نحو الجديد ، والحسام الصحيح نحـــو السيف المتألق ، ورقعة الشطرنج نحو العبقرية . وفي ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ كانت لهذه الكراهية

---

* Beaulieu جـــنرال نمسوي (١٧٢٥ – ١٨١٩) اشترك في حرب السنوات السبع ، وهزمه بونابرت في ايطالية .

** Alvinzy جنرال نمسوي (١٧٣٥ – ١٨١٠) هزمه بونابرت في آركولا عام ١٧٩٦ وفي ريفولي عام ١٧٩٧ .

*** Wurmser جنرال نمسوي (١٧٢٤ – ١٧٩٧) هزمه بونابرت في كاستيغليون من اعمال ايطالية .

**** Melas جنرال نمسوي (١٧٢٩ – ١٨٠٦) هزم في مارانغو .

***** Mack جنرال نمسوي (١٧٥٢ – ١٨٢٨) وقد حاصره نابوليون في « أولم » فاستسلم هو وجنوده الثلاثون الفاً من غير قتال .

الكلمة الاخـــيرة ، وتحت « لودي » * و « مونتبيـــلو » ** و « مونتينوت » *** و « مانتو » **** و « ماراغنو » و « آركولا » ***** كتبت : **واترلو** . انتصار العاديّ ، وإنه لمذب في نفوس الاكثريات . وارتضى القدر هذه السخرية . ففي ساعة سقوطه وجد نابوليون نفسه امام « وورمسر » كرة اخرى ، ولكن « وورمسر » كان غضّ العود هذه المرة .

والحق انه لم يكن محتاجاً الى أكثر من تبييض شعر ولينغتون لكي يرى « وورمسر » رأي العين .

إن واترلو معركة من الطراز الاول كسبها قائدٌ من الطراز الثاني.

وإن ما ينبغي ان نعجب به في معركة واترلو هو انكلـــترة ، هو الصلابة الانكليزية ، هو العزم الانكليزي ، هو الدم الانكليزي . إن الشيء الرفيع الذي كان لانكلترة هناك – وأرجو ان لا يسوءها ذلك – هو ذاتها . إنه لم يكن قائدها ، ولكن جيشها .

لقد وجّهَ ولينغتون ، في عقوق عجيب ، رسالةً الى اللورد باثورست ، صرّح فيها بأن جيشه ، ذلك الجيش الذي قاتل في ١٨ حزيران ١٨١٥، كان « جيشاً بغيضاً » . فما رأي هذا المجتمـــع الداكن من العظام الدفينة تحت اخاديد واترلو ، في ذلك ؟

لقد كانت انكلترة متواضعة ، اكثر مما ينبغي ، إزاء ولينغتون .

---

* Lodi مدينة في ايطالية انتصر فيها بونابرت على النمسويين عام ١٧٩٦

** Montebello قرية ايطالية هزم فيها النمسويون مرتين ، الاولى على يد القائد لان Lannes سنة ١٨٠٠ والثانية على يد الجنرال فوري Forey عام ١٨٥٩ وانما يشير المؤلف الى الهزيمة الاولى.

*** Montenotte قرية في ايطالية ، انتصر فيها بونابرت على قوات بوليو النمسوية عام ١٧٩٦

**** Mantoue مدينة ايطالية حصينة استولى عليها بونابرت عام ١٧٩٧

***** Arcola من اعمال ايطالية ، حيث هزم بونابرت النمسويين واظهر بسالة شخصية فائقة (١٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٦) .

والواقع ان في تعظيم ولينغتون الى هذا الحد انتقاصاً من قدر انكلترة. فليس ولينغتون غـــير بطل مثل سائر الأبطال . ولكن هذه القوات الاسكتلندية الرمادية ، هؤلاء الحرس الفرسان ، هذه السرايا التي قادها « ميتلاند » و « ميتشيل » ، وهؤلاء الرجـالة الذين قادهم « باك » و « كمبت » ، وهذه الخيالة التي على رأسها « بونسونبي » و « سومرست » ، وهؤلاء الاسكتلنديون الجبليون العازفون على مزاميرهم تحت وابـــل القذائف ، وافواج « رايلانت » هذه ، وهـؤلاء المجندون الجدد الذين ما يكادون يعرفون كيف يطلقون النار من البندقية ، والذين صمدوا في وجه افواج « إيسلنغ » * و « ريفـــولي » ** ولكن ذلك كله هو العظيم حقاً . لقد كان ولينغتون عنيداً ، وتلك مـــوهبته ، ونحن لا ننتقص من قدرهـا . بيد أن اصغر جندي من جنوده الرجالة او من جنوده الخيالة تكشّف عن صلابة لا تقلّ عن صلابته . كان الجنـــدي الحديدي يَعدِل « الدوق الحديدي » . *** اما نحن ، فكلّ تمجيدنا ينصبّ على الجندي الانكليزي ، والجيش الانكليزي ، والشعب الانكليزي. واذا لم يكن بدّ من إقامة نُصُب لذكرى انتصار ، فأن انكلترة هي التي تستحق هـذا النصب . ولقد كان نصبُ واترلو خليقاً بأن يكون اقرب الى تمثيل الواقع لو رفع الى الغمام تمثالَ أمة ، لا وجهَ رَجُل .

ولكن انكلترة العظيمة هذه سوف تغضب لما سنقوله هنا . إنها لا تزال تحتفظ ، بعد عام ١٦٨٨ **** ، وهو عامها ، وبعد عام ١٧٨٩ *****

* Essling قرية نمسوية ، انتصر فيها الفرنسيون على النمسويين سنة ١٨٠٩ .

** Rivoli قرية ايطالية هزم فيها بونابرت النمسويين سنة ١٧٩٧ .

*** يقصد ولينغتون .

**** هو العام الذي ثار فيه الشعب الانكليزي على الملك جيمس الثاني ، وخلعه . وتعرف هذه الثورة بالثورة المجيدة . وقد كان من نتائجها اصدار الـــبرلمان « بيان الحقوق » المشهور .

***** عام الثورة الفرنسية .

وهو عامنا ، بالوهم الاقطاعي . إنها تـــؤمن بالحق الموروث ، وبنظام المراتب . وهذا الشعب ، الذي لا يفوقه احدٌ قوةً ومجداً ، يعـــتزّ بنفسه كدولة لا كشعب . والانكليز يغالون في ذلك الى درجة تجعلهم يخضعون ، بوصفهم شعباً ، خضوعاً إرادياً ، ويرئـّـون عليهم لورداً من اللوردات . فأما العامل فهم يُجيزون ازدراءه ، وأما الجندي فهم يجيزون جلده بالسياط . ونحن نذكر أنــــه في معركة إنكرمانٌ * انقذ جندي ، برتبة رقيب ، الجيشَ كله ، في ما يبدو ، ومع ذلك فــلم يكن في ميسور اللورد راغـــلان ** ان ينوّه باسمه ، لأن المَرْتبية العسكرية الانكليزية لا تسمح بأن يشاد في التقارير باسم أيـــا بطل لمّا يصلْ الى مرتبة الضباط .

إن ما يعجبنا فوق كل شيء ، في واقعة مثل واترلو ، براعةُ الحظ الاعجوبية . هطول المطر ليلاً ، جدار هوغومون ، طريق أوهين الغائرة ، صمم غروشي عن صوت المدفع ، دليل نابوليون الذي يخدعه ، ودليـل بولوف الذي يهديه سواء السبيل – كل هذا الطوفان قد سِيق على نحو رائع عجيب .

وعلى الجملة – ولنقلْ ذلك – فأن واترلو مذبحةٌ اكثر منها معركة .

فبين جميع المعارك العظمى كانت واترلو هي صاحبة أقصر جبهـــة بالنسبة الى عدد الجند الذين خاضوا غمرة القتال . فجبهة نابوليون ثـلاثة أرباع الفرسخ ، وجبهة ولينغتون نصف فرسخ *** واثنان وسبعون الف مقاتل في كل من الجبهتين . ومن هذه الكثافة انبثقت الجزرة .

لقد أجري إحصاء أثبتت على ضوئه هذه النســـبة : – الخسائر في

* Inkermann احـــدى مدن القرم ، حيث هزم الفرنسيون والانكليز القـــوات الروسية في معركة ضارية . (٥ تشرين الثاني ١٨٥٤)

** Raglan جـــنرال انكليزي (١٧٨٨ – ١٨٥٥) وقد قاد الجيش الانكليزي في حرب القرم ، ومات بالكوليرا في حصار سيباستوبول .

*** او ميلان وميل ونصف .

الرجال : في **اوسترليتز** ، الفرنسيون ، اربعة عشر بالمئـــة ؛ الروس ، ثلاثون بالمئة ؛ النمسويون ، اربعة واربعون بالمئة . في **واغرام** ، الفرنسيون، ثلاثة عشر بالمئة ، النمسويون ، اربعة عشر بالمئـــة . في **الموسكوفا** ، الفرنسيون ، سبعة وثلاثون بالمئة ، الروس ، اربعة واربعون بالمئة . في **بوتزن** * ، الفرنسيون ، ثلاثة عشر بالمئة ، الروس والبروسيون ، اربعة عشر بالمئة . في **واترلو** ، الفرنسيون ، ستة وخمسون بالمئـة ، الحلفاء ، واحد وثلاثون بالمئة . المعدّل الوسطي في واترلو ، واحد واربعون بالمئة . مئة واربعة واربعون الف مقاتل ، ستون الف قتيل .

ويرِنُ على ساحة واترلو اليوم ذلك الهدوء الذي هو مِلك الارض ، دعامة الانسان المعصومة عن التأثر . إنها تشبه ايما سهل آخر .

بيد ان ضرباً من الضباب الوهمي ينبعث منه في الليل ، ولو ان مسافراً اجتاز به ، لو انه نظر ، لو انه اصغى ، لو انه حلم مثـــل فرجيل في سهول فيليبي ** المشؤومة ، إذن لاستبـــدّت به هلوسة الكارثة . إن يوم ١٨ حزيران الفظيـع ليتمثل له من جديد . وتتلاشى تلك النصب الاصطناعية ، ويتبدّد هذا الاسد ، كائناً ما كان ، ويستعيد ميدان القتال حقيقته ، وتتموج صفوف الرجالة في السهل ، ويعبر الافق خببٌ ضارٍ ، ويرى الحالم الذاهل وميض السيوف ، وبريق الحراب ، وانفجار القنابل ، وتمازُج الرعود الفظيـع ، ويسمع ، مثل حشرجـة في أعماق قبر ، ضجة « المعركة الطـّيف » الغامضة . هذه الظلال هي رماة القنابل ، هذه البوارق هي الدارعون ، هذا الهيكل العظمي هو نابوليون، هذا الهيكل العظمي هو ولينغتون . كل هذا وهميّ ، ومع ذلك فهو يتصادم ويصطرع . وتغدو الاودية ارجوانية ، وترتجف الاشجـــار ،

* Bautzen مدينة المانية انتصر فيها نابوليون على البروسيين والروس عام ١٨١٣ .

** في مقدونية ، على مقربة مـــن البحر ، حيث هزمت قوات انطونيوس واوكتافيوس قوات بروتوس وكاسيوس عام ٤٢ ق.م .

ويعصف الفوران حتى بالسحب ؛ وفي الظلمة ، تبدو جميع هذه الروابي الوحشية – « مون سان جان » ، و « هوغومون » و « فريشمون » و « بابيلوت » ، و « بلانسنوا » ، وكأنها متوّجة على نحو مضطرب بعواصف من الاشباح يفني بعضها بعضاً .

١٧

أينبغي لنا أن نستحسن واترلو ؟

إن ثمة مدرسة متحررة تتمتع باحترام كبير لا تبغض واترلو على الاطلاق . إننا لسنا من هؤلاء . فواترلو ليست ، عندنا ، غير موعد الحرية المشدوه . ولأن ينطلق نسرٌ كهذا من بيضة كهذه لهو من غير ريب شيء غير متوقّع .

ان واترلو – اذا وضعنا انفسنا في أعلى ُقنن المسألة – هي عمداً انتصارٌ مضاد للثورة . إنها اوروبة ضد فرنسة . انها بطرسبرج ، وبرلين ، وفيينا ضد باريس . انها « الوضع الراهن » *Statu quo* ضدّ المبادرة . انها ١٤ تموز ١٧٨٩ يُهاجَم من خلال ٢٠ آذار ١٨١٥* . انها العدة التي أعدتها الممالك ضد الانتفاضة الفرنسية الجامحة . يجب ان يُباد ، آخر الامر ، هذ الشعب العريض الآخذ بأسباب الثورة منذ ستة وعشرين عاماً – هكذا كان الحلم . انها تضامن دوقات برونزيك ، ودوقات ناسّو ، وآل رومانوف ، وآل هوهنزيلرن ، وآل هبسبورغ مع آل بوربون . ان واترلو لتردف وراءَها الحقّ الالهي . صحيح أن الامبراطورية ، وقد كانت ديكتاتورية ، أكرهت الملكية ، بالرجع

* هو اليوم الذي دخل فيه نابوليون باريس اثر عودته من منفاه بجزيرة البا .

الطبيعي للاشياء ، على ان تكون متحررة ؛ وأن نظاماً دستورياً قد انبثق – على نحو غير مباشر – عن واترلو ، مما أثار اعظم الاسف عند الفاتحين . والحق ان الثورة لا يمكن ان تُقهر ، وانها بسبب من كونها الـهية المنشأ ومحتومة على نحو مطلق تعاود الظهور من غير انقطاع ؛ لقد ظهرت – قبل واترلو – في بونابرت يحطم العروش العتيقة ، وظهرت – بعد واترلو – في لويس الثامن عشر يمنح الدستور ويخضع له . لقد اقام بونابرت سائق عربة على عرش نابولي ، وأقام جندياً برتبة رقيب على عرش السويد ، مصطنعاً اللامساواة لأظهار المساواة . ولقد وقّع لويس الثامن عشر ، بدوره ، في سان أووين ، على اعلان حقوق الانسان . أتريد ان تدرك ما الثورة ؟ سمّها تقدماً . أتريد أن تدرك ما هو التقدم ؟ سمّه الغد . ان الغد يقوم بعمله على نحو لا يقاوَم وهو يقوم به منذ اليوم . وهو يبلغ غاياته ، أبداً ، بوسائل غير متوقعة . انه يستعمل ولينغتون لكي يصنع « فوا » * الذي لم يكن غير جندي ، غير خطيب . ويسقط « فوا » في هوغومون ، ولكنه ينهض كرة أخرى على منبر الخطابة . وهكذا يمضي التقدم الى أمام . وليس من وسيلة تخطىء عند هذا العامل . انه يكيّف وفقاً لعمله الالهي من غير ان يحار أو يقلق ، الرجلَ الذي اجتاز الالب بخطى عراض ، ومريض الـ « بير ايليزيه » العجوز الطيب المترنح . انه يفيد من المصاب بداء مفاصل الارجل كما يفيد من الفاتح في ؛ – الخارج ، ومن المصاب بداء مفاصل الأرجل في الداخل . ان واترلو ، بأعاقتها تقويض العروش الاوروبية بحد السيف ، لم يكن لها من نتيجة غير مواصلة العمل الثوري من طريق أخرى . أما وقد انتهت مهمة ارباب السيوف ، فقد جاء دور المفكرين . ان العصر الذي رغبت واترلو في ان توقفه قد استأنف سيره وتابع طريقه . لقد قهرت الحرية هذا النصر المشؤوم .

* Foy جنرال فرنسي غطى انسحاب الجيش من اسبانية ١٨١٤ وجرح في واترلو (١٧٧٥ – ١٨٢٥)

وجمّاع القول الذي لا ريب فيه ان ذلك الذي انتصر في واترلو ؛ ذلك الذي ابتسم من وراء ولينغتون ؛ ذلك الذي حمل اليه عصيّ مارشالات أوروبة كلها وفيها ، كما قيل ، عصا مارشال فرنسة ؛ ذلك الذي كرّ ، في ابتهاج ، عربات التراب الملأى بالعظام لاقامة رابية الاسد ؛ ذلك الذي خطّ ، مظفراً ، فوق قاعدة التمثال تلك هذا التاريخ : ١٨ حزيران ، ١٨١٥ ؛ ذلك الذي شجع بلوخر على ان يُعمل السيف في رؤوس الجند الفارين ؛ ذلك الذي اطلّ على فرنسة ، من قمة نجد « مون سان جان » ، وكأنه يطل على فريسة ، لم يكن غير الثورة المضادّة . إن الثورة المضادة هي التي غمغمت بهذه الكلمة المرذولة : التجزئة . حتى إذا وصلت الى باريس ، رأت فوهة البركان عن كثب . لقد استشعرت ان هذا الرماد يحرق قدميها ، فغيرت رأيها . لقد انقلبت على عقبيها وهي تتلعثم بدستور .

إن علينا ان لا نرى في واترلو إلا ما هو في واترلو . إنها خلو من الحرية المقصودة او المتعمّدة . ذلك ان الثورة المضادة كانت متحررة على نحو لا ارادي ، كما كان نابوليون ، بسبب من ظاهرة مقابلة ، ثورياً على نحو غير ارادي . في ١٨ حزيران ١٨١٥ أُسقط روبسبيير ، وكان ممتطياً صهوة جواده ، عن السرج .

١٨

نكسة الحق الألهي

انتهت الديكتاتورية ، وانهار النظام الاوروبي كله .

لقد غرقت الامبراطورية في ظلمة تشبه تلك التي غرق فيها العالم الروماني المحتضر . ولقد نهضت كرة اخرى من الهاوية كما نهضت ايام البرابرة . مع فارق وحيد هو ان بربرية عام ١٨١٥ ، التي ينبغي ان تدعى باسمها

الخاص ، الثورة المضادة ، كانت قصيرة النفس ، فما لبثت ان استبد بها اللهاث ، ونسيت ما ارادت قوله . والواقع ان الامبراطورية — ويجب ان نعترف بذلك — قد بُكي عليها ، وان الاعين التي بكت عليها كانت باسلة . واذا كان المجد في الحسام الذي جُعل صولجاناً ، فقد كانت الامبراطورية هي المجد نفسه . لقد نشرت فوق الارض كل الضياء الذي يستطيع الطغيان ان يمنحه — ضياء قاتم . بل فلنذهب الى حد القول : ضياء مظلم . واذا قيس بالنهار الحقيقي كان ليلاً . ولقد كان لزوال الليل هذا مثلُ اثر الكسوف .

ورجع لويس الثامن عشر الى باريس . ومحا الرقصُ حلقاتٍ حلقاتٍ في ٨ تموز * حماسةَ العشرين من اذار . لقد غدا الكورسيكي ** نقيض البياراني *** وامست راية قبة التويللري بيضاء . وارتقى المنفيّ العرش . واتخذت منضدة هارتويل الصنوبرية مكانها امام الاريكة المزدانة بزنابق لويس الرابع عشر . وتحدث الناس عن « بوفين » **** و « فونتنوي » ***** وكأنما وقعتا امس ، بعد ان ألمّت الشيخوخة باوسترليتز . وتآخى المذبح والعرش في جلال . وتوطد في فرنسة وفي القارة شكل من اشكال المجتمع التي لا يكاد الشك يتطرق الى انها تمتعت باعظم قسط من الامن في القرن التاسع عشر . واصطنعت اوروبة

* يوم سقوط نابوليون واعادة اسرة بوربون الى العرش في شخص لويس الثامن عشر ، سنة ١٨١٥ .

** أي نابوليون بونابرت.

*** Béarnais نسبة الى الـ Béarn وهي مقاطعة فرنسية قديمة في نافار قـدر لها بواسطة هنري الرابع ان توحد فرنسة عام ١٦٠٧ والبياراني هو هنري الرابع رأس اسرة بوربون .

**** Bouvines في الشمال الفرنسي حيث هزم فيليب اوغست الامبراطورَ أوتون الرابع الجرماني ، سنة ١٢١٤ .

***** Fontenoy من اعمال بلجيكة حيث هزم المارشال دوساكس الانكليز والهولنديين في ١١ نوار سنة ١٧٤٥ .

شعار القبعـــة الابيض . وغـدا تريستايون * شهـــيراً . وظهر رمـز *non pluribus impar* كرة اخرى في اشعة واجهة ثكنات الـ « كي دورسيه ». فحينما كان من قبل حرس امبراطوري ، كان بيت احمر . وكان قوس كاروسيل ، وقد أثقل بالانتصارات المكسوبة على نحو اخرق ، وأمسى غريباً في هذا العهد الجديد ، وأخذه في اغلب الظن بعض الخجل من مارانغو وآركولا – قد انسلّ من المسألة بتمثال دوق آنغوليم . وكانت جبانة « لا مادلين » ؛ وهي مقبرة عام ٩٣ العمومية ، مغطاة بالرخام واليشـــب ** ، اذ كان رفـــات لويس السادس عشـر ومـــاري انطوانيت في ذلك الثرى . وفي خندق الـ « فينسين » برز من التربة نصب من انصبة المـــدافن يعيد الى الذاكرة ان دوق آنغين *** مات في الشهر نفسه الذي توج خلاله نابوليون . والواقع ان البابا بيوس السابع، الذي قام بمهمة التكريس منذ ، قبيل وفاته ، قد بارك السقوط في سكون ، كما بارك الصعود . وفي شونبرون كان خيال صغير في الرابعة من عمره ، وكان من الشغب ان ينادى ملك رومة . وانما تمت هـذه الاشياء كلها ، وعاد هؤلاء الملوك الى عروشهم ، ووُضع سيد اوروبـة في قفص ، وامسى النظام Régime القديم هو النظام الجديد ، وغـيّر كل ظلام الارض وكل ضياء الارض مكانهما ، لانه في اصيل يوم من ايام الصيف قال احد الرعاة لرجل بروسي في غابة : « مُرّ من هنا لا من هناك ! » .

كان عام ١٨١٥ هذا ضرباً من نيسان مظلم . لقد اتخذت الحقائـق

---

* Trestaillon احـــد زعماء العصابات الملكية ، وقـــد عاث فساداً في ضواحي « نيم » و « اوزيس » .

** اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

*** Duc d'Enghien (١٧٧٢ – ١٨٠٤) ابن لويس هـــنري جوزيف ، أمـــير كونديه ، وقد امر نابوليون به فاقتيد الى باريس وقتل رمياً بالرصاص في فينسين .

العتيقة السقيمة السامة ، أشكالاً جديدة . فتزوّج الكذب ثورة ١٧٨٩ ؛ وتقنّع الحق الالهيّ بدستور ؛ وأضحت التلفيقات دستورية ؛ واصطنعت الاحقاد ، والخرافات ، والمواربات ، بفضل المادة ١٤ المشدودة الى القلب ، طلاء من الحرية . ثعابين تبدّل جلودها .

كان نابليون قد عظّم الانسان وصغّره في آن معاً . ففي ظـــل هذا العهد الماديّ الفخم تلقّى المثل الأعلى (Idéal) اسم الايديوجيـــة (Idéologie)الغريب . وانها لقلةٌ تبصّر خطيرة ان يعمل رجل عظيم على تحويل المستقبل الى هُزأة . ومع ذلك ، فان الشعوب – هذا الغـذاء الذي يلتهمه المدفع ، والذي هو مولع اعظم الولوع بالمدفعي – راحت تبحث عنه . أين هو ؟ ماذا يعمل ؟ وقال زائر لأحد مشوّهي مارانغو وواترلو : « لقد مات نابليون . » فصاح الجندي : « هو قد مات ! أواثق أنت من ذلك ؟ » لقد تحدّت الخيالات هذا الرجل المهـزوم . كان قلب أوروبة ، بعد واترلو ، مظلماً ولقد ظل شيء هائل فارغاً ، فترة طويلة ، بعد زوال نابليون .

وطرح الملوك انفسهم في هذا الفراغ . وأفادت أوروبة العجوز من ذلك لكي تتخذ شكلاً جديداً. لقد عقدت محالفة مقدسة (Sainte Alliance) * وكانت ساحة واترلو المشؤومة قـد قالت مقـدّماً « بيـــل آليانس » (Belle Alliance) **

وفي حضرة اوروبة هذه العتيقة المجدّدة ، وتجاهها ، أخذت في الظهور ملامح فرنسة جديدة . لقد برز المستقبل الذي كان موضـــع سخرية

* هي المحالفة التي عقدت عام ١٨١٥ بين الروسيا والنمسا وبروسيا لمواجهة النزعات التحررية والقومية في إيطالية والمانيا .

** حيث كان نابليون على رأس قواته في واترلو . راجع تفصيل مواقع الجند اثناء هذه المعركة في الفصل الرابع من هذا الكتاب الاول ، وعنوانه (A) . والتجاور اللفظي واضح بين اسم هذا الموقع La Belle Alliance واسم تلك المحالفة La Sainte Alliance

الامبراطور . وكان على جبينه هذا النجم - الحرية . وتلفتت نحوه عيون الاجيال الناشئة الملتهبة . ومن عجب ان الناس أولعوا في آن واحد بهذا المستقبل ، الحرية ، وبهذا الماضي ، نابوليون . كانت الهزيمة قد عظّمت المغلوب . وبدا نابوليون ، وقد سقط ، أسمى من نابوليون وفي يده مقاليد السلطة . وعصف الذعر بأولئك الذين انتصروا . وفرضت انكلترة الحراسة عليه بواسطة هودسون لو * على حين راقبته فرنسة من خلال « مونشينو » . وأمست ذراعاه المتصالبتان قلقاً للعروش . ودعاه الكسندر ** أرَقي . وإنما نشأ هذا الذعر من مقدار الثورة التي انطوى عليها صدره . وهذا هو تفسير النزعة التحررية البونابرتية وعذرها . لقد زلزل هذا الشبحُ العالمَ العتيق . ولقد حكم الملوك ، في تضايق ، وصخرة « القديسة هيلانة » تلوح لهم في الافق .

وفيما كان نابوليون يعالج سكرات الموت في لونغوود كان الستون الف رجل الذين صُرعوا في ساحة واترلو يُنتنون في هدوء ، وقد انتشر شيء من سِلمهم في العالم . ومنهم صنع مؤتمر فيينا معاهدات ١٨١٥ ، ودعت اوروبة ذلك « العودة الى الاصل » .

تلك هي واترلو .

ولكن ما ضرّ اللانهاية ؟ إن هذه العاصفة كلها ، هذه السحابة كلها ، هذه الحرب ، ثم هذا السلم ، وهذا الظلام كله لا تُقلق لحظةً واحدة ضياء تلك العين التي لا حدّ لها ، والتي تتساوى أمامها أحقر الحشرات الواثبة من طليعة عشب الى طليعة عشب بالنسر المحلق من برج الى برج في كاتدرائية نوتر دام .

---

* Hudson Lowe جنرال انكليزي (١٧٦٩ - ١٨٤٤) عمل سجاناً لنابوليون في « سانت هيلانة » وكان قاسياً غير انساني .

** هو الكسندر الاول قيصر الروسيا وخصم نابوليون اللدود ، وقد تولى الحكم من عام ١٨٠١ - ١٨٢٥

١٩

ساحة المعركة ليلاً

لنعُدْ ، فتلك ضرورة من ضرورات هذا الكتاب ، الى ساحة القتال المشؤومة .

في ليل ١٨ حزيران ١٨١٥ كان القمر بدراً . وهذا الضياء ساعد بلوخر على القيام بمطاردته الضارية ، وكشف عن آثار الفارّين ، وأسلم هذه الحشود البائسة الى الفرسان البروسيين الظمأى الى الدماء ، ومدّ يد المساعدة الى المجزرة . إن الليل ليقدّم احياناً مثل هذا العون الفاجع الى النكبات .

وحين أُطلقت آخر قذيفة من قذائف المدفع ظل سهل « مون سان جان » خاوياً .

واحتل الانكليز معسكر الفرنسيين ، فلقد جرى العرف بأن يؤكّد النصر بالنوم في سرير المهزوم . وأقاموا معسكرهم الطلق حول روسّوم . أما البروسيون ، المتعقبون الفلول المنهزمة مطلقي العنان ، فقد اندفعوا الى أمام . وقصد ولينغتون الى قرية واترلو لينشيء تقريره ويقدّمه الى اللورد باثورست .

واذا كان قولهم Sic vos non vobis * قد انطبق في يوم من الايام انطباقاً كاملاً فليس من ريب في أن انطباقه ذاك كان على قرية واترلو هذه . إن واترلو لم تفعل شيئاً ، ولقد ظلت على بُعد نصف فرسخ من القتال . لقد قُذفت « مون سان جان » بالمدافع ، وأحرقت هوغومون ، وأحرقت بابيلوت ، واحرقت بلانسنوا ، وانتزعت « لا هاي سانت »

* من كلام فيرجيل ، باللاتينية ، ومعناه : « وهكذا تعمل انت وعملك ليس لك » . وقد ذهب مثلاً يصور حالة من يحظى بتعويض أو بشرف هو من حق غيره .

إثر غارة عنيفة ، وشهدت « لا بيل آليانس » التقاء الفاتحين . ومع ذلك فنحن ما نكاد نعرف هذه الاسماء . لقد استبدّت واترلو ، التي لم تُسهم في المعركة ايّ إسهام ، بالشرف كله .

نحن لسنا من اولئك الذين يمجدون الحرب ، وحين تسنح الفرصة ننص على حقائقها . إن للحروب جمالات مروّعة لم نُخفِها قطّ . ولكن لها ايضاً ، كما ينبغي ان نعترف ، بعض البشاعات . ومن ادعى تلك البشاعات الى الدهش تعرية الموتى ، بعد النصر ، تعرية عاجلة . إن اليوم الذي يلي معركة ما ، يبزغ فجره دائماً على جثث عارية .

من الذي يفعل ذلك ؟ من الذي يدنّس النصر على هذا النحو ؟ ما تلك اليد البشعة الخفيّة التي تنزلق الى جيب النصر ؟ من هم اولئك النشالون الذين يقضون مرادهم ، في جرأة ، إثر المجد ؟ إن بعض الفلاسفة ، وفولتير واحد من هؤلاء ، ليؤكدون أنهم على وجه الضبط أولئك الذين أحرزوا النصر . انهم هم أنفسهم — وفقاً لقول هؤلاء الفلاسفة — فليس ثمة أيما تبديل . إن اولئك الواقفين على ارجلهم هم الذين يسلبون أولئك المنطرحين أرضاً . إن بطل النهار هو خفّاش الليل . وعلى أية حال ، فان للرجل الحق في ان ينهب ، بعض الشيء ، جثة كان هو صانعها .

أما نحن فلسنا نعتقد ذلك . إن جني الغار وسرقة الحذاء من رجل ميت يبدوان لنا شيئاً مستحيلاً صدوره عن يد واحدة .

هناك أمرٌ واحدٌ لا ريب فيه ، وهو أنه بعد الفاتحين يَفِدُ اللصوص . ولكن فلنضع الجندي ، وبخاصة الجندي المعاصر ، بعيداً عن هذه التهمة .

لكل جيش ذيل ، وههنا ينبغي ان يُحصر الاتهام . خفافيش نصف كل منها قاطع طريق ونصفه الآخر متذلل دنيء ، وجميع ضروب الطير الليلية التي يلدها هذا الغسق الذي ندعوه الحرب ، ولابسو بذلات عسكرية لم يشتركوا في القتال قط ، ومرضى زائفون ، وعُرجٌ مخيفون ، ورجال

مريبون يملكون محلات تبيع الاطعمة والاشربة للجنود ويندفعون مع زوجاتهم في بعض الاحيان على عربات صغيرة لكي يسرقوا ما يبيعون، وشحاذون يقدمون انفسهم كادلاء الى الضباط، وخدمُ عساكر، وسالبو جنود - كل هؤلاء كانوا يتبعون الجيوش الزاحفة في الايام الحالية - فنحن لا نتحدث عن العصر الحاضر - الى درجة تجعلهم يُدعون في اللغة الفنية « الجند المتخلفين ». وما من جيش أو شعب كان مسؤولاً عن هؤلاء المخلوقات. لقد تكلموا الايطالية ولحقوا بالألمان؛ وتكلموا الفرنسية ولحقوا بالانكليز. وإنما بيد واحد من هؤلاء الجبناء، وهو « متخلف » اسباني كان يتكلم الفرنسية، قُتل المركيز دو فيرفاك غدراً - وقد خُدع برطانته « البيكاردية »* التي لا تُفهم وظنه واحداً من جنودنا - وسُلبَ في ساحة المعركة نفسها خلال الليلة التي عقبت انتصار « سيريزول » ** ومن سلب الجند نشأ سالبو الجنود. ولقد أحدثت الحكمة البغيضة: عش على عدوك هذا الجذامَ الذي لا يقوى على شفائه غير نظام قاسٍ. إن ثمة شُهرات خادعة، فنحن لا ندري دائماً لماذا يتمتع بعض الجنرالات، برغم انهم كانوا عظاماً، بشعبية كبيرة. فقد فُتنَ جنود « تورين » *** به لانه كان يجيز السلب والنهب؛ والاذن باقتراف الشر جزء من كرم النفس؛ ولقد كان تورين كريماً الى درجة أباح معها إضرام النار في « البالاتينات » وإعمال السيف في رؤوس أهلها. وإنما يلحق بالجيوش عدد من « سالبي الجند » يقل أو يكثر تبعاً لقسوة القائد

---

* نسبة الى بيكارديا، وهي مقاطعة فرنسية قديمة في اقصى الشمال، وعاصمتها آميان.

** Cérisoles قرية ايطالية، حيث هزم الفرنسيون القوات الاسبانية والامبراطورية عام ١٥٤٤.

*** Turenne مارشال فرنسة (١٦١١ - ١٦٧٥)، وقد اشتهر بفتحه للالزاس خلال شتاء ١٦٧٥.

العام أو لينه . فـلم يكـن لـ « هـوش »* و « مارسو » ** جند متخلفون ، ولم يكن عند ولينغتون — ونحن نقرّ له بذلك في سرور — غير عدد قليل منهم .

وعلى أية حال ، ففي ليل الثامن عشر من حزيران سُلب الجند . كان ولينغتون قاسياً ، وكان قد أصدر أمره بأن يُقتل أيما رجل يلقى عليه القبض متلبساً بذلك الصنيع . ولكن السلب داء يعسر استئصاله . فقد كان سالبو الجند يسرقون في احدى زوايا الميدان ، فيما كانوا يُقتلون رمياً بالرصاص في زاوية اخرى .

كان القمر « مشؤوماً » فوق هذا السهل .

فحوالى منتصف الليل كان رجل يطوف بطريق أوهين الغائرة ، او يدبّ عليها ، على الاصح . كان مظهره يدل على انه واحد من هؤلاء الذين وصفناهم اللحظة ، ليس بانكليزي ولا فرنسي ، وليس بفلاح ولا جندي . كان غولاً اكثر منه انساناً ، جذبته رائحة الجثث ، وقد حسب السرقة نصراً ، فاقبل ليسلب واترلو . كان يرتدي جلباباً هو ، جزئياً ، برنس عسكري ، وكان قلقاً وجريئاً ، وكان يتقدم الى امام ويتلفت الى وراء . من كان هذا الرجل ؟ لعل الليل عرف أعماله اكثر مما عرفها النهار . ولم يكن عنده جراب ، ولكن كانت له جيوب واسعة من غير شك تحت برنسه . وبين الفينة والفينة كان يتمهل ، ويتأمل السهل من حوله وكأنما كان يريد ان يستيقن من ان احداً لا يراقبه . ثم انحنى فجأة ، وهزّ فوق الارض شيئاً صامتاً لا حراك به ، وبعد ذلك نهض وانسلّ هارباً . لقد كان في انزلاقه ، وفي ملامحه ، وفي ايماءاته السريعة الخفيّة ما جعله يبدو مثل اشباح الغسق تلك التي

* Hoche جنرال فرنسي (١٧٦٨ — ١٧٩٧) وكان من اعظم وجوه الثورة وأكرمها .

** Marceau جنرال فرنسي (١٧٦٩ — ١٧٩٦)

تألف الخرائب ، والتي كانت الاساطير النورمندية القديمـة تدعوها « الراشحات » .

ان بعض الطيور الليلية المدعوّة « طوال الساق » لتحدث مثل هذه الظلال السود في المستنقعات .

ولو قد قدّر لعين ان تخترق ، في انتباه ، هذا الضباب كله اذن لرأت على مسافة ما ، عربة صغيرة من عربات بائعي الاطعمة والاشربة للجند ، وقد وقفت و كأنها مختبئة خلف البيت الخرب القائم على طريق نيفيل عند زاوية الطريق من « مون سان جان » الى « برين لالو » . واذن لرأت ان تلك العربة مغطاة بالصفصاف المطلي بالقطران ، وانها مقرونة الى فرس حقيرة جائعة تقضم القراص من خلال شكيمتها . وفي هذه العربة كان ضربٌ من امرأة جالساً عـلى بعض صناديق الامتعة وبعض الصرر . ولعله كانت ثمة صلة ما ، بين هذه العربة وذلك الرجل الطائف بالمكان .

كان الليل صافياً . ولم تكن ثمة سحابة واحدة عند سمت الرأس . وعلام يستولي الهمّ عـلى القمر اذا كانت الارض حمراء ؟ انه ليحتفظ ببياضه . كذلك هي لا مبالاة السماء . وفي المروج كانت الاغصان التي كسرتها قذائف المدافع ولكنها لم تسقط بعد ان امسك بها اللحاء ، تمايل في رفق مع رياح الليل . وحرّكت نسمةٌ ، تكاد تكون نفَساً ، ذلك الدغل . وكان في العشب ارتعاشات بدأت وكأنها مفارقة الارواح للاجساد .

وكان ميسوراً ان يُسمع وطء العسس الطائفين بالمعسكر الانكليزي، سماعاً غامضاً ، في المدى البعيد .

وواصلت النيران التهام « هوغومون » و « لاهاي سانت » محدثة شعلتين ضخمتين ، احداهما في الشرق ، والاخرى في الغرب ، وقـد اتصل بهما ، مثل عقد من الياقوت الاحمر منفرط ، في طرفيه الاقصيين

باقوتتان جريتان ، شريط نيران المعسكرات الانكليزية القائمة في الهواء الطلق ، والممتدة في نصف دائرة هائلة فوق كثبان الافق .

لقد تكالمنا على كارثة طريق اوهين . وان القلب ليكاد يغور ذعراً لمجرد التفكير في مثل ذلك الموت الذي ألمّ بهذا العدد كله من الرجال الشجعان .

واذا كان ثمة شيء مروّع ، واذا كان ثمة حقيقة تفوق الاحلام فهي هذه : ان تعيش ، ان ترى الشمس ، ان تملك القوة الرجولية كلها ، ان تملك الصحة والبهجة ، ان تضحك في بسالة ، ان تندفع نحو مجد يدعوك اليه متألقاً باهراً ، ان تحس في صدرك برئة تتنفس ، وبقلب يخفق ، وبارادة تعقل ، ان تتكلم ، ان تفكر ، ان ترجو ، ان تحب ، ان تكون لك امّ ، ان تكون لك زوجة ، ان يكون لك اولاد ، ان تنعم باشعة الشمس ، ثم تستشعر فجأة ، في لحظة ، في اقل من دقيقة ، انك تنهار في هوة ، وتسقط ، وتتدحرج ، وتَسحق ، وتُسحق ، وترى سنابل القمح ، والازهار ، والاوراق ، والاغصان ، وتعجز عن ان تتمسك بشيء ، وتحسّ بان حسامك عديم الجدوى ، وان الرجال تحتك ، والخيل فوقك ، وان تنتفض ابتغاء المقاومة ولكن عبثاً ، وقد كسرت عظامك برفسة ما في الظلام ، وان تستشعر عقب قدم تجعل عينيك تثبان من محجريهما ، وان تنهش نعال الخيل الحديدية وفي اسنانك غيظ شديد ، وان تختنق ، وتعوي ، وتتلوى ، وان تكون تحت هذا كله وتقول لنفسك : لقد كنت رجلاً حياً منذ لحظة ليس غير .

هناك ، حيث حشرجت هذه الكارثة المحزنة ، كان كل شيء صامتاً الآن . كان خندق الطريق الغائرة مليئاً بالافراس وبالفرسان وقد كدّسوا على نحو مبهم معقد . تشابكٌ فظيع . ولم يبق ثمة منحدر ؛ فقد جعلته الجثث على مستوى واحد مع السهل وارتفعت الى ضفتي الطريق مثل مكيال قديم للشعير ، حسَن الامتلاء ، مستوي السطح .

حشد من الموتى في القسم الاعلى ، ونهر من الدم في القسم الاسفل — كذلك كانت هذه الطريق ليلَ الثامن عشر من حزيران ، عام ١٨١٥ . وجرى الدم حتى الى طريق نيفيل ، واندفق من هناك في بركة واسعة امام حطام الاشجار الذي يعترض الطريق ، في نقطة لا تزال تشاهد الى اليوم . وإنما ألمّت الكارثة بالدارعين ، كما نذكر ، عند النقطة المقابلة ، في اتجاه الطريق المقبلة من جيناب . وتناسبت كثافة ركام الجثث مع عمق الطريق الغائرة . وحوالى الوسط ، في النقطة التي غدت عندها أقل عمقاً ، هناك حيث مرّ فصيل دولور ، أصبحت طبقة الموتى أرقّ .

في هذا الاتجاه ، مضى ذلك الطائف الليلي الذي حدثنا القارىء عنه منذ لحظة . لقد راح ينقّب وسط هذا القبر الماثل ؛ واجال بصره في ما حوله . لقد استعرض الجند الأموات استعراضاً بشعاً الى حد لا يوصف ؛ ومشى وقدماه تغوصان في الدم .

وفجأة كفّ عن المسير .

فعلى بضع خطى امامه ، في الطريق الغائرة ، وفي النقطة التي انتهى عندها ركام الموتى ، بدت من تحت هذا الحشد من الرجال والخيل يدٌ مفتوحة اضاءها القمر بشعاعه .

وكان في احدى اصابع هذه اليد شيء يلتمع . كان خاتماً ذهبياً .

وانحنى الرجل ، وظل منحنياً لحظة . حتى اذا نهض كرة اخرى لم يبق ثمة خاتم في تلك اليد .

والحق انه لم ينهض بالمعنى الدقيق . لقد ظلّ في حال شاردة مجفلة ، موليّاً ظهره ركام الموتى ، دارساً الافق ، راكعاً على ركبتيه ، وقد استند مقدّم جسمه كله على سبابتيه الاثنتين ، وارتفع رأسه ارتفاعاً جزئياً يمكّنه من اختلاس النظر فوق حافة الطريق الغائرة ليس غير . إن ارجل ابن آوى الاربع تلائم افعالاً بعينها .

حتى اذا تخير سبيله استوى واقفاً .

ABDEEN

وفي تلك اللحظة سرت في جسمه اختلاجة . لقد احسّ ان يداً كانت تُمسك به من خلاف .

واستدار . كانت اليد المفتوحة ، التي أطبقت ، متشبثة بذيل برنسه .

ولو قد احسّ رجل فاضل بمثل ذلك اذن لاستبدّ به الروع . اما هذا الرجل فشرع يضحك .

وقال :

— « اوه ، انه الميت ليس غير . انا أوثر رؤية الشبح على رؤية الدركي » .

وعلى اية حال فقد تراخت اليد وخلّت سبيله . إن القوة تنفد وشيكاً في القبر .

واضاف المطوّف بالليل :

— « آه ها ! أيكون هذا الميت حياً ؟ دعنا نرى » .

وانحنى كرة اخرى ، وبحث في ركام الاجساد ، مزيلاً كل ما كان يعترضه . وقبض على اليد ، وامسك بالذراع ، وخلّص الرأس ، وسحب الجسد . وما هي الا لحظات حتى راح يجرّ في ظلمة الطريق الغـــائرة رجلاً فاقد الروح ، او على الاقل ، فاقد الحس . كان دارعاً ، وكان ضابطاً ، بل كان ضابطاً ذا رتبة ما . وكانت كتافةٌ ذهبية ضخمة تبرز من تحت درعه ، ولكنه لم يعد يعتمر بخوذة . كانت ضربة سيف ضارية قد شوهت وجهه ، فليس يُرى فيه غير الدم . وفي ما عدا ذلك ، لم يبدُ ان أياً من اوصاله قد كسرت . وقد شاء حسن الطالع — اذا كان من الممكن اصطناع هذا التعبير هنا — ان تُقوّس الجثث من فوقه على نحوٍ أنجاه من السّحق . كانت عيناه مغمضتين .

وكان معلقاً على درعه صليب « جوقة الشرف » الفضي .

ونزع المطوّف بالليل هذا الصليب فاختفى في هوّة من تلك الهوى التي كانت تحت برنسه .

وبعد ذلك تلمّس جيب الضابط الخاص بالساعة ، فعثر فيه على ساعة ، فأخرجها . ثم بحث في صدرته فألفى محفظة دراهم فنشلها .

حتى اذا انتهى الى هذه المرحلة من الغوث الذي كان يقدمه الى هذا الرجل المحتضر ، فتح الضابط عينيه .

وقال في صوت واهن :

— « شكراً » .

كانت خشونة حركات الرجل الذي يلمسه بيديه ، وبرودة الليل ، وتنفّس الهواء النقيّ في حرية ، قد ايقظته من سباته .

ولم يُجب المطوّف بشيء . لقد رفع رأسه . وكان في ميسوره ان يسمع وقع اقدام في السهل ، لعله ان يكون وقع قدمي حارس ليليّ يقترب منه .

وغمغم الضابط ، اذ كانت لا تزال في صوته حشرجة :

— « من الذي كسب المعركة ؟ »

فاجابه المطوّف :

— « الانكليز » .

واضاف الضابط :

— « ابحث في جيوبي . سوف تجد فيها محفظة دراهم وساعـــة . خذهما » .

كان ذلك قد أُتِمّ من قبل .

وتظاهر المطوّف بتنفيذ الطلب ، ثم قال :

— « ليس هناك شيء » .

فاردف الضابط :

— « لقد سرقوهما مني . أنا آسف . ولولا ذلك لكانتا لك » .

وامسى وطء الحارس الليلي واضحاً اكثر فاكثر .

وقال المطوّف ، آتياً بحركة كحركة من يبغي الانصراف :

— « ها قد اقبلوا » .

ورفع الضابط نفسه ، في ألم ، معتمداً على احدى ذراعيه ، وامسك به.

— « لقد انقذت حياتي . فمن انت ؟ »

فأجابه الطائف الليلي في سرعة ، وفي همس :

— « لقد كنت مثلك في الجيش الفرنسي . ينبغي ان اذهب . اذا قبضوا عليّ فسوف يقتلونني رمياً بالرصاص . لقد انقذت حياتك ، فتدبّر امرك الآن بنفسك » .

— « ما رتبتك ؟ » .

— « رقيب » .

— « وما اسمك ؟ »

— « تيناردييه » .

فقال الضابط :

— « انا لن انسى هذا الاسم ابداً . وانت اذكرْ اسمي . أنا أدعى بونميرسي » .

الكتاب الثاني

الدارعة « أوريون »

١

رقم ٢٤٦٠١ يصبح رقم ٩٤٣٠

كانت السلطة قد القت القبض على جان فالجان ، كرة اخرى .

ولسوف نُعذَر لمرورنا بالتفاصيل المؤلمة مراً سريعاً ، مجتزئين بان ننقل هنا نبذتين ليس غير مما نشرته صحف ذلك العصر بعد الاحداث الغريبة التي وقعت في مونتري سور مير .

وهاتان المقالتان موجزتان بعض الشيء . ويحسن بالقارىء ان يذكر ان « صحيفة المحاكم » Gazette des Tribunaux لم تكن قد ظهرت في ذلك العهد .

ونحن ننسخ المقالة الأولى عن صحيفة « الراية البيضاء » . إنها تحمل تاريخ الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٢٣ :

« كانت احدى مقاطعات الـ « با دو كاليه » ، منذ قريب ، مسرح حادثة نادرة حقاً . ذلك بان رجلاً غريباً عن المنطقة يُعرف بـ « مسيو مادلين » كان قد احيا منذ بضع سنوات ، وبفضل بعض الطرائق المستحدثة ، صناعة محلية قديمة ، هي صناعة الخرز الكهربيّ والزجاج الاسود . وعاد ذلك عليه بثروة كما عاد بثروة ايضاً على المنطقة نفسها . واعترافاً بخدماته عُين عمدة . ولكن الشرطة اكتشفت ان مسيو مادلين لم يكن غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة هارب من العدالة ، وكان قد أدين سنة ١٧٩٦ بتهمة السرقة ، ويدعى جان فالجان . ولقد أعيد جان فالجان هذا الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ويبدو انه قد وُفق ، قبل اعتقاله ، الى ان يسحب من مصرف لافيت مبلغاً يزيد على نصف مليون كان قد اودعه هناك وكان قد كسبه ، في ما يقال ، من صناعته تلك ، على نحو شرعيّ جداً . ومنذ عودته الى سجن الاشغال الشاقة في طولون لم يهتد احد الى المكان الذي خبأ فيه جان فالجان هذه الثروة . »

اما المقالة الثانية ، وهي اكثر اسهاباً ، فمنتزعة من عدد « الجورنال دو باري » الصادر في التاريخ نفسه :

« لقد سيق محكوم سابق بالاشغال الشاقة الى محكمة الجنايات في « ڤار » ، منذ فترة قصيرة ، في ظروف جديرة بان تلفت النظر ، فقد كان هذا الاثيم قد وفق الى الافلات من يقظة الشرطة فغيّر اسمه ونجح في حمل المسؤولين على تعيينه عمدة لاحدى مدننا الشمالية الصغيرة . ولقد انشأ في هذه المدينة صناعة زاهرة ، ولكن امره انكشف في النهاية والقي

القبض عليه بفضل نشاط السلطات العامة الذي لا يعرف التعب . وكانت له خليلة هي احدى المومسات ، لم تحتمل الصدمة فماتت لحظة اعتقاله . والواقع ان هذا الشرير ، الذي مُنح قوة جسدية هرقلية ، وجد سبيلاً الى الفرار ، ولكن الشرطة ما لبثت ان القت القبض عليه ، بعد ثلاثة ايام او اربعة ايام من هربه ، في باريس نفسها لحظة كان يمتطي متن احدى تلك العربات الصغيرة التي تجوز المسافة ما بين العاصمة وقرية مونفيرماي (سين – ايه – واز) . ويقال بانه أفاد من هذه الايام الثلاثة او الاربعة التي قضاها مطلق السراح ليسحب مبلغاً ضخماً كان قد أودعه أحد مصرفيينا الرئيسيين . ويقدر هذا المبلغ بستمئة الف او سبعمئة الف فرنك . ويذهب قرار الاتهام الى انه قد خبأه في موضع لا يعرفه احد غيره ، ولما تتمكن السلطة من العثور على ذلك المال حتى الآن . وعلى اية حال ، فان المدعو جان فالجان قد مثل امام محكمة جنايات « ڤار » لسرقة ارتكبها في الطريق العام ، والسلاح في يده ، منذ ثماني سنوات تقريباً ، ضد واحد من اولئك الاطفال الطاهرين الذين وصفهم بطريرك فيرني بابيات خالدة يقول فيها :

« ... المقبلين من سافوي كل عام ،
والذين تمحو يدهم في مهارة
تلك القنوات الطويلة المختنقة بالسخام . »

ولم يحاول قاطع الطريق هذا ان يدافع عن نفسه . ولقد اثبت ممثل التاج القدير البليغ ان اشخاصاً آخرين شاركوا في السرقة ، وان جان فالجان عضو في عصابة من عصابات السرقة في الجنوب . وهكذا أُعلن جان فالجان مذنباً وصدر الحكم عليه بعقوبة الموت . ورفض هذا المجرم ان يستأنف الحكم لدى المحاكم العليا ، ولكن الملك ، برأفته التي لا تنضب ، تنازل فخفف عقوبته الى الاشغال الشاقة مدى الحياة . وفي الحال ، سيق جان فالجان الى سجن طولون » .

ولن ننسى ان جان فالجان كانت له في مونتروي سور مير بعض العادات الدينية . وقد اعتبرت بعض الصحف ، وفيها صحيفة « الدستوري » Le Constitutionnel ، هذا التخفيف نصراً للحزب الاكليركي .

وتغير رقم جان فالجان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . اذ صار يدعى ٩٤٣٠

ولنقل هنا ، لكي لا نعود الى ذلك كرة اخرى ، إن ازدهار مونتروي سور مير زال بزوال مسيو مادلين . لقد وقع كل ما كان قد تنبأ بوقوعه في ليلة الحمى والتردد تلك ، فما ان ولى هو حتى ولت الروح . فبعد سقوطه تمّ في مونتروي سور مير ذلك التوزيع الاناني لما يتبقى حين يسقط الرجال العظام ، ذلك التجزيء المشؤوم للمؤسسات المزدهرة الذي يجري كل يوم ، على نحو خفي ، في المجتمع البشريّ والذي لم يلحظه التاريخ غير مرة واحدة ، لانه إنما تمّ بعد موت الاسكندر . فالجنرالات يتوجون انفسهم ملوكاً ، ويحتلّ مقدَّمو العمال محلّ رجال الصناعة . ونشأت منافسات تمور بالحسد . واغلقت مصانع مسيو مادلين الرحبة ، وتركت الابنية للخراب ، وتشتت شمل العمال . لقد غادر بعضهم المنطقة وغادر بعضهم الصنعة . ومن ذلك الحين أنتج كل شيء على نطاق صغير بدلاً من ان يُنتج على نطاق كبير ، وابتغاء الربح لا ابتغاء الخير . لم يكن ثمة مركز ، فالمنافسة في كل مكان والضغينة كذلك . كان مسيو مادلين يهيمن على كل شيء ، ويوجه كل شيء . فلم يكد يسقط حتى تأصل كل امريء من اجل ذاته . لقد حلت روح الصراع محل روح النظام ، والحموضة محل المودّة ، والبغضاء المتبادلة محل رغبة المؤسس في خير المجموع . لقد تشابكت الخيوط التي نسجها مسيو مادلين وتقطعت . وغدت الطرائق زائفة ، والنتاج دوناً . لقد قلت الثقة ، وتناقص الزبائن ، وقلت الصفقات ، وانخفضت الاجور ، وتبطّل العمال ، واقبل الافلاس . وعندئذ لم يبق شيء للفقراء . لقد امحى كل شيء .

وحتى الدولة لاحظت ان شخصاً قد سحق ، في ناحية ما . ففي أقل من اربع سنوات انقضت على قرار محكمة الجنايات بأن مسيو مادلين هو جان فالجان نفسه ، لمصلحة سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، تضاعفت نفقات جباية الضرائب في مقاطعة مونتروي سور مير . وقد أشار مسيو فيلير الى هذه الحقيقة ، من على منبر المجلس ، في شهر شباط عام ١٨٢٧ .

٢

حيث نقرأ بيتين من الشعر لعلهما من عمل الشيطان

وقبل ان نمضي الى أبعد يحسن بنا ان نروي ، في شيء من التفصيل ، حادثة فريدة وقعت في الفترة نفسها تقريباً ، في مونفيرماي ، ولعلها ان لا تخلو من توافق مع بعض أحداس السلطات العامة .

إن في منطقة مونفيرماي خرافة عتيقة جداً يزيدها غرابةً ونفاسة أن وجود خرافة شعبية في جوار باريس اشبه شيء بشجرة من شجرات الصَّبْر * في سيبيريا . ونحن لسنا من اولئك الذين يحترمون ايما شيء لمجرّد انه نادر . والى القارىء اذن خرافة مونفيرماي هذه : إنهم يعتقدون ، هناك ، أن الشيطان قد اختار الغابة ، منذ الزمان الاقدم ، مكاناً

* ضرب من الزنبقيات يكون على هيئة بقول أو أنجم أو شجيرات كثيرة العصار ، خضة ذات ازهار منتصبة متراكمة ، يزرعه اهل الهند الغربية سياجاً للارض وتصنع من اليافه حبال أو اقمشة خشنة . ويقصد المؤلف الى القول ان انتشار الخرافة الشعبية في جوار مدينة مثل باريس مستغرب كوجود شجر الصبر في اصقاع باردة مثل سيبيريا ، لان الصبر من نباتات البلاد الحارة .

يخبيء فيه كنوزه . وتؤكد نسوة المنطقة الصالحات انه ليس من النادر ان يلتقي المرء ، عند غروب الشمس ، في المناطق المنعزلة من الغابة ، رجلا أسود ، يشبه سائق عربة أو حطاباً ، ينتعل حذاء خشبياً ، ويرتدي بنطلوناً وقميصاً من كتان خشن ، ويتميز بأن له على رأسه ، بدلاً من القلنسوة أو القبعة ، قرنين هائلين ، وهذا ما يجعل تعرّفه شيئاً يسيراً حقاً . وهذا الرجل مشغول ابداً في حفر الحُفر . وهناك ثلاثة مواقف يمكنك أن تتخذها حين تلقاه .

الاول ان تقترب من الرجل وتتحدث معه . وعندئذ تدرك ان هذا الرجل ليس غير فلاح ، وأنه يبدو أسود بسبب من الغسق ، وانه لا يحفر أيما حفرة ولكنه يجمع العشب لبقراته ليس غير ، وان ما ظُنّا قرنين على رأسه ليسا غير مذراة زبل يحملها على ظهره ، وقد بدت أسنانها ، بفضل الفن الذي يصطنعه الليل في رسم المناظر البعيدة ، وكأنها نابتة من رأسه . وتنقلب الى بيتك وتقضي نحبك في خلال اسبوع . والثاني ان تراقبه ، وتنتظر حتى يحفر حفرته ، ويعاود ردمها ، ويمضي لسبيله . وعندئذ تعدو في سرعة بالغة الى الحُفر وتنقبها من جديد وتُخرج « الكنز » الذي دفنه الرجل الاسود هناك من غير ريب . وفي هذه الحال تتخطفك المنيّة في خلال شهر . والثالث ان لا تتحدث الى الرجل الاسود على الاطلاق ، وان لا تنظر اليه على الاطلاق ، وان تطلق ساقيك للريح بأسرع ما تستطيع . وفي هذه الحال تموت في خلال العام .

واذ كانت لهذه المواقف جميعاً سيئاتها ، فان الموقف الثاني – الذي ينطوي على الاقل على بعض الحسنات من بينها انه يملّكك كنزاً ولو مدة شهر واحد فحسب – هو عادةً الموقف الاكثر شيوعاً . ومن هنا ، فان أولي العزم من الرجال ، الذين لا يفوّتون فرصة صالحة ، كثيراً ما نبشوا ، كما يؤكد الناس ، تلك الحفر التي شقّها الرجل الاسود ، وحاولوا ان يسرقوا الشيطان . ويبدو ان هذا الصنيع ليس رابحاً

جداً – على الاقل اذا كان لنا ان نؤمن بالتقاليد ونؤمن بخاصة ببيتين من الشعر الملغز باللغة اللاتينية البربرية خلّفهما لنا في هذا الموضوع راهب نورمندي خبيث كان يتعاطى السحر الى حـد ما ، واسمه تريفــون . وتريفون هذا مدفون في دير « سان جورج دو بوشرفيل » قرب روان ، ويتولد من ضريحه بعض ضفادع الجبل .

واذن فان الباحث عن الكنز يبذل جهوداً ضخمة ، لأن تلك الحفر عميقة جداً في العادة . إنه يَعرق ؛ إنه يحفر ؛ إنه يعمل الليل بطـوله لان هذا الصنيـع يُباشَر في ساعات الليل ؛ إنه يبلل قميصه ؛ إنه يستنفد شمعته ؛ انه يثلّم معوله ؛ وعندما ينتهي آخر الامر الى قعر الحفرة ، عندما يضع يده على « الكنز » ، ماذا يجد ؟ ما هو كنز الشيطان هذا ؟ إنه فلس – وفي بعض الاحيان ريال – أو حجر ، او هيكل عظمي ، أو جثة دامية ، واحياناً شبح مطويّ أربع طيّات مثل ورقة في محفظة ، واحياناً لا شيء . وذلك ما يُعلنه ، في ما يبـــدو ، بيتا تريفون ، لقليلي التبصّر الفضوليين :

Fodit, et in fossa thesauros condit opaca,

As, nummos, lapides, cadaver, simulacra, nihilque. *

والذي يبدو ان الباحث عن الكنز ، في عصرنا هذا ، يجد بالاضافة الى ذلك ، قرنَ بارود مع كُرَات احياناً ، ومجموعة عتيقة من ورق اللعب الاسمر الشّحِم كان واضحاً ان الشياطين لعبوا بها ، أحياناً اخرى . ولا يشير تريفون ايما اشارة الى هاتين اللقيتين الاخيرتين ، لانه عاش في القرن الثاني عشر ، وليس يبدو ان الشيطان كان من الذكاء بحيث يخترع البارود قبل روجر بايكون ** وورق اللعب قبل شارل السادس .

والى هذا ، فأيما امرىء يلعب بهذا الورق يخسر ، من غير ريب ،

* وقد فصّل المؤلف معناهما ، كما هو واضح ، في الفقرة السابقة .

** Bacon راهب انكليزي (١٢١٤–١٢٩٢) وكان من اعظم علماء القرون الوسطى.

كل ما يملك . اما البارود الذي في الوعاء فمن خصائصه أنه يفجّر بندقيتك في وجهك .

والآن ، وبعد فترة قصيرة انقضت على اعتقاد السلطات ان المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان ، كان يطوّف – خلال فراره الذي دام بضعة ايام – في مونفيرماي ، لوحظ في تلك القرية نفسها أن معبّد طرقٍ عجوزاً يـدعى بولاتروويل صار له « ولوع » بالغابة . وزعم الناس في ذلك الجوار انهم يعرفون ان بولاتروويل قضى شطراً من حياته في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كان خاضعاً لمراقبة الشرطة ، واذ لم يجد عملاً في مكان ما ، استخدمته الحكومة براتب منقوص كمعبّد للطريق الضيقة بين « غاني » و « لاني » .

وكان بولاتروويل هذا رجلاً ينظر اليه اهل المنطقة شزراً . كان يوقّر الناس اكثر مما ينبغي ، ويتواضع لهم اكثر مما ينبغي ، وكان يسارع الى نزع قلنسوته لكل انسان . كان يرتجف دائماً ويبتسم دائماً في حضرة رجال الدرك ، ولعله كان على صلة سرية بعصابات اللصوص ، كما تقول الشائعات ، فهو يُتّهم بانه يكمن في زوايا الغابة حين يهبط الليل. ولم يكن ثمة ما هو في مصلحته غير كونه سكيراً .

واليك ما لاحظه أهل المنطقة :

منذ فترة غير بعيدة ، ترك بولاتروويل ، في ساعة مبكّرة ، عمله القائم على تقطيع الحجارة وصيانة الطريق ، ومضى الى الغابة حـاملاً معوله . وكان الناس يلقونه ، حوالى المساء ، في اقصى بقاع الغابـة الجرداء ، وفي اشد الآجام إيحاشاً ، وقد بدت عليه سيما رجل يبحث عن شيء ، واحياناً سيما رجل يحفر حُفَراً . وحسبته النسوة الصالحات ، اول الامر ، بيلزيبوت * ، ثم عرفن انه بولاتروويل ، ولم يزدهنّ ذلك اطمئناناً ، على الاطلاق . وبـدا وكأن التقاء الناس العَرَضي لـ« بولاتروويل » كان يُقلقه إقلاقاً كثيراً . كان واضحاً انه كان يحاول

* اسم شيطان ، ويعتبر رئيساً للارواح الشريرة في الكتاب المقدس .

ان يختبيء ، وان في ما يعمله لغزاً .

وقالت اشاعات القرية : « من الواضح ان الشيطان قد ظهر ، وان بولاتروويل قد رآه ، فهو يبحث عن كنزه . والحق انه هو الرجل المؤهّل لسرقة الشيطان » . واضاف الفولتيريون * قائلين : « أيقبض بولاتروويل على الشيطان أم يقبض الشيطان على بولاتروويل ؟ » واكثرت النسوة العجائز من رسم اشارة الصليب على انفسهن .

واياً ما كان ، فان زيارات بولاتروويل الى الغابة ما لبثت ان انقطعت ، واستأنف الرجل عمله المعتاد فوق قارعة الطريق . وشرع الناس يتحدثون عن شيء آخر .

بيد أن نفراً قليلاً احتفظوا بفضولهم ، ذاهبين الى ان المسألة قد تكون منطوية لا على كنوز الخرافة الاسطورية بل على اشياء نصيبها من الجدّ والوجود الماديّ اكبر من نصيب اوراق الشيطان النقدية ، والى ان معبّد الطرق قد اكتشف السرّ ، من غير ريب نصف اكتشاف . وكان اكثرهم « انشغال بال » رجلان هما معلّم القرية ، وصاحب الفندق تيناردييه الذي كان صديق الجميع ، والذي ما كان يجد غضاضة في ان ينشيء علاقة ودّية حتى مع بولاتروويل نفسه .

وقال تيناردييه :

– « لقد كان في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ إيه ، يا الهي ! إن احداً لا يعرف من هناك ، ومن سيكون هناك . »

وذات مساء لاحظ معلم القرية ان السلطات في العهود القديمة كان خليقاً بها ان لا تهمل التحقيق حول الغاية التي من اجلها ذهب بولاتروويل الى الغابة ، وان بولاتروويل هذا ، لو سلف به الدهر قليلاً ، اذن لاكره على ان يتكلم ، واذن لعُذّب عذاباً شديداً اذا اقتضت الحاجة ذلك ، وان بولاتروويل ما كان ليعتصم بالصمت لو أدخلت مسألة المياه في

* نسبة الى فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير . ويقصد بالفولتيريين : الساخرون .

استجوابه ، مثلاً .

وقال تيناردييه :

— « فلنُدخل مسألة الخمر في ذلك الاستجواب . »

وهكذا دَعَوَا معبِّد الطرق العجوز الى سهرة وألحّا عليه في الشراب . وشرب بولاتروويل كثيراً ، ولكنه تكلم قليلاً . لقد أحسن الجمعَ ، في فن بارع ونسبة أستاذية ؛ ما بين ظمأ رجل مُسرف في الشراب ، ورصانة قاضٍ . ومع ذلك ، فباعادة التجربة مراراً ، وبالربط ما بين العبارات الغامضة التي ندّت منه وعصْرها استنتج تيناردييه ومعلم القرية ما يلي :

ذات صباح ، بينا كان بولاتروويل منطلقاً مع الفجر لأداء عمله ، أخذه الدهش اذ رأى في احدى زوايا الغابة ، تحت دغل من الادغال ، مسحاة ومعولاً ، مخبأين كما قد يقول المرء هناك . بيد أنه ظنهما مسحاة الأب « سيكس فور » ، حمّال الماء ، ومعوله فلم يفكر فيهما بعد. ولكنه عاد فرأى في مساء اليوم نفسه ، من غير أن يُرى ، اذ كان مختبئاً خلف شجرة ضخمة ، « شخصاً ليس من ابناء تلك المنطقة على الاطلاق ، ولكنه هو ، بولاتروويل يعرفه معرفة جيدة » ، او كما ترجمها تيناردييه « رفيقاً قديماً من رفاق السجن الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة » — رأى شخصاً ينعطف من الطريق العام نحو الجزء الأشد كثافة من الغابة . ورفض بولاتروويل ، في عناد ، ان يذكر اسم الرجل الغريب . وكان هذا الشخص يحمل رزمة ، شيئاً مربعاً مثل صندوق كبير أو وعاءِ امتعة صغير . ودُهش بولاتروويل ، وعلى اية حال ، فقد انقضت سبع دقائق او ثماني دقائق قبل ان يخطر له ان يتعقب « الشخص » . ولكن الاوان كان قد فات . كان الشخص قد انتهى الى الأجمة ، وكان الليل قد هبط ، ولم يوفق بولاتروويل الى ادراكه . وهكذا عقد النية على ان يراقب حواشي الغابة . « كانت

الليلة مقمرة » ، وبعد ساعتين او ثلاث ساعات رأى بولاتروويل هذ الشخص ينبثق كرة اخرى من الغابة ، غير حامل هـذه المرة صندوق الامتعة الصغير ذاك ، ولكن معولاً ومسحاة . وتركه بولاتروويل يمر ولم يخطر له ان يعترض سبيله قط ، لانه قال في ذات نفسه ان لذلك الشخص من القوة ثلاثة اضعاف ما له هو ، وانه مسلح بعمول ، وانـــه سوف يقتله في اغلب الظن اذا ما عرفه ، واذا ادرك الغريب ان امره قد انكشف . يا لها عاطفة جياشة تتدفق في صدرَي رفيقين قديمين التقيا على غير موعد ! ولكن المعول والمسحاة كانا شعاعاً من النور في نظر بولاتروويل . فـارع الى الادغال ، عند منبلج الصباح ، ولكنه لم يجد لا المعول ولا المسحاة . ومن هنا استنتج ان هذا الشخص حفر ، حين دخل الغابة ، حفرة بمعوله ، ودفن الصندوق في تلك الحفرة ، ثم عاود ردمها بمسحاته . واذ كان الصندوق اصغر من ان يحتوي على جثة ، فلا بـد انه ينطوي على مال . ومن هنـــا بَحْثُهُ المتواصل . ورادَ بولاتروويلُ الغابة كلها ، وسَبَرَ غورها ، وبحث نبلها بكل دقة ، ونقب الارض حيثما بدت له مقلوبةً منذ قريب . ولكن على غير طائل .

إنه لم يعثر على شيء . ولم يَعُدْ احد يفكر بذلك ، في مونفيرماي . ولكنّ بعض النسوة الثرثارات الصالحات ظللن يقلن : « كونوا على ثقة من ان معبّد طريق غانيي لم يُحدث كل هذه الضجة للاشيء . لقد كان الشيطان هناك ، من غير ريب » .

٣

وفيه يظهر ان سلسلة الطوق الحديدي لا بد ان تكون قد خضعت لعمل إعدادي ما لكي تنكسر على هذا النحو بضربة مطرقة

وفي اواخر تشرين الاول ، من العام نفسه ، ١٨٢٣ ، رأى سكان طولون السفينة أوريون تعود الى مرفـأهم ، بسبب العواصف الشديدة وابتغاء إصلاح بعض الخلل الذي أصابها ، وكانت تلك السفينة — التي استخدمت بعدُ في برست مركباً للتدريب — تؤلف آنذاك جزءاً من اسطول البحر الابيض المتوسط .

والواقع ان هذه السفينة ، برغم ما ألمّ بها من كساح نتيجةً لمخاشنة البحر لها ، أثارت هزّةً من الفضول والاهتمام عند دخولهـا المرسى . وكانت ترفع علماً لست ادري ما هو عـلى التحقيق ، ولكنه أهّلها لترحيب نظامي يتألف من احـدى عشرة طلقة ، ردّت عليها واحدةً واحدةً ، فاذا المجموع اثنتان وعشرون طلقة . ولقد قدّر المقدرون ان العالم المتمدن ، في كل رجاً من ارجاء الكرة الارضية ، يطلق كل اربع وعشرين ساعة ، مئة وخمسين الف طلقة مدفع غـير مجدية تُهدر على التحيات والمجاملات الملكية والعسكرية ، وتبادل الصخب الملاطف ، وايماءات اللياقة ، وشكليات المرافىء والحصون ، وبزوغ الشمس وغروبها اللذين تحييهما كل يوم جميع القلاع والسفن الحربيـة ، وفتـح الموانىء واغلاقها ، الخ ... الخ ... فاذا كان ثمن الطلقة الواحدة ستة فرنكات بلغت نفقات ذلك تسعمئة الف فرنك يومياً ، او ثلاثمئة مليون فرنك سنوياً تذهب دخاناً . وليس ذلك غير بندٍ واحد . وفي الوقت نفسه يموت

الفقراء جوعاً .

وكانت سنة ١٨٢٣ هي السنة التي دعاها عصر عودة آل بوربون الى الحكم « عهد الحرب الاسبانية » .

وانتظمت تلك الحرب عدة حوادث في واحدة ، وعدداً غير يسير من الفرائد . كانت قضية عائلية كبرى من قضايا آل بوربون ؛ كان الفرع الفرنسي يساعد ويحمي فرع مدريد ، يعني انه كان يقوم بالواجب المفروض على الأرشد ؛ ولقد عدنا عودة ظاهرية الى تقاليدنا الوطنية ، ممزوجة بالعبودية والخضوع لوزارات الشمال ؛ وكان دوق آنغوليم ، الذي خلعت عليه الصحف التحررية لقب « بطل آندوجار » يقمع ، في مسلك مظفّر يتناقض بعض الشيء مع نزعته السلمية ، الارهابَ القديم الواقعي الى ابعد الحدود الذي فرضه « المكتب المقدس » * المعادي لأرهاب الاحرار الوهمي ؛ وبُعثت جماعة اللاسراويل ** ، ويا لذعر الارامل ذوات الصّداق ، تحت اسم الا descamisados *** ؛ ووضع الملكيون المراقيل في طريق التقدم الذي نعتوه بالفوضوية ، واعتُرضت نظريات ٨٩ **** على نحو خشن ، وهي تتخذ سبيلها المقوّض ؛ وطاف أمرٌ اوروبيّ بالوقوف ، موجه الى الفكرة الفرنسية الخاصة بالثورة ، حول الكرة الارضية ؛ والى جانب ابن فرنسة ، الجنرال الأعظم ، انضوى البرنس دو كاريـنيان ، الذي أمسى في ما بعد شارل آلبير ***** ، تحت لواء صليبية الملوك هذه ضد

* Saint - office ويقصد به ديوان التفتيش . وقد اطلق هذا الاسم في الاصل على ديوان التفتيش الذي اقيم في رومة ، وهو الذي حكم على غاليليو بالموت .

** Sans - culottes وهو اللقب الذي خلعه الارستوقراطيون حوالى عام ١٧٩٢، على رجال الثورة الذين استعاضوا عن السروال القصير (الكولوت) بالبنطلون .

*** تعبير اسباني معناه « الذين لا قمصان لهم ». وقد اطلق على جماعة من الثائرين الاسبان . والكلمة كما ترى عربية الاصل تتألف من اداة النفي (des) وكلمة « قميص » على صورة محرفة .

**** يقصد النظريات التي قالت بها الثورة (١٧٨٩)

***** Charles - Albert (١٧٩٨—١٨٤٩) امير من اسرة Carignan ، وهي فرع من اسرة سافوا ، تولى عرش سردينية عام ١٨٣١ وانقذ لومباردية من ربقة النمسويين ، ثم هزمه النمسويون ، عام ١٨٤٩ ، وتنازل عن العرش لابنه عمانويل الثاني .

الشعوب بوصفه متطوعاً يحمل كتافتي رامي قنابل مصنوعتين من صوف أحمر ؛ واستأنف جنود الامبراطورية خوض المعارك ، ولكنهم كانوا بعد ثماني سنوات من الراحة قد شاخوا واكتأبوا وطوقوا قبعاتهم بالعصابة البيضاء ؛ ورفرف العلم المثلث الالوان في الديار الاجنبية بأيدي حفنة مــن الفرنسيين البواســل ، كما رفرف العلم الابيض * في كوبلنتز ** قبل ثلاثين عاماً ؛ واختلط الرهبان بجنودنا ؛ وقُهــرت روح الحرية والتجدد برؤوس الحراب ؛ وأذلت المبادىء بطلقات المدافع ؛ ونقضت فرنسة بسلاحها ما كانت قد فعلته بروحهـا . والى هذا ، فقد كان زعماء العدو قد باعوا أنفسهم ، وكانت قوانهم مترددة ، وكانت المدن تُحاصر بالملايين من الفرنكات ؛ ولم يكن ثمة أخطار عسكرية ، ومع ذلك فقد كانت الانفجارات ممكنة ، شأن كل منجم يُقتحم ويُحتل عــلى حين غرة . ولم يُسفح غير قليل من الدم ، ولكن قليلاً من الشرف قد كُسب . وسربل العار قلة قليلة ، ولكن المجد لم يكن من نصيب أحد . هكذا كانت هــذه الحرب التي شنها امراء تحدّروا من لويس الرابع عشر ، وقادها جنرالات انبثقوا من نابوليون . لقد كانت ذات مصير تعس ، فهي لا تُدعى حرباً كبيرة ، ولا تدعى سياسة كبيرة .

وكانت بعض أحداث الحرب جدية . فالاستيلاء عــلى تروكاديرو ، كان بالاضافة الى غيره من الاحداث ، عملاً عسكرياً موفقاً . ولكنـا نكرر القول ان ابواق تلك الحرب ، اذا نُظر اليها جملة ، كانت تطلق صوتاً متصدّعاً ، وان هيئتها العامة كانت مريبة ، وان التاريخ يقرّ نفرة فرنسة من الاعتراف بابوّتها لهذا النصر الزائف . ولقد بدا واضحاً ان

---

* هو العلم الملكي ، أما العلم المثلث الالوان فهو علم الثورة كما لا يخفى .

** Coblentz مدينة المانية تجمع فيها عام ١٧٩٢ النبلاء المهاجرون وانشأوا ما يعرف بجيش كونديه l'armée de Condé

بعض الضباط الاسبان المكلفين بالمقاومة استسلموا بأكثر مما ينبغي من اليسر ، وأن فكرة الرشوة انبعثت من فضل تفكير بالنصر . وتراءى وكأن الجنرالات هم الذين كسبوا ، لا المعارك ؛ وان الجندي المنتصر قد رجع ذليلاً مهيناً . كانت حرباً متضائلة حقاً ، في ميسورك ان تقرأ عبارة « بنك فرنسة » على طيات رايتها .

وقطّب جنود حرب عام ١٨٠٨ ، الذين انهاوت سرقسطة تحت اقدامهم ذلك الانهيار الهائل ، لاستسلام الحصون على هذا النحو السهل عام ١٨٢٣ ، وتحسروا على بالافوكس * . إن مزاج فرنسة هو الذي يجعلها تؤثر ان تجد أمامها رجلاً مثل « روستوبشين » ** لا رجلاً مثل « باليّستيروس » ***

ومن جهة نظر أشدّ خطورة أيضاً – وجهة نظر يحسن بنا أن نؤكدها – أثارت هذه الحرب ، التي حطمت روح فرنسة العسكرية ، سخطَ الروح الديموقراطية . كانت مشروع إخضاع . ففي هذه الحملة ، كان هدف الجندي الفرنسي ، ابن الديموقراطية ، أن يفوز بنير يُثقل به أعناق الآخرين . تناقض مخيف . لقد وُجدت فرنسة لكي توقظ روح الشعوب ، لا لكي تخنقها . فمنذ عام ١٧٩٢ لم تكن جميع ثورات اوروبة شيئاً غير الثورة الفرنسية ؛ كانت الحرية تشعّ من كل رجا من ارجاء فرنسة . تلك حقيقة ساطعة سطوع الشمس في رائعة النهار . وأعمى هو الذي لا يراها ! إن بونابرت هو الذي قالها .

وإذن فقد كانت حرب عام ١٨٢٣ – وهي اعتداء على الامة الاسبانية النجيبة – اعتداء على الثورة الفرنسية في الوقت نفسه . كانت

* Palafox دوق سرقسطة (١٧٨٠ – ١٨٤٧) وقد دافع دفاعاً باسلاً عن سرقسطة عام ١٨٠٩ .

** Rostopchine رجل دولة روسي (١٧٦٣ – ١٨٢٦) كان حاكم موسكو عام ١٨١٢ وقد أمر باحراق المدينة عند دخول الفرنسيين اليها .

*** Ballesteros جنرال اسباني (١٧٧٠ – ١٨٣٢)

فرنسة هي التي اقترفت صنيع العنف الهائل هذا ، ولكنْ مكروهـــة . لانه ، باستثناء حروب التحرير ، تعمل الجيوش كل ما تعمله من طريق الاكراه . إن كلمتي الطاعة العمياء لتشيران الى ذلك . والحـــق ان الجيش رائعة عجيبة من روائع التآلف ، حيث تكون القوة ثمرة مجموع هائل من الضعف . وهكذا نستطيع ان نفسر الحرب التي تشنها الانسانية ضد الانسانية على الرغم من الانسانية .

وفيما يتصل بآل بوربون ، كانت الحرب وبالاً عليهم . لقد اعتبروها نجاحاً . انهم لم يروا قطّ ايّ خطر يكمن في محاولة قتل فكرة بأمر عسكريّ . لقد زلّوا ، بسذاجتهم ، الى حد جعلهم يُدخلــــون الى كيانهم ، وكأنه عنصرُ قوة ، ذلك الوهنَ الهائـل الناشيء عن ارتكاب جريمة . لقد تسرّبت روح الترصّد ونصب الأشراك الى سياستهم . إن بذرة عام ١٨٣٠ * كانت كامنة في عام ١٨٢٣ . فقد غدت الحمـــلة الاسبانية ، في مجالسهم ، حجةً لاتخاذ اجراءات العنف ، ولحبك المؤامرات تدعيماً للحق الالـهي . وفرنسة ، وقد وفقت الى اعادة الملك المستبد الى اسبانية ، خليقة بأن لا تعجز عن اعادة الملكية المطلقة الى ديارها هي . لقد وقعوا في هذه الغلطة الرهيبة وهي أنهم توهموا أنّ خضوع الجندي يعني موافقة الامة . وهذا الوهم يهدم العروش . يجب ان لا ينام المرء ، لا في ظلّ شجرة من شجرات الاوباس ** ، ولا في ظل جيش من الجيوش .

ولكن فلنعدْ الى السفينة « اوريون » .

في اثناء العمليات التي قام بها جيش الامير القائد الأعلى ، كان اسطول بحريّ يطوّف في مياه البحر الابيض المتوسط . ولقـــد سبق

---

* هو العام الذي نشبت فيه الثورة ضد الملك شارل العاشر ، فخلع عن العرش وحلّ محله لويس فيليب .

** شجرة تنمو في الهند وهي ذات عصير سام .

منا القول إن السفينة « أوريون » كانت جزءاً من هـــذا الاسطول ، وان تلاطم الامواج أكرهها على العودة الى مرفأ طولون .

إن في وجود سفينة حربية في مرفأ ما شيئاً خفياً يجذب الجماهير ويثير فضولهم . ومردّ ذلك الى انها ضخمة ، والجماهير تحب كل ما هو ضخم .

والحق ان الدارعة مظهر من مظاهر الصراع بين العبقرية الانسانية وقوى الطبيعة .

إن الدارعة لتتألف من اشد المواد ثقلاً ، ومن اكثرهـــا خفةً في وقت معاً ، لان عليها ان تقاوم ، في الوقت نفسه ، اشكالَ المادة الثلاثة : الجامد ، والسائل ، والمائع . ان لها احد عشر مخلباً حديدياً لتتشبث بالصخر في اعماق البحر ، واجنحة وقروناً تزيد على عدد اجنحة الفراشة وقرونها لكي تلتقط النسائم في السحب . وان نفَسها لينطلق من خلال مدافعها المئة والعشرين وكأنه ينطلق من ابواب ضخام ، ويردّ في زهو على الصاعقة . ويناضل الاوقيانوس لكي يُضلّها في تشابه امواجه المروّع ، ولكن للدارعة بوصلتها ، التي هي روحها ، فهي ترشدهـــا أبداً وتدلها ابداً على الشمال . وفي الليالي الظلماء تحل فوانيسها محـــلّ النجوم . وهكذا فأنها تكافح الريح بالحبال والنسيج القنبي ، وتكافح الماء بالخشب ، وتكافح الصخر بالحديد والنحاس والرصاص ، وتكافح الظلام بالنور ، وتكافح لانهائية البحر بأبرة .

وليس علينا لكي نكوّن فكرةً عن هذه الابعاد الهائلة كلهـا التي يكوّن مجموعها دارعة من الدوارع إلا ان نمرّ تحت مصنع من مصانـع السفن المسقّفة ذات الادوار الستة ، في مرفأ بريست ، أو مرفأ طولون . إن السفن الجاري انشاؤها لتُرى هناك تحت صناديق زجاجية ، إذا جاز التعبير . فهذه العارضة الخشبية الهائلة هي عارضة الصاري ، وهذا العمود الخشبي الضخم ، المنطرح على الارض والممتد الى ابعد من مدى البصر

هو الصاري الرئيسي ، ولو قد اعتبرته من جذره القائم في القعر الى رأسه الضارب في السحاب اذن لظهر لك ان ارتفاعه يبلغ ستين قامة ، وان محيطه عند قاعدته يبلغ ثلاثة اقدام . ويرتفع الصاري الرئيسي الانكليزي مئتين وسبعة عشر قدماً فوق خط العَوْم . ولقد كانت اساطيل أجدادنا تستعمل الحبال ، اما اساطيلنا فتستعمل السلاسل . والواقع ان لفّة السلاسل الخاصة بدارعة ذات مئة مدفع تبلغ اربعة اقدام طولاً ، وعشرين قدماً عرضاً ، وثمانية اقدام عمقاً . ومن اجل انشاء مثل هذه الدارعة ، ما مقدار الخشب الذي نحتاج اليه ؟ ثلاثة آلاف متر مكعب . إنها غابة تطفو على وجه الماء .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر جيداً اننا لا نتحدث هنا الا عن السفينة الحربية كما كانت منذ اربعين سنة ، عن السفينة الشراعية البسيطة ، ذلك بأن البخار — وكان آنذاك في طفولته — قد اضاف منذ ذلك الحين ، عجائب جديدة الى هذه المعجزة التي ندعوها البارجة الحربية . ففي ايامنا هذه مثلاً ، نجد ان البارجة المختلطة ذات المروحة جهازٌ آليٌّ مدهش تسوقه قطعة من قماش فني تبلغ مساحة سطحها ثلاثة آلاف متر مربع ، ومولد بخاريّ قوّته الفان وخمسمئة حصان .

ومن غير ان نتحدث عن هذه العجائب الجديدة ، نستطيع ان نقول ان سفينة « كريستوف كولومبوس » و « رويتر » * العتيقة هي رائعة من روائع الانسان الكبرى . إن قوّتها لا تنضب شأن انفاس اللانهاية . إنها تختزن الريح في شراعها ، وانها لراسخة وسط اختلاط الامواج المائل . إنها تطفو وتهيمن .

ولكن ثمة لحظات تحطم فيها العاصفة عارضة الصاري البالغ طولها ستين قدماً كما تُحطم القشة ، وتلوي فيها الريحُ ذلك الصاري البالغ

---

* Ruyter امیرال هولندي (١٦٠٧ – ١٦٧٦) جرت بينه وبين الاميرال الفرنسي دوكين Duquesne موقعة شهيرة ، في سيراكيوس ، وقد مات على اثرها .

طوله اربعمئة قدم كما تُلوى القصبة ، وتنفتل فيها تلك المرساة التي تزن أطناناً في شدق الامواج كما ينفتل مُص الصياد بين فكي سمكة من سمك الكراكي ، وتطلق فيها تلك المدافع الجبارة زمجرات نائحة غير مجدية تقذف بها العاصفة الى الفراغ والى الليل ، وتغرق فيها كل تلك القوة وكل تلك الجلالة في قوة اعظم وجلالة أسمى .

وكلما أبرزت قوة هائلة لتنتهي الى ضعف هائل تقف عقول الرجال متأملة . ومن هنا يحتشد اولئك الفضوليون في المرافيء – من غير ان يعلموا هم انفسهم لماذا على وجه الدقة – حول ادوات الحرب والملاحة الرائعة هذه .

واذن ، فكل يوم ، من الصباح حتى المساء ، كانت ارصفة مرفأ طولون تغطى بحشد من العاطلين والمضيعين اوقاتهم – كما يقولون في باريس – وليس لهم من عمل غير النظر الى الـ « أوريون » .

وكانت الـ « اوريون » سفينة مريضة منذ عهد بعيد . ففي رحلاتها السالفة كانت طبقات كثيفة من المحار قد تراكمت على قعرها الى درجة جعلتها تفقد نصف سرعتها . وكانت قد وُضعت في العام الماضي ، في حوض الترميم الجاف كي تكشط طبقات المحار عنها ، ثم انطلقت نحو البحر من جديد . ولكن هذا الكشط كان قد آذى مثبّتات قعرها .

وعند خط عرض جزائر الباليار كانت ألواحها قد وهنت وانفرجت . واذ لم يكن تغليف قاع السفينة الخارجي بالنحاس معروفاً آنذاك ، فقد اخذت المياه تتسرب اليها ، واصابتها على نحو مفاجيء ضربة عنيفة من الاعتدال الفلكي نزعت أقواس جانبها الأيسر واحدى كوى مدافعها وعطبت حامل حبل الصاري الامامي . وبعد ان مُنيت الـ « اوريون » بهذا الاذى كله ، أعيدت الى طولون .

وألقيت مرساتها قرب دار الصناعة . كانت مسلّحة ، وكانوا يصلحونها . ولم يكن هيكل السفينة قد أوذي من الميمنة ، ولكن بضعة ألواح

كانت قد نزعت ههنا وهناك ، وفقاً للعادة ، لتمكين الهواء من الدخول الى هيكلها .

وذات صباح شهد الحشد الذي كان يحدّق اليها حدثاً .

كان الملاحون منهمكين في شدّ الاشرعة الى الصواري . واذا بخفير الصواري – المكلف بتناول الزاوية العليا من شراع الصاري الأعظم القائم في ميمنة السفينة – يفقد توازنه . ورآه القوم يترنح ، وأطلقت الحشود المجتمعة فوق رصيف دار الصناعة صيحةً ، ورجح رأسُ الرجل جسدَه ، وانفتل حول عارضة الصاري ، وقد انبسطت يداه نحو الاعماق . وفيما هو يهوي تعلّق بالمرقاة الزائفة باحدى يديه ، اولاً ، ثم بيده الاخرى ، وظل متدلياً على هذا النحو . وكان البحر ينبسط تحته على عمق يوقع الدوار في الرأس . وأثارت صدمة سقوطه حركة عنيفة في المرقاة الزائفة كحركة الاراجيح . وتأرجح الرجل ، بقطعة الحبل هذه ، ذات اليمين وذات الشمال ، مثل حجر مقلاع .

وكان الاندفاع الى نجدته ينطوي على مجازفة مروّعة . ولم يجرؤ احدٌ من الملاحين -- وكانوا كلهم من صيادي الشاطيء الداخلين حديثاً في خدمة الاسطول – على القيام بهذه المحاولة . وفي غضون ذلك كان خفير الصّواري المسكين قد خارت قواه . لم يكن في ميسور المرء ان يلحظ حشرجته واضحةً على اسارير وجهه ، ولكن انهيار قواه المتعاظم كان يُلحظ في حركات اوصاله جميعاً . وتوترت ذراعاه في التواءات رهيبة . ولم تؤدّ كل محاولة قام بها للصعود من جديد إلا الى امعان المرقاة الزائفة في التأرجح . ولم يصرخ قطّ خشية ان يفقد قوّته . وكان القوم كلهم يترقبون الدقيقة التي يُفلت فيها الحبلَ ، وفي بعض اللحظات أشاحوا جميعاً بوجوههم لكي لا يروا اليه وهو يهوي . إن ثمة لحظات تكون فيها قطعة الحبل ، والعصا الطويلة ، وغصن الشجرة هي الحياة نفسها ،

وإنه لشيء رهيب ان يرى المرء الى كائن حيّ ينفصل عنها ويسقط مثل ثمرة يانعة .

وفجأة بَصُرَ القوم برجل يتسلّق حبال الدارعة بخفة سنّور بري . وكان هذا الرجل يرتدي ثوباً أحمر ؛ كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة . وكان يعتمر بقلنسوة خضراء ؛ كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . حتى اذا انتهى الى سطح أعلى الصاري أطارت الريح قلنسوته ، وكشفت عن رأس أشيب كلهُ . إنه لم يكن شاباً .

والواقع ان احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المكلفين بالقيام فوق ظهر تلك الدارعة بمهمة من مهامّ السجن كان قد هرع ، منذ اللحظة الاولى ، الى ضابط الحراسة . وفي غمرة اضطراب النوتية وترددهم ، حين كان جميع الملاحين يرتعدون وينكصون على اعقابهم ، سأل الضابطَ ان يأذن له بالمغامرة بحياته لكي ينقذ خفير الصواري . واذ اومأ الضابط له ايماءة ايجابية ، كسر بضربة مطرقة السلسلةَ التي تطوّق مفصل عقب رجله . ثم تناول حبلاً ، ووثب الى حبال الصاري . ولم يلاحظ احد ، في تلك اللحظة ، بأية سهولة كُسِرت السلسلة . إنهم لم يتذكروا ذلك إلا في ما بعد .

وفي طرفة عين انتهى الى عارضة الصاري . وتمهل بضع ثوان ، وبدا وكأنه يقيسها بنظرة منه . وتراءت هذه الثواني التي كانت الريح خلالها تؤرجح خفير الصواري ذات اليمين وذات اليسار عند حبل من الحبال — وكأنها اجيال في أعين المشاهدين . واخيراً ، رفع المحكوم عليه بالاعدام عينيه نحو السماء ، وخطا خطوة الى أمام . واخذ الحشد نفَساً طويلاً . لقد رأوه يجتاز عارضة الصاري راكضاً . حتى اذا انتهى الى اقصاها عَقد هناك احد طرفي الحبل الذي كان قد جاء به ، وترك طرفه الآخر يتدلى على مداه ، ثم راح يهبط ويداه متشبثتان بذلك الحبل .

وعندئذ استبدّت بالقوم موجة من الذعر تجلّ عن الوصف . لقد رأوا رجلين اثنين ، بدلاً من رجل واحد ، يتدليان فوق اللجّة .

كان في ميسور المرء ان يقول إنها عنكبوت تنقضّ على ذبابة ، لولا ان العنكبوت هنا كانت تحمل الحياة لا الموت . وسُمّرت عشرة آلاف عين على هذين الرجلين . فلا صيحة ، ولا كلمة . لقد غضّن الانفعال نفسه جميع الجباه . وحبس كل امرئ أنفاسه ، وكأنما كان يخشى ان يُمِدّ الريحَ التي كانت تؤرجح الرجلين البائسين بأقل النَفَثات .

بيد أن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة وفّق ، آخر الامر ، الى ان يشق طريقه نحو الملاّح . وكان ذلك في الوقت المناسب ، فلو انه تأخر دقيقةً إضافية إذن لكان الرجل قد هوى الى اعماق البحر يائساً ناضب القوى . وشدّه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شداً محكماً الى الحبل ، وكان يتشبث به بإحدى يديه ، ويعمل بالاخرى . وأخيراً ، رئي يعاود الصعود الى عارضة الصاري ويسحب الملاحَ خلفه . وأسنده هناك ، لحظةً ، لكي يمكنه من استعادة قواه ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وحمله فيما هو يجتاز عارضة الصاري الى العارضة التي تصل ما بين الصاري الكبير والصاري الصغير ، ومن هناك الى سطح اعلى الصاري حيث تركه بين ايدي رفاقه .

في تلك اللحظة صفّق الحشد ؛ وبكى رقباء سجن الاشغال الشاقة الشيوخ ، وتعانقت النسوة فوق ارصفة الميناء ، وسُمِعت جميع الاصوات تصيح بضرب من الحماسة المكبوحة في رفق :

— « هذا الرجل يجب ان يُغفَر له ! »

أما هو فقد جعل من واجبه أن يعاود الهبوط ، في الحال ، ويستأنف عمله . ولكي يصل على نحو أسرع أنشأ ينزلق على الحبل ، وراح يعدو على عارضة منخفضة من عوارض الصاري . وتبعته العيون كلها . وانقضت لحظةٌ استبدّ الذعر خلالها بالمشاهدين جميعاً . وسواء

أكان ذلك لأحساسه بالتعب ، أم لأن الدوار عصف برأسه ، فقد اعتقد القوم أنهم رأوه يتردد ويترنح . وفجأة أطلق الحشد صيحةً مدوّية : كان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة قد سقط في البحر .

وكان السقوط مهلكاً . فقد كانت البارجة « الجزيرة » L'Algésiras راسيةً قرب الـ « أوريون » ، ولقد غاص السجين البائس بين البارجتين. وخشيَ القوم ان يغرق تحت واحدة منها . ووثب اربعة رجال ، في وقت معاً ، الى مركب . وشجّعهم القوم ، وغلب القلق ، كرةً اخرى ، على النفوس جميعاً . ولم يكن الرجل قد ارتفع الى سطح الماء ، من جديد . كان قد اختفى في البحر من غير ان يغضّن صفحة الماء ، فكأنه إنما سقط في برميل زيت . وسبروا غور المكان ، وغاصوا الى الأعماق . ولكن على غير طائل . وواصلوا البحث الى ان هبط الليل . ولكنهم لم يعثروا حتى على الجثة .

وفي صباح اليوم التالي نشرت « صحيفة طولون » الاسطر التالية : « ١٧ تشرين الثاني ، ١٨٢٣ – أمس فيما كان أحد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة العاملين على ظهر الـ « أوريون » عائداً الى عمله بعد ان انقذ حياة احد الملاحين ، سقط في البحر فغرق . ولم يُعثر على جثته قط . ويُفترض أنه علقَ تحت الاوتاد الغارزة في الماء عند مقدّم دار الصناعة . كان هذا الرجل مسجلاً تحت رقم ٩٤٣٠ ، وكان يدعى جان فالجان . »

الكتاب الثالث

الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

١

مسألة المياه في مونفيرماي

تقع مونفيرماي بين « ليفري » و « شيل » على المنحدر الجنوبي من ذلك النجد العالي الذي يفصل الـ « أورك » عن الـ « مارن » . إنها اليوم بلدة كبيرة تزدان طوال العام بدارات (فيلات) من جبس ، وفي يوم الاحد ، بمواطنين تطفو على وجوههم نضرة النعيم . أما عام ١٨٢٣ فلم يكن في مونفيرماي لا هذه الكثرة من البيوت البيضاء ، ولا هذه الكثرة من المواطنين الناعمين . انها لم تكن غير قرية في الغابات . والواقع أنك كنت تجد فيها ههنا وهناك متنزهات من القرن

الماضي تمتاز بعظهرها الضخم ، وشرفاتها ذات الحديد الملوي ، وبتلك النوافذ الطويلة التي كانت ألواحها الزجاجية الصغيرة تبدي على بياض مصاريعها الموصدة جميع ضروب الاخضرار المختلفة . ولكن مونفيرماي ظلت برغم ذلك كله قرية . ان تجار المنسوجات المتقاعدين والقرويين الهواة لم يكونوا قد اكتشفوها بعد . كانت بقعة آمنة فاتنة ، ولم تكن تقع على الطريق الى بلد ما . كان اهلها يحيون ، بثمن بخس ، تلك الحياة الريفية البالغة الخصب ، والبالغة اليُسر . ولكن المياه كانت نادرة هناك بسبب من ارتفاع النجد .

كان يتعين عليهم ان يجتازوا مسافة غير قصيرة التماساً للماء . فأما اقصى القرية المجاور لـ « غاني » فكان يستمد ماءه من الغدران الرائعة التي كانت هناك في الغابات ، وأما اقصى القرية الآخر الذي يحيط بالكنيسة والمجاور لـ « شيل » فلم يكن يجد مياه الشفة الا في ينبوع صغير ، عند منتصف المنحدر ، قرب الطريق الى « شيل » ، على مسيرة ربع ساعة من مونفيرماي تقريباً .

واذن فقد كان الحصول على الماء مسألة جدية يتعين على كل أسرة ان تواجهها . فكانت البيوت الكبيرة ، بيوت الارستوقراطيين ، وفي جملتها فندق تيناردييه ، تدفع رُبع « سو » ، ثمناً لكل دلو من الماء الى رجل ساذج اتخذ من تزويد الناس بالماء مهنة له ، وكان يكسب من ذلك الصنيع نحواً من ثمانية « سو » في اليوم . ولكن هذا الرجل لم يكن يشتغل إلا إلى الساعة السابعة مساءً في الصيف ، والى الساعة الخامسة مساءً في الشتاء . فاذا هبط الليل ، وأوصدت نوافذ الادوار الاولى ، تحتم على كل من أعوزه الماء أن يلتمسه بنفسه ، او يستغني عنه .

ذلك كان الهولَ الذي احتملته تلك المخلوقة المسكينة التي نرجو ان لا يكون القارىء قد نسيها — كوزيت الصغيرة . ونحن نذكر ان كوزيت كانت ذات فائدة لتيناردييه وزوجته من ناحيتين . كانا ينتزعان

الأجر من الأم ، والعملَ من الطفلة . وأنه حين اقلعت الأم نهائياً عن الدفــــع – وقد رأينا سبب ذلك في الفصول السابقة – احتفظ تيناردييه وزوجته بكوزيت . لقد حلّت عندهما محلّ خادمــة . وبوصفها ذاك ، تعيّن عليها ان تركض هي لجلب الماء حين يحتاجان اليه . وهكذا فأن الطفلة الصغيرة التي كان يروّعها دائماً مجرد التفكير في الذهاب الى الينبوع تحت جنح الظلام ، كانت تبذل غاية عنايتها لكي لا يعوز الماءُ البيت على الاطلاق .

وكان عيد الميــــلاد من عام ١٨٢٣ مشرقـــاً على نحو خاص في مونفـــيرماي . كان الشطر الأول من الشتاء معتدلاً ؛ ولم تكن تلك المنطقة قد عرَفَتْ بعدُ لا الجليدَ ولا الثلــج . وكان بعض المشعوذين الوافدين من باريس قد استصدروا من العمدة اذناً يجيز لهم أن يضربوا خيامهم في شارع القرية الرئيسي . وكانت جماعــة من الباعة المتجولين قد اقامت ، بفضل الاذن نفسه ، حوانيتها الخشبية الصغيرة في الساحة المنبسطة امام الكنيسة ، وحتى في « زقاق بولانجيه » حيث يقوم مطعمُ تينــاردييه الحقيرُ ، كما قد يذكر القاريء . وهكذا غصّت الفنادق والحانات بالزبائن ، واتخذت هذه البقعة الهادئة مظهراً صاخباً بهيجاً . وينبغي ان نقــول ايضاً لكي نكون مؤرخين امنــــاء ، انه كان بين الغرائب المعروضة في تلك الساحة معرض حيوانات يضمّ مهرجين مخيفين يرتدون اسمالاً بالية ، وليس يدري احــد من اين اقبلوا ، فهم يعرضون ، سنة ١٨٢٣ ، على فلاحي مونفيرماي واحداً من تلك العقبان البرازيلية الراعبة التي لم يملك متحفنا الوطني نظيراً لها إلا في عام ١٨٤٥ ، والتي تشبه عيونها شارات مستديرة ، كالتي تزين قبعات الجنود ، مثلثة الالوان . ويدعو علماء التاريخ الطبيعي هذا الطائر Caracara Polyborus في ما أعتقد . انه من رتبة الApicidae وفصيلة العقبان . وقصد بعض الجنود البونابرتيين العجائز ، الطيبين ، المتقاعدين في القرية ، لرؤية هذا الطائر في خشوع . وزعم المشعوذون ان تلك الشارة

المستديرة ظاهرة فريدة صنعها الله خصيصاً لمعرضهم الحيواني .

في ليلة الميلاد تلك كان بضعة رجال ، بعضهم سائقو عربات وبعضهم باعة متجولون في الارياف ، جالسين الى الطاولات يعاقرون الخمر حول اربع شموع او خمس شموع في القاعة السفلى من فندق تيناردييه . وكانت هذه القاعة تشبه قاعات الحانات جميعاً : طاولات ، وآنية من قصدير ، وزجاجات ، وشاربون ، ومدخنون . قليل من النور ، وكثير من الضجة . ومع ذلك ، فقد كان تاريخ عام ١٨٢٣ يتجلى في ذينك الشيئين القائمين على احدى الطاولات ، وكانا آنذاك زياً شائعاً بين الطبقات الوسطى ، وهما منظار سحري ، ومصباح من صفيح متموّج . كانت تيناردييه الزوجة تراقب الحساء الذي كان يُطهى أمام نار مشرقة لاهبة . وكان تيناردييه الزوج يحتسي الشراب مع ضيوفه ، ويتحدث في السياسة .

والى جانب المناقشات السياسية التي كان موضوعاها الرئيسيان الحرب الاسبانية ودوق آنغوليم * كان في ميسور المرء ان يسمع ، في غمرة الضجة ، ملاحظات محلية معترضة من مثل هذه :

– « هناك في ناحية « نانتير » و « سورين » كان موسم الكرمة خصباً . فحيث توقّع القوم عشرة براميل فازوا باثني عشر . لقد استخرجوا مقادير كبيرة من العصير من تحت المكبس . »

– « ولكن اليس من الضروري ان ينضج العنب ؟ »

– « اوه ، في تلك الديار ليس من الضروري ان يُقطف العنب ناضجاً . إن الكرمة لتغدو بدينةً مع الربيع . »

– « اذن فهي خمر هزيلة ؟ »

– « ان ثمة خموراً كثيرة هي اشدّ هزالاً من الخمر التي نعرفها هنا . يتعيّن على المرء ان يجني العنب وهو بعدُ أخضر . » الخ ...

وقد يصيح أحد الطحانين قائلاً :

* كان هذا الدوق هو قائد القوات الفرنسية في الحرب الاسبانية .

– هل نحن مسؤولون عما في الاكياس ؟ إننا نجد ركاماً من البذور الصغيرة هناك ، ولكننا لا نستطيع ان نتسلى بالتقاطها ، وإننا لنضطر طبعاً الى ان ندعها تمرّ بين حجري الرحى . هناك زؤان ؛ هناك شمرة ؛ هناك حبة البركة ؛ هناك جلبان ؛ هناك بزر القنب ؛ هناك ذيل الثعلب ، وجمهرة من النفايات الاخرى ، هذا اذا لم نذكر الحصى التي تكثر في بعض اصناف القمح ، وبخاصة قمح بروتانيّ . أنا لا أحب ان اطحن القمح البروتاني ، أكثر مما يحبّ النجار ان ينشر العوارض التي تنطوي على مسامير . يكفي ان تفكر بالتراب القذر الذي يضيفه ذلك كله الى المحصول . وبعد ذلك يشكو الناس رداءة الطحين . إنهم مخطئون . فلسنا نحن المسؤولين عن الطحين . »

وفي مكان وسط بين نافذتين ، جلس حصّاد الى إحدى الطاولات مع مزارع كان يساومه على عمل يقوم به في الموسم التالي ، وأنشأ يقول :

– « لا ضرر البتة في ان يصيب الندى الاعشاب . إنه يُجزّ على نحو أفضل . إن الندى شيء حسن ، يا سيدي . ولكن سيان ، فهذا العشب ، عشبك ، نضرُ العود ، وإن قطعهُ لعسير جداً . إنه شديد الاخضرار ، وهو ينحني تحت المنجل . » الخ

وكانت كوزيت في مكانها المألوف ، جالسة على عارضة طاولة المطبخ ، قرب الموقد . كانت ترتدي خرقاً ممزقة ، وكانت قدماها العاريتان تنتعلان حذاء خشبياً ، وكانت ترزد على ضوء النار جوارب صوفية لبنتي تيناردييه الصغيرتين . كانت هرةٌ صغيرة تلعب تحت الكراسي . وفي غرفة مجاورة كان صوتان طفليان ناضران يثرثران ويضحكان على نحو مسموع . كانتا ايبونين وآزيلما .

وفي زاوية الموقد كان سوطٌ يتدلى من احد المسامير .

وبين الفينة والفينة كان صوت طفل بالغ الصغر ، ينبعث من مكان

ما من المنزل ، فيطفي على ضجة الحانة . ذلك كان غلاماً صغيراً رُزقته السيدة تيناردييه في شتاء ماضٍ – « من غير ان تدري كيف » ، كذلك كانت تقول ، « إنه ثمرة الجو البارد » ، ولم يكن عمره ليزيد على ثلاث سنوات . كانت الام قد ارضعته ، ولكنها لم تحبه . حتى اذا غدت صيحات الطفل الجائعة اقوى من ان تُحتمل كان تيناردييه يقول : « إن ابنك يصيح فلماذا لا تذهبين وترين ما يريد ؟ » فتجيبه الام : « أفٍّ ! لقد ضجرتُ منه ! » ويواصل الطفل المخذول صياحه وسط الظلام .

٢
رسمان يكتملان

إننا لم نرَ تيناردييه وزوجته في هذا الكتاب إلا من ناحية جانبية . ولقد آن لنا أن ندور حول هـذين الزوجين ونرى اليهما من الجهات جميعـاً .

كان تيناردييه قد بلغ الخمسين منذ قريب ، وكانت السيدة تيناردييه قد بلغت الاربعين ، وهي بمثابة الخمسين عند المرأة . وهكذا فقد كان ثمة توازن في العمر بين الزوج والزوجة .

ولعل القراء قد احتفظوا ، منذ ظهورها الاول ، ببعض الذكرى لتيناردييه هذه ، الضخمة ، الشقراء ، الحمراء ، البدينة ، اللحيمة ، المربعة ، الجسيمة ، النشيطة . كانت كما قلنا سابقاً من ذلك العرق من النسوة الوحشيات الهائلات اللواتي ينعطفن كالقوس في الاسواق الدورية وقـد تدلت قطع البلاط من شعرهن . كانت تقوم بجميع الاعمال المـنزلية : تنظيف الغرف ، وغسل الملابس ، والطبخ ، وأيّ شيء يحلو لهـا ، وتضجّ وتصخب . وكانت كوزيت هي خادمتها الوحيدة ؛ فـأرة في

خدمة فيل . كان كل شيء يرتجف لجرس صوتها : زجاج النوافـــذ و والاثاث ، والناس . وكان وجهها العريض ، الذي يعلوه النمش ، اشبه شيء بالمرغاة . وكانت لها لحية . كانت المثل الاعلى لصبي الجزار مرتدياً ملابس نسائية . وكانت تُقسم في فخامة ، وتعتز بقـدرتها على ان تكسر الجوزة بجُمع كفها . وبصرف النظر عن الروايات التي قرأتهـا والتي تعطيك في بعض الاحيان لمحة عجيبة عن المرأة المتـكافئة الـكامنة تحت الـسملاة * فان اياً من الناس لم يخطر له ذات يوم ان يقول عنها : هذه امرأة . كانت تيناردييه هذه اشبه شيء بالنتاج الحاصل من تلقيح امرأة وقحــــة مربية ببائعة سمك . اذا سمعتها تتحدث قلت : « هذا دركي » . واذا رأيتها تشرب قلت : « هذا سائق عربة » . واذا بصرت بها تلمس كوزيت قلت : « هذا هو الجلاّد » . وفي اوقات الراحة كانت احدى الاسنان تبرز من فمها .

اما تيناردييه الزوج فكان رجلاً ضئيل الجسم ، هزيلاً ، شاحباً ، ذا زوايا ، عظمياً ، ضعيف البنية يبدو وكأنه مريض برغم ان صحته ممتازة ، ومن هنا كان يبدأ مكرُهُ وخبثه . كان يبتسم ، بحكم العادة ، من باب الاحتراس ، وكان يحاول ان يكون لطيفاً مع الناس جميعاً ، حتى مع الشحاذ الذي كان يضنّ عليه بربع « سو » . كانت له نظرة نمس ، وسيما أديب . وكان يشبه رسوم الراهب دوليل** شبهاً كثيراً . وكان يهوى معاقرة الخمر مع سائقي العربات . ولم يره احد سكران قطّ . وكان يدخن غليوناً ضخماً . وكان يرتدي قميصاً ، وتحت ذلك القميص سترة عتيقة سوداء . وكان يدّعي فهم الادب والفلسفة المادية . وكانت ثمة اسماء يكثر مـن ترديدهـا تأييداً لاي شيء قد يقوله : فولتير ، رينال *** بارني **** ، واخيراً وهو

* السملاة : انثى الغول .

** l'Abbé Delille شاعر فرنسي (١٧٣٨ — ١٨١٣) ترجم آثار فيرجيل وميلتون .

*** Raynal مؤرخ وفيلسوف فرنسي (١٧١٣ — ١٧٩٦) وضع كتاباً عن غزو الاوروبيين للهند شجب فيه الاستعمار وحمل على رجال الدين .

**** Parny شاعر فرنسي (١٧٥٣ — ١٨١٤) اشتهر بقصائده الغزلية الانيقة.

شيء عجيب ، القديس اوغسطين * . وكان يؤكد ان له « نظاماً » . وعلى الجملة ، فقد كان غشاشاً كبيراً ، فيلسوفاً في الخداع . وهذا الضرب من الناس موجود . ونحن نذكر انه ادّعى خوض غمار الحرب ؛ وكان يروي في شيء من الابهة انه في واترلو – وكان رقيباً في سلاحٍ ما خفيفٍ يحمل الرقم اربعة او الرقم تسعة – استطاع وحده ، في وجه كوكبة من « فرسان الموت » ، ان يغطي بجسده وينقذ وسط وابل من القذائف « جنرالاً أُصيب بجراح خطيرة » ، ومن هنا تلك اللافتة الملتهبة التي على جداره ، واسمُ فندقه الذي كان يعرف في ذلك الاقليم بـ « فندق رقيب (سرجان) واترلو » . كان متحرراً ، وكلاسيكياً ، وبونابرتياً . ولقد اكتتب في انشاء « شان دازيل » . ولقد قيل في القرية انه درس ذات يوم لكي يصبح كاهناً .

اما نحن فنعتقد انه لم يدرس ، في هولندة ، الا ما يمكنه من ان يصبح صاحب فندق . والواقع ان هذا النذل ذا « الطراز المركب » كان ، وفقاً لكل احتمال ، فلمنكياً من « ليل » في الفلاندر ، وفرنسياً في باريس ، وبلجيكياً في بروكسل ، فهو مستعد للانضواء تحت الراية التي يجد في ظلها النفع . اما شجاعته في واترلو فنحن نعرفها . وهو كما قد رأينا ، يبالغ بها بعض الشيء . كان تقلب اهوال الدهر ، والموارية ، والمقامرة هي عنصر وجوده . إن الضمير الممزق يستتبع الحياة المتفسّخة . ولا ريب في ان تيناردييه كان خلال فترة ١٥ حزيران ١٨١٥ العاصفة ، ينتسب الى تلك الطبقة من المطوفين بالليل ، السارقين جيوب الجند ، التي تحدثنا عنها . فهو يرود البلاد ، يبيع هنا ، ويسرق هناك ، ويترحّل على طراز عائلي – رجل وامرأة ، واولاد – في عُجيلة عرجاء ، على آثار الجيوش الزاحفة ، تسوقه غريزة تجعله يلتحق دائماً بالجيش الظافر . حتى اذا انتهت هذه الحملة ، واصبح ، كما قال ، صاحب « ثروة » انشأ مطعماً حقيراً في مونفيرماي .

* احد آباء الكنيسة اللاتينية المشهورين (٣٥٤ – ٤٣٠)

ولكن هذه «الثروة» المؤلفة من صُرر مال وساعات وخواتم ذهبية وصلبان فضية، والتي جمعت إبان الحصاد في الأثلام المزروعة بالجثث، لم تشكل حاصلاً ضخماً، ولم تعمر طويلاً عند هذا الطائف الليلي الذي امسى صاحب فندق.

وكانت لتيناردييه خشونة الاباءة تلك التي لا توصف، والتي تذكّر المرء — حين تُقرن بقسَم — بالثكنة العسكرية، وتذكره — حين تقرن باشارة الصليب — بالمدرسة الاكليركية. كان محدثاً بارعاً، وكان مولعاً بأن يحسبه الناس عالماً؛ ومع ذلك، فقد لاحظ معلم المدرسة أنه كان يخطىء في اللفظ. كان يعدّ فواتير المسافرين بأسلوب رفيع، ولكن العيون المتمرسة كانت تكتشف فيها، احياناً، بعض الاخطاء الأملائية. كان تيناردييه مرائياً، شرهاً، متبطلاً، وحاذقاً. ولم يكن ليزدري الخادمات، ومن هنا لم تبق عند زوجته واحدة منهنّ. فقد كانت هذه العملاقة حسوداً، ولقد بدا لها ان هذا الرجل الاصفر المزيل، الضئيل الجسم، لا بدّ ان يكون موضوع اشتهاء عام.

وكان تيناردييه — وهو فوق كل شيء رجل مكر واتزان — وغداً من ضرب معتدل. وهذا الضرب هو الاسوأ. إنه ممزوج بالنفاق.

وليس ذلك يعني ان تيناردييه لم يكن قادراً في بعض المناسبات على ان يغضب، بقدر ما كانت امرأته تغضب على الاقلّ. ولكن هذا كان نادراً جداً؛ وفي تلك الحالات كان يبدو وكأنه في حرب مع الجنس البشري كله، وكأن في باطنه اتوناً عميقاً من البغض، وكأنه واحد من اولئك الذين لا ينفكون ينتقمون لانفسهم، والذين يتهمون كل امرىء من حولهم بجميع الشرور التي تنزل بهم، والذين هم دائماً على استعداد لأن يطرحوا على أول قادم، كشكوى مشروعة، كل ما مُنوا به في حياتهم من خيبة وإخفاق ومصائب. وإذ كانت هذه الخميرة تعتمل في ذات نفسه، ويطفو زبدها على فمه وعينيه، فقد كان مشهده مروّعاً.

والويل لمن يتعرّض لنقمته عندئذ !

وكان تيناردييه ، بالاضافة الى سائر صفاته ، حسن الانتباه ، ثاقب النظر ، صموتاً أو ثرثاراً وفقاً لمقتضى الحال ، وعلى ذكاء بالغ داغاً . كانت له ، بعضَ الشيء ، سيا الملاحين المتعودين أن يطرفوا بأعينهم في المناظير . لقد كان تيناردييه رجل دولة .

كان كل وافد جديد لا يكاد يدخل المطعم الحقير حتى يقول — لدن رؤيته تيناردييه الزوجة : « هو ذا سيّد البيت . » وذلك خطأ . فهي لم تكن حتى سيدة البيت . كان الزوج هو سيد البيت وسيدته في وقت معاً . كانت هي تعمل ، وكان هو يبتدع . كان يدير كل شيء بضرب من العمل المغناطيسي المتواصل غير المنظور . كانت كلمة واحدة — واحياناً ايماءة — تكفي ، فاذا بالماستودونة * تطيع . كان تيناردييه عندها — من غير أن تعي ذلك حقاً — ضرباً من الكائن الفريد ذي السلطان . كانت لها فضائلها الشخصية . فهي لم تختلف قط ، حول مسألة ما ، مع « مسيو تيناردييه » ، وما كانت لتتشاجر واياه علناً — وهذا افتراض مستحيل — من اجل أيا أمر مهما يكن . ولم تقترف ذات يوم « امام الغرباء » تلك الغلطة التي ترتكبها النسوة في كثير من الاحيان ، والتي ندعوها ، في اللغة البرلمانية : كشف الغطاء عن التاج . وعلى الرغم من ان تفاهمها ما كان يثمر غير الشر ، فقد كان في خضوع السيدة تيناردييه لزوجها غذاء للتأمل . لقد تحرّك جبلُ الضجة واللحم هذا تحت خنصر هذا الطاغية الواهن . وكان ذلك يمثل ، اذا ما نُظر اليه من جانبه القزم المضحك ، هذه الحقيقة الكلية الكبيرة : شغف المادة بالروح . ذلك بان اصل بعض البشاعات كامنٌ في اعماق الجمال الازليّ نفسه . لقد كان في

* الماستودون ، كما مر سابقاً ، حيوان منقرض يشبه الفيل . والمقصود بالماستودونة هنا مدام تيناردييه .

تيناردييه شيء من المجهول ، ومن هنا سلطان هذا الرجل المطلقُ على هذه المرأة . كانت في بعض الاحيان تنظر اليه نظرتها الى شمعة مضاءة، وكانت في بعضها الآخر تستشعر انه مخلب من المخالب .

كانت هذه المرأة مخلوقاً مخوفاً لا يحب احداً غير اولاده ، ولا يخشى شيئاً غير زوجه . كانت اماً لانها كانت حيواناً ثدياً . وكانت مشاعرها الأمومية تنتهي عند بنتيها ، ولا تمتدّ ، كما رأينا ، لتشمل الصبيان اما هو ، الرجل ، فلم يكن له من همّ غير الاثراء .

ولم يوفق الى النجاح . لقد أعوزت الفرصةُ الملائمة مواهبه الكبيرة . كان تيناردييه في مونفيرماي سائراً نحو الافلاس ، اذا كان الافلاس ممكناً عند الصفر . ولو قد كان هذا الرجل الذي لا يملك درهماً ، في سويسرة أو في البيرينيه ، اذن لامسى مليونيراً . ولكن حيث يوثق القَدَر الفندقيّ تعيّن عليه ان يرعى العشب .

ومفهوم ان كلمة فندقي تُصطنع هنا بمعنى مقيد ، وانها لا تشمل طبقة برمّتها .

وفي ذلك العام نفسه ، ١٨٢٣ ، كان تيناردييه مديناً بنحو الف وخمسمئة فرنك من الديون الملحّة التي جعلته مشغول البال .

ومهما يكن القدر ظالماً له على نحو عنيد ، فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون احسن الفهم ، وفي اشد ما يكون من العمق واحدث ما يكون من الاساليب ، ذلك الشيء الذي هو فضيلة عند الشعوب البدائية ، وسلعة عند الشعوب المتحضرة ، اعني حسن الضيافة. والى هذا ، فقد كان صياداً بارعاً يتخذ من أرض الاخرين ، دونما إذن ، ميداناً لنشاطه ، وكان يُعدّ من الرماة الممتازين . كانت له ضحكة باردة ساكنة ، وكانت ضحكته هذه خطرة ، بصورة خاصة .

كانت نظرياته في ادارة الفنادق تنبع من نفسه في بعض الاحيان مثل وميض البرق . وكانت له بعض الحكم المهنية التي غرسها في ذهن

زوجته . « إن واجب الفندقي » كذلك قال لها ذات يوم ، في توكيد وفي صوت خفيض ، « ان يبيع الوافد الاول طعاماً ، وراحة ، ونوراً ، وناراً ، وشراشف سرُر قذرة ، وخادمات ، وبراغيث ، وابتسامات ؛ ان يوقف المسافرين ، فيفرغ اكياس النقود الصغيرة ويخفف في لطف من ثقل الاكياس الكبيرة ؛ ان يستقبل في احترام الاسرَ المسافرة ، فيكشط الرجال ، وينتف ريش النساء ، ويحلج الاولاد ؛ ان يتقاضى اجراً عن النافذة المفتوحة ، والنافذة الموصدة ، وزاوية الموقد ، والأريكة ، والكرسي ، والكرسي الذي لا ظهر له ، والموطىء ، وفراش الريش ، والحشيّة ، وفراش القش ؛ ان يعرف الى اي حد اصاب البلى المرآة ويفرض ضريبة على ذلك ؛ وان يحمل المسافر — وأقسم بالخمسئة الف شيطان — على ان يدفع ثمن كل شيء حتى الذباب الذي يأكله كلبه ! » .

كان هذا الرجل وهذه المرأة هما المكر والغيظ مجتمعين ، ويا له من اقتران راعب فظيع !

وفيما كان الزوج يحسب ويدبر كانت تيناردييه الزوجة لا تفكر بالدائنين الغائبين ، ولا تحمل همّ الأمس او الغد ، بل تحيا في هيجان الدقيقة التي هي فيها .

كذلك كان هذان المخلوقان ، وكانت كوزيت بينهما ، متحملةً ضغطها المزدوج ، اشبه شيء بمخلوقة تسحقها الرحى وتمزقها الكلابة إرباً إرباً ، في آن معاً . لقد كانت لكل من الرجل والمرأة طريقة خاصة . فكانت كوزيت تُضرب في غير رحمة ؛ وهذا من فضل المرأة . وكانت تمشي حافية في ايام الشتاء ؛ وهذا من فضل الرجل .

وصعدت كوزيت السلم ، وهبطت السلم ، وغسلت ، ونظفت بالفرشاة ، ومسحت ، وكنست ، وركضت ، واجهدت نفسها في السير ، ولهثت ، ورفعت اشياء ثقيلة ، ونهضت بالاعمال الخشنة ، برغم ضعف بنيتها . لا رحمة البتة . سيدة شرسة ، وسيد خبيث . لقد كان مطعم تيناردييه الحقير أشبه بشرك

علقت به كوزيت وراحت ترتجف . ولقد تحقق المثل الاعلى للاضطهاد في هذه العبودية المشؤومة . كانت اقرب شيء الى ذبابة تخدم عناكب .

واطاعت الطفلة المسكينة في استسلام وصمت .

ولكن ما الذي يجري في هذه النفوس التي لم تنفصل عن الله الا منذ قريب حين تجد ذاتها في فجر الحياة ، صغيرة الى هذا الحد ، ضعيفة الى هذا الحد ، بين الرجال ؟

٣

يجب ان يشرب الرجال الخمر

وان تشرب الخيل الماء

كان قد وفد على الفندق أربعة نزلاء جدد .

وفكّرت كوزيت في اكتئاب . ذلك بأنها كانت قد قاست مـــن ويلات الدهر ما يحملها على التفكير — وهي التي لم تتجاوز الثامنة — بمثل السيما الفاجعة التي ترين على وجه امرأة عجوز .

وكانت حول مقلة كوزيت زرقة ناشئة عن ضربة سدّدتها تيناردييه الزوجة اليها ، يُجمّع كفها ، فهي تتساءل بين الفينة والفينة :

— « ما أقبحها بهذا الورم الذي في عينها ! »

كانت كوزيت تقول في ذات نفسها ، آنذاك ، ان الليل قد هبط ، وإنه أمسى دامساً ، وإن آنية الماء وزجاجاته العريضة القاعـدة ، تلك الآنية والزجاجات التي في غرف النزلاء الجدد ، يجب ان تملأُ في الحال ، وانه لم يبق ثمة ماء في الحوض .

وسرّى عنها بعض الشيء ان الناس لا يشربون كثيراً من الماء في

حانة تيناردييه . وكان بين اولئك القوم كثير من العطاش ، ولكنه ذلك النوع من العطش الذي يبسط اليدَ نحو وعاء الخمر الكبير لا نحو الزجاجة العريضة القاعدة . ولو قد طلب أحد كوب ماء وسط كؤوس الخمر هذه ، اذن لبدا متوحشاً في نظر هؤلاء الرجال . ومع ذلك فقد انقضت لحظةٌ ارتجفت خلالها الطفلة : لقد رفعت مدام تيناردييه غطاء القِدر الصغيرة ذات المقبض التي كانت تغلي على الموقد ، ثم تناولت كوباً وسارعت الى حوض الماء . وادارت الحنفية ؛ وكانت الطفلة قد رفعت رأسها وتابعت حركاتِها جميعاً . وجرى من الحنفية خيطٍ من الماء رفيع لم يَشْغَلْ من الكوب غير نصفه .

وقالت :

– « أنظر ! لم يبق شيء من الماء ! »

ثم انها صمتت لحظة . اما كوزيت فحبست أنفاسها .

وتابعت تيناردييه الزوجة كلامها وهي تتفحص الكوب نصف المليء :

– « انا اشك في ذلك ! سوف يبقى مقدار كافٍ منه ، على هذا الشكل . »

واستأنفت كوزيت عملها ؛ ولكنها استشعرت ، طوال ربع ساعة او يزيد ، ان قلبها يثب في صدرها مثل كُرة ضخمة .

وعدّت الدقائق فيما هي تتصرّم هكذا ، وتمنت في لهفة لو ان الفجر يبزغ .

وبين الفينة والفينة كان احد الشاربين ينظر الى الشارع ويهتف : « إن الليل حالكٌ مثل فرن ! » أو : « ينبغي ان يكون الانسان هرةً حتى يمشي الليلة في الشوارع من غير مصباح ! » وارتعدت كوزيت.

وفجأة دخل احد الباعة المتجولين النازلين في الفندق وقال في صوت أجش :

– « انكم لم تسقوا جوادي ! »

فقالت تيناردييه الزوجة :

– « بل لقد سقيناه ، من غير ريب . »

فاستأنف البائع المتجول :

– « اقول لك لا ، يا سيدتي . »

وخرجت كوزيت من تحت الطاولة .

وقالت :

– « اوه ! بلى ! يا سيدي ! لقد شرب الجواد . لقد شرب من الدلو . الدلو الملآن . ولقد حملتُهُ انا بنفسي اليه ، وتحدثت معه . »

ولم يكن ذلك صحيحاً . لقد كذبت كوزيت .

فصاح البائع المتجول :

– « هي ذي فتاة في حجم قبضة يدي ، ومع ذلك فهي تكذب كذبة في حجم البيت . أقول لك انه لم يشرب ، ايتها الطفلة الحقيرة ! ان له طريقة في اللهاث حين لا يكون قد شرب شيئاً من المـــاء وانا اعرف طريقته تلك جيداً . »

واصرّت كوزيت ، واضافت في صوت أبحّه الألم النفسي المرير ، فهو ما يكاد يُسمع :

– « ولكنه شرب مقداراً كبيراً من الماء . »

فتابع البائع في غضب :

– « كفى ، كفى ! قدّمي شيئاً من المـــاء الى جوادي ، ولا تقولي كلمة إضافية في الموضوع . »

وعادت كوزيت الى مكانها تحت الطاولة .

وقالت تيناردييه الزوجة :

– « الواقع ان هذا صحيح . اذا كانت الدابـــة لم تشرب بعد فينبغي ان تشرب . »

ثم أجالت البصر في ما حولها وقالت :

– « حسن ، ما الذي حلّ بتلك الفتاة ؟ »

وانحنت ، فاكتشفت كوزيت رابضةً عند الطرف الآخر من الطاولة ، تحت أقدام الشاربين تقريباً .

وصاحت تيناردييه الزوجة :

– « ألن تأتي ؟ »

وخرجت من شبه الثقب ذاك الذي اختبأت فيه . وتابعت تيناردييه الزوجة :

– « ايتها الآنسة « الكلبة التي لا اسم لها » ، اذهبي واحملي شيئاً من الماء الى ذلك الجواد ! »

فقالت كوزيت في وهن :

– « ولكن ، يا سيدتي ، ليس هناك ماء . »

ففتحت تيناردييه الزوجة الباب المؤدي الى الشارع على مصراعيه :

– « حسن ، إذهبي واجلبي شيئاً منه ! »

وخفضت كوزيت رأسها ، ومضت تلتمس دلواً فارغاً كان في زاوية الموقد .

كان ذلك الدلو اكبر منها ، وكان في ميسور الطفلة ان تقعد فيه على نحو مريح .

ورجعت تيناردييه الزوجة الى وجاقها ، وذاقت ما كان في القِدر بملعقة خشبية وهي تغمغم :

– « ان في الينبوع ماء . هذه أخبث طفلة وُجدت على ظهر الارض . واحسب اني أحسِن صنعاً اذا تركتُ بَصَلي هذا . »

ثم انها بحثت في احد الادراج حيث كانت بضعة فلوس ، وشيء من الفلفل والثوم .

وأضافت :

– « ايتها الآنسة الضفدع ، إشتري من الخباز ، وانت عائدة ،

رغيفاً كبيراً . دونك خمسة عشر سو . »

كان لكوزيت جيب صغير في جانب مئزرها . فتناولت القطعة النقدية من غير ان تقول كلمة ، ووضعتها في ذلك الجيب .

ثم انها ظلت جامدة : الدلو في يدها ، والباب مفتوح أمامها . لقد بدت وكأنها تنتظر ان يُقبل شخص ما لنجدتها .

وصاحت السيدة تيناردييه :

– « هيا ، إذهبي ! »

وخرجت كوزيت ، وأوصد الباب .

٤

دخول دمية الى المسرح

لقد امتدّ صف الدكاكين ، كما يذكر القاريء ، على طول الشارع من الكنيسة حتى فندق تيناردييه . وكانت هذه الدكاكين متلألئة كلها – بسبب اقتراب موعد انطلاق المواطنين الى قداس منتصف الليل – بالشموع المشتعلة في فوانيس من ورق تركت – كما قال معلم مونفيرماي الذي كان جالساً آنذاك الى احدى طاولات تيناردييه – « أثراً سحرياً ». وبالمقابلة ، لم يكن المرء ليرى نجمة واحدة في السماء .

وكانت آخر هذه الدكاكين الخشبية ، وقد اقيمت تجاه باب تيناردييه تماماً ، دكان دمىً تتألق كلها بالصفائح المعدنية البالغة الصغر ، وبالخرز ، وبمختلف الاشياء الرائعة المصنوعة من صفيح . وفي الصف الاول ، وفي مكان متقدم ، كان البائع قد وضع ، فوق مهادٍ من المناديل البيضاء ، دميةً ضخمة يبلغ طولها نحواً من قدمين ، وترتدي ثوباً من « الكريب » الأزهر ، وقد جُعلت على رأسها سنابل ذهبية ، ونعمت بشعر حقيقي وبعينين

مصنوعتين من الميتا . وكانت هذه الاعجوبة قد عُرضت طوال النهـــار فاذهلت جميع المارة من الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، من غير ان توجد في مونفيرماي كلها أمّ هي من الغنى ، او من التبذير ، بحيث تشتريهـــا لطفلها . كانت ايبونين وآزيلما قد أنفقتا ساعات في التحديق اليها ، وكانت كوزيت نفسها قد جرؤت ، خلسة من غير شك ، على النظر اليها .

وحين خرجت كوزيت حاملة الدلو بيدها ، مُثقلة بالكآبة والغم ، لم تتمالك ان ترفع عينيها نحو هذه الدمية الرائعة ، نحو هـــذه « السيدة » كما دعتها . لقد وقفت الطفلة المسكينة متحجرة . انهـا لم ترَ تلك الدمية من على مثل هذا القرب من قبل .

لقد بدت هذه الدكان الخشبية كلها قصراً في عينيها . ان تلك الدمية لم تكن دمية ؛ لقد كانت رؤيا . كانت هي البهجة ، والبهـــاء ، والثروة ، والسعادة تراءت في ضرب من الاشعاع الوهمي لهذه المخلوقة الصغيرة البائسة المدفونة ، أعمق ما يكون الدفن ، في شقاء فاجع بارد . كانت كوزيت تقيس ، بحكمة الطفولة الساذجة البسيطة ، الهوة التي تفصلها عن تلك الدمية . وقالت في ذات نفسها إن الفتاة ينبغي ان تكون ملكة ، او أميرة على الاقل ، لكي تفوز بـ « شيء » مثل هذا . وحدّقت الى هذا الثوب الازهر الجميل ، والى هـذا الشعر الناعم الحلو ، وانشأت تفكر : « اي سعادة عظيمة ينبغي ان تكون هذه الدمية متمتعة بهـــا ! » ولم تستطع عيناها التحول عن هذه الدكان الغريبة . وكلما اطالت النظر تعاظم انشراحها . لقد حسبت انها رأت الجنة . وكانت دمىً اخرى ، خلف الدمية الكبرى ، بدت لها جناً وعفاريت . اما التاجر الذي كان يروح ويجيء في الجزء الخلفي من الدكان فتمثل لها بعض الشيء وكأنه « الأب الأزلي » .

وفي غمرة من هذا التعبد نسيت كل شيء ، حتى المهمة التي عُهد اليها فيها ؛ وفجأة اعادها صوت السيدة تيناردييه الاجش الى الواقع :

— « ماذا ايتها الغبية ، الم تذهبي بعد ؟ انتظري . أنا آتية اليك ! إني احب

ان أعرف ما الذي تفعله هناك ؟ ايتها المسخة الصغيرة ، اذهبي ! »

وكانت تيناردييه الزوجة قد القت نظرة الى الشارع ، ورأت كوزيت في حال من الوجد .

وولت كوزيت حاملة دلوها ، موسعة خطاها اقصى ما تستطيع ان توسعها .



٥
الصغيرة فريسة الوحدة

واذ كان فندق تيناردييه في ذلك الجزء من القرية الواقع غير بعيد عن الكنيسة فقد تعيّن على كوزيت ان تستقي الماء من ينبوع الغابة المجاور لـ« شيل ».

ولم تعاود النظر الى السلع المعروضة في الدكاكين . وكانت هذه الدكاكين المضاءة تنير سبيلها ما بقيت في زقاق بولانجيه وجوار الكنيسة ، ولكن سرعان ما اختفى آخر شعاع من آخر دكان . والفت الطفلة المسكينة نفسها في الظلمة . لقد دُفنت فيها . بيد أنها وقد استبد بها انفعالٌ ما ، راحت تهزّ عروة الدلو ، فيما هي ماضية لسبيلها ، أقصى ما تستطيع ان تهزها . ولقد احدث ذلك ضجة رافقتها في وحدتها .

وكلما أمعنت في المسير ، أمست الظلمة اشدّ كثافة . لم يبقَ شخص ما في الشوارع . ومع ذلك ، فقد لقيتْ امرأةٌ استدارت لدن رؤيتها تمر ، وظلت جامدة تتمتم من بين اسنانها : « ولكن الى اين يمكن ان تكون هذه الصغيرة ذاهبة ؟ أهي طفلةٌ شبح ؟ » ثم ان المرأة عرفت كوزيت ، فقالت : « اوه ، إنها القبرة ! »

وهكذا اجتازت كوزيت تِيهَ الشوارع المتعرجة المهجورة التي تنتهي بها قرية مونفيرماي من ناحية « شيل » . وكانت تمضي في جرأة كافية ما دامت تجد بيوتاً ، بل جدراناً ، على جانبي طريقها . وبين الفينة والفينة كانت ترى ضوء شمعة ينبعث من شقوق مصراع من مصاريع النوافذ ؛ كان ذلك نوراً وحياة ، وكان ثمة أناس ، وكان ذلك يسرّي عنها ويُبقي

على شجاعتها . بيد ان سرعتها كانت تتباطأ ، على نحو ميكانيـــكي ، كلما تقدمت . حتى اذا اجتازت زاوية البيت الاخير ، كفّت عن السير . كان الذهاب الى ابعد من الدكان الاخيرة عـسيراً ؛ ولقد امسى الذهاب الى أبعد من المنزل الاخير مستحيلاً . ووضعت الدلو على الارض ، وغيّبت يدها في شعرها ، وشرعت تحك رأسها في تؤدة ، وهي حركة خاصة بالاطفال المروّعين المترددين . انها لم تعد في مونفيرماي ؛ لقد امست في الارض الفضاء. كانت البقعة المظلمة المهجورة امامها . ونظرت في يأس الى هـذه الظلمة ، حيث لم يبقَ شخص ما ، حيث كانت الوحوش ، بل حيث كانت الاشباح في اغلب الظن . وانعمت النظر ، وسمعت الحيوانات الماشية فوق العشب ، وبصرت على نحو واضح بالاشباح المتحركة في الاشجار . ثم تناولت دلوها من جديد ؛ لقد امدّهـــا الخوف بالجرأة . وقالت : « باه ! سوف اقول لها إنه لم يبق هناك شيء من الماء ! » ورجعت في غير تردد ، الى مونفيرماي .

ولم تكد تخطو مئة خطوة حتى وقفت كرة أخرى ، وشرعت تحك رأسها . كانت تيناردييه الزوجة هي التي تبدت لها الآن ، تيناردييه الرهيبة بفمها الذي يشبه فم الضبع ، وبعينيها القادحتين بشرر الغيظ . والقت الطفلة نظرة مُبكية الى امام والى وراء . ما الذي تستطيع ان تعمله ؟ ما الذي سيحلّ بها ؟ الى اين ينبغي ان تذهب ؟ فاما امامها فكان شبح تيناردييه الزوجة ، واما وراءها فكانت جميع اشباح الليل والغابة . وانما تراجعت في وجه تيناردييه الزوجة . واتخذت الطرق المؤدية الى الينبوع ، كرة اخرى ، وأنشأت تعدو . لقد خرجت من القرية راكضة ، ودخلت الغابة راكضة ، غير مبصرة شيئاً ، غير سامعة شيئاً . ولم تكفّ عن الركض إلا بعد ان انقطعت انفاسها . وحتى في تلك الحال تابعت طريقها مترنحة . لقد تقدمت الى امام واليأس يعصف بها .

وحتى فيما هي تعدو نازعتها نفسها الى البكاء .

ولفّها ارتعاش الغابة الليلي لفّـاً كاملاً . لم تعد تفكر بشيء ؛ ولم تعد ترى شيئاً . لقد واجه الليل اللانهائي هذه المخلوقة الصغيرة . فمن ناحيـة ، الظلامُ كله ، ومن الناحية الاخرى ذرةٌ ابس غير .

وكان الينبوع لا يبعد عن طرف الغابة إلا مسيرة سبع دقائق او ثماني دقائق . وكانت كوزيت تعرف الطريق لاجتيازها اياها بضع مرات يومياً . ومن عجب انها لم تضلّ سبيلها . لقد هدتها بقية مـن غريزة ، على نحو أعمى ، ولكنها لم تدر عينيها لا الى اليمين ولا الى اليسار ، خشية ان ترى اشياء على الاغصان وفي الادغال . وهكذا انتهت الى النبع .

كان حوضاً طبيعياً صغيراً أحدثته المياه في تربة رملية دلغانية ، وكان عمقه نحواً من قدمين ، وقد حفت به الطحالب وتلك الاعشاب الطويلة المطبّعة بشكل بارز والتي ندعوها اطواق عنق هنري الرابع ، ورُصف ببضعة حجار ضخام . وكان جدول ينبثق من هناك ، في خرير رفيق ساكن .

ولم تحاول كوزيت ان تأخذ نفساً . كان الظلام دامساً ، ولكنها كانت متعوّدة المجيء الى هذا الينبوع . وبيدها اليسرى تلمّست في الظلمة سنديانةً صغيرة منحنيةً فوق الينبوع — وكانت كثيراً ما تتخذ منهـا نقطة ارتكاز — فوجدت غصناً ، فتعلقت به ، وانحنت مغطسةً الدلو في الماء . ومرّت بها لحظة كان الاهتياج غالباً عليها الى درجـة ضاعفت قوتها أضعافاً ثلاثة . وحين انحنت هكذا فوق البئر لم تلاحظ ان جيب مئزرها قد أفرغ ما انطوى عليه في البئر . لقد سقطت قطعة الخمسة عشر « سو » في الماء . ولم ترَ كوزيت تلك القطعة ، ولم تسمعها تسقط . لقد سحبت الدلو مليئاً أو يكاد ، ووضعته على العشب .

حتى اذا تم لها ذلك ادركت ان قوتها قد نفدت . كانت راغبـة اشد الرغبة في ان تنطلق في الحال ، ولكن الجهد الذي بذلته في ملء الدلو كان عظيماً الى حد جعل من المتعذر عليها ان تخطو ، بعدُ ، خطوة

واحدة . لقد اضطرت الى الجلوس اضطراراً . فارتمت عـــلى العشب وظلت مقرفصة هنـاك .

واغمضت عينيها ، ثم فتحتهما من غير ان تدري لماذا ، ولكنها ما كانت تستطيع ان تفعل شيئاً غـير ذلك .

والى جانبها كانت المياه المثارة في الدلو قد احدثت دوائر تشبـــه أفاعي النار البيضاء .

وفوق رأسها كانت السماء مغطاة بسحائب سوداء عريضة كانت أشبه بذيول من دخان . لقد بـــدا قناع الليل الفاجعُ وكأنه يُطبق ، في غموض ، على هذه الطفلة .

كان المشتري (جوبيتير) يغرب في أعماق الافق .

ونظرت الطفـــلة بعينين ذاهلتين الى ذلك الكوكب الضخم الذي لم تعرفه ، والذي ملأها رعباً . وفي الحق ان الكوكب كان ، آنذاك ، قريباً جداً من الافق ، وكان يجتاز طبقة كثيفة من الضباب خلعت عليه حمرةً راعبة . وضخّم الضبابُ ، وقد خضّب عـــلى نحو فاجع ، ذلك الكوكب . كان في ميسور المرء أن يقول انه جرح ساطع .

وهبّت من جانب السهل ريح باردة . كانت الغابة مظلمـــة ، ولم يكن فيها أيما حفيف ، أو أيما ومضة من ومضات الصيف تلك المبهمة الفضّة . وانتصبت الاغصان الضخمة على نحو مخيف . وصفرت الادغال المزيلة المشوهة في البقاع الجرداء من الغابة . وتلوّت الاعشاب الطويلة تحت ريح الشمال ، مثل الانقليس . وتمايلت العواسج مثل أذرع طوال ذات براثن تلتمس فرائس لهـا . وساقت الريح بعض الاعشاب البرية اليابسة ، فمرّت في سرعة ، وبدت وكأنها تهرب مذعورةً من وجـــه شيء كان يطاردها . كان كل شيء من حولها فاجعاً حقاً .

ان الظلمة توقع الدوار في الرأس . فالانسان في حاجة الى النور ، وأيما امرىء يغوص في نقيض النهار يستشعر انقباضاً في الصدر . فحين

تقع العين على السواد ، ترى النفسُ القلقَ . وعند الكسوف ، في الليل ، في الظلمة الفاحمة ، يستبد الحصر النفسيّ حتى بأقوى الرجال . فما من أحد يستطيع أن يسري وحده ، في الغابة ، ليلاً ، من غير أن يرتعد . الظلمات والاشجار - ضربانِ من الاعماق الرهيبة . إن واقعاً وهمياً ليتبدّى في المدى المبهم . ويتمثل ما لا يمكن تصوره تمثلا طفيفاً ، في وضوح شبحيّ ، على بضع خطوات منك . ويطفو في المدى أو في دماغك أنت شيء يتراءى لك غامضاً على نحو غريب ، شيء لا سبيل الى الامساك به مثل أحلام الرياحين الهاجعة . إن في الافق لأشباحاً ضارية . وتتنشق روائح الفراغ الاسود الكبير . ويعصف بك الخوف ، وتعصف بك الرغبة في ان تلتفت الى وراء . وتواجه تجاويف الليل ، وشراسة الاشياء كلها ، والصور الجانبية الصامتة التي تتلاشى حين تتقدم نحوها ، والتشعثات الغامضة ، وباقات الشجر الغضبى ، والبرك الزرقاء الضاربة الى السواد ، والحِداديّ منعكساً على المأتميّ ، ولانهائية الصمت القبرية ، والكائنات المجهولة الممكنة ، وتمايل الاغصان الخفية ، والتواءات الاشجار المخيفة ، وحفنات طويلة من الاعشاب المرتعشة — تواجه هذا كله من غير سلاح . وليس ثمة شجاعة لا ترتعد ولا تحس بما يشبه العذاب النفسي المبرّح . انك لتستشعر شيئاً راعباً ؛ لكأن النفس تمتزج بالظلام . وهذا الدخول في الظلام مشؤوم ، بالنسبة الى الاطفال ، على نحو يجلّ عن الوصف .

الغابات رؤىً . وإن خفق أجنحة النفس الصغيرة ليُحدث صوتاً كالحشرجة تحت قبتها الهائلة .

ومن غير ان تعي ما الذي كانت تعانيه ، استشعرت كوزيت ان مدى الطبيعة اللانهائي الاسود يمسك بها . لم يعد الذعر وحده هو الذي يكبّلها ، ولكنْ شيء ما أشد فظاعة حتى من الذعر . وارتعدت . وانما تعجز الكلمات عن ان تقول ايّ شيء غريب انطوت عليه تلك

الرعدة التي اثلجتها حتى اعماق الفؤاد . وغدت عينها ضارية . لقد أحسّت انها قد تُضطر الى العودة الى هناك في الساعة نفسها من الليلة التالية .

ثم إنها شرعت – بضرب من الغريزة ، ولكي تخرج من هذا الوضع الفريد الذي لم تفهم منه شيئاً ولكنه يروّعها – تعدّ بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، إلى العشرة ؛ حتى اذا انتهت ، عاودت العدّ من جديد . ومكنها ذلك من استعادة الادراك الواقعيّ للاشياء المحيطة بها . واستشعرت البرد في يديها اللتين تبللتا من جراء استقائها من البئر . ونهضت . كان الخوف قد عاودها ، وكان خوفاً طبيعياً لا سبيل الى دفعه . ولم يَجُلْ في ذهنها غير خاطر واحد : ان تفرّ . ان تفرّ بكل ما في قدميها من قوّة ، عبرَ الغابات ، عبرَ الحقول ، الى البيوت ، الى النوافذ ، الى الشموع المضاءة . ووقعت عيناها على الدلو الذي أمامها . لقد كان الذعر الذي اوقعته السيدة تيناردييه في فؤادها شديداً الى درجة جعلتها لا تجرؤ على المضي من غير ان تحمل دلو الماء . وقبضت على عروته بيديها الاثنتين ولم توفق الى رفع الدلو الا بشق النفس .

وخطت هكذا عشر خطوات او نحوها . ولكن الدلو كان مليئاً ، وكان ثقيلاً ، فاضطرت الى وضعه على الارض . وتنفست لحظة ، ثم امسكت بالعروة كرة اخرى ، ومضت لسبيلها ، مواصلة السير هذه المرة فترة اطول بعض الشيء . ولكنها اضطرت الى ان تكف عن المسير من جديد . حتى اذا استراحت بضع دقائق ، استأنفت السير . وانما مشت منحنية الى امام ، مطأطئة رأسها مثل امرأة عجوز . لقد وتّر ثقل الدلو ذراعيها المزيلتين وصلّبهما . وكانت عروة الدلو تخدّر يديها الصغيرتين المبللتين وتثلجهما . وبين الفينة والفينة ، كانت تضطر الى التوقف . وكلما توقفت ، كان الماء البارد الذي تطاير رشاشه من الدلو يسقط على ساقيها العاريتين . وانما وقع ذلك في قلب احدى

الغابات ، في موهن من الليل ، وفي الشتاء ، بعيداً عن كل عين بشرية . كانت طفلة في الثامنة من عمرها . ولم يكن ثمة في تلك اللحظة احد غير الله يرى هذا الشيء الكئيب .

وأمها من غير شك ، وا أسفاه !

ذلك بان ثمة اشياء تفتح اعين الاموات في قبورهم .

وتنفست في ضرب من الحشرجة الفاجعة . وخنقتها التنهدات ، ولكنها لم تجرؤ على البكاء . الى هذا الحدّ كانت خائفة من السيدة تيناردييه ، حتى وهي بعيدة عنها . كانت تتخيل دائماً ان السيدة تيناردييه على مقربة منها .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسورها ان تقطع شوطاً حسناً من الطريق ، على هذه الحال ، وكانت تتقدم في بطء شديد . لقد حاولت جهدها ان تقصّر فترات راحتها ، وان تسير بين كل منها والاخرى اطول مسافة ممكنة . وتذكرت في ألم نفسي مرير انها قد تحتاج الى اكثر من ساعة لكي تصل الى مونفيرماي على هذا النحو ، وان السيدة تيناردييه سوف تضربها . وامتزج هذا الالم النفسي بذعرها الناشيء عن وحدتها في الغابة ، ليلاً . وأبلاها الاعياء وهي لمّا تفارق الغابة بعد . حتى اذا بلغت شجرة الكستناء العجوز التي تعرفها ، وقفت للمرة الاخيرة ، وقفةً اطول من سابقاتها لكي تستريح جيداً . ثم استجمعت قواها كلها ، ورفعت الدلو كرة اخرى ، واستأنفت السير في شجاعة . ومع ذلك فلم تتمالك المخلوقة الصغيرة المسكينة عن ان تصيح :

— « اوه ! يا الـهي ! يا الـهي ! »

وفي تلك اللحظة استشعرت فجأة ان ثقل الدلو قد تلاشى . كانت يدٌ ، بدت لها هائلة ، قد امسكت اللحظةَ بعروة الدلو ، فهي تحمله في يُسر . ورفعت رأسها . كان شكلٌ اسودٌ ضخم ، مستقيم منتصب القامة ، يمشي الى جانبها في الظلام . انـه رجلٌ كان قد اقبل من

ورائها ، ولم تكن قد احسّت بقدومه . ومن غير ان يقول كلمة ، كان هذا الرجل قد قبض على عروة الدلو الذي تحمله .

إن ثمة غرائز لجميع أزمات الحياة .

ولم تستشعر الطفلة خوفاً ما .

٦

وهو ما قد ينهض دليلاً على

ذكاء بولا ترووبل

في أصيل يوم الميلاد نفسه ذاك ، من عام ١٨٢٣ ، مشى رجلٌ فترةً طويلة في أشدّ أقسام « جادة المستشفى » في باريس وحشةً وانعزالاً . وكانت تبدو على وجه هذا الرجل سيما من يبحث عن مكان يبيت فيه ؛ ولقد تراءى و كأنه يؤثر الوقوف عند اكثر البيوت تواضعاً في ذلك الطرف الخرب من ضاحية « سان مارسو » .

ولسوف نرى في ما بعد ان ذلك الرجل استأجر ، في الواقع ، غرفةً في ذلك الحي المنعزل .

وكان هذا الرجل ، بملابسه وبشخصه كله يحقق النموذج الكامل لما يمكن ان ندعوه متسوّل المجتمع المترف – بؤسٌ متناهٍ تمازجه نظافة متناهية . وذلك مزاج نادر جداً يوقع في القلوب ذلك الاحترام المزدوج الذي نشعر به نحو الرجل الفقير جداً ، ونحو الرجل الفاضل جداً . كان يعتمر بقبعة مستديرة عريقة في القِدَم ، ومُفرشاة في عناية ، ويرتدي سترة طويلة (ريدنغوت) باليةً مهترئة الخيوط مفصّلة من جوخ خشن أصفر ضارب الى لون التراب الحديدي ، وهو لون لم يكن شديد الغرابة في

ذلك العهد ، وصدرة ً واسعة ذات جيوب عتيقة الزيّ ، وبنطلوناً أسود أحال البلى لونَه ، عند الركبتين ، الى رماديّ ، وجوربين صوفيين أسودين ، وينتعل حذاء غليظاً ذا أبازيم نحاسية . ولقد كان في ميسور المرء ان يزعم انه مؤدب قديم لأسرة كبيرة انقلب من المهجر الى الوطن . ومن شعره الأشيب بالكلية ، ومن جبينه المتغضن ، ومن شفتيه الزرقاوين الضاربتين الى السواد ، ومن وجهه حيث كل شيء ينمّ عن الاعياء والسأم من الحياة ، كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه تخطى الستين منذ زمن بعيد . في حين ان خطواته الثابتة وإن تكن بطيئة ، والعزم الفريد الذي يَسِمُ حركاته كلها ، كانت تخيل الى المرء أنه لم يكد يبلغ الخمسين . وكانت تغضنات جبينه حسنة الاتساق فهي قادرة على ان تحبب اليه ايما شخص يتأمله في انتباه . وكانت شفته تتقلص في تعبير عجيب بدا قاسياً ، ومع ذلك فقد كان متواضعاً . أما في أعماق عينيه فكان صفاء فاجع لا سبيل الى وصفه . وكان يحمل بيده اليسرى صرّة صغيرة مشدودة بمنديل . على حين كان يتوكأ بيده اليمنى على شبه عصاً قُطعت من سياج من الاشجار الشائكة . وكانت هذه العصا قد سُويت في بعض العناية ، ولم تكن لتبدو بشعة جداً . لقد ازيلت عقدها وصقلت فهي ملساء ، ولقد جُعل لها من الشمع الأحمر رأس مرجاني . كانت هراوة ، ولكنها بدت عصاً من العصيّ .

وليس يجتاز تلك الجادة غير قليل من العابرين ، وبخاصة في فصل الشتاء . ولقد بدا أن هذا الرجل يجتنب الناس اكثر مما يسعى الى لقائهم ، ولكن من غير تكلف .

في ذلك العهد كان الملك لويس الثامن عشر يقصد كل يوم تقريباً الى « شوازي لو روا » . كانت احدى نزهاته المفضلة . وحوالى الساعة الثانية ، وعلى نحو لا يكاد يتغير ، كان الناس يرون العربة الملكية

وموكب الفرسان الملكي يخترقان « جادة المستشفى » باقصى ما يستطيعان من السرعة .

وكان ذلك يقوم مقام الساعة عند نسوة الحيّ الفقيرات اللواتي كنّ يقلن : « انها الساعة الثانية . ها هو ذا يرجع الى التويلري . »

وكان بعض القوم يركضون ، وكان بعضهم الآخر يتنحّون ، اذ ما ان يمر ملك في شارع حتى تسوده جلبة وضجيج . والى هذا ، فقد كان ظهور لويس الثامن عشر وغيابه يحدثان هزةً انفعالية في شوارع باريس . فقد كان موكبه سريعاً ، ولكنه مهيب . كان هذا الملك العاجز مولعاً بسرعة السّوق . لقد اعوزته المقدرة على المشي فرغب في العَدْو . والواقع ان هذا المُقعَد كان خليقاً به ان يستشعر مزيداً من السعادة لو ان البرق كان له سائقاً . لقد اخترق الشوارع ، هادئاً قاسياً ، وسط السيوف المسلولة . كانت عربته الضخمة ، المذهبة تذهيباً شاملاً ، المزدانة بأغصان الزنبق المرسومة على مصاريعها ، تكرّ في صخب . كان المرء لا يكاد يجد متسعاً من الوقت لالقاء نظرة عليها . وفي الزاوية الخلفية اليمنى ، فوق وسائد مغطاة بالاطلس الابيض ، كان يُرى وجهٌ عريض ، ثَبْتٌ احمر اللون ، وجبين نُضحَ منذ برهة يسيرة على طريقة الطائر الملكيّ ، وعينٌ فخورٌ ، قاسية حادة ، وابتسامة أشبه بابتسامة الرجل الحسن الثقافة ، وكتافتان ضخمتان ذواتا اهداب حلزونية الشكل منسدلة فوق بذلة من بذلات المواطنين ، والجزّةُ الذهبية ، وصليب القديس لويس ، وصليب جوقة الشرف ، ووسام الروح القدس الفضي ، وبطن كبير ، وعصابة عريضة زرقاء . ذلك كان الملك . وخارج باريس ، كان يضع قبعته ذات الريش الابيض على ركبتيه المغلّفتين بلفافتي ساق انكليزيتين عاليتين، حتى اذا عاد الى المدينة وضع قبعته على رأسه ، حانياً هامته بالتحية بعض الشيء . كان ينظر ، في برود ، الى الناس الذين كانوا يبادلونه نظرته . وحين ظهر للمرة الاولى في حيّ سان مارسو كان كل ما وُفق

اليه من نجاح مقصوراً على هذه الكلمة التي وجّهها احد ابناء الحي الى رفيقه : « ذلك الرجل البدين هو الحكومة . »

واذن فقد كان مرور الملك المحقّق حدوثُهُ في الساعة نفسها هو تحدّث « جادة المستشفى » اليومي .

ولقد كان واضحاً أن ذلك المتجوّل ذا السترة الطويلة الصفراء لم يكن من أبناء الحيّ ، ولعله لم يكن من أبناء باريس ، اذ كان يجهل هذا الحدث . فحين انطلقت العربة الملكية ، عند الساعة الثانية ، نحو الجادة ، بعد اجتازت « لا سالبيترييير » ، تحيط بها كوكبة من فرسان الحرس الملكي الموشاة ملابسهم بالفضة ، بدا ذلك الرجل ذاهلاً ، بل بدا مروّعاً تقريباً . لم يكن ثمة احدٌ غيره عند مفرق الزقاق ، فارتدّ على جناح السرعة الى ما وراء زاوية الجدار الجانبي ، ولكن هذا لم يحل بين دوق دافريه وبين رؤيته . وكان الدوق دافريه ، بوصفه ضابط الحرس المكلف بمرافقة الملك ذلك اليوم ، جالساً في العربة تجاه الملك . فقال لجلالته : « هوذا رجلٌ تبدو على وجهه سيماء بغيضة . » وبصُر به بعض رجال الشرطة الذين كانوا يخلون الطريق للموكب الملكي ، ايضاً ، فأمر واحدٌ منهم بأن يتبعه . ولكن الرجل غاص في أزقة الضاحية المنعزلة . حتى اذا شرع الليل يهبط فقد الشرطي أثره ، على ما هو ثابت من تقرير قُدّم في الليلة نفسها الى الكونت آنغليز ، وزير الدولة ، مدير البوليس .

وحين أضلّ الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء الشرطيّ ، استدار ملتفتاً مرات عديدة لكي يتأكد من ان احداً لا يتبعه . وعند الساعة الرابعة والربع ، يعني بعد هبوط الليل ، مر امام مسرح « لا بورت سان مارتان » حيث كانت تقدّم ذلك اليوم مسرحية « المحكوم عليهما بالاشغال الشاقة » . وراعه هذا الاعلان المضاء بمصابيح المسرح العاكسة النور ، إذ توقف عنده ، على الرغم من إسراعه في السير ، لكي يقرأه .

وبعد لحظة انتهى الى زقاق « لا بلانشيت » غير النافذ ، ودخل « القصعة الصفيحية » ، حيث كان آنذاك مكتب عربة لانبي . وكانت هذه العربة تنطلق في الساعة الرابعة والنصف . كانت الجياد قد قُرنت اليها ، وكان المسافرون ، وقد ناداهم السائق ، يتسلقون مسرعين سلم العربةِ الحديديةَ العالية .

وتساءل الرجل :

— « هل عندك مقاعد ؟ »

فاجابه السائق :

— « لم يبق غير مقعد واحد ، الى جانبي ، على السدة » .

— « سوف آخذه » .

— « إصعد » .

بيد ان السائق القى ، قبـــل ان ينطلق ، نظرة على ملابس المسافر الحقيرة ، وصغّر صرته ، وتقاضى اجره .

وسأله السائق :

— « اذاهب أنت حتى لانبي ؟ »

فقال الرجل :

— « نعم » .

ودفع المسافر أجر الرحلة حتى لانبي .

وانطلقت العربة بهم . حتى اذا اجتازت باب المدينة حاول السائق ان يدخل مع المسافر في حديث ، ولكن هـذا الاخير لم يجب بغير كلمات مفردة . وعندئذ آثر السائق ان يصفر ، وان يشتم الخيل .

وتلفّع السائق بمعطفه . كان الجو بارداً . اما المسافر فبدا وكأنه لا يفكر فيه . وهكذا اجتازوا « غورنيّ » و « نوبي سور مارن » .

وحوالى الساعة السادسة مساءً ، بلغوا « شيل » . وتوقف السائق ، لكي يريح جياده من عناء الرحلة ، امام فندق سائقي العربات المقام في الابنية القديمة من الدير الملكي .

وقال الرجل :

– « سوف أترجل هنا » .

وامسك بصرّته وعصاه ، ووثب من العربة .

وبعد لحظات اختفى عن العيان .

إنه لم يدخل الى الفندق .

حتى اذا انطلقت العربة بعد بضع دقائق قاصدة الى لانيي لم تلقه في شارع لانيي الرئيسي .

والتفت السائق الى المسافرين الراكبين داخل العربة وقال :

– « هو ذا رجلٌ ليس من هذه المنطقة ، فأنا لا أعرفه . إن مظهره يدل على أنه لا يملك فلساً ، ومع ذلك فهو لا يتشبث بالدراهم . إنه يدفع أجر الرحلة الى « لانيي » ثم لا يذهب الى أبعد من « شيل » . الدنيا ليل ، وجميع البيوت موصدة ، وهو لا يدخل الى الفندق ، ونحن لا نلقاه في طريقنا . ينبغي أن يكون ، اذن ، قد غاص في باطن الارض . »

ولم يكن الرجل قد غاص في باطن الارض . ولكنه كان قد اجتاز بخطى واسعة ، تحت جنح الظلام ، الشارع الرئيسي في « شيل » . ثم إنه انعطف الى الشمال ، قبل ان يبلغ الكنيسة ، سالكاً الطريق القروية المؤدية الى مونفيرماي ، مثل رجل عرف المنطقة واتخذ تلك الطريق من قبل .

وانطلق مسرعاً في تلك السبيل . حتى اذا انتهى الى النقطة التي تتقاطع عندها مع الطريق القديمة التي تنهض الاشجار على جانبيها ، والتي تمتد من « غانيي » الى « لانيي » ، سمع وقع أقدام يقترب منه . فسارع الى الاختفاء في احدى الحفر ، وتربّص هناك ريثما أمسى المارة على مسافة بعيدة . وفي الحق أن ذلك الصنيع كان زيادة في الحذر ، لا داعيَ لها ، لأن الليلة كما ذكرنا كانت احدى ليالي كانون الأول الحالكة جداً . ولم يكن المرء ليرى ، في جهد ، غير نجمين او ثلاثة نجوم ،

في السماء

هنا ، عند هذه النقطة ، كان يُصعّدُ الى الكثيب . ولم ينقلب الرجل الى طريق مونفيرماي . لقد انعطف الى اليمين ، عبرَ الحقول ، واتخذ سبيلهُ ، في خطىً سريعة ، نحو الغابة .

حتى اذا بلغ الغابة تمهل ، وانشأ ينعم النظر في الأشجار جميعــاً ، متقدماً خطوةً خطوةً وكأنه يلتمس أو يتبع طريقاً خفية لا يعرفهــا احد غيره . وانقضت لحظةٌ بدا فيها وكأنه ضــلّ عن سبيله ، ووقف متردداً . واخيراً وصل بتحسسه طريقه في الظلام على نحــو موصول ، الى بقعة في الغابة جرداء حيث كان ركام ضخم من الحجارة الضاربة الى البياض . وتقدم مسرعاً الى تلك الحجارة ، وراح يفحصهــا في عناية ، من خلال ظلام الليل ، وكأنه يستعرضها كما يُستعرض الجند . وكانت على بضع خطوات من ركام الحجارة شجرة ضخمة مغطاة بتلك النوامي الغريبة التي هي ثآليل النبات . فمضى الى تلك الشجرة ، وأمرّ يده فوق لحاء الجذع ، وكأنما كان يسعى الى ان يتعرّف ويحصي جميع الثآليل .

وتجاه هذه الشجرة ، التي كانت شجرة دردار ، كانت كستناءة مصابة بداء سقوط القشر سقوطاً ذاتياً ، وكانت قد ضمّدت بعصابة من الزنك سُمّرت عليها . فما كان من الرجل إلا ان رفع نفسه ، عــلى رؤوس أصابعه ، ولمس عصابة الزنك تلك .

ثم انه قرع الارض ، بقدميه ، عنــد الفسحة القائمة مــا بين الشجرة والحجارة ، فترة من الزمن ، مثل رجل يريــد ان يتحقق أن التربة لم تُقلب منذ قريب .

حتى اذا تمّ له ذلك مضى لسبيله مستأنفاً سيره خلال الغابة .

كان هو ذلك الرجل الذي التقى بكوزيت .

ذلك أنه فيما كان يتخذ سبيله خلال الغابة التي تُقطع بعض اشجارها بين الفينة والفينة ، متجهاً نحو مونفيرماي ، بَصُرَ بهــذا الظلّ الصغير

الذي كان يشقّ طريقه في أنين ، والذي وضع على الارض حملًا ما ، ثم رفعه ، واستأنف السير . كان قد اقترب من ذلك الظلّ ، وادرك انه طفلة صغيرة جداً تحمل دلواً هائلًا من الماء . وعندئـــذ مضى الى الطفلة ، وأمسك بعروة الدلو في صمت .

٧

كوزيت مع المجهول

جنباً الى جنب ، وفي غمرة الظلام

ولم تستشعر كوزيت ، كما قد قلنا ، خوفاً ما .

وتحدّث الرجل اليها . كان صوته رزيناً يجاور الهمس .

— « إن هذا الذي تحملينه ثقيل جداً عليك ، يا بُنَيّتي . »

فرفعت كوزيت رأسها وأجابت :

— « نعم ، يا سيدي . »

وأضاف الرجل :

— « أعطني اياه . سوف أحمله عنك . »

وخلّت كوزيت الدلو . وانشأ الرجل يمشي الى جانبها .

وقال مخاطباً نفسه :

— « الواقع انه ثقيل جداً . »

ثم أردف :

— « ايتها الصغيرة ، ما سنّك ؟ »

— « ثماني سنوات ، يا سيدي . »

— « وهل أقبلت على هذا الشكل من مكان بعيد ؟ »

— « من النبع الذي في الغابة . »
— « وهل انت ذاهبة الى مكان بعيد ؟ »
— « انه يبعد ربع ساعة كاملة ، من هنا . »
واعتصم الرجل بالصمت لحظة ، ثم قال فجأة :
— « اذن فليس لك أمّ ؟ »
فاجابت الطفلة :
— « لست ادري . »
وقبل ان يجد الرجل متسعاً من الوقت لاستئناف الكلام ، اضافت :
— « لا اعتقد . ان جميع الاطفال لهم امّ . اما انا فليس لي امّ . »
وبعد لحظة من الصمت ، اردفت :
— « أعتقد انه لم يكن لي امّ في يوم من الايام . »
وكفّ الرجل عن السير ، ووضع الدلو على الارض ، ثم انحنى ، ووضع يديه على كتفي الطفلة ، محاولاً ، في جهد ، ان ينظر اليها ، وان يرى وجهها في الظلام .
وارتسم وجه كوزيت المهزول الضعيف البنية ارتساماً غامضا تحت ضوء السماء القاتم .
وقال الرجل :
— « ما اسمك ؟ »
— « كوزيت . »
وبدا وكأن الرجل عرَتهُ رجفة كهربائية . وعاود النظر اليها ، ثم رفع يديه عن كتفيها ، وتناول الدلو ، واستأنف المسير .
وبعد لحظة ، سأل :
— « ايتها الطفلة الصغيرة ، اين تسكنين ؟ »
— « في مونفيرماي ، اذا كنت تعرفها . »
— « أإلى هناك نحن ذاهبان ؟ »

– « نعم يا سيدي . »
وسكت كرة اخرى ثم اضاف :
– « ومن الذي ارسلك الى الغابة لتجلبي الماء في هذه الساعة من الليل ? »
– « مدام تيناردييه . »
وتابع الرجل في جَرْس حاول ان يجعله لامبالياً ، ولكنه كان ينطوي برغم ذلك على ارتعاشة فريدة :
– « وماذا تعمل مدام تيناردييه هذه ? »
فقالت الطفلة :
– « إنها سيدتي . انها تدير الفندق . »
فقال الرجل :
– « الفندق ? حسن ، سوف أذهب وأبيت هناك هذه الليلة . دليني على الطريق » .
فقالت الطفلة :
– « نحن ذاهبان الى هناك » .
ومشى الرجل في سرعة بالغة . وتبعته كوزيت من غير ما عسر . إنها ما عادت تستشعر التعب . وبين الفينة والفينة ، كانت ترفع عينيها نحو هذا الرجل في ضرب من السكون والثقة التي تمتنع على الوصف . انها لم تُعلَّم قط ان تلتفت الى العناية الالهية وتصلي ، ومع ذلك فقد أحسّت في صدرها بشيء يشبه الامل والبهجة ، شيء ارتفع نحو السماء .
وانقضت بضع دقائق ، وتكلم الرجل :
– « أليس هناك خادم في فندق مدام تيناردييه ? »
– « لا ، يا سيدي » .
– « هل أنت وحدك ? »
– « نعم ، يا سيدي . »

وتقضّت فترة اخرى من الصمت . ورفعت كوزيت صوتها :

– « يعني ان هناك بنتين صغيرتين . »

– « أيّ بنتين صغيرتين ؟ »

– « بونين وزيلما » .

وبسّطت الطفلة ، على هذه الشاكلة ، الاسمين الرومانتيكيين العزيزين على السيدة تيناردييه .

– « ومَن بونين وزيلما ؟ »

– « انهما آنستا مدام تيناردييه ، وفي استطاعتك ان تقول بنتيها . »

– « وما تفعل هاتان البنتان ؟ »

فقالت الطفلة :

– « أوه ، انهما دميتان جميلتان ؛ شيئان عليهما ذهب ، انهما مليئتان الشغل . انهما تلعبان . وانهما تتسليان . »

– « طول النهار ؟ »

– « نعم يا سيدي . »

– « وأنتِ ؟ »

– « أنا ! انا اشتغل . »

– « طول النهار ؟ »

ورفعت الطفلة عينيها الواسعتين اللتين ترقرقت فيهما دمعة لم يكن من الميسور رؤيتها في الظلام ، واجابت في رقة :

– « نعم ، يا سيدي . »

ثم اضافت بعد فترة من الصمت :

– « وفي بعض الاحيان ، حين انهي عملي ، وترغبان هما في ذلك ، أتسلى انا ايضاً . »

– « وكيف تتسلين ؟ »

– « قدر ما أستطيع . انهم يتركونني وحدي ، ولكن ليس عندي لعب كثيرة . و « بونين » و « زيلما » لا تسمحان لي بان ألعب بلعبهما ، ولا

يوجد عندي غير سيف رصاصي صغير ليس اكبر من هذا . »
واظهرت الطفلة خنصرها .
-- « وليس بقاطع أبداً ؟ »
فقالت الطفلة :
— « بلى ، يا سيدي . انه يقطع الحسّ ورؤوس الذباب . »
وبلغا القرية ، وقادت كوزيت الغريب عبر الشوارع . لقد اجتازا بالمخبز ، ولكن كوزيت لم تفكر بالخبز الذي كان عليها ان تشتريه . ولم يوجه اليها الرجل اما سؤال آخر ، معتصماً بصمت فاجع . حتى اذا تخطيا الكنيسة ، سأل الرجل كوزيت حين رأى تلك الدكاكين كلها :
— « إذن ، فهذا أوان السوق الموسمية ؟ »
— « لا ، يا سيدي ، انه عيد الميلاد . »
وحين اقتربا من الفندق ، مست كوزيت ذراعه في جزع .
— « مسيو ؟ »
— « ماذا ، يا بنيتي ؟ »
— « لقد صرنا على مقربة من البيت . »
— « ثم ماذا ؟ »
— « أتحب ان تدعني احمل الدلو الآن ! »
— « لماذا ؟ »
— « لان مدام تيناردييه تضربني اذا رأت شخصاً يحمله عني .
واعطاها الرجل الدلو . وبعد لحظة ، كانا بباب المطعم الحقير .

٨

ما أبغض ان تضيف فقيراً ربما كان غنياً

ولم تتمالك كوزيت عن ان تلقي نظرة على الدمية الضخمة التي كانت ما تزال معروضة في دكان الدمى ؛ ثم قرعت الباب . وفُتح الباب ، وظهرت السيدة تيناردييه تحمل شمعة في يدها .

— « آه ، هذا انت ، ايتها الشحاذة الصغيرة ! الحمد لله ، لقد مشيتِ على مهلك ! كانت تلعب ، الوقحة ! »

فقالت كوزيت مرتعدة :

— « سيدتي ، هناك رجل سيد يريد ان ينزل في الفندق . »

وفي سرعة بالغة ، استبدلت السيدة تيناردييه بسيماها الضارية انسراحة وجهٍ متوردة — وتلك القدرة على الاستبدال يتفرد بها الفندقيون ، فهم يصطنعونها لحظة يشاؤون — ونظرت الى الوافد الجديد بعينين متلهفتين . وقالت :

— « أهو هذا السيد ؟ »

فأجابها الرجل ، رافعاً يده الى قبعته :

— « نعم ، يا سيدتي . »

إن المسافرين الاغنياء ليسوا على هذا اللطف كله . ومن هنا كان في هذه الايماءة ، وفي مشهد ملابس الرجل وامتعته التي استعرضتها السيدة تيناردييه بنظرة واحدة ، ما جعل الملامح المحببة تختفي ، والسيما الضارية تعاود الظهور . واضافت في جفاف :

— « ادخل ، ايها الرجل الساذج . »

ودخل الرجل الساذج . والقت السيدة تيناردييه نظرة اخرى عليه ، متأملةً على نحو خاص في سترته الطويلة التي كانت بالية بالكلية ، وقبعته المنكسرة بعض الشيء . وبهزة رأس ، وغمزة عين ، وتغضين أنف ، شاورت زوجها الذي كان لا يزال يعاقر الخمر مع سائقي العربات . واجاب الزوج بهزة السبّابة تلك التي تعني حين تُردَف بعدّ الشفتين ، في مثل هـــذه الحال « فقر مدقع » . وعندئـــذ صاحت السيدة تيناردييه :

— « آه . ايها الرجل الفاضل ، انا آسفة جـــداً ، ولكن ليس عندي مكان . »

فقال الرجل :

— « ضعيني حيث شئت . في العلّية ، في الاسطبل . سوف ادفع وكأنني احتل غرفة . »

— « اربعون سو . »

— « اربعون سو . ليكن ذلك . »

— « مقدماً . »

فهمس احد سائقي العربات في اذن السيدة تيناردييه :

— « اربعون سو ! ولكن الاجرة عشرون سو ليس غير . »

فاجابت السيدة تيناردييه بصوت مهموس ايضاً :

— « ولكنها اربعون بالنسبة اليه . انا لا أنزل الفقراء في فنـــدق بأقل من ذلك . »

وأضاف زوجها في رقة :

— « هذا صحيح . إن قبول هـــذا الصنف من الناس يؤدي الى خراب المؤسسة . »

وفي غضون ذلك ، كان الرجل — بعد ان ترك عصاه وصرته عـــلى أحد المقاعد — قد جلس إلى طاولة كانت كوزيت قد وضعت عليها ،

في سرعة ، كأساً وزجاجة من الخمر . كان البائع المتجول الذي طلب دلو الماء قد مضى هو نفسه فحمله الى فرسه . وكانت كوزيت قد انقلبت الى مكانها تحت طاولة المطبخ واستأنفت حبكها .

ولم تمسّ شفتا الرجل الخمر التي صبّها في كأسه إلا نادراً . كان يتأمل الطفلة في انتباه عجيب .

كانت كوزيت بشعة . ولعلها كانت خليقة بان تكون جميلة لو كانت سعيدة . ولقد سبق لنا ان رسمنا هـذا الوجه الصغير الكئيب رسماً اولياً . كانت كوزيت مهزولة ، شاحبة . كانت في الثامنة من عمرها ، ولكن الناظر اليها كان يظن انها لم تكد تتجاوز السادسة . كانت عيناها الواسعتان ، الغارقتان في ضرب من الظلام العميق ، مطفأتين تقريباً من أثر البكاء الموصول . وكانت لزوايا فمها التواءة الألم النفسي المألوف تلك، الـتي تُرى عند المحكوم عليهم والمرضى بأدواء لا برء منها . وكانت يداها ، كما حزرتْ أمها ، مليئتين بالشقوق الناشئة عن البرد . لقد كان في ضوء النار الذي شعّ من حولها في تلك اللحظة ما ابرز زوايا عظامها ، وجعل هزالها واضحاً على نحوٍ مخيف . واذ كانت ترتعد ابداً ، فقد تعودت ان تشدّ احدى ركبتيها الى الاخرى . ولم يكن ثوبها كله غير خرقة خليقة بان تثير الاشفاق في الصيف ، والذعر في الشتاء . لم يكن على جسدها غير نسيج قطني مليء بالثقوب . إنه لم يعرف خرقة واحدة من الصوف . وكانت ملابسها تلك تكشف عـن بشرتها هنا وهناك ، وكان في ميسور المرء ان يتبين عليها بقعاً سوداء وزرقاء تشير الى المواطن التي لمستها السيدة تيناردييه منها . كانت ساقاها العاريتان حمراوين خشنتين . وكانت تجاويف ترْقوتها تفجّر الدمع من عيني الناظر . كان شخص هذه الطفلة كله ، مشيتها ، وهيئتها ، وجرْس صوتها ، والفترات بين كل كلمة من كلماتها وبين الاخرى ، ونظراتها ، وصمتها ، واقتصادها في الحركة — كان ذلك كله يُفصح عن

فكرة وحيدة : الخوف .

كان الخوف منثوراً عليها . كانت مغطاة به ، اذا جاز التعبير . لقد ألصق الخوف مرفقيها بجانبيها ، وردّ عقبيْها تحت تنّورتها ، وجعلها تحتل اقلّ حيز ممكن ، وحملها على ان لا تتنفس الا بالقدْر الضروريّ ؛ وكان قد أمسى ما يمكن ان ندعوه عادتها الجسدية ، فلا سبيل الى تغيير تلك العادة إلا اذا قُصد بالتغيير الزيادة والتعقيد . كان في أعماق حدقتها زاوية يكمن فيها الذعر .

وكان خوفها ذاك من القوة بحيث أنها ، حين رجعت الى الفندق وقد بلّلت المياه ثيابها كلها ، لم تجرؤ على ان تتقدّم نحو النار تجفيفاً لثيابها . لقد انصرفت الى عملها في صمت .

وكانت السّيما التي تطبع محيّا هذه الطفلة ذات الثمانية أعوام كئيبة ، عادةً ، فاجعة ، في بعض الاحيان ، الى درجة تجعلها تبدو ، في بعض اللحظات ، وكأنها في سبيلها الى ان تصبح معتوهة أو شيطاناً . إنها لم تعرف قط ، كما ذكرنا من قبل ، ما هي الصلاة ، وانها لم تطأ قط أرض كنيسة في يوم من الايام . كانت السيدة تيناردييه تقول : « وهل عندي متسع من الوقت لمثل ذلك ؟ »

ولم يرفع الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء عينيه عن كوزيت .

وفجأة ، صاحت السيدة تيناردييه :

— « أوه ! لقد نسيت ! اين ذلك الرغيف ؟ »

وسارعت كوزيت الى الخروج من تحت الطاولة ، وفقاً لمألوف عادتها كلما رفعت السيدة تيناردييه صوتها .

كانت قد نسيت ذلك الرغيف تماماً . ولجأت الى الوسيلة التي يصطنعها الاطفال الذين يعصف بهم الذعر على نحو موصول . لقد كذبت .

— « مدام ، كان الخبز مغلقاً » .

— « كان من الواجب عليك ان تقرعي الباب » .

- « لقد فعلت ، يا سيدتي . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « ان الخباز لم يفتح . »
فقالت السيدة تيناردييه :
- « سوف أرى غداً ما اذا كان هذا صحيحاً . واذا كنت تكذبين فسوف أرقّصك رقصة تعجبك . وفي انتظار ذلك ، أعيدي إليّ قطعة الخمسة عشر سو . »
وغيّبت كوزيت يدها في جيب مئزرها ، واخضرّ لونها . إن قطعة الخمسة عشر « سو » لم تكن هناك .
وقالت السيدة تيناردييه :
- « تعالي . ألم تسمعيني ؟ »
وقلبت كوزيت جيبها جاعلةً داخلها خارجها ، فلم يكن هنالك شيء . ما الذي يمكن ان يكون قد حلّ بتلك القطعة النقدية ؟ ولم تجد المسكينة الصغيرة ما تقوله . لقد تحجّرت تحجّراً .
وصاحت السيدة تيناردييه :
- « هل أضعتها - قطعة الخمسة عشر سو ؟ أم تريدين ان تسرقيها مني ؟ »
وفي الوقت نفسه بسطت ذراعها نحو السوط المعلّق عند زاوية الموقد . وكان في هذه الحركة الرهيبة ما منح كوزيت القوة على ان تصيح :
- « اغفري لي ، يا سيدتي ! أنا لن أفعل ذلك بعد اليوم . »
ونزعت السيدة تيناردييه السوط .

وفي غضون ذلك ، كان الرجل ذو السترة الطويلة الصفراء يبحث في جيب صدرته ، من غير ان يلحظ أحدٌ هذه الحركة . أما المسافرون الآخرون فكانوا يحتسون الخمر ، او يلعبون بالورق ، فهم لا يلتفتون الى شيء .

وتلوّت كوزيت بالألم النفسي المرير في زاوية الموقد ، محاولة أن تضمّ وتخفي أوصالها البائسة نصف العاريـــة . ورفعت السيدة تيناردييه ذراعها .

فقال الرجل :

- « عفواً ، يا سيدتي ، ولكني رأيت في هذه اللحظة شيئاً يسقط من جيب مئزر هذه الفتاة الصغيرة ويكرّ على الارض . قد يكون ذلك ما تطلبين . »

وفي الوقت نفسه ، انحنى ، وبدا وكأنه يبحث في ارض المكان لحظة من الزمن .

ثم قال وهو ينهض :

- « هكذا تماماً . ها هي ذي . »

وقدّم قطعة نقدية فضية الى السيدة تيناردييه .

فقالت : « أجل ، هذه هي . »

ولم تكن هذه تلك ، اذ كانت قطعة من فئة العشرين « سو » ، ولكن السيدة تيناردييه وجدت فيها ربحاً لها . ووضعت القطعة النقدية في جيبها ، واكتفت بالقاء نظرة ضارية على الطفلة ، قائلة :

- « لا تدعي ذلك يحدث مرةً اخرى ، مدى الدهر . »

ورجعت كوزيت الى ما كانت السيدة تيناردييه تدعوه « جُحرها » . وشرعت عيناها الواسعتان ، المسمّرتان على المسافر المجهول ، تتفتحان من شيء لم تعرفه قط من قبل . وكان ذلك لا يزال مجرد دهش ساذج ، ولكن ضرباً من الثقة المشدوهة كان يمازجه .

وسألت السيدة تيناردييه المسافر :

- « بالمناسبة ، هل تريد عشاء ؟ »

ولم يجبها . لقد بدا وكأنه يفكر تفكيراً عميقاً .

ولثلثت* السيدة تيناردييه :

— « ما هذا الرجل ؟ إنه متسول مخيف . هو لا يملك فلساً يتعشى به . أيعتزم ان يدفع اليّ أجر مبيته فقط ؟ من حسن الطالع ، على اية حال ، انه لم يفكر في سرقة المال الذي كان على الارض . »

وفُتح باب ، وأقبلت إيبونين وآزيلما .

كانتا فتاتين صغيرتين جميلتين حقاً ؛ وكانتـــا مدينيتين اكثر منهما ريفيتين ، شديدتي الفتنة ، احداهما بجدائلها الكستنائية الحسنة الصقال ، والاخرى بضفائرها الطويلة السوداء المنسدلة على ظهرها ؛ وكانت كل منهما نشيطة ، نظيفة ، ممتلئة ، ناضرة ، تطفح صحةً الى درجة تجعل النظر اليها بهجة ومتعة . كانتا ترتديان ملابس توقـــع الدفء في جسديهما ، ولكنْ في فنّ أموميّ جعـــل غِلظَ النسيج لا يذهب بشيء من دلال الزينة . لقد وُقيتا شر الشتاء من غير ما محوٍ للربيع . وأوراقت هاتان الفتاتان الصغيرتان الضياء من حولهما . والى هذا ، فقد كانتا قابضتين على زمام السلطة . ففي زينتهما ، وفي بهجتهما ، وفي الضجة التي احدثتاهـا كانت ثمة سيادة مطلقة . وحين دخلتا ، قالت السيدة تينادرييه لهما في جرس مقرّع كان يمور بالهيام :

— « آه ، انتما هنا اذن ، ايتها الطفلتان ! »

ثم إنها وضعتهما على ركبتيها ، الواحـــدة إثر الاخرى ، وانشأت تملّس شعرهما عاقدةً أشرطتهما ، لتتركهما آخر الامر تذهبان بعد ان هزّتهما تلك الهزة الخاصة بالامهات ، وصاحت :

— « أهما رديئتا الهندام ! »

ومضتا وجلستا قرب نار الموقد . وكانت لديهما دمية ، فراحتا تقلبانها على رُكبهما ظهراً لبطن وبطناً لظهر ، مغرّدتين مختلف ضروب التغريد . وبين الفينة والفينة ، كانت كوزيت ترفع عينيها عن زرّدها ، وتنظر

---

* لثلثت كلامه : لم يبيّنه .

اليهما في كآبة بينما هما تلعبان .

ولم تنظر إيبونين وآزيلما الى كوزيت . فقد كانت عندهمـــا اشبه بكآبة . إن هاته الفتيات الصغيرات تبلغ اعمارهن ، مجتمعاتٍ ، ثمانيـــة وعشرين عاماً . ومع ذلك فقد كنّ في تلك السنّ يمثلن المجتمع البشري كله : الحسد من جانب ، والازدراء من الجانب الآخر .

كانت دمية الشقيقتين تيناردييه ناصلة جداً ، عتيقة جداً ، محطمة كلّها . ولقد بدت برغم ذلك رائعة في عيني كوزيت التي لم يكن لها في يوم من ايام حياتها دمية ، **دمية حقيقية** ، اذا اردنا ان نستعمل مصطلحاً يفهمه الاطفال جميعاً .

وفجأة ، لاحظت تيناردييه الزوجة — التي كانت لا تفتأ تذرع الغرفة جيئـــة وذهاباً — أن انتباه كوزيت كان مشوّشاً ، وانها بدلاً من ان تنصرف الى العمل كانت مشغولة بالفتاتين الصغيرتين اللاعبتين .

وصاحت :

— « اوه ، لقد قبضتُ عليكِ ! تلك هي الطريقة التي تعملين بها ! سوف أكرهك على العمل بضربات السوط . اجل ، سوف افعل ! »

ومن غير ان يغادر الغريب كرسيه ، التفت الى السيدة تيناردييه ، وقال مبتسماً في خجل :

— « ولكنْ ، يا سيدتي ، دعيها تلعب ! »

ولو قد صدرت هذه الرغبة عن رجل كان قد أكل شريحة من لحم الضأن ، وشرب زجاجتين من الخمر اثناء تناوله العشاء ، ولم يكن له مظهر شحاذ مروّع ، اذن لكانت أمراً مطاعاً . أما ان يجرؤ رجل يعتمر بتلك القبعة فيسمح لنفسه بابداء رغبة ما ، وأما ان يجرؤ رجل يرتدي تلك السترة الطويلة فيسمح لنفسه بأن تعبّر عن ارادة ما ، فذلك ما اعتقدت السيدة تيناردييه ان من غير الجائز التسامح به . فأجابت في حدة :

— « يجب ان تعمل ، لأنها تأكل . أنا لا أعيلها لـكي لا تعمل شيئاً . »

فقال الغريب في ذلك الصوت العذب الذي يتناقض الى حد عجيب مع ثيابه الشبيهة بثياب الشحاذين ، وكتفيه الشبيهتين بكتفي الحمالين :

— « وما الذي تعمله ؟ »

وتنازلت تيناردييه الزوجة فأجابت :

— « جوارب ، اذا شئت . جوارب لبنتيّ الصغيرتين اللتين لا تملكان شيئاً من ذلك يستحق الذكر ، واللتين ستضطران ، بعد قليـل ، الى السير حافيتين . »

ونظر الرجل الى رجلي كوزيت الحمراوين المثيرتين للشفقة ، وأضاف :

— « ومتى ستنهي هذين الزوجين من الجوارب ؟ »

« انها في حاجة بعدُ الى ثلاثة ايام او اربعة أيام على الاقل . يا لها من فتاة كسول ! »

— « وكم سيساوي هذان الزوجان من الجوارب حين يتم صنعهما ؟ »

والقت السيدة تيناردييه عليه نظرة احتقار .

— « ثلاثين سو ، على الاقل . »

فقال الرجل :

— « اتعطينني إياهما مقابل خمسة فرنكات ؟ »

فصاح سائق عربة كان يستمع الى الحديث ، في ضحكة مجلجلة :

« يا الـهي ! خمسة فرنكات ! انها خدعة ! خمس رصاصات ! »

واعتقد تيناردييه انه يتحتم عليه ان يتولى الكلام :

— « نعم ، يا سيدي ، اذا كان ذلك يرضي هواك ففي استطاعتك ان تأخذ زوجي الجوارب. هـــذين بخمسة فرنكات . نحن لا نستطيع أن نضنّ على النزلاء بشيء . »

فقالت تيناردييه الزوجة في طريقتها المختصرة الجازمة :

— « يجب ان تدفعها في الحال . »

فاجاب الرجل :

– « سوف اشتري زوجي الجوارب هذين . »

ثم اضاف ساحباً من جيبه قطعة من ذات الخمسة الفرنكات ووضعها على الطاولة :

– « ولسوف ادفع ثمنهما . »

ثم التفت نحو كوزيت :

– « والآن ، لقد اصبح شغلك ملكاً لي . إلعبي يا بنيّتي ! »

واهتزّ سائق العربات لقطعة الخمسة الفرنكات اهتزازاً جعله يترك كأسه ويسرع للنظر اليها .

وصاح بعد ان فحصها :

– « انها حقيقية ، مع ذلك . دولاب خلفيّ حقيقي ! إنها غير مزورة ! »

واقترب تيناردييه . وفي صمت وضع القطعة النقدية في جيبه . ولم يكن عند السيدة تيناردييه ما تجيب به . لقد عضت شفتيها وطفت على وجهها سيماء من الحقد .

وفي غضون ذلك ارتعدت كوزيت . وغامرت في السؤال :

– « هل هذا صحيح ، يا سيدتي ؟ هل استطيع ان العب ؟ »

فاجابتها تيناردييه الزوجة في صوت فظيع :

– « العبي ! »

فقالت كوزيت :

– « شكراً ، يا سيدتي ! »

وفيما كان فمها يشكر تيناردييه الزوجة ، كانت روحها كلها تشكر المسافر.

ورجع تيناردييه الى شرابه . وهمست زوجته في اذنه :

– « من يمكن ان يكون هذا الرجل الاصفر ؟ »

فاجابها تيناردييه في صوت آمر :

– « لقد رأيت اصحاب ملايين في سترات طويلة مثل هذه . »

كانت كوزيت قد تركت زرْدها ، ولكنها لم تغادر مكانها . كان من دأب كوزيت ان تتحرك أقلّ ما يمكنها أن تفعل . وكانت قد اخرجت من صندوق صغير خلفها بعض الحرق البالية ، وسيفها الرصاصي الصغير .

ولم تلتفت إيبونين وآزيلما ايما التفات لما كان جارياً . كانتا قد انتهتا منذ لحظة من القيام بعمل خطير : لقد ألقتا القبض على الهرة . وكانتا قد اطّرحتا الدمية على الارض ، وانصرفت ايبونين ، وهي الكبرى ، الى تقميط الهرة ، برغم موائها والتوائها ، بمجموعة من الثياب وبخرق حمراء وزرقاء . وفيما هي منهمكة في هذا العمل الجديّ العسير تحدثت الى اختها بلغة الاطفال العذبة الفاتنة تلك ، التي تتلاشى طلاوتها ، مثل بهاء جناحي الفراشة ، حين تحاول ان تحتفظ بها .

– « انظري ! انظري يا اختي ، إن هذه الدمية مسلّية اكثر من تلك . إنها تتحرك ؛ انها تصرخ ؛ انها دافئة . تعالي ، يا اختي ، دعينا نلعب معها . انها ستكون بنتي الصغيرة . وسأكون أنا سيدةً . ولسوف آتي لزيارتك ، ولسوف تنظرين اليها ، وشيئاً بعد شيء تشاهدين شاربيها ، وهذا سوف يدهشك . وبعد ذلك ستشاهدين أذنيها ، ثم ذنبها ، ولسوف يدهشك هذا . وستقولين لي : « آه يا الهي ! » وسأقول لك : « نعم يا سيدتي . إنها بنت صغيرة رُزقتها هكذا . » ان البنات الصغيرات هنّ هكذا الآن . . »

وأصغت آزيلما ، في اعجاب ، الى ايبونين .

وفي الوقت نفسه ، كان الشاربون يُغنون اغنية بذيئة ضحكوا لها على نحو كافٍ لأن يزلزل الغرفة . وشجعهم تيناردييه وصاحبهم .

وكما تصنع الطير عشاً من كل شيء ، كذلك يصنع الاطفال دمية من ايما شيء . ففيما كانت ايبونين وآزيلما تقمّطان الهرة ، كانت كوزيت ، بدورها ، قد قمّطت السيف . حتى اذا تمّ لها ذلك مددته على ذراعها ، واخذت تغني له في رقة لكي ينام .

ان الدمية احدى الضرورات القصوى ، وهي في الوقت نفسه احدى غرائز الطفولة الانثوية الأشد فتنة . ففي العناية بها ، وكسوتها ، وتزيينها ، وإلباسها ثيابها ، ونزع ثيابها ، واعادة الباسها من جديد ، وتعليمها ، وتوبيخها قليلاً ، وهدهدتها ، وتغنيجها ، وتنويمها ، والتوهم ان شيئاً ما هو شخص ما — في ذلك كله يكمن مستقبل المرأة كله . وفيما هي تحلم وتهذر ، وفيما هي تصنع وزماً صغيرة وأقمطة صغيرة ، وفيما هي تخيط فساتين صغيرة ، واجزاء عليا من الفساتين الصغيرة ، وصدرات ذوات اكمام ، تصبح الطفلة فتاة صغيرة ، وتصبح الفتاة الصغيرة فتاة كبيرة ، وتصبح الفتاة الكبيرة امرأة . وهكذا يحتل اول اطفال المرأة محل دميتها الاخيرة .

والفتاة الصغيرة من غير دمية تكاد ان لا تقلّ شقاء عن امرأة من غير اطفال ؛ وهي تعدِلُ هذه المرأة استحالةً تماماً .

واذن ، فان كوزيت كانت قد اتخذت من سيفها دمية .

واقتربت تيناردييه الزوجة من الرجل الاصفر . وقالت في ذات نفسها : « ان زوجي على صواب . لعله ان يكون مسيو لافيت . إن بعض الاغنياء مضحكون الى هذا الحد . »

وتقدمت ، وأراحت مرفقها على الطاولة التي كان جالساً اليها . وقالت :

— « مسيو ... »

ولم يكد الرجل يسمع كلمة مسيو هذه ، حتى التفت . ان السيدة تيناردييه لم تنادِهِ من قبل إلا بقولها ايها الرجل الطيب ، او ايها الرجل الساذج .

وتابعت كلامها ، خالعة على وجهها أعذب ملامحه ، التي كانت ادعى الى الازعاج من سيماها الضارية :

— « ترى ، يا سيدي ، اني راغبة في ان تلعب الطفلة . انا لا

اعارض في ذلك . ولكن هذا جيدٌ اذا تمّ مرة واحدة ، لانك رجلٌ كريم . غير أنها ، كما ترى ، بنت فقيرة . إن عليها ان تشتغل . »

فسألها الرجل :

– « واذن ، فالطفلة ليست بنتك ؟ »

– « أوه ، يا الهي ! لا ، لا ، يا سيدي ! إنها شحاذة صغيرة أنزلناها عندنا من باب الشفقة والاحسان . انها طفلة شبه معتوهة . ولا بدّ أن في دماغها ماءً . إن رأسها كبير ، كما ترى . ونحن نعنى بها جهد طاقتنا ، لاننا لسنا اغنياء . نحن نكتب الرسائل الى مسقط رأسها ، ولكننا لم نتلقّ جواباً منذ ستة أشهر . ولقد أصبحنا نعتقد ان أمها ماتت من غير شك . . »

فقال الرجل :

– « آه . »

واستغرق في تفكيره .

وأضافت تيناردييه الزوجة :

– « إن تلك الأم لم تكن شيئاً ذا شأن . لقد هجرت طفلتها . »

وطوال هذه الحادثة ، لم ترفع كوزيت عينيها عن السيدة تيناردييه ، فكأن غريزة من الغرائز أشعرتها بأنهما كانا يتحدثان عنها . وسمعت بضع كلمات ههنا وهناك .

وفي غضون ذلك كان الشاربون ، وكل منهم ثلاثة أرباع سكران ، يكرّرون لازمتهم القذرة في ابتهاج مضاعف . كانت كلاماً مرحاً سفيهاً كثير التوابل يتردّد فيه اسما « العذراء » و « يسوع » . وكانت السيدة تيناردييه قد مضت لتنهض بنصيبها من الطرب . أما كوزيت فكانت تنظر ، من تحت طاولتها ، الى نار الموقد التي كانت تنعكس من عينها المسددة . لقد راحت هي ايضاً تهدهد ذلك الضرب من الطفل الخرَقي الذي صنعته . وفيما هي تهدهده لينام كانت تغني له في صوت خفيض :

لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي ! لقد ماتت أمي !

وبعد إلحاح جديد متواصل من صاحبة الفندق رضي الرجل الاصفر ، « المليونير » ،ان يتعشى .

– « ما يحب سيدي ان يأكل ؟ »

فاجاب الرجل :

– « بعض الخبز والجبن . »

وفي ذات نفسها قالت السيدة تيناردييه : « انه شحاذ من غير ريب » .

وواصل الشاربون إنشاد اغنيتهم ، وكذلك واصلت الطفلة – من تحت الطاولة – انشاد أغنيتها .

وفجأة كفّت كوزيت عن الانشاد . كانت قد التفتت منذ لحظة فرأت دمية ابيونين وآزيلما ، وكانتا قد انصرفتا عنها الى الهرة وتركتاها على الارض ، على بضع خطوات من طاولة المطبخ .

ثم انها أزلّت السيف المقمّط الذي لم يكن ليرضيها غير نصف ارضاء ، وأجالت بصرها في ارجاء الغرفة بتؤدة . كانت السيدة تيناردييه تهمس في أذن زوجها وتعدّ بعض الدراهم ، وكانت إيبونين وآزيلما تلاعبان الهرة ، وكان النزلاء يأكلون او يشربون او يغنون . إن عيناً واحدة ما كانت تنظر اليها . ولم يكن عندها لحظة تضيعها . فزحفت من تحت الطاولة على يديها وركبتيها ، واستيقنت مرة اخرى من ان احداً ما كان يراقبها ، ثم انسلت في سرعة نحو الدمية واستولت عليها . وما هي الا لحظة حتى كانت في مكانها جالسة جامدة ، غير ملتفتة الا على نحو يمكنها من ابقاء الدمية التي كانت تحملها بين ذراعيها ، في الظلام . كانت سعادة اللعب بدمية نادرةً عندها الى حد خلع عليها عنف اللذة الحسية .

ان احداً لم يرها غير المسافر ، الذي كان يتناول عشاءه المزيل ، في بطء .

ودامت هذه البهجة نحواً من ربع ساعة .

ولكن ، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها كوزيت ، فانها لم تلاحظ أن احدى رجلي الدمية كانت قد نتأت ، وان نار الموقد كانت تضيئها على نحو قوي جداً . ولفتت هذه الرجل الساطعة ، المنبثقة من الظلام ، نظر آزيلما ، فجأة ، فقالت لأبيونين :

– « أوه ! يا اختي ! »

وكفت الفتاتان الصغيرتان عن اللعب ، وغلب عليهما الذهول . لقد جرؤت كوزيت على ان تأخذ الدمية !

ونهضت ابيونين . ومن غير ان تخلي سبيل المرة ، مضت الى أمها وبدأت تشدّها من تنورتها .

وقالت الأم :

– « اتركيني ! ماذا تريدين مني ؟ »

فقالت الطفلة :

– « أمي ! انظري هناك ! »

واشارت الى كوزيت .

واذ كانت كوزيت مستغرقة كل الاستغراق في نشوة التملك فأنها لم ترَ شيئاً ولم تسمع شيئاً .

ورانت على وجه تيناردييه الزوجة تلك الانطباعة الخاصة التي تتألف من الفظيع ممتزجاً بالمبتذل ، والتي خلعت على هذا الضرب من النساء اسم الالاهات الانتقام .

وهذه المرة ، زادت الكبرياء الجريح في غيظها ايضاً . لقد تخطت كوزيت جميع الحواجز . لقد وضعت كوزيت يدها على دمية « هاتين الآنستين » .

ولو ان قيصرة رأت الى فلاح رومي (موجيك) يجرّب الوشاح الازرق الكبير الخاص بابنها الامبراطوريّ اذن لما طفت على وجهها غير تلك الانطباعة نفسها .

وصاحت بصوت جعله السُخط أجش :

– « كوزيت ! »

وارتعدت كوزيت وكأن الارض قد زُلزلت من تحتها . وتلفتت حولها.

وكررت السيدة تيناردييه :

– « كوزيت ! »

واخذت كوزيت الدمية ، ووضعتها على الارض برفق ، وفي ضرب من التقديس يمازجه اليأس . ومن غير أن ترفع عينيها عن الدمية ، ضمّت احدى يديها الى الاخرى ، وأنشأت – وهذا شيء من المروّع ان يُروى عن طفلة في تلك السن – تفتلهما وتلويهما . ثم انها – وهو ما لم تستدرّه منها ايٌّ من انفعالات ذلك اليوم ، لا الركض في الغابة ، ولا ثقل دلو الماء ، ولا ضياع القطعة النقدية ، ولا مشهد السوط ، بل ولا الكلام الصارم الذي سمعته من السيدة تيناردييه – شرعت تسفح العبرات . لقد انخرطت في النحيب .

وفي الوقت نفسه نهض المسافر .

وقال لتيناردييه الزوجة :

– « ما المسألة ؟ »

فقالت مشيرة باصبعها الى « البرهان المثبت للجريمـــة » منطرحاً على قدمي كوزيت :

– « الا ترى ؟ »

وقال الرجل :

– « حسن ، وما ذاك ؟ »

فأجابت تيناردييه الزوجة :

– « لقد جرؤت تلك الشحاذة على ان تمسّ دمية الطفلتين ! »

فقال الرجل :

– « وهذه الضجة كلها من اجل ذلك ؟ وأيّ بأس في ان تلعب بتلك الدمية ؟ »

وتابعت تيناردييه الزوجة :

— « لقد لمستها بيديها القذرتين ! بيديها الفظيعتين ! »

وهنا ضاعفت كوزيت نحيبها .

فصاحت تيناردييه الزوجة :

— « إخرسي ! »

ومضى الرجل ، مباشرة الى الباب المؤدي الى الشارع ، ففتحه ، وخرج .

ولم يكد يذهب ، حتى افادت تيناردييه الزوجة من غيابه فرفست كوزيت ، القابعة تحت الطاولة ، رفسةً جعلت الطفلة تطلق صيحات عالية .

وفُتح الباب من جديد ، وبرز الرجل كرة اخرى ، حاملًا بيديه الاثنتين تلك الدمية الاسطورية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت موضع اعجاب جميع اطفال القرية منذ الصباح . واوقفها أمام كوزيت ، قائلًا :

— « خذي ، هذه لكِ ! »

واغلب الظن ان الرجل كان في خلال الوقت الذي قضاه هناك — وهو يزيد على ساعة — قد لمح على نحو غامض ، وهـــو في غمرة من التفكير ، دكانَ الدمى تلك ، المضاءة بالمصابيح وبالشموع على نحو ساطع الى درجة جعلت في ميسور المرء ان يلمحها من خلال زجاج الحانة ، وكأنها شعلة من النور .

ورفعت كوزيت عينيها . لقد رأت الى الرجل يُقبل نحوها حامـلًا تلك الدمية وكأنما كانت ترى الى الشمس تُقبل نحوها ، وسمعت هـذه الكلمات التي لم يُسمع بمثلها من قبل : « هذه لكِ ! » ونظرت اليه ، ونظرت الى الدمية ، ثم ارتدّت الى الوراء في تؤدة ، فاختبأت ، أبعد ما استطاعت الاختباء ، تحت الطاولة ، في زاوية الغرفة .

ولم تبكِ بعدُ ، ولم تصرخ بعدُ . لقد بدت وكأنها ما عادت تجرؤ على التنفّس .

وغدت تيناردييه الزوجة ، وايبونين ، وآزيلما ، أشبه بالتماثيـــل .

وكفّ الشاربون أنفسهم عن الشرب . لقد ران صمت مهيب على الحانة كلهـــا .

واستأنفت تيناردييه الزوجة – وقد تحجّرت واصابها البكم – تحدْسَها ورجها : « من ذلك العجوز ؟ أهو شحاذ ؟ اهو مليونير ؟ لعله الاثنان معاً ، يعني لعله لصّ . »

اما وجه تيناردييه الزوج فتكشّف عن ذلك التغضّن المعبّر الذي يطبع المحيا البشري كلما تجلت فيه الغريزة السائدة بكامل قوتها الوحشية . لقد نقل صاحب الفندق طرفه من الدمية الى المسافر ، ومن المسافر الى الدمية ؛ ولقد بدا وكأنه يستروح هذا الرجلَ كما يستروح كيس دراهم . ولم يدم ذلك غير لحظة . لقد تقدّم نحو زوجته وهمس في أذنها قائلا :

– « هذه الماكينة تساوي ثلاثين فرنكاً على الاقل . كفى بلاهةً . واركعي على ركبتيك أمام هذا الرجل ! »

إن اصحاب الطبائع الفظّة ليشاركون اصحاب الطبائع الساذجـــة في هذه الخصلة ، وهي انهم لا يعرفون الانتقال التدرّجي .

فقالت تيناردييه الزوجـــة ، في صوت ارادت ان يكون عذباً ، ولكنه كان مركّباً كلّه من ذلك العسل الحامض – عسل النســوة الشريرات :

– « وبعدُ ، يا كوزيت ، ألا تريدين ان تأخذي دميتك ؟ »

وغامرت كوزيت فخرجت من جحرها .

وقال تيناردييه في جَرْسٍ ملاطف :

– « يا صغيرتي كوزيت . إن السيد يقدم اليك دمية . خذيها . إنها لكِ . »

ونظرت كوزيت الى الدمية الرائعة في ضرب من الذعر . كان وجهها لا يزال غارقاً بالدمع ، ولكن عينيها شرعتا تتلألآن ، شأنَ السماء عند انبلاج الفجر ، بأشعاعات ابتهاج غريبة . لقد كان الشعور الذي خامرها

في تلك اللحظة يشبه بعض الشيء ذلك الشعور الجديد به ان يخامرها لو ان احداً قال لها فجأة : « ايتها الصغيرة ، انت ملكة فرنسة ! »

وبدا لها أنها اذا ما لمست تلك الدمية انبثق الرعد منها .

وهو ما كان صحيحاً الى حد بعينه ، إذ قالت في ما بينها وبين نفسها إن تيناردييه الزوجة سوف توبخها وتضربها .

ومع ذلك ، فقد كان الاغراء اقوى منها . وهكذا تقدمت ، آخر الأمر ، وغمغمت في حياء وهي تلتفت نحو تيناردييه الزوجة :

– « أأستطيع ، يا سيدتي ؟ »

إن ايما تعبير لا يقدر على ان يصف ملامح وجهها التي كانت حافلة باليأس ، والذعر ، والحبور ، في آنٍ معاً .

وقالت تيناردييه الزوجة :

– « يا الهي ! إنها لكِ ، ما دام السيد قد اعطاك اياها . »

فقالت كوزيت :

– « هل هذا صحيح ؟ هل هذا صحيح ، يا سيدي ؟ هل السيدة لي ؟ »

وتراءى الغريب وقد فاضت عيناه بالدمع . لقد بدا وكأنه بلغ مرحلة الانفعال تلك حيث لا يتكلم المرء مخافةَ ان يبكي . وحنى رأسه لكوزيت انحناءة تؤذن بالموافقة ، ووضع يد « السيدة » في يدها الصغيرة .

وسارعت كوزيت الى سحب يدها ، وكأن يد « السيدة » قد أحرقتها ، وأنشات تنظر الى الارض . وهنا نضطر الى ان نضيف انها اخرجت لسانها ، في تلك اللحظة ، على نحو مفرط . وفجأة ، استدارت وأمسكت بالدمية في لهفة .

وقالت :

– « سوف ادعوها كاترين . »

وكانت لحظة غريبة تلك التي التقت فيها اسمال كوزيت البالية بعصائب الدمية وشاشها الموصلي الأزهر الرقيق ، وضغطت عليها .

وقالت :

— « سيدتي ، هل استطيع ان أضعها على كرسي ؟ »

فاجابتها تيناردييه الزوجة :

— « نعم ، يا بنيّتي . »

كانت ايبونين وآزيلما هما اللتين نظرتا الى كوزيت في حسد .

ووضعت كوزيت كاترين على كرسيّ ، ثم قعدت على الارض أمامها ، وظلّت جامدة ، لا تنطق بكلمة ، متخذةً وضع المستغرق في التأمل .

وقال الغريب :

— « لماذا لا تلعبين ، يا كوزيت ؟ »

فأجابت الطفلة :

— « اوه ، اني ألعب . »

وفي تلك اللحظة ، كان هذا الغريب ، هـذا الرجل المجهول الذي بدا وكأنه مرسل من لدن العناية الالهية الى كوزيت ، هو الكائن الذي لا تكره تيناردييه الزوجة أحداً في العالم اكثر مما تكرهه . بيد انها كانت مضطرة الى ان تكبح جماح نفسها . كانت انفعالاتها أعنف مما تستطيع ان تحتمل ، وهي التي تعودت المداراة بمحاولتها تقليد زوجها في جميع اعمالها . وفي الحـــال أمرت ابنتيها بالايواء الى الفراش ، ثم التمستْ من الرجل الاصفر الاذن في أن تدعو كوزيت الى النوم ايضاً ، مضيفة في تَجرّس أموميّ ان الفتاة الصغيرة متعبة اليوم جداً . ومضت كوزيت الى النوم ، حاملة كاترين بين ذراعيها .

ومضت تيناردييه الزوجة ، بين الفينة والفينة ، الى الطرف الآخر من الغرفة حيث كان زوجها لكي تسرّي عن نفسها ، كما قالت . وتبادلت وإياه بضع كلمات كانت من الضراوة بحيث لم تجرؤ على ان

تنطق بها جهاراً :

— « يا له من معتوه عجوز ! ما هذا الذي يدور في خـــاطره ؟ يأتي الى هنا ويزعجنا ! يريد من هذه المسخ الصغيرة ان تلعب ! ويقدّم اليها دمىً ! يقدم دميً مـــن صنف الاربعين فرنكاً الى كابة ابيعها انا باربعين سو ! وبعد قليل ، سوف يقول لها يا صاحبـــة الجلالة كما يقولون لدوقة بري !* أهو مالك قواه العقلية ؟ لا بد أنه مجنون ، هذا الرجل العجوز العجيب ! »

فأجابها تيناردييه :

— « لماذا ؟ المسألة بسيطة جداً . اذا كان يروق له ! أنت انمـــا يروق لك ان تعمل الفتاة ؛ أما هو فيروق له ان تلعب ! إن له الحق في ذلك . في استطاعة نزيل الفندق ان يفعل ما يشاء اذا دفع الثمن . واذا كان هذا العجوز محسناً محباً للبشر فما يضيرك ذاك ؟ واذا كان معتوهاً فليس هذا من شأنك . لماذا تدخلين في هذه الامور ، ما دام علك مالاً ؟ »

لغةُ سيّد ومنطقُ فندقيٍّ لا يدع ايّ منهما مجالاً لجواب .

كان الرجل قد أسند مرفقيه الى الطاولة ، واستأنف وضعه التأملي الحالم . وكان جميع النزلاء الآخرين ، من باعـة وسائقي عربات ، قـد نأوا بعض الشيء وكفوا عن الغناء . لقد نظروا اليه من بعيد في ضربٍ من الخوف الموقّر . فقد كان هذا الرجل المرتدي مثل هـذه الاسمال البالية ، الذي يخرج من جيبه القطع النقدية ذوات الخمسة الفرنكات في كثير من اللامبالاة ، والذي يغدق الدمى الضخمة عـلى فتيات قذرات ينتعلن احذية خشبية — كان هذا الرجل من غير شك إنساناً سليم الطوية ، إنساناً رائعاً ومخيفاً .

* Duchesse de Berry (١٧٩٨ — ١٨٧٠) زوجة شارل فرديناند الابن الثاني للملك شارل العاشر ، وكانت ابنة فرنسوا الاول ملك نابولي .

وانقضت عدة ساعات . وتُلي قداس منتصف الليل ، وانتهت وجبة ما بعد عيد الميلاد ، وانصرف الشاربون ، وأُغلقت الحانة ، وهُجرت القاعة السفلى ، وخمدت النار ، ومع ذلك فقد ظل الغريب في المكان نفسه، والوضع نفسه . لقد غيّر ، بين الفينة والفينة ، المرفق الذي كان يستند اليه، وكان ذلك كل شيء . ولكنه لم ينبس بكلمة منذ ان مضت كوزيت .

واقامت تيناردييه الزوجة وحدها ، وبسبب من اللياقة والفضول، في القاعة. وغمغمت : « أيعتزم ان يمضي الليل هكذا ؟ »

وحين اعلنت الساعة الثانية صباحاً ، اعترفت بانها هزمت وقالت لزوجها:

-« أنا ذاهبة الى الفراش . في استطاعتك ان تفعل ما يحلو لك » .

وجلس الزوج الى طاولة ما ، في احدى الزوايا ، واضاء شمعة ، وراح يقرأ صحيفة « البريد الفرنسي » .

وانقضت على هذا النحو ساعة او يزيد ، قرأ الفندقيّ الفاضل في اثنائها صحيفة « البريد الفرنسي » ثلاث مرات على الاقل ، من تاريخ العدد الى اسم الطابع . ولكن الرجل الغريب لم يتحرك .

وتحرك تيناردييه ، وسعل ، وبصق ، وتمخط ، وراح يحدث بكرسيه صريراً . ولم يتحرك الرجل . وقال تيناردييه بينه وبين نفسه : « أهو نائم ؟ » ان الرجل لم يكن نائماً ، ولكن أيما شيء لم يكن قادراً على إيقاظه .

واخيراً نزع تيناردييه قلنسوته وتقدم في رفق وغامر بالقول :

« الا يعتزم سيدي ان يهجع ؟ »

لقد بدا له انه لو قال « ألا يعتزم سيدي أن ينام » اذن لكان ذلك ثقيل الوطأة اكثر مما ينبغي ، بالغ الابتذال . اما قوله « ان يهجع » فكان ينطوي على ترف وكان ينمّ عن احترام . ومثل هذه الكلمات لها تلك الخاصة الخفية الرائعة التي تمكنها من تضخيم الفاتورة في صباح اليوم التالي . فالغرفة التي تنام فيها تكلف عشرين سو ؛ على حين ان الغرفة التي تهجع فيها تكلف عشرين فرنكاً .

وقال الغريب :

– « نعم . انت على صواب . اين الاسطبل ؟ »

فاجابه تيناردييه في ابتسامة :

– « سيدي ، انا سوف ادلّ سيدي على الطريق . »

واخذ الشمعة ، واخذ الرجل صرّته وعصاه ، وقاده تيناردييه الى غرفة في الدور الاول . كانت ذات بهاء نادر ، واثاث من خشب الماهوغاني ، وسرير رفيع العماد ، وسجف من نسيج قطني أحمر .

وقال المسافر :

– « ما هذه ؟ »

فأجاب صاحب الفندق :

– « إنها غرفة عرسنا الخاصة . نحن نحتل غرفة مماثلة لهذه ، انا وزوجتي . ان هذه الغرفة لا تفتح غير ثلاث مرات او اربع مرات في العام . »

فقال الرجل في خشونة :

– « انا افضل الاسطبل عليها . »

وبدا تيناردييه وكأنه لم يسمع هذا الجواب الذي تعوزه اللياقة .

واضاء شمعتين لم تمسا من قبل ، كانتا قائمتين فوق الموقد . وكانت نار حسنة التأجج تضطرم في الموقد . وعلى غطائه ، تحت صندوق زجاجي ، كانت قبعة نسوية مصنوعة من خيوط فضية ومزدانة برسوم زهر البرتقال .

وقال الغريب :

– « ما هذا ؟ »

فأجاب تيناردييه :

– « سيدي ، إنها قبعة زفاف زوجتي . »

ونظر الغريب الى ذلك الشيء نظرةً بدت وكأنها تقول : « لقد انقضت إذن لحظةٌ كانت فيها هذه الغولة عذراء . »

ولكن تيناردييه كان يكذب . فحين استأجر هذا البيت الحقير ليحوّله

الى مطعم ، وجـــد الغرفة مؤثثة عـــلى ذلك النحو ، واشترى هذا الاثاث ، ورسوم زهر البرتقال لاعتقاده بأن ذلك يلقي ظلّاً انيقاً على « قرينته » ، ويخلع عـــلى مؤسسته ما يدعوه الانـكليز الجلال .

حتى اذا التفت المسافر كرة اخرى لم يجد صاحب الفندق . كان تينارديه قد انسلّ في لباقة من غير ان يجرؤ على ان يتمنى الغريب ليلة سعيدة ، لعدم رغبته في ان يعامل برودة غير محتشمة رجلاً كان يعتزم ان يسلخ جـلده ، في كثير من الابهة ، صباح اليوم التالي .

لقد انقلب صاحب الفندق الى غرفته . وكانت زوجته في سريرها ، ولكنها لم تكن نائمة . فما إن سمعت وقع قدمي زوجها ، حتى التفتت اليه وقالت :

— « هل تعلم اني سوف اطرد كوزيت ، غداً ، من البيت ؟ »

فأجابها تيناردييه في برود :

— « اجل أعلم ذلك حقاً . »

ولم يتبادلا كلاماً آخر ، وما هي الا لحظات حتى كانت شمعتهما قد أطفئت .

أما المسافر فكان قد وضع عصاه وصرته في زاوية . حتى اذا ولى صاحب الفندق ، جلس في كرسي ذي ذراعين ، وظل فترة من الوقت يفكر ، ثم خلع نعليه ، وحمل احدى الشمعتين ، وأطفـــأ الاخرى ، ودفع الباب ، وغادر الغرفة ، مجيلاً الطرف في ما حوله وكأنما كان يبحث عن شيء . واجتاز برواق ، وتقدّم نحو السلم . ثم إنه سمـــع صوتاً بالغ العذوبة كان اشبه شيء بتنفس طفل . وعـلى هَدْيِ من ذلك الصوت انتهى الى تجويف مستطيل مبني تحت السلّم ، أو مُشكّل على الاصح بالسلّم نفسها . ولم يكن ذلك التجويف ، غير الفسحة التي تحت السلم . وهناك بين مختلف ضروب السلال العتيقة وأصناف الحطام القديم ، وسط الغبار وخيوط العنكبوت كان فراش ، اذا جاز ان تُدعى فراشاً

تلك الحشيةُ الملأى بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشّفت عن التبن، وذلك الغطاء المليء بهذا القدر من الثقوب حتى لقد تكشّف عن الحشيّة. ولم يكن ثمة شراشف. كانت الحشية موضوعة على البلاط مباشرةً. وهناك، في هذا السرير، كانت كوزيت نائمة.

واقترب الرجل منها، ونظر اليها.

كانت كوزيت مستغرقة في نوم عميق. وكانت مرتديةً ثيابها كلها. ففي الشتاء كان من دأبها ان لا تنزع ثيابها تخفيفاً لوطأة البرد.

كانت تَضمّ اليها الدمية التي التمعت عيناها، الواسعتان المفتوحتان، في الظلام. وبين الفينة والفينة كانت تصعّد زفرة عميقة، وكأنها على وشك ان تستيقظ، وتهصر الدمية هصراً يكاد يكون تشنجياً. وكانت فردةٌ واحدة من حذائها الخشبي الى جانب فراشها، ليس غير.

وكان باب مفتوح على مقربة من مأوى كوزيت الحقير يكشف عن غرفة كبيرة قاتمة. ودخل الغريب تلك الغرفة. حتى اذا بلغ اقصاها لمح، من خلال نافذة زجاجية، سريرين صغيرين توأمين شديدي البياض. كانا سريري آزيلما وايبونين. وخلف هذين السريرين كان يحتجب، نصفَ احتجاب، سرير خيزراني لا ستائر له. وفي ذلك السرير كان ينام الطفل الصغير الذي لم يكفّ عن الصراخ طوال المساء.

وقدّر للرجل الغريب ان تكون هذه الغرفة متصلة بغرفة تيناردييه الزوجة. وكان على وشك ان ينسحب عندما وقعت عيناه على الموقد، وكان من تلك الموائد الضخمة التي في الفنادق – حيث النار هزيلة ابداً، حين يكون ثمة نار – والتي يوقع النظرُ اليها البرد في الاوصال. وفي ذلك الموقد، لم تكن نار، بل لم يكن رماد. ومع ذلك فان ما كان هناك لفت انتباه المسافر. ولم يكن ما لفت انتباهه غير فردتي حذاء صغير من احذية الاطفال، فردتين أنيقتي الشكل، مختلفتي الحجم. وتذكّر المسافر تلك العادة الظريفة الخالدة التي تقضي ان

يضع الاطفال أحذيتهم في الموقد ليلة عيد الميلاد ، وان ينتظروا هناك في الظلام طمعاً في الحصول على هدية مشرقة من جنيّتهم الطيبة . وبذلت ايبونين وآزيلما جهداً حسناً لكي لا تنسيا ذلك ، فوضعت كل منهما فردة من حذائها في الموقد .

وانحنى نزيل الفندق فوقها .

كانت الجنية - يعني الأم - قد قامت بزيارتها ، وكانت تلتمع في كل من فردتي الحذاء قطعة نقدية جميلة ، باللغة الجـــدة ، من فئة العشرة سو .

ونهض الرجل ، وكان على وشك الذهاب ، عندما لمح في المدى البعيد ، وعلى حدة ، عند زاوية الموقد الاشدّ حلكة ، شيئاً آخر . ونظر ، فرأى حذاء خشبياً ، حذاء مروّعاً من اغلظ الخشب ، نصفَ منكسر، ومغطّىً كلُّه بالرماد والوحل اليابس . كان ذلك حذاء كوزيت . ذلك ان كوزيت كانت قد وضعت هي الاخرى حذاءها في الموقد ، يحدوها ثقة الطفولة المؤثرة التي يمكن ان تُخدع دائماً من غير ان تثبط عزيمتها البتة .

ما أسمى الأمل وما أعذبه في طفلة لم تعرف قط غير اليأس !

ولم يكن في ذلك الحذاء شيء .

وبحث الغريب في جيوب صدرته ، وانحنى ، ووضع في حـــذاء كوزيت الخشبي ليرة ذهبية لويسية .

ثم انقلب الى غرفته من غير ان يحدث صوتاً ما .

٩

تيناردييه يناور

وفي صباح اليوم التالي ، قبل ساعتين من طلوع الشمس ، على الاقل ،

جلس تيناردييه الى طاولة في قاعة الحانة السفلى ، والى جانبه شمعة وفي يده قلم ، وانشأ يُعدّ فاتورة المسافر ذي السترة الطويلة الصفراء .

كانت زوجته واقفة ، نصف منحنية فوقه ، تتبعه بعينيها . ولم يتبادلا كلمة ما . فمن ناحية ، كان التأمل العميق ، ومن الناحية الاخرى كان ذلك الاعجاب الخاشع الذي يستولي علينا حين نرى الى معجزة من معجزات العقل البشري تنبثق وتتفتح . وسمعت في الفندق ضجة . كانت القبّرة تكنس السلم .

وبعد ربع ساعة او يزيد ، وبعد شيء من الشطب ، أخرج تيناردييه هذه الرائعة :

فاتورة السيد النازل في الغرفة رقم ١

عشاء	. . . .	٣ فرنكات .
غرفة	. . . .	١٠ «
شمع	. . . .	٥ «
نار	. . . .	٤ «
خدمة	. . . .	١ «
	المجموع	٢٣ فرنكاً

وكانت كلمة خدمة مكتوبة هكذا : خدمت * .

وصاحت المرأة في حماسة ممتزجة بشيء من التردد :

— « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ومثل جميع الفنانين الكبار ، لم يكن تيناردييه راضياً . وقال :

* في الأصل أن كلمة Service كانت مكتوبة هكذا Servisse وقد رأينا ان نؤدي المعنى الذي رمى اليه المؤلف ، وهو جهل تيناردييه لقواعد الرسم او الاملاء ، من طريق كتابة التاء المربوطة تاء مبسوطة .

– « تباً له ! »
كانت تلك نبرة كاسلري * وهو يُعدّ لمؤتمر فيينا الفاتورة التي كان على فرنسة ان تدفعها .
وغمغمت المرأة ، وقد فكرت في الدمية التي ُقدّمت الى كوزيت في حضرة بنتيها :
– « مسيو تيناردييه ، انت على صواب . إنه يستحق ذلك جيداً . هذا منصف ، ولكنه اكثر مما ينبغي . إنه لن يدفع المبلغ . »
فابتسم تيناردييه ابتسامته الباردة ، وقال :
– « سوف يدفعه . »
كانت تلك الضحكة اسمى أمارات الثقة والسلطان . وما قيل على هذه الشاكلة ، يجب ان يكون . ولم تصرّ المرأة قطّ . لقد اخذت ترتب الطاولات ، بينا راح زوجها يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وبعد لحظة أضاف :
– « أنا مدين بالف وخمسمئة فرنك ، على الاقل . »
وجلس في زاوية الموقد ، وانشأ يفكر واضعاً قدميه على الرماد الحار .
وقالت المرأة :
– « آ ، ها ! انت لم تنسَ اني سوف أطرد كوزيت ، اليوم ، الى الشارع ؟ يا لها من مسخة ! إنها تسحق فؤادي بدميتها ! إني افضل ان اتزوّج لويس الثامن عشر على ان أُبقيها يوماً إضافياً في البيت ! »
وأشعَل تيناردييه غليونه ، وأجاب بين المجّتين :
– « وأنتِ ستقدّمين الفاتورة الى الرجل . »
ثم خرج .
ولم يكد يغادر الغرفة حتى دخلها المسافر .

* Castlereagh سياسي انكليزي (١٧٦٩ – ١٨٢٢) كان روح التحالفات الأوروبية التي تمّت ضد نابوليون .

وفي الحال برز تيناردييه ، كرة اخرى ، من ورائه ، وظلّ جامداً لدى الباب نصف المفتوح ، فليس يراه احد غير زوجته .

وحمل الرجل الاصفر عصاه وصرّته بيده .

وقالت تيناردييه الزوجة :

– « لقد استيقظت باكراً جداً ! ايعتزم سيـــدي ان يفارقنا اللحظة ؟ »

وفيما هي تتكلم ، أدارت الفاتورة بين يديها في سيماء مرتبكـــة ، وراحت تغضّنها بأظافرها . ونمّ محيّاها القاسي عن ظلّ من الجبن والشك لم يكن مألوفاً .

لقد بدا لها أن في تقديم مثل هذه الفاتورة الى رجل تبدو عليـــه مظاهر « الشحّاذ » كاملةً إحراجاً كثيراً .

وبدا المسافر مشغول البال ، ذاهلاً .

وأجابها :

– « نعم ، يا سيدتي . أنا راحل . »

فأضافت :

– « واذن فليس عند سيدي أعمال في مونفيرماي ؟ »

فأردف :

– « لا . أنا عابر سبيل . هذا كل ما هنالك . كم يتعيّن عليّ ان أدفع ، يا سيدتي ؟ »

وناولته السيدة تيناردييه الفاتورة المطوية ، ولم تجب بشيء .

ونشر الرجل الورقة ، ونظر اليها . ولكنّ أفكاره كانت ، على نحو واضح ، في مكان آخر .

وسألها :

– « هل تسير الاعمال على ما يرام في مونفيرماي ؟ »

فاجابت السيدة تيناردييه وقد انشدهت إذ لم تشهد انفجاراً آخر :

– « بين بين ، يا سيدي . »
ثم تابعت في جرسٍ فاجع يدعو الى الرثاء :
– « اوه يا سيدي . الازمة شديدة ، وليس في ديارنا هذه غير نفر قليل من الاغنياء ! انها قرية صغيرة ، كما ترى . ليتنا ننعم بين الفينة والفينة بنزلاء اغنياء ، مثلك يا سيدي ! ان لدينا نفقات كثيرة . ان تلك الفتاة الصغيرة تكلفنا عيوننا نفسها . »
– « أية فتاة صغيرة ؟ »
– « تلك الصغيرة التي تعرفها ! كوزيت ! القبّرة ، كما يدعونها في المنطقة ! »
فقال الرجل :
– « آه ! »
وتابعت :
– « ما أشد بلاهة هؤلاء الفلاحين والالقاب التي يخلعونها على الناس ! انها تشبه الخفّاش اكثر مما تشبه القبّرة . وكما ترى ، يا سيدي ، فنحن لا نلتمس الصدقة ، ولكننا عاجزون عن تقديمها . نحن لا نربح شيئاً ، وإن علينا اشياء كثيرة يجب ان تُدفع . فهناك الاجازة ، والضرائب ، والابواب والنوافذ ، ومختلف الرسوم المفروضة على كل شيء ! وسيدي يعلم ان الحكومة تطالب بمقدار هائل من المال . والى هذا ، فأن عندي بنتيّ . ولست في حاجة الى ان أعيل اطفال الناس . »
واجابها الرجل في صوت رغب في ان يجعله لا مبالياً ولكنه كان ينطوي على ارتجافة :
– « إفرضي ان امرءاً خلّصك منها ؟ »
– « ممن ؟ كوزيت ؟ »
– « نعم . »

وغدا وجه الفندقية الاحمر العنيف متهللاً بانطباعة مخيفة :

— « آه ، يا سيدي الطيب ! خذها ! احتفظ بها ، اذهب بها ، اصطحبها ، حلّها بالسكّر ، اطبخها بالكمأه ، اشربها ، كُلْها ، ولتباركك مريم العذراء وجميع قديسي السماء ! »

— « اتفقنا ! »

— « صحيح ؟ سوف تذهب بها ؟ »

— « سوف اذهب بها . »

— « في الحال ؟ »

— « في الحال . نادي الطفلة ! »

فصاحت تيناردييه الزوجة :

— « كوزيت ! »

وتابع الرجل :

— « وفي انتظار ذلك ، سوف أدفع اليك فاتورتي ، ما مبلغها؟ »

والقى نظرة على الفاتورة ، ولم يتمكن من ان يكبح حركة من حركات الدهش :

— « ثلاثة وعشرون فرنكاً ! »

ونظر الى صاحبة الفندق وكرّر :

— « ثلاثة وعشرون فرنكاً ؟ »

وكان في النطق بهاتين العبارتين ، المكررتين على هذا النحو ، تلك النبرة التي تفصل ما بين علامة التعجب وعلامة الاستفهام .

وكانت تيناردييه الزوجة قد وجدت متسعاً من الوقت لأعداد نفسها للصدمة . فأجابت في توكيد :

— « نعم ، طبعاً ، يا سيدي ! انها ثلاثة وعشرون فرنكاً . »

ووضع الغريب خمس قطع نقدية من فئة الخمسة الفرنكات على الطاولة وقال :

— « اذهبي وائتيني بالفتاة الصغيرة . »

وفي تلك اللحظة تقدم تيناردييه الى منتصف الغرفة وقال :
– « السيد مدين بستة وعشرين سو . »
فصاحت المرأة :
– « ستة وعشرون سو ! »
وتابع تيناردييه في برود :
– «عشرون سو مقابل الغرفة ، وستة سو مقابل العشاء . أما الفتاة الصغيرة فيتعين عليّ ان اتحدث مع السيد في شأنها . اتركينا وحدنا ايتها الزوجة.»
واصيبت تيناردييه الزوجة بضرب من ذلك الانشداه الذي توقعه في نفس المرء بوارق العبقرية المفاجئة . لقد استشعرت ان الممثل العظيم قد دخل الى المسرح ، فلم تجب بكلمة ، ومضت لسبيلها .
وما إن خلا تيناردييه بالمسافر حتى قدم اليه كرسياً . وقعد المسافر ، ولكن تيناردييه ظل واقفاً ، وقد اتخذ وجهه انطباعة فريدة من الطيبة والبساطة . وقال :
– « اسمع ، ياسيدي ، ينبغي ان اقول اني اعبد هذه الطفلة . »
فنظر اليه الغريب نظراً موصولاً .
– « اية طفلة ؟ »
وتابع تيناردييه :
– « ما أعجب ذلك ! لقد جمعت المحبة ما بيني وبينها ! ما هذه القطع الفضية كلها ؟ أعد قطع العشرة سو الى جيبك . هذه الطفلة أنا اعبدها . »
وسأله الغريب :
– « من هذه ؟ »
– «اوه ، كوزيتنا الصغيرة ! ألا تريد ان تأخذها منا ؟ انا اتكلم في صراحة حقاً ؛ فمما لا ريب فيه – كما انه لا ريب في انك رجل فاضل – اني لن اوافق على ذلك . فانا سوف أفتقد هذه الطفلة ، من غير شك . لقد عرفتها منذ ان كانت صغيرة جداً . صحيح انها تكلفنا مالاً ؛ صحيح

ان لها اخطاءها ؛ صحيح اننا لسنا اغنياء ؛ صحيح اني دفعت اكثر من اربعمئة فرنك ثمن ادوية لمرض واحد من امراضها ليس غـير ! ولكننا يجب ان نعمل شيئاً في سبيل الله ! هذه الطفلة لا أم لها ولا اب . لقد نشأتها انا . إن عندي من الخبز ما يكفيها وما يكفيني . الحق اني يجب ان أحتفظ بهذه الطفلة . ولا ريب في انك قد فهمت ، فنحن قوم أصحاب عاطفة . انا ، شخصياً ، بهيمة كبيرة . انا لا احكّم العقل . اني أحب هذه الفتاة الصغيرة . إن زوجتي نزقة ، ولكنها تحبها ايضاً . وكما ترى ، إنها مثل ولد من اولادنا . أنا احس بالحاجة الى هذرها وثرثرتها في البيت . »

كان الغريب يحدق اليه طوال الوقت . وتابع حديثه :

— « عفواً يا سيدي ، ومعذرة ، ولكن المرء لا يقدّم طفله على هذه الشاكلة الى عابر سبيل . اليس صحيحاً اني على صواب ؟ وبعد هـذا فلست اقول — فأنت رجل غني ، وتبدو عليك سيما الرجل الطيب — ان هذا لن يكون لمصلحتها . ولكني يجب ان أعرف ، أتفهمني ؟ لنفرض اني تركتها تذهب واني ضحيت بعواطفي فأني احب ان اعرف الى اين سوف تذهب . انا لا اريد ان أفقد متعة النظر اليها ؛ انا اريد ان اعلم في بيت من هي ، لكي اذهب وأراها بين الفينة والفينة ، ولكي تعرف ان الرجل الطيب الذي رباها ، والذى هو في مقام أبيها ، لا يزال يرعاها . واخيراً فثمة اشياء غير ممكنة . انا لا اعرف حتى اسمك ، فاذا ما ذهبت بها فلسوف اقول : واأسفا على القبرة الصغيرة ! الى اين ذهبت ؟ يجب على الاقل ان ارى قصاصة ورق بالية ، قطعة من جواز سفر ، او شيئاً ما . »

ومن غير ان يكفّ المسافر عن النظر اليه تلك النظرة التي نفذت ، اذا جاز التعبير ، الى اعماق الضمير ، اجابه في جرْسٍ وقور ثبْت :

— « مسيو تيناردييه ، إن الناس لا يأخذون جواز سفر لكي يأتوا الى مكان يبعد خمسة فراسخ عن باريس . اذا اخذتُ كوزيت اخذتُها . هذا كل ما هناك . انك لن تعرف اسمي . انك لن تعرف مقري . انك

لن تعرف الى أين سامضي بها . وفي نيتي ان اجعلها لا تراك في حياتها بعد اليوم ابداً . سوف اكسر السلك الذي يطوق قدميها ، ولسوف تمضي. هل يوافقك ذلك ؟ نعم أم لا ؟ »

وكما تحس الشياطين والجنّ ، من بعض الأمارات ، أنها في حضرة ربٍّ أسمى ، كذلك ادرك تيناردييه انه أمام رجل قوي جداً . كان ذلك أشبه بالحدس ؛ لقد فهمه ببصيرته الصافية الثاقبة . ففيما كان يحتسي الخمر ، الليلة البارحة ، مع سائقي العربات ، وفيما هو يدخن ، وفيما هو يغني الاغاني البذيئة ، جعل من همه أن يراقب الغريب طوال الوقت ، وان يترصده مثل هرة ، ويدرسه مثل عالم رياضيّ . لقد تربص به لحسابه الخاص ، للمتعة وبدافع من الغريزة ، وأحصى عليه الانفاس ، في وقتٍ معاً ، وكأن أحداً قد دفع اليه أجراً على ذلك . إن إيماءة واحدة او حركة واحدة من إيماءات الرجل ذي السترة الصفراء أو حركاته لم تفتْهُ . وحتى قبل أن يفصح الغريب عن اهتمامه بكوزيت ، كان تيناردييه قد تنبأ بذلك . لقد باغت نظرات هذا العجوز المتطلعة ، الملتفتة ابداً نحو الطفلة . علامَ هذا الاهتمام ؟ ومن هذا الرجل ؟ ولماذا يرتدي مثل هذه الملابس البائسة ما دام كيس دراهمه حافلاً بذلك المال كله ؟ تلك كانت اسئلة وجّهها الى نفسه من غير أن يجد لها جواباً ، فهي تقلقه وتثيره لقد سلخ الليل كله وهو يفكر بها . إن هذا الرجل لا يمكن ان يكون أبا كوزيت . أهو جدها ؟ واذن ، فلماذا لم يُعلن عن نفسه منذ اللحظة الاولى ؟ فحين يكون للمرء حق في شيء ، يعمد الى إظهاره . وواضح ان هذا الرجل لا حقّ له في كوزيت . وإذن فمن هو ؟ وتاهَ تيناردييه في ضروب من الافتراضات . لقد لمح كل شيء ، ولكنه لم يرَ شيئاً . وأياً ما كان ، فحين بدأ محادثة هذا الرجل - واثقاً من ان ثمة سراً في ذلك كله ، موقناً من أن الرجل شديد الرغبة في ان يظل مجهول الهوية - استشعر أنه قويّ . حتى اذا جاءه

جواب الغريب الواضحُ الصارمُ وادرك أن هذه الشخصية الغامضة كانت غامضة لا أكثر ولا أقل ، استشعر أنه ضعيف . إنه ما كان يتوقع شيئاً من مثل ذلك . لقد هُزمت ظنونه وأحداسه . واستجمع فكراته. ووازَنَ ذلك كله في ثانية . فقد كان تيناردييه واحداً من اولئك الرجال الذين يفهمون وضعاً ما ، من اللمحة الاولى . وقدّر ان هذه هي اللحظة التي يتعين عليه فيها ان يمضي قدُماً وعلى نحوٍ سريع . لقد فعل ما يفعله القادة العظام في تلك اللحظة الحاسمة التي يعرفون هم وحدهم أن يدركوها . لقد كشف القناع ، فجأة ، عن مدفعيته .

وقال :

« يجب ان أحصل على الف وخمسمئة فرنك ، يا سيدي . »

وأخرج الغريب من جيب الجانبي محفظة دراهم عتيقة مصنوعة من جلد أسود ، وفتحها وسحب منها ثلاث اوراق نقدية ووضعها على الطاولة . ثم إنه أراح إبهامه الضخم فوق هذه الاوراق ، وقال للفندقيّ :

« أدعُ كوزيت . »

وفيما كان ذلك كله يجري ، ماذا كانت كوزيت تعمل ؟

لم تكد كوزيت تنهض من فراشها حتى سارعت الى حذائها الخشبي ، فوجدت فيه القطعة الذهبية . إنها لم تكن ليرة نابوليونية ، ولكن احدى تلك القطع الجديدة ، ذوات العشرين فرنكاً ، التي سُكّت في عهد عودة آل بوربون الى العرش والتي حلّ ساقُ الزهر البرومي الصغير ، على وجهها ، محل تاج الغار . وشُدهت كوزيت . لقد بدأ قَدَرُها يُسكرها . إنها لم تدرِ أنها قطعة ذهبية ، فهي لم ترَ من قبل ليرة من ذهب ، فسارعت الى إخفائها في جيبها وكأنها قد سرقتها . ومع ذلك ، فقد استبشرت بها خيراً . وحزرت من أين جاءت تلك الهدية ، ولكن ضرباً من البهجة المليئة بالذعر سرى في أوصالها . كانت منشرحة الصدر ، وكانت فوق كل شيء ذاهلة مشدوهة . ان هذه الاشياء الرائعة الى هذا

الحد ، الجميلة الى هذا الحد ، بدت وهمية في عينيها . فالدمية قد أخافتها ، والليرة الذهبية قد اخافتها . لقد ارتجفت في دهش أمام هذا البهاء كله . أما الغريب فكان هو وحده الذي لم يوقع الرعب في فؤادها . على العكس ، لقد هدّأ من روعها . فمنذ الليلة البارحة – من خلال دهشها كله ، وفي أثناء رقادها – وهي تفكر بعقلها الطفليّ الصغير في هذا الرجل الذي كان يبدو عجوزاً ، فقيراً ، وكئيباً الى هذا الحد ، والذي كان على مثل هذا الغنى ، وتلك الطيبة . ومنذ ان التقت هذا الرجلَ الطيب في الغابة ، بدا لها وكأن جميع الاشياء قد تغيرت من حولها . فكوزيت ، وكانت اقل سعادة من اضأل سنونو في السماء ، لم تعرف قط معنى الاحتماء تحت جناح الأم . وطوال خمس سنوات ، اي منذ اقدم الايام التي كان في ميسور ذاكرتها ان ترقى اليها ، ارتجفت الطفلة المسكينة وارتعدت . كانت عارية أبداً تحت ريح الشقاء الشرسة ، وها هي ذي الآن يتراءى لها أن جسمها قد أمسى مكسواً . كانت روحها تستشعر لذع البرد ، من قبل ؛ أما الآن فهي دافئة . إن كوزيت لم تعد خائفة من تيناردييه الزوجة ؛ إنها لم تعد وحدها . إن ثمة شخصاً يرعاها ويُعنى بها .

وسارعت الى القيام بعملها الصباحي . ولكن هذه الليرة الذهبية اللويسية – التي كانت قد وضعتها في جيب مئزرها نفسه الذي سقطت منه قطعة الخمسة عشر « سو » الليلة البارحة – ألهتها عن عملها . إنها لم تجرؤ على ان تمسّها ، بيد انها كانت تنفق في كل مرة خمسَ دقائق متواصلة وهي تتأملها – وينبغي أن نعترف – مخرجةً لسانها . وفيما كانت تكنس السلم ، كفّت عن العمل ووقفت هناك جامدةً ، ناسيةً مكنستها ، والعالمَ كله حولها ، وقد انهمكت في النظر الى تلك النجمة المتلألئة في قعر جيبها .

وفي فترة من فترات التأمل هذه فاجأتها تيناردييه الزوجة .

كانت قد مضت للبحث عنها ، نزولاً عند ارادة زوجها . ومن عجب أنها لم تصفعها ، ولم تقذفها بشتيمة .

لقد قالت في جرْس يكاد يكون عذباً :

— « كوزيت ، تعالي في الحال . »

وبعد لحظة ، دخلت كوزيت القاعة السفلى .

وتناول الغريب الصرّة التي كان قد جلبها معه ، وفكّتها . كانت تلك الصرّة تحتوي على فستان صغير من الصوف ، ومئزر ، وصدرة ذات كمّين مصنوعة من قماش قطني خشن ، وتنورة داخلية ، ومنديل للعنق ، وجوربين صوفيين ، وحذاء — مجموعةَ ثياب كاملة لفتاة في الثامنة . وكانت تلك الملابس كلها سوداء .

وقال الرجل :

— « خذي هذه ، يا بُنيّتي ، واذهبي فالبسيها في سرعة . »

وكان الضحى يرتفع عندما وقعت أبصار سكان مونفيرماي الذين بدأوا يفتحون ابوابهم على رجل ساذج فقير الثياب يجتاز الطريق المؤدية الى باريس ، ممسكاً بيد فتاة صغيرة ترتدي ملابس حِداد كاملة ، وتحمل بين ذراعيها دمية كبيرة زهراء . لقد اتجها نحو ليفري .

كانا صاحبنا وكوزيت .

ولم يعرف الرجلَ أحد . واذ لم تعد كوزيت ترتدي اسمالاً بالية فقد عرفها نفرٌ قليل ليس غير .

لقد مضت كوزيت لسبيلها . مع من ؟ كانت تجهل ذلك . الى اين ؟ لم تكن تدري . كل ما فهمتْهُ أنها خلّفت وراءها مطعم تيناردييه الحقيرَ . ولم يخطر في بال احد ان يوجه اليها كلمة وداع ، ولم يخطر في بالها هي ان توجه كلمة وداع الى أحد . لقد غادرت ذلك البيت مكروهةً كارهةً .

يا لها من مخلوقة رقيقة بائسة ، لم يعرف فؤادها حتى تلك اللحظة

شيئاً غير السّحق !

وساورت كوزيت في رصانة ، فاتحة عينيها الواسعتين ، ناظرةً الى السماء . كانت قد وضعت ليرتها الذهبية اللويسية في جيب مئزرها الجديد . وبين الفينة والفينة ، كانت تنحني وتلقي نظرة عليها ، ثم ترنو الى الرجل الطيب . لقد استشعرت ، بعض الشيء ، وكأنها قرب الله .

١٠
من يلتمس الاحسن قد يقع على الاسوأ

كانت مدام تيناردييه ، وفقاً لعادتها ، قد تركت زوجها وشأنه . وكانت تتوقع احداثاً ذات شأن . حتى اذا انقضت خمس عشرة دقيقة أو تزيد على ذهاب الرجل وكوزيت ، انتحى بها جانباً وأراها الألف والخمسئة فرنك .

وقالت :

— « ما هذا ؟ »

كانت هذه هي اول مرة تجرأت فيها ، منذ زواجها ، على ان تنتقد عملاً من أعمال سيدها .

وأحسّ بأثر الضربة .

وقال :

— « صحيح ؛ انتِ على صواب ، انا معتوه . أعطني قبعتي . »

وطوى الاوراق المالية الثلاث ، وأقحمها في جيبه ، وانطلق باقصى ما يستطيع من سرعة ، ولكنه ضلّ الطريق ، آخذاً يمينه بادىء الامر . ولكنه سأل بعض الجيران فهدوه سواء السبيل . لقد شوهدت القبّرة

والرجل سائرين في اتجاه ليفري . فمضى في ذلك الاتجـــاه ، منطلقاً بخطوات واسعة ، مخاطباً نفسه :

— « هذا الرجل هو من غير شك مليونير في ملابس صفراء ، أما أنا فبهيمة . لقد أعطى ، اول الامر، عشرين سو ، ثم خمسة فرنكات ، ثم خمسين فرنكاً ، ثم الفاً وخمسمئة فرنك ، ودفعها كلها في كثير من اليسر . ولقد كان على استعداد لأن يدفـــع خمسة عشر الف فرنك . ولكني سوف أوقعه في الفخ مرةً ثانية . »

ثم صرة الثياب هذه المعدّة مقدّماً من اجل الفتاة الصغيرة ، كل هذا كان غريباً . كان وراء ذلك سرّ خفيّ . وحين يضع المرء يده على سرّ فأنـــه لا يُفلته إن اسرار الاغنياء قِطعٌ من الاسفنـــج مليئة بالذهب . ويتعـيّن على المرء ان يعرف كيف يعصرها . كانت هـــذه الافكار كلها تعصف في دماغه . وقال :

— « أنا بهيمة . »

إن في امكان المرء ، حين يغادر مونفيرماي ويبلغ منعطف الطريـق الى ليفري ، أن يرى الطريق تمتدّ امامــه بعيداً بعيداً فوق النجد . حتى اذا انتهى الى هناك قدّر أنه سوف يرى الرجـــل والفتاة الصغيرة من غير ريب . ونظر الى اقصى ما تستطيع عيناه أن تنظرا ، ولكنه لم يرَ شيئاً . واستعلم كرةً اخرى . وفي غضون ذلك ، كان الوقت يضيع . وقال له بعض عابري السبيل ان الرجل والطفلة اللذين يبحث عنهما مضيا نحو الغابة في اتجاه غانيي . فسارع الى الانطلاق في هذا الاتجاه . كانا قد سبقاه ، ولكن الطفلة تمشي في تؤدة ، على حين ينطلق هو في سرعة . والى هذا فقد كان يعرف المنطقة معرفة جيدة .

وفجأةً كف عن السير ، وصفع جبينه مثل رجـــل نسي الشيء الرئيسي ، رجلٍ على وشك ان يرتدّ على آثاره .

وقال :

– « كان ينبغي ان اجيء ببندقيتي ! »

كان تيناردييه واحداً من اصحاب تلك الطبائع المزدوجة التي تبرز بيننا في بعض الاحيان من غير ان تدري ، والتي تختفي من غير ان تُعرف ، لان القدر لم يُرِنا إلا جانباً منها . فقد كُتب على كثير من الرجال ان يعيشوا هكذا مغمورين نصفَ عمر . ففي الحال الطبيعية الهادئة ، كان لدى تيناردييه ما هو ضروري لأن يصنع – ولا نقول لأن يكون – ذلك الذي تعودنا ان ندعوه تاجراً أميناً ، او مواطناً صالحاً . وفي الوقت نفسه ، وفي بعض الظروف الخاصة ، تحت وطأة بعض الهزات التي تثير طبيعته الدنيا ، كان في باطنه كل ما يحتاج اليه المرء لكي يكون شريراً فاتكاً . كان صاحب دكان يختفي في بُرديه غول . ولا ريب في ان ابليس قد جلس القرفصاء لحظةً ، في زاوية ما من الثقب الذي يقطن فيه تيناردييه ، ودرس هذه الرائعة المخيفة .

وبعد ان تردد لحظة ، قال في ذات نفسه :

– « ولكن هذا سوف يمنحها متسعاً من الوقت للهرب ! »

وواصل طريقه ، ماضياً الى الامام في سرعة ، وقد غلبت على محياه سيماء من الثقة تقريباً ، وساقته فطنة كفطنة الثعلب استروح سرباً من الحجلان .

والواقع أنه حين اجتاز المستنقعات ، وعبرَ على نحو موارب ذلك المرج العريض المنبسط الى يمين شارع بيلفو ، وانتهى الى المجاز المعشوشب الذي يطوّق الكثيب ، أو يكاد ، والذي يستر القناة العتيقة التي تجرّ المياه الى دير « شيل » لمح على دغل من الادغال قبعة كان قد بنى عليها كثيراً من الظنون والاحداس . كانت قبعة رجل ، وكان الدغل منخفضاً ، وادرك تيناردييه ان الرجل وكوزيت كانا جالسين هناك ، ولم يكن في ميسوره ان يرى الطفلة ، من جراء قصرها ، ولكنه كان قادراً على ان يلمح

رأس الدمية .

ولم يخدع تيناردييه . كان الرجل قد جلس هناك لـكي يمكّن كوزيت من ان ترتاح بعض الشيء . وازاح صاحب المطعم الدغلَ ، وبرز فجـــاءة امام أعين هذين اللذين يبحث عنهما .

وقال وهو يلهث لهاثاً شديداً :

– «عفواً ، وألتمس المعذرة يا سيدي ، ولكنْ هذه هي الالف والخمسة فرنك التي دفعتها اليّ .»

وفيا هو ينطق بذلك قدّم الاوراق المالية الى الرجـــل الغريب .

ورفع الرجل عينيه وقال :

– « ما معنى هذا ؟ »

فاجابه تيناردييه في احترام :

– « هذا يعني انني سوف أسترجع كوزيت يا سيدي . »

وارتعدت كوزيت ، وتشبثت بالرجل الطيب .

اما هو فأجاب ، ناظراً الى تيناردييه في عينه مباشرة ، مباعداً ما بين مقاطع الحروف :

« أنت تـ ـ تر ـ جع كوزيت ؟ »

– « نعم ، يا سيدي ، سوف استرجعها . اريد أن اقول لك . لقد فكرتُ في الواقع ، اني لا حق لي في ان اعطيك اياها . انا رجل امين كما ترى ، وهذه الفتاة الصغيرة ليست لي . انها ملك لأمها . لقد استودعتني امها اياها ، فليس في استطاعتي ان أسلمها إلا الى امها . وقد تقول لي : ولكن أمها ماتت . حسناً ، في هذه الحال لا استطيـــع ان أسلم الطفلة إلا الى شخص يحمل اليّ امراً موقعاً من الأم ينصّ على ان من واجبي ان أسلم الطفلة اليه . هذا شيء واضح . »

ومن غير ان يجيب ، بحث الرجلُ في جيبه ، ورأى تيناردييه الحافظة المنطوية على الاوراق المالية تبرز من جديد .

وسرت في أوصال الفندقي رعشة من البهجة .

وقال فيما بينه وبين نفسه :

— « حسن ! إصمد . انه يريد ان يرشوني . »

وقبل ان يفتح حافظة نقوده ، ألقى المسافر نظرة على ما حوله . كان المكان خالياً تماماً فلم تكن ثمة نفس واحدة لا في الغابة ، ولا في الوادي. وفتح الرجل حافظة نقوده وسحب منها لا الاوراق الماليـة التي كان تيناردييه يتوقعها ، ولكن قصاصة من ورق ما لبث ان نشرها وقدمها الى صاحب الفندق قائلاً :

— « أنت على صواب . إقرأ هذا ! »

وتناول تيناردييه الورقة ، وقرأ :

مونتروي سور ميد ، في ٢٥ آذار ، ١٨٢٣

« مسيو تيناردييه »

« سوف تسلّم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .

« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .

« لي الشرف ان احييك في احترام .

« فانتين . »

وأردف الرجل :

— « اتعرف هذا التوقيع ؟ »

كان توقيع فانتين حقاً . ولقد عرفه تيناردييه .

ولم يكن ثمة ما يقوله . لقد استشعر غيظاً مضاعفاً ، فهـو مَغيظٌ لاضطراره الى التخلي عن الرشوة التي منّى النفسَ بها ، وهو مغيظ للهزيمة التي اصابته . وأضاف الرجل :

— « في استطاعتك ان تحتفظ بهذه الورقة كأيصال . »

وانسحب تيناردييه في نظام .

ودمدم قائلًا :

– « هذا التوقيع مزوّر تزويراً بارعاً . حسن ، فليكن ذلك ! »

ثم إنه بذل جهداً يائساً ، فقال :

– « هذا حسن ، يا سيدي . واذن فأنت الناقل المشار اليـه . ولكنّ عليك أن « تدفع جميع الديون الصغيرة » . إنها مدينـة لي بمبلغ ضخم . »

ونهض الرجل واقفاً ، وقال وهو ينفض بطرف سبابته بعض الغبار عن ردنه المهترئ :

– « مسيو تيناردييه ، في كانون الثاني قدّرت الأم انها مدينةٌ لك بمئة وعشرين فرنكاً . فأرسلتَ اليها في شباط مذكرة بخمسمئة فرنك . ولقد تلقيتَ ثلاثمئة فرنك في آخر شباط ، وثلاثمئة فرنك في مطلع آذار . وانقضت منذ ذلك الحين تسعة أشهر ، كل شهر بخمسة عشر فرنكاً ، وهو السعر المتفق عليه ، وهذا يجعل مطلوبك مئة وخمسة وثلاثين فرنكاً . ولقد قبضتَ مئة فرنك مقدّماً ، فيكون قد بقي لك خمسة وثلاثون فرنكاً . ومع ذلك فقد اعطيتك ، منذ لحظة ، ألفاً وخمسمئة فرنك . »

واستشعر تيناردييه ما يستشعره الذئب لحظة يجد نفسه بين فكي الشَّرَك الفولاذيين .

وقال في ذات نفسه :

– « أيّ شيطان هو هذا الرجل ؟ »

وفعل ما يفعله الذئب . فانتفض انتفاضة قوية . كانت الجرأة قد نجحت معه قبل الآن .

وقال في عزم ، طارحاً هذه المرة كل تظاهر بالاحترام :

– « ايها السيد الذي لا اعرف له اسماً . سوف استرجع كوزيت أو تعطيني ألف ريال . »

فقال الغريب في هدوء :
- « كوزيت ، تعالي . . »
وأمسك كوزيت بيده اليسرى ، ورفع عصاه باليمنى ، وكانت على الارض .
ولاحظ تيناردييه ضخامة الهراوة ، ووحشة المكان .
واختفى الرجل في الغابة ، ومعه الطفـلـة ، مخلّفاً صاحب الفندق جامداً مرتبكاً .
وفيا هما ينطلقان لاحظ تيناردييه منكبيه العريضين ، المقوّسين بعض الشيء ، وقبضتيه الضخمتين .
ثم وقعت عيناه على ذراعيه هو ، القميئتين ويديه هو ، المهزولتين ، وقال في ما بينه وبين نفسه :
- « لقد كنت مجنوناً حقاً اذ لم آت ببندقيتي ما دمت خارجاً الى القنص . . »
ومع ذلك فان الفندقي لم يكفّ عن تعقبه ، قائلاً :
- « يجب ان اعرف الى اين سوف يذهب . . »
وشرع يتبعهما من على مسافة ما . وكان قد بقي بين يديه شيئان ، اولها سخرية مريرة ، هي قصاصة الورق الموقعة فانتين ، والثاني عزاء ، وهو مبلغ الالف والخمسمئة فرنك .
كان الرجل يقود كوزيت في اتجاه « ليفري » و « بونـدي » . كان يمشي في تؤدة ، مطأطئاً رأسه ، وقد رانت على وجهه سيما التفكير والحزن . وكان الشتاء قد عرّى الغابة عن الاوراق ، بحيث اصبح في ميسور تيناردييه ان يُتبعهما بصره ، برغم بقائه بعيداً عنهما بعداً غير يسير . وبين الفينة والفينة ، كان الرجل يتلفت فيرى ما اذا كان احدٌ يقتفي آثاره . وفجأة ، لمح تيناردييه . فما كان منه إلا ان دخل هو وكوزيت غابة تُقطع اشجارها في العادة ، فغابا عن العيان .

وقال تيناردييه :
- « يا للشيطان ! »
وضاعف سرعته .
وأكرهته كثافة الغابة على أن يقترب منهما . حتى اذا انتهى الرجل الى اشد اجزاء الغابة كثافة ، استدار راجعاً . وكان تيناردييه قد حاول الاختباء بين الاغصان ، ولكنه لم يوفق الى ان يمنع الرجل من رؤيته . والقى الرجل نظرة قلقة ، عليه . ثم هز رأسه ، واستأنف سيره . فما كان من الفندقيّ إلا أن تعقبه كرة أخرى . وتقدّما على هذا النحو مئتي خطوة او ثلاثمئة خطوة . وفجأة ، استدار الرجل من جديد . ولمح الفندقيّ . ونظر اليه هذه المرة نظرة كالحة الى حدّ جعل تيناردييه يقدّر أن « من غير المجدي » الذهاب الى أبعد . فرجع من حيث أتى .

١١

رقم ٩٤٣٠ يظهر كرة أخرى
وكوزيت تربحه في اليانصيب

إن جان فالجان لم يمت .
فحين سقط في البحر ، او على الاصح حين ألقى بنفسه فيه ، كان كما قد رأينا غير راسفٍ في الاغلال . لقد سبح تحت الماء الى سفينة راسية شُدّ اليها مركب من المراكب .
ووجد سبيلاً مكّنته من الاختباء في هذا المركب حتى المساء . وفي موهن من الليل قذف بنفسه كرة اخرى في الماء ، وانتهى الى

الساحل على مسافة غير بعيدة من رأس « برون » .

واذ كان المال لا يعوزه فقد تمكن من الحصول على بعض الملابس، هناك . فقد كانت في ضواحي بالاغوبنيه حانة صغيرة تزوّد الفارّين من سجن الاشغال الشاقة بالملابس ، وكانت تجارةً رابحة . وعندئذ سلك جان فالجان سبيلًا غامضاً مترحّلًا ، شأن جميع اولئك الشاردين التعساء الذين يحاولون ان يضلّلوا أرصاد القانون والقَدَر الاجتماعي . ووجد مأوى ، باديء الامر ، في برادو ، قرب بوسيه . ثم اتجه نحو « غران فيلار » قرب بريانسون ، في « الألب العليا » . فرارٌ تحسسي قلق ، وسبيل اشبه بسبيل الخلد ذات التشعبات المجهولة . ولقد اكتُشِف في ما بعد شيء من آثاره في « إين » ، فوق مقاطعة سيفربيو ، وفي البيرينيه ، عند « آكون » ، في مكان يدعى الا « غرانج دو دوميك » قرب قرية شافاي ، وفي ضواحي بيريغو ، عند برونيّ ، وهي قضاء من أقضية « شابيل غوناغيه » . واخيراً وصل الى باريس . ولقد رأيناه بعدُ في مونفيرماي .

وكان اول همومه ، لدن بلغ باريس ، ان يشتري ثوب حداد لفتاة صغيرة يتراوح عمرها ما بين السابعة والثامنة ، وان يبحث بعد ذلك عن مكان يبيت فيه . حتى اذا تم له هذا مضى الى مونفيرماي .

ويذكر القاريء انه كان قد قام ، عند فراره الاول او حوالى ذلك الحين ، برحلة خفية تحت العدالة وميضاً منها .

والى هذا ، فقد سرى الاعتقاد بأنه قد مات ، وذلك ما كثّف الظلمة التي اكتنفته . وفي باريس ، وقعت بين يديه احدى الصحف التي دونت الواقعة . فاستشعر الطمأنينة وقدراً من الامن يكاد يعدل ذلك الذي كان خليقاً به ان يستشعره لو انه مات حقاً .

وفي مساء اليوم نفسه الذي وُفق فيه جان فالجان الى انتزاع كوزيت من مخالب تيناردييه وزوجته ، عاود الدخول الى باريس . لقد دخل

المدينة ، هو والطفلة ، عند هبوط الليل ، من باب مونسو . وهناك استأجر عربة ذات دولابين أقلته الى ساحة المرصد . ثم ترجل من العربة ، ودفع الأجر الى السائق ، وأمسك بكوزيت من يدها ، وانشآ يمشيان ، في الليل البهيم ، عبر الشوارع المهجورة المجاورة لا « أورسين » ولا « غلاسيير » ، نحو جادة المستشفى .

كان النهار غريباً حافلاً بالانفعالات التي حملها الى كوزيت . وكانا قد أكلا خلف الأسيجة المكوّنة من الاشجار الشائكة خبزاً وجبناً اشترياهما من بعض المطاعم الحقيرة المنعزلة ؛ وكانا قد انتقلا عدة مرات من عربة الى عربة ، وقطعا مسافاتٍ قصاراً على اقدامهما ، فلم تشكُ ولم تتذمر ، ولكنها كانت متعبة ؛ ولقد ادرك جان فالجان ذلك من جذبها ليده اثناء السير جذباً اشدّ وطأة من ذي قبل . وحملها على ظهره . ووضعت كوزيت رأسها ، من غير ان تفلت كاترين ، على كتف جان فالجان ، واستسلمت للرقاد .

الكتاب الرابع

بيت غوربو العتيق

١

الاستاذ غوربو

منذ اربعين سنة ، كان المتنزّه المتوحـد الذي يغامر في التقدم الى مجاهل « لا سالبيترييير » ، ويصعّد في الجادة حتى « باب ايطالية » ، ينتهي الى مناطق بعينها حيث يمكن القول ان باريس قد اختفت . انها لم تكن بقعة مهجورة ، فقد كان ثمة عابرو سبيل . ولم تكن ريفاً ، فقد كانت ثمة بيوت وشوارع . ولم تكن مدينة ، فقد كانت الشوارع ملأى بالاخاديد ، مثل الجوادّ الكبيرة ، وكان العشب نامياً على حوافيها . ولم تكن قرية ، فقد كانت المنازل مرتفعة جداً . ماذا كانت اذن ؟

كانت بقعة آهلة ليس فيها احد من الناس ؛ كانت بقعة مهجورة ينزلها نفر من الناس ؛ كانت جادة من جوادّ المدينة العظيمة ، شارعاً من شوارع باريس ، اشدّ وحشة — في الليل — من غابة ، واكثر كآبة — في النهار — من مقبرة .

كانت حيّ « مارشيه أو شيفو » القديم .

ولو قد غامر هذا المتنزه بالمضيّ الى ما وراء جدران « مارشيه أو شيفو » الاربعة المتداعية ، ولو قد ارتضى ان يذهب حتى الى ابعد من شارع « بيتي بانكييه » بعد ان يخلّف الى يمينه فِناءً تحيط به أسوار عالية ، ثم مرجاً مرصعاً بأكداس من قِشر الدّبغ اشبه ما تكون بتلك السدود الضخمة التي تبنيها كلاب الماء ؛ ثم حظيرةً تغصّ بخشب البناء وأكوام من أرومات الاشجار والنُشارة والنُجارة كان ينبح من أعلاها كلب ضخم ، ثم جداراً طويلاً منخفضاً متهدماً ذا باب صغير أسود هرم يكسوه الطحلب المثقل بالازهار في ايام الربيع ، ثم — في البقعة الاكثر وحشة — بناءً مروعاً متهدماً كُتب عليه باحرف ضخام « ممنوع إلصاق الاعلانات » — نقول لو قد غامر هذا المتنزه الجسور بذلك كله اذن لانتهى الى زاوية شارع « فينيْ سان مارسيل » ، وهي رقعة لا يعرفها غير القليل . هناك ، قرب احد المصانع ، وبين جدارين من جدران الجنائن كان يُرى آنذاك بيت عتيق متهدم يبدو ، للنظرة الاولى ، صغيراً مثل كوخ ، ومع ذلك فقد كان واسعاً مثل كاتدرائية . كان ينهض وحائط جَمَلونه * متجه نحو الجادة ، ومن هنا صغره الظاهري . لقد كان البيت كله محجوباً تقريباً . إن المرء ما كان في ميسوره ان يرى منه غير الباب واحدى النوافذ ليس غير .

ولمْ يكن ذلك البيت المتداعي مؤلفاً من اكثر من دور واحد .

* الجملون بناء على هيئة سنام الجمل . وهو يعرف في الفرنسية بـ pignon وفي الانكليزية بـ gable .

وكانت الخاصة التي تبدهُ الناظر اليه ، الراغب في درسه ، اول ما تبدهه ، ان ذلك الباب ما كان يمكن ان يكون ، في يوم من الايام ، غير باب بيت حقير ، على حين ان النافذة كان يمكن ان تكون لو ركبت في حجر مربع او منحوت لا في حجر مرضوم * — نافذة قصر من القصور .

كان الباب مجرد مجموعة من أكواخ خشبية أكلها السوس ، شُدَّ بعضها الى بعض ، على نحو أخرق ، بعوارض تشبه قطعاً من الوقود ، قُدَّت قداً رديئاً . وكان ينفتح مباشرة على سلم شديدة الانحدار ذات درجات عالية يعلوها الوحل ، والجصّ ، والغبار — سلم يبلغ عرضها عرض الباب ، وتبدو من الشارع وكأنها تنهض على نحو عمودي مثل مرقاة ، وتختفي في الظلام بين جدارين . وكان أعلى الفسحة الشائهة التي ينغلق عليها هذا الباب مقنّماً بحاجز علويّ ضيق نُشرت في وسطه فوهة مثلثة الزوايا كانت حين يوصد الباب بمثابة كوّة وخادعة ** في آن معاً . وعلى داخل الباب كانت فرشاة مغمسة بالحبر قد رسمت بضربتين من ضربات جُمع اليد الرقم ٥٢ ، وفوق الحاجز كانت الفرشاة نفسها قد خربشت الرقم ٥٠ حتى ليتردد الوافد الجديد ويتساءل : « اين أنا » . إن اعلى الباب يقول : « في المنزل ذي الرقم ٥٠ » . ولكن داخله كان يجيب : « لا ، في المنزل رقم ٥٢ » . اما الاسمال الغبارية اللون المتدلية مثل الستائر حول الخادعة المثلثة الزوايا فلن نحاول ان نصفها .

كانت النافذة عريضة ، وعلى ارتفاع غير يسير . وكانت ذات مصاريع خارجية ، وأطر ذات الواح زجاجية عريضة . بيد ان تلك الالواح الزجاجية العريضة كانت قد أصيبت بجروح مختلفة أخفتها وأعلنت عنها ، في وقت معاً ، ضماداتٌ ورقيّة غير بارعة . وكانت المصاريع الخارجية محطمة مفككة الى حد جعلها تهدّد عابر السبيل بالخطر ، اكثر مما تصون النازلين في البيت . كانت تعوزها ، ههنا وهناك ، العوارض الخشبية

---

* رضم الحجارة جعل بعضها على بعض من غير ان ينحتها ويسويها .
** الخادعة : هي الباب الصغير الذي يكون في الباب الكبير .

الافقية ، وقد استعيض عنها بألواح سُمّرت عمودياً ، بحيث انّ ما كان في اول الامر مصاريع خارجية ، انتهى الى ان يصبح مصراعاً مصفّحاً .

وكان ذلك الباب بمظهره القذر ، وتلك النافذة بسيماها اللائقة ، رغم تهدّمها ، منظوراً اليهما هكذا في بناية واحدة ، يتركان في النفس مثل الاثر الذي يتركه مشهد شحاذين ممزقي الثياب يمضيان في اتجاه واحد ويمشيان جنباً الى جنب ، وقد تكشّف كل منهما ، تحت الاسمال نفسها ، عن سيما خاصة ، فأما احدهما فأشبه برجل سلخ عمره كله شحاذاً ، وأما الآخر فكان في يوم ما شريفاً من الاشراف .

وكانت السلم تقود الى بناء فسيح جداً هو أشبه شيء بسقيفة حُوّلت الى بيت . وكان شريان المواصلات الرئيسي في هذا البناء رواقاً طويلاً تنفتح الى يمينه والى يساره أشباه غرف ذات أبعاد مختلفة ، غير آهلة الا في النادر ، وهي اقرب الى ان تكون حوانيت صغيرة خشبية منها الى ان تكون غرفاً . وكانت هذه الحُجُرات تطلّ على الاراضي المجاورة غير الواضحة المعالم . وكانت كلها مظلمة ، قابضة للصدر ، شاحبةً ، كئيبة تذكّر بالمقابر ؛ وكانت تخترقها ، تبعاً لمواضع الشقوق وكونها في السقف أو في الباب ، أشعة الشمس الباردة حيناً ، ورياح الشمال المثلوجة حيناً آخر . ومن الخصائص الطريفة الماتعة التي يمتاز بها هذا الضرب من البيوت ضخامة عناكبها .

والى يسار الباب الرئيسي ، المطلّ على الجادة ، كانت نافذة صغيرة مسدودة تشكل ، على ارتفاع ستة اقدام تقريباً عن الارض ، كوّة مربعة ملأى بالحجارة التي قذفها بها الصبية اثناء مرورهم من هناك .

كان جزء من هذا البناء قد هُدم منذ قريب ، ولكن ما بقي منه اليوم لا يزال في ميسوره ان يعطي فكرة عما كان عليه من قبل إن البناء ، بوصفه كلّاً واحداً ، لا يزيد عمره على مئة عام . والمئة عام شبابٌ بالنسبة الى كنيسة من الكنائس ، ولكنها شيخوخة بالنسبة الى

بيت من البيوت . لكأنّ بيت الانسان يشاركه في وجوده الموجز ، على حين ان بيت الله يشاركه في سرمديته .

وكان سعاة البريد يدعون البيت رقم ٥٠ – ٥٢ ؛ بيد أنه كان معروفاً في الحي بـ « بيت غوربو » .

فلننظر من اين جاء هذا اللقب .

ان متصيدي الصغائر التافهة الذين يجمعون النـوادر والحكايات كما يجمع دارس النباتات والحشائش اعشابه ، ويشكّون التواريخ الزائلة في ذواكرهم بدبوس ، يعرفون انه كان في باريس ، في القرن الماضي ، حوالى سنة ١٧٧٠ ، نائبان عامان في الـ « شاتيليه » * احدهما يدعى « الغراب » Corbeau والآخر يدعى « الثعلب » Renard – وهما اسمان تنبأ بهما لافونتين . وكانت الفرصة جدّ مواتية لأرسال النكتة ، فليس من المعقول ان يضيعها جماعة المساعدين القضائيين . وهكذا ما لبثت أروقة قصر العدل أن ضجت بالتحريف التالي ، في أبيات عرجاء بعض الشيء :

« كان الاستاذ الغراب جاثماً فوق أحد الملفات
ممسكاً في منقاره حكماً بالاعدام سميناً .
وأغرت الرائحة الاستاذ الثعلب
فروى على مسمعيه هذه الحكاية :
هاي ، صباح الخير ! الخ .. »

واذ اغتاظ هذان الموظفان المخلصان لهذا المزاح المستقبح ، واذ كانت عواصف الضحك التي تعقبه تتعارض وكرامتهما ، فقد اعتزما تغيير اسميهما ملتمسين من الملك ان يجيز لهما ذلك . وقُدّمت العريضـة الى لويس الخامس عشر في ذلك اليوم نفسه الذي انحنى فيه ، بخشوع ، سفير البابا والكاردينال « لا روش ايمون » ، في حضرة جلالته ، لكي يضع كل

* Châtelet وكان مقر محكمة الجنايات في باريس .

منها فردة من بابوج مدام دو باري * في رجليها العاريتين وهي تنهض من السرير . وواصل الملك – وكان يضحك – ضحكه ذاك ، وانتقل في حبور من الأسقفين الى النائبين العامين ، وأحل رَجُلي القضاء هذين من اسميها ، أو كاد . فقد أجيز للاستاذ كوربو Corbeau (الغراب) ، مع سرور الملك ، ان يضيف ذيلاً الى الحرف الاول من اسمـــه ، بحيث امسى غوربو Gorbeau . أما الاستاذ رينار Renard (الثعلب) فكان اقل حظاً ، اذ لم يفز باكثر من إذن اجاز له ان يضع حرف P قبل حرف الـ R ، مما جعل الكلمة « بريناد » Prenard ** ، وهو اسم لم يكن اقل ملاءمة من الاسم الاول .

والآن ، فقد كان الاستاذ غوربو هذا ، وفقـــاً للرواية المحلية ، صاحب البناء المرقم ٥٠–٥٢ ، جادة المستشفى ، وكان هو ، كذلك ، مبتدع النافذة الفخمة .

ومن هنا اكتسب ذلك البناء اسمه : بيت غوربو .

ومقابل رقم ٥٠–٥٢ تنهض ، بين اشجار الجـادة ، شجرة دردار سامقة ، شبه ميتة . وتجاهها تقريباً امتد شارع « باب غوبلين » وهو شارع كان آنذاك من غير منازل ، ومن غير تعبيد ، وكانت تحيط به اشجار هزيلة خضراء او موحلة تبعـاً لفصول السنة ، حتى يتصل ، عند زاوية قاتمة ، بالسور الذي يطوّق باريس . كانت رائحة كبريتات الحديد تفوح ، هبّاتٍ هباتٍ ، من سطوح مصنع مجاور .

وكان باب باريس قريباً جداً . ففي عام ١٨٢٣ كان سور المدينة لا يزال قائماً .

وكان هذا الباب نفسه يملأ الذهن بالصور القاتمة . كان علـى الطريق

---

* Contesse du Barry عظيلة لويس الخامس عشر وقد أعدمت في عهـد الارهاب (١٧٤٣ – ١٧٩٣) .

** ومعناها الرجل الشره .

المؤدية الى « بيسيتر » . ومن هناك كان السجناء المحكوم عليهم بالموت ، في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش ، يدخلون باريس ، كرّة اخرى ، يوم إعدامهم . وهناك وقعت ، حوالى عام ١٨٢٩ ، تلك الجريمة الخفية التي دُعيت « جريمة باب فونتينبلو » ، والتي لم توفق السلطات قط الى اكتشاف أبطالها – مسألة فاجعة لمّا تُحلّ بعد ، ولغز مروّع لمّا يُحلّ . فاذا تقدمتَ بضع خطوات الى أمام تجد شارع كرولبارب المشؤوم حيث طعن أولباش بخنجره الفتاةَ الايفرّية المعّازة ، تحت قصف الرعد ، على طريقة المآسي المسرحيـة . واذا تقدمتَ ، كرة ثانية ، بضع خطوات ، انتهيت الى دردارات باب « سان جاك » البغيضة المقطوعة الرؤوس ، تلك الوسيلة التي اصطنعها محبو البشر لاخفاء المقصلة ، الى ساحة الاعدام تلك الدنيئة المخزية التي اقامها مجتمع دكاكيني مدينيّ موسر يُجفل من عقوبة الموت ، ومـع ذلك فهو لا يجرؤ على ان يلغيها في جلال ، او يحتفظ بها في سلطان .

ومنذ سبع وثلاثين سنة ، وباستثناء « ساحة سان جاك » تلك ، التي بدت وكأنها رازحة تحت وطـأة قضاء سبْقيّ محتوم والتي كانت مروّعة دائماً ، كانت النقطة الاكثر عبوساً في هـذا الشارع العابس هي في اغلب الظن تلك البقعة التي نهض فيها بناء ٥٠ – ٥٢ العتيق ، والتي لا تزال منفّرة الى اليوم .

ولم تشرع البيوت المدينية تُطلع رؤوسها هناك إلا بعد خمس وعشرين سنة . فقد كانت المحلة مقيتة . فبالاضافة الى الافكار الكئيبة التي تستبد بك هناك ، كنت تستشعر انك بين « لا سالبيتريير » * البـــادية قبّتُه لناظريك ، وبيسيتر ** القريب بابها اليك – يعني بين جنون المرأة وجنون

* la Salpêtriére مأوى للنسوة العجـــائز في باريس ، وكانت تعالج فيه ايضاً المتوهات والمصابات بالهستيريا .

** Bicêtre قرية فرنسية فيها مأوى شهير للعجائز والمجانين .

الرجل . وعلى مدى البصر لم يكن ثمة ما يُرى غير المسالخ ، وسور المدينة ، وقليل من واجهات المصانع الشبيهة بالثكنات او الاديرة . ففي كل مكان اكواخ واكداس من حطام الجبس ، وجدران قديمة سوداء كثوب حِداد الارملة ، وجدران جديدة بيضاء كالأكفان . وفي كل ناحية صفوف اشجار متوازية ، وابنية ناهضة على نحو مستقيم : ابنية منخفضة مسطحة ، وخطوط طويلة باردة ، وتلك الكآبة الجِدادية التي توحيها الزوايا القائمة . لا تفاوت في صفحة الارض ؛ لا شذوذ في الفنّ المعماري ؛ لا انحراف او التواء . وكان ذلك في مجموعه شيئاً مثلوجاً نظامياً بشعاً . وليس من شيء يقبض الصدر كالتناظر symétrie فالتناظر هو السأم ، والسأم هو روح الاسى والكآبة . ان اليأس يتثاءب . وفي استطاعتنا ان نتخيل شيئاً أفظع من جهنم التي نُسام فيها العذاب ، هي جهنم التي نصاب فيها بالسأم . ولو قد كان ثمة مثل جهنم هذه ، اذن لكان هذا الجزء من جادة المستشفى جديراً بان يكون هو المدخل اليها .

وحين يهبط الليل ويُحتضر النهار ، وبخاصة في الشتاء ، في تلك اللحظة التي تجرّد فيها ريح المساء شجرات الدردار من اوراقها الناصلة الذاوية ، حين تكون الظلمة حالكة تعوزها النجوم او حين يُحدث القمر والريح صدوعاً في السحب ، تصبح هذه الجادة ، فجأةً ، مروعة . كانت الخطوط المستقيمة تغوص وتختفي في الظلام مثل فِلَذ اللانهاية . فلا يتمالك عابر السبيل من ان يفكر في تقاليد البقعة الدامية التي لا تحصى . فقد كان في وحشة هذه المنطقة حيث اقتُرفت جمهرة كبيرة من الجرائم ، شيء مخيف . ان المرء ليخيل اليه ان قلبه يحدثه بان في هذه الظلمات أشراكاً ، واذا بجميع الاشكال المختلطة في العتمة تبدو مريبة ، واذا بالتجاويف الطويلة المربّعة التي يلمحها بين كل شجرة وشجرة ، تبدو كالقبور . في النهار كانت تلك البقعة بشعة ، وفي المساء كانت كئيبة ، وفي الليل كانت مشؤومة .

وفي الصيف ، عند الغسق ، كان المرء يرى هنـا وهناك بعض

النسوة العجائز الجالسات ، تحت شجر الدردار ، علـى مقاعد جعلتها الامطار شبه عفنة . كانت هاتيك العجائز الطيبات مدمنات للشحاذة .

وعلى الجملة ، فان هذا الحي الذي بدا شيئاً زال زمانه اكثر مما بدا شيئاً عتيقاً ، أخذ منذ ذلك الحين يتخذ هيئة اخرى . لقد أمسى كل من يرغب في رؤيته ، ابتداءً من تلك الفترة ، مضطراً الى الاسراع . ففي كل يوم كان يزول جزء من اجزاء ذلك المجموع . فالآن ، ومنذ عشرين سنة خلت ، كانت نهاية خط اورليان الحديدي هناك ، خارج الضاحية القديمة تماماً ، فهي تبقيها على قيد الحركة . فحيثما تجد في ضواحي عاصمة من العواصم مستودعاً من مستودعات السكة الحديدية ، فاعلم ان ثمة قرية تموت ، ومدينة تولد . لكأنما حول هذه المراكز الكبرى لنشاط الامم ، وحول دمدمة هذه الماكنات الجبارة ، وحول خيول الحضارة العملاقة هذه التي تأكل الفحم وتقيء النار ، ترتجف الارض الملأى بجراثيم الحياة ، وتفتح فمها لتبتلع منازل الناس القديمة وتطلع المنازل الجديدة . إن المنازل القديمة لتنهار ، وإن المنازل الجديدة لتنبثق .

ومنذ أن غزا مستودع سكة حديد اورليان اراضي « لا ساليتربيير » والشوارعُ القديمة الضيقة المجاورة لخنادق « سان فيكتور » و « حديقة النباتات » ترتجف ، وقد اخذت تجتازها ثلاث مرات او اربع مرات يومياً ، وفي عنف ، سيولٌ من عربات المسافرين ، وعجلات الكراء ، والمركبات العامة التي تردّ البيوت الى الوراء - خلال فترة من الزمان - ذات اليمين وذات الشمال . ذلك بان ثمـة أشياء تتراءى غريبـة في الآذان ، ومع ذلك فهي صحيحة مئة بالمئة . وكما ان مـن الصواب القـول إن الشمس تعمل علـى إنماء واجهات البيوت المتجهـة نحو الجنـوب في المدن الكبرى ، فكذلـك لا يُنكر ان مرور العربات الموصول يزيد في عرض الشوارع إن أعرض حياة جديدة لواضحةٌ للعيان . ففي ذلـك الحي البلدي القديم ، وفي زواياه الاشد

إمحاشاً ، بدأ بلاط الشوارع يبرز ، واخذت الارصفة تنبثق وتمتدّ الى مسافات أطول فأطول ، حتى في تلك المواطن التي ما تزال خلواً من عابري السبيل . وذات صباح ـ ذات صباح تاريخيّ في تموز سنة ١٨٤٥ ـ شوهدت قدور سوداء ملأى بالزفت تطلق الدخان هناك . وفي ذلك النهار كان في ميسور المرء ان يقول ان الحضارة وصلت الى شارع الـ « اورسين »، وان باريس قد دخلت ضاحية « سان مارسو » .

٢
عشّ لبوم ودُخّلة *

أمام بيت غوربو العتيق هذا وقف جان فالجان . لقد اختار مثل جوارح الطير ، المكان الاشدّ انعزالاً لـكي يبني عشه .

وبحث في صدرته ، واخرج منها ضرباً من مفتاح تعنو له الاقفال كلها ، وفتح الباب ، ودخل ، ثم أعاد اغلاق الباب في عناية ، ورقيّ السلم وهو لا يزال حاملاً كوزيت .

وعند أعلى السلم اخرج من جيبه مفتاحاً آخر فتح بـه باباً ثانياً . كانت الغرفة التي دخلها واعاد اغلاقها في الحـال ضرباً من العلية ، فسيحةً بعض الشيء ، ليس فيها من الاثاث غير حشيّة ممددة عـلى الارض ، وطاولة ، وبضعة كراسيّ . وكان في احدى الزوايا موقد مُشعل تبدو جمراته للعيان .

وأضاء مصباح الجادة هذه الغرفة الحقيرة اضاءة باهتةً . وفي طرفها الاقصى ، كانت غرفة صغيرة تحتوي على سرير ذي سُيور . وعلى هذا السرير وضع جان فالجان الطفلة من غير ان يوقظها .

* الدخَّل والدخَّلة طائر صغير مغرد .

وقدح بالزند ناراً ، وأضاء شمعة ؛ وكان ذلك كله مُعداً على الطاولة مقدماً . وكما فعل في الليلة البارحة انشأ يحدّق الى كوزيت في نظرات ملأى بنشوة الجذل ، وقد كادت انطباعة الطيبة والحنان الغالبة عليها ان تبلغ حد الخبل! . وكانت الفتاة الصغيرة قد استسلمت للرقاد – بتلك الثقة الهادئة التي لا ترافق الا القوة القصوى او الضعف الاقصى – من غير ان تدري مع مَنْ كانت ، وواصلت نومها من غير ان تعرف اين كانت .

وانحنى جان فالجان وقبّل يد الطفلة .

ولتسعة اشهر خلت قبّل يد الام التي كانت ، ايضاً ، قد استسلمت منذ لحظة ، للرقاد .

وملأ فؤاده ذلك الاحساس عينه ، ذلك الاحساس الفاجع ، التقيّ ، الممض .

وركع قرب سرير كوزيت .

كانت الشمس قد اشرقت ، ومع ذلك فالطفلة ما تزال نائمة . وعبَر نافذة العلّية شعاع شاحب من أشعة شمس كانون الاول ورسم على السقف خيوطاً طويلة من الظل والضوء . وفجأة ارتجّت كارّة قالع حجارة ، مُثقلة بأحمالها ، فوق حصباء الجادة وهزّت البناء العتيق وكأنها عاصفة ، فاذا به يرتجف من آساسه الى قمة رأسه .

وأفاقت كوزيت مجفلةً ، وصاحت :

– « نعم ، مدام ! ها قد جئت ! ها قد جئت ! »

ووثبت من السرير ، وأجفانها ما تزال نصف مغمضة بثقل النوم ، وبسطت ذراعها نحو زاوية الجدار .

وقالت :

– « آه ، يا الهي ، يا الهي ، أين مكنستي ؟ »

وهنا كانت عيناها قد انفتحتا على مداهما ، فرأت وجه جان فالجان

الباسم .

وقالت الطفلة :

— « أوه ، نعم ، هذا صحيح ! صباح الخير ، يا سيدي . »

ان الاطفال ليتقبلون البهجة والسعادة في سرعة وفي ألفة لانهم هم انفسهم ، بالفطرة ، عنوان السعادة والبهجة .

وبصرت كوزيت بكاترين عند قدم سريرها ، فاستولت عليهـا في الحال . وفيما هي تلعب ، وجهت الى جان فالجان مئة من الاسئلة : اين هي ؟ وباريس ، أهي بلدة كبيرة ؟ ومدام تيناردييه ، اهي بعيدة جداً ؟ هل سترجع كرة اخرى ؟ الخ . الخ . وفجأة صاحت :

— « ما اجمل هذا المكان ! »

كان كوخاً مخيفاً ، ولكنها استنشقت نسيم الحرية .

واردفت آخر الامر :

— « أليس من واجبي ان اكنس ؟ »

فقال جان فالجان :

— « إلعبي ! »

وهكذا انقضى النهار . ومن غير ان تتعب نفسها بمحاولة فهم شيء ، نعِمتْ كوزيت بسعادة تمتنع عن التعبير ، بين هذه الدمية ، وهـذا الرجل الطيب .

٣

بؤسان يمتزجان فيولدان سعادة

وطلع صباح اليوم التالي على جان فالجان وهو عـلى مقربة من كوزيت ايضاً . كان ينتظر هناك ، من غير حراك ، ليرى اليهـا

وهي تستيقظ .

كان شيء جديد يُداخل روحه .

إن جان فالجان لم يحبّ شيئاً في يوم من الايام . لقد سلخ خمساً وعشرين سنة وهو وحيد في هذا العالم . إنه لم يكن ، ذات يوم ، أباً أو عاشقاً ، او زوجاً ، أو صديقاً . وفي سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان نكداً ، كالح الوجه ، عفيفاً ، جاهلاً ، نفوراً . كان فؤاد هـذا العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة مليئاً بالبُتولات . إن أخته وأطفال اخته لم يخلفوا في نفسه غير ذكرى غامضة وبعيدة ، ما لبثت آخر الامر ان تلاشت . لقد بذل غاية جهده للعثور عليهم ، حتى اذا لم يجدهم نسيهم . فالطبيعة البشرية هكذا خلقت . اما عواطف شبابه الرخصة الاخرى ، إن عرف شيئاً من ذلك ، فقد سقطت في هاوية . وحين رأى كوزيت ، حين أخذها ، حين ذهب بها وانقذها ، استشعر ان فؤاده قد عرته هزّة . لقد استيقظ كل ما فيه من مشاعر وانفعالات واندفع في عنف نحو هذه الطفلة . كان يقترب من الفراش الذي ترقد فيه ، ويرتجف هناك من البهجة . لقد استشعر أشواقاً باطنية مثل أمّ من الامهات ، من غير أن يدري ما هي . ذلك بأنها جدّ مبهمة وجدّ عذبة هذه العاطفةُ العظيمة الغريبة التي تغمرُ القلب في حبه الاول .

يا له من قلب شقيّ عجوز لا يزال غضاً طرياً !

ولكن ، لما كان هو في الخامسة والخمسين وكانت كوزيت في الثامنة ، فان كل ما كان يمكن أن يستشعره من الحب في حياته كلها ذاب في ضرب من الاشعاع يجلّ عن الوصف .

كانت تلك هي الرؤيا البيضاء الثانية التي تبـدّت له . كان الاسقف قد أطلع في افقه فجر الفضيلة ، ثم جاءت كوزيت فأطلعت في افقه ذاك فجر الحب .

وكرّت الايام القليلة الاولى في غمرة من هذا الانشداه .

وغدت كوزيت هي الاخرى ، من غير ان تدري ، شخصاً آخر .
يا لها من كائنة صغيرة بائسة ! كانت صغيرة جداً حين فارقتها أمها فهي لا تتذكرها البتة . وكما يفعل جميع الاطفال ، وهم في ذلك أشبه بطلالع الكرمة الغضة التي تتعلق بكل شيء ، حاولت كوزيت أن تحب . ولكنها ما كانت لتقدر على النجاح . لقد صدّها الناس جميعاً : تيناردييه وزوجته ؛ واولادهما ؛ والأولاد الآخرون . وكانت قد أحبّت الكلب ولكنه مات . وبعد ذلك لم يرض شخص ما ، بل لم يرض شيء ما ، ان تكون له صلة بها . وأمرٌ فاجع ينبغي ان نقوله — وقد لمّحنا اليه من قبل — ان فؤادها كان بارداً حتى في الثامنة . ولم تكن هذه غلطتها. إن ملكة الحب ما كانت هي الشيء الذي يعوزها . واأسفاه ! انما كانت تعوزها امكانية الحب . وهكذا فمنذ النهار الاول بدأ كل ما فيها من فكر وشعور يحبّ هذا الرجل الطيب . لقد احسّت اليوم بما لم تحس به قط من قبل — استشعرت انها تتفتح وتنمو .

لقد كفّ الرجل الطيّب عن ان يكون في عينيها عجوزاً أو فقيراً .
لقد وجدت جان فالجان جميلاً ، تماماً كما قد وجدت الكوخ جميلاً .

تلك هي آثار الفجر ، والطفولة ، والصبا ، والبهجة . وإن لجدّة الارض والحيــاة صلةً بذلك . فليس شيء اشد سحراً من الأصباغ الزاهية التي تنفحها السعادة على العليّة . لقد كان لنا جميعاً ، في ماضي ايامنا ، مسكن حقير خرافيّ .

لقد اقامت الطبيعة هوةً عريضة — فترة خمسين عاماً — ما بين جان فالجان وكوزيت . ولكن هذه الهوة ردمها القدر . لقد جمع القَدَر ، فُجاءةً ، وقرن بقوته التي لا تقاوم ، ما بين هاتين الحياتين المقتلعتي الجذور ، المتباينتين في السن ، المتشابهتين في الأسى . والحق ان إحداها تمّمت الاخرى . فقد كانت غريزة كوزيت تبحث عن أب ، كما كانت غريزة جان فالجان تبحث عن ولد . وكان في اجتماعهما ما يفيد

معنى عثور كلٌّ منهما على ضالته . وفي تلك اللحظة العجيبة التي تماسّت فيها أيديهما التحم احدهما بالآخر . وحين تبادلت روحاهما النظر ، ادركا ان كلًا منهما في حاجة الى رفيقه ، وتعانقا عناقاً حاراً .

ولو أردنا ان نحمّل الكلمات معناها الاشدّ شمولاً وإطلاقاً اذن لكان في ميسورنا ان نقول ان جان فالجان – وقد فُصِل عن كل شيء بجدران القبر كما فصلت رفيقته الصغيرة – كان الرجل الأرمل ، وان كوزيت كانت الفتاة اليتيمة . وهذا الوضع انتهى بجان فالجان الى ان يصبح ، بمعنىً سماوي ، أبا كوزيت .

والواقع ان الانطباعة الخفيّة التي احدثتها في نفس كوزيت ، وسط غابة « شيل » ، يدُ جان فالجان تلك التي قبضت على يدها في الظلام لم تكن وهماً ولكن حقيقة . لقد كان دخول هذا الرجل الى قدَرَ تلك الطفلة أشبه شيء بتدخل الله .

وفي غضون ذلك ، كان جان فالجان قد أحسن اختيار مخبأه . كان هناك في حالٍ من الأمن بدت كاملةً غير منقوصة .

وكانت الغرفة ، ذات الحجيرة الجانبية ، التي احتلها مع كوزيت ، هي تلك التي تطل نافذتها على الجادة . وكانت هذه النافذة هي الوحيدة في ذلك المنزل . ولم تكن ثمة نظرات جارٍ يُخشى أذاها لا من هذه الناحية ولا من الناحية المقابلة .

وكان الطابق الاول من رقم ٥٠-٥٢ أشبه شيء بملحقٍ خرب . كان يؤدي دور الاسطبل بالنسبة الى زارعي البقول في السباخ ، ولم يكن ثمة سبيل يصله بالطابق الاعلى . كان معزولاً عنه بالسقف الذي لم يكن فيه لا سلم ولا باب سقف ، والذي كان بمثابة « الحجاب الحاجز » للمسكن العتيق . وكان الدور العلوي يحتوي ، كما قلنا ، على عدة غرف وبضع عليّات كانت واحدةٌ منها فقط آهلة بامرأة عجوز خدمت جان فالجان بوصفها مدبّرة منزل . اما سائر الغرف فكانت مهجورة .

كانت هذه المرأة العجوز ، المشرّفة بلقب « **المستأجرة الرئيسية** » ،

والمكلفة في الواقع بمهام الحارسة او البوابة ، هي التي أجّرته هـذا المأوى يومَ عيد الميلاد . وكان قد أوهمها انه ثري أفقرتـه « سندات اسبانيا » ، وانه يعتزم ان يقطن هناك مع حفيدته . وكان قد دفع اليها اجر الغرفة عن ستة أشهر ، مقدماً ، وكلف العجوز في ان تؤثث الغرفة والحجيرة على النحو الذي وصفنا . وكانت هذه المرأة العجوز هي التي أضرمت النار في الموقد ، وهيأت لهما كل شيء ، ليلة وصولهما .

وتصرّمت أسابيع . وعاش هذان المخلوقان عيشةً سعيدة في ذلك المأوى الحقير .

ومنذ مطلع الفجر ، كانت كوزيت تضحك ، وتهذر ، وتغني . إن للاطفال اغانيهم الصباحية ، مثل الطيور .

وكان يتفق في بعض الاحيان ان يمسك جان فالجان بيدها الصغيرة الحمراء ، التي شققها بردُ الشتاء ، ويقبّلها . ولم تكن الطفلة المسكينة ، المتعوّدة ان تُضرَب ، لتفهم معنى ذلك ، فكانت ترتـد الى الوراء في حياء .

وفي بعض الاحيان كان يغلب عليها الجدّ ، وتتأمل فستانها الصغير الاسود . إن كوزيت ما عادت ترتدي اسمالاً بالية ؛ إنهـا ترتدي ثوب الحداد . لقد فارقت الشقاء ودخلت الحياة .

وكان جان فالجان قد شرع يعلمها القراءة . وأحياناً ، كان يتذكر – فيما هو يعلم الطفلة كيف تتهجى – أنه انما تعلم القراءة ، في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لكي يفيد منها في عمل الشر . وها هو هدفه ذاك ينقلب الى تعليم القراءة لطفلة صغيرة . وعندئذ كان العجوز المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يضحك ضحكة الملائكة الراشحة بالتأمل .

لقد استشعر أن في ذلك تعمداً من قوة علوية ، استشعر انهـا ارادة كائن فوق البشر ، واستغرق في تفكيره الحالم . إن للافكار الخيرة مهاويها كالافكار الشريرة سواء بسواء .

وكان تعليم كوزيت القراءة وتركها تلعب هما حياة جان فالجان كلها تقريباً . وبعد ذلك راح يحدثها عن امها ويعلمها كيف تصلي .

وكانت تناديه : أبي ، ولا تعرفه بغير هذا الاسم البتة .

كان يسلخ ساعات وهو يتأملها تُلبس دميتها ثيابها ثم تنزعها عنها ، ويستمع اليها وهي تغني وتهذر . ومن ذلك الحين بدت الحياة في عينيه ملأى بالمتعة ، وبدا الناس خيّرين منصفين . ولم يعد لينحي باللائمة ، بينه وبين نفسه ، على احد ما ، او ليحمله تبعة ظلم ما ، ولم يعد يرى اي سبب يدعوه الآن الى ان لا يعمّر طويلاً ، بعد أن أحبته هذه الطفلة . لقد تطلّع الى مستقبل طويل تنيره كوزيت بضياء فاتن . والحق ان خير الناس ليسوا منزهين عن بعض الافكار الانانية . فقد كان يخطر له ، احياناً ، وبضرب من الابتهاج ، انها لن تكون مليحة الوجه بحال .

وليس هذا غير رأي شخصي . ولكن اذا اردنا ان نعبر عن فكرتنا كاملة ، في النقطة التي بلغها جان فالجان عندما شرع يحب كوزيت ، قلنا ان من غير الثابت عندنا أنه ما كان في حاجة الى هذا الزاد الجديد من الطيبة لكي يتمكن من مواصلة السير في الطريق القويم . كان قد رأى سوء خلق الناس وشقاء المجتمع في مظاهر جديدة مظاهر غير كاملة ، ولا تُظهر مع الأسف غير جانب واحد من الحقيقة — القدر المقسوم للمرأة ملخّصاً في فانتين ، وسلطة الدولة متمثلةً في جافير . لقد أعيد الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، هذه المرة ، لأنه عمل صالحاً . وكانت امواج جديدة من المرارة قد اجتاحته ؛ وعصف به الاشمئزاز والسأم . وكادت ذكرى الاسقف نفسها ان يعتريها الكسوف لتعاود الظهور بعد ذلك وضاءة مظفّرة من غير شك ؛ ولكن هذه الذكرى المباركة اصابها الوهن آخر الأمر . ومن يستطيع ان يثبت ان جان فالجان لم يكن على وشك اليأس والتردّي في هاوية الشر ؟ وهنا أقبل الحبّ فاذا به يغدو قوياً من جديد . واأسفاه ! إنه لم يكن

اقلّ ضعفاً من كوزيت . لقد اسبغ حمايته عليها ، فمنحته هي القوة . بفضله امسى في ميسورها ان تسير في طريق الحياة ؛ وبفضلها أمسى في ميسوره ان يلتزم الفضيلة . كان هو سِناد هذه الطفلة ، وكانت هذه الطفلة هي نقطة ارتكازه . إيه ايهـــا اللغز الالهي الذي لا يسبر غوره ، لغز توازن القدر !

٤
ملاحظات المستأجرة الرئيسية

كان جان فالجان من الحكمة بحيث حظّر على نفسه مغادرة الغرفة في ساعات النهار . كان كل مساء يخرج للنزهة ، حوالى الغسق ، فيتمشى ساعةً او ساعتين ، وحده في بعض الاحيان ، ومع كوزيت في كثير من الاحيان ، متخيّراً ازقة الجادة الاكثر انعزالاً ، او قاصـــداً الى الكنائس عندما يهبط الليل . وكان مولعاً بالذهاب الى كنيسة « سان ميدار » ، وهي اقرب الكنائس الى مثـــواه . وكانت كوزيت ، تبقى ، اذا لم يصطحبها جان فالجان ، الى جانب المرأة العجوز ؛ ولكن الطفلة كانت تجد اعظم البهجة في الذهاب مع الرجـــل الطيب . كانت تؤثر ان تقضي ساعة معه على أن تجلس وجهاً لوجه مـع كاترين نفسها . وكان يمشي ممسكاً بيدها ، ويحدّثها أحاديث حلوة .

واتفق ان أصبحت كوزيت لعوباً الى حدّ بعيد .

وكانت المرأة العجوز تدبّر المنزل وتنهض بأمر المطبخ ؛ وكانت هي التي تخرج الى السوق لشراء الحاجات الضرورية .

لقد عاشا عيشة مقتصدة . كانت النار هزيلةً دائماً في موقدهـــا . ولكن جان فالجان – شأنَ الناس الذين تكتنفهم ظروف حرجة – لم

يحدث أيّ تغيير في اثاث الغرفة ، بل أبقاه كما كان في اليوم الأول . كل ما في الامر أنه أوعز بأن بوضع بابٌ خشبيّ محلّ باب حجيرة كوزيت الزجاجي .

وكان يرتدي ، أبداً ، سترته الطويلة الصفراء ، وسرواله الاسود ، وقبعته العتيقة . وفي الشارع كان الناس يحسبونه شحاذاً . وكان يتفق ، في بعض الاحيان ، ان تستدير النسوة الصالحات ، ويقدّمن اليه فلساً .

وكان جان فالجان يأخذ الفلس وينحني في اتّضاع . وكان يتفق في بعض الاحيان ايضاً ، ان يلتقي بائساً يلتمس صدقة ، فلا يكون منه إلا ان يلتفت الى وراء ليتأكد من ان احداً لا يراه ، ويقترب من المسكين خلسةً ، ويضع في يده قطعة نقدية ، هي غالباً قطعة فضية ، ثم يسارع الى الابتعاد عنه . وكان لذلك مساوئه . لقد بدأ الناس يعرفونه ، في الحي ، باسم **الشحاذ الذي يوزع الصدقات** .

وكانت « المستأجرة الرئيسية » — وهي مخلوقة مقطّبة الوجه ، معجونة بالملاحظة الدقيقة لكل ما يتصل بالجيران ، على طريقة اهل الضواحي — تراقب جان فالجان مراقبة دقيقة من غير ان تثير ارتيابه . كانت صماء بعض الشيء ، وذلك ما جعلها مهذارة . وكان قد بقي لها من ماضيها سنّان ، الاولى في الفكّ الاعلى ، والثانية في الفك الاسفل ، وكانت لا تفتأ تقرع هاتين السنين احداهما بالأخرى . وكانت قد وجهت بعض الاسئلة الى كوزيت التي كانت — لجهلها كل شيء — غير قادرة على أن تقول اكثر من أنها أقبلت من مونفيرماي . وذات صباح رأت هذه الجاسوسة جان فالجان يمضي ، وعلى وجهه سيما بدت غريبةً في نظر المرأة الثرثارة ، الى احدى غرف البيت المهجورة . فتبعته بمثل خطى هرّة عجوز ، ووفّقت الى ان تراه ، من غير ان يراها هو ، من خلال خصاص الباب المقابل مباشرةً . وكان جان فالجان قد ولّى ظهرَهُ ذلك البابَ ، زيادةً في الحذر من غير شك . وبصرت العجوز به

يبحث في جيبه ، ويخرج منها مِثبرة ، ومقصاً ، وخيطاً ، ثم يعمد الى فتق بطانة جانب من جوانب سترتــه الطويلة ويخرج من تحتها قصاصة ورق ضاربــة الى الصفرة ما لبث ان نشرها . ولاحظت العجوز ، في ذعر ، انها ورقة نقدية من ذوات الالف فرنك . كانت هي الورقــة الثانية ، او الثالثة ، من اوراق هـــذه الفئة ، التي وقعت عليها عيناها منذ ان أبصرت النور . وفرّت والرعب يعصف بها .

وبعد لحظة دنا جان فالجان منها ، وسألها ان تصرف ورقـة الألف فرنك هذه ، مضيفاً إنها دخلهُ نصف السـنويّ ، الذي تلقّاه البارحـة . وفي ما بينها وبــين نفسها ، تساءلت العجوز : « أين ؟ » إنه لم يغادر الغرفـة إلا في الساعة السادسة مساءً ، وخزينة الدولة لا تظلّ مفتوحة - من غير شك - حتى تلك الساعة . وصرفت العجوز الورقة النقدية ، وأطلقت العنان لظنونها وأحداسها . وادّت ورقة الالف فرنـك هذه ، وقد عُلّق عليها وضوعفت ، الى نشوء جمهرة من الأحاديث اللاهثة بين عجائز شارع « فينيْ » سان مارسيل « الثرثارات .

وبعد بضعة ايام اتفق ان كان جـــان فالجان ، ينشر الخشب في الرواق ، غير مُرتدٍ سترته الطويلة . وكانت المرأة العجوز في غرفته تنظفها وترتبها . كانت وحدها . ذلك أن كوزيت كانت تحدق ، في إعجاب ، الى الخشب المنشور . وبَصُرَت العجوز بالسترة المعلقة بمسمار ، وفحصتها . كانت البطانة قد خيطت من جديد . وتلمستها في عنـــاية ، واعتقدت انها ستجد في ثنياتها وتحْشياتها اكداساً من الورق . اوراقاً مالية اخرى من ذوات الالف فرنك من غير شك !

ولاحظت ، الى جانب ذلك ، ان جيوبـــه كانت حافلةً بمختلف ضروب الاشياء . لم تكن ثمة تلك الأبر والمقص والخيوط التي سبق لها ان رأتها فحسب ، ولكنها عثرت بالاضافة الى ذلك عـــلى حافظة دراهم ضخمة ، ومدية كبيرة جداً ، وعلى عدة لِمَم من الشعر المستعار

ـ وهي ظاهرة تثير الريبة ـ ذات ألوان مختلفة . لقد بدا لها وكأن كل جيب من جيوب تلك السترة الطويلة يحتوي على شيء يُستعان به ضدّ حادث مفاجيء .

وعلى هذا النحو انتهى سكان البيت العتيق الى ايام الشتاء الاخيرة .

٥

قطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات

تقع على الارض فتحدث ضجة

وكان قرب سان ميدار شحاذ يجلس القرفصاء فوق حافة بئر عمومية مسدودة . وكان جان فالجان كثيراً ما يتصدق على هذا الرجل . إنه ما كان ليمرّ به الا ويعطيه بضعة فلوس . وكان يتحدث اليه في بعض الاحيان . ولقد زعم حساد هذا الشحاذ انه يعمل في خدمة البوليس . كان خادماً عجوزاً في كنيسة من كنائس العوامّ ، في الخامسة والسبعين من العمر ، فهو يهمهم بصلواته وأدعيته على نحو موصول .

وذات مساء ، فيما كان جان فالجان يجتاز تلك الطريق ، ولم تكن كوزيت معه ، لمح الشحاذَ جالساً في مكانه المألوف تحت مصباح الشارع المضاء منذ لحظة . وبدا الرجل ، وفقاً لعادته وكأنه يصلي ؛ وكان منحنياً انحناءً كاملاً ، فتقدم جان فالجان نحوه ، ووضع في يده صدقته المعتادة . وفجأة ، رفع الشحاذ عينيه ، وحدّق الى جان فالجان ، ثم طأطأ رأسه في سرعة . وكانت هذه الحركة اشبه بوميض برق . وارتعد جان فالجان . لقد تراءى له انه لمحَ اللحظة على ضوء مصباح الشارع ، لا وجه خادم الكنيسة العجوز الوديعَ الفاغرَ الفم ، ولكنْ وجهاً

فظيعاً يعرفه جيداً . وغلب عليه مثلُ ذلك الشعور الذي يغلب على المرء حين يجد نفسه ، فجاءةً ، وتحت جنح الظلام ، وجهاً لوجه أمام غر من الاغمار . وارتدّ الى الوراء ، مذعوراً متحجراً ، غير واجد الجرأة لا على أن يتنفس ولا على أن يتكلم ، لا على ان يبقى ولا على أن يفرّ ، مسدداً نظره الى الشحاذ الذي عاود خفضَ رأسه المغطى بخرقة ممزقة ، والذي بدا وكأنه ما عاد يحسّ بوجوده قط . في تلك اللحظة الغريبة حالت غريزة ما – لعلها غريزة حفظ الذات ، الخفيّة – بين جان فالجان وبين ان ينطق بكلمة . كان شكل الشحاذ ، وأسماله البالية ، وهيئته العامة هي هي لم يتغير منها شيء . وقال جان فالجان مخاطباً نفسه : « تباً لي ! اني معتوه ! أنا احلم ! مستحيل ! » وانقلب الى غرفته قلقاً اعظم القلق .

ولم يجرؤ الا بشقّ النفس ، على ان يعترف ، حتى لنفسه ، بأن الوجه الذي ظن أنه رآه كان وجه جافير .

وفي تلك الليلة ندم – وهو يفكر في المسألة – لعدم استجوابه ذلك الرجل بحيث يُكرهه على ان يرفع رأسه كرة أخرى .

وحين هبط الليل من اليوم التالي قصد الى هناك من جديد . كان الشحاذ في مكانه . وقال جان فالجان في عزم : « مساء الخير ، ايها الرجل الطيب ! » واعطاه فلساً . فرفع الشحاذ رأسه واجاب في صوت منتحب : « شكراً ، يا سيدي الطيب ، شكراً ! » انه لم يكن ، في الحق ، غير خادم الكنيسة العجوز .

واطمأنت نفس جان فالجان اطمئناناً كاملاً . بل لقد شرع يضحك . وقال في ما بينه وبين نفسه : « يا الشيطان ! كيف كاد يخيل اليّ اني رأيت جافير ؟ آه ، يبدو ان بصري قد بدأ يضعف حقاً ! » ولم يعاود التفكير في ذلك .

وبعد بضعة أيام ، ولعلّ الساعة كانت الثامنة مساء ، كان جان

فالجان في غرفته يعلم كوزيت التهجية ، فتُردّد الاحرف من بعده في صوت مرتفع ، عندما سمع باب البناء العتيق يفتح ثم يوصد من جديد . وبدا ذلك غريباً في نظره . ذلك ان المرأة العجوز ، وكانت وحدها تشاركه السكنى في ذلك البيت ، كانت تأوي الى فراشها كل ليلة ، عند هبوط العتمة ، لكي توفر الشمع . واومأ جان فالجان الى كوزيت بان تلازم الصمت . لقد سمع وقع قدمين تصعدان السلم . لعلها المرأة العجوز وقد استشعرت مرضاً فقصدت الى الصيدلي ثم عادت . وأصغى جان فالجان . كان وقع القدمين ثقيلاً ، وكان يبدو وكأنه وقع قدمي رجل . ولكن المرأة العجوز كانت تنتعل حذاء غليظاً ، وليس ثمة ما يشبه وطء أقدام الرجال اكثر من وطء اقدام النسوة العجائز . ومع ذلك ، فقد أطفأ جان فالجان شمعته .

وطلب الى كوزيت ان تأوي الى فراشها ، قائلاً لها في صـــوت كالهمس :

— « نامي في سكون كثير ! »

وفيما هو يقبّلها من جبينها انقطع وقعُ القدمين . وظل جان فالجان صامتاً ، جامداً ، مديراً ظهره الى الباب ، جالساً عـلى كرسيه الذي لم يتزحزح عنه قط ، حابساً أنفاسه في الظلام . حتى اذا انقضت فـترة طويلة لم يسمع خلالها شيئاً ما ، استدار من غير ان يحدث اي ضجة ، ورفع عينيه نحو باب غرفته فرأى من ثقب القفل نوراً ، وكان هذا النور اشبه بكوكب مشؤوم في خلفية الباب والجدار السوداء . كان ثمة من غير شك ، شخص ما ، يحمل شمعة ؛ وكان هذا الشخص يصغي .

وانقضت بضع دقائق ، واختفى النور . ولكنه لم يسمع وقع قدمين ، مما بدا وكأنه يؤذن بأن ذلك الشخص الذي كان يصغي لدى الباب قد خلع نعليه .

وانطرح جان فالجان على السرير من غير ان ينزع ثيابه ، ولكنه لم

يستطع ان يغمض عينيه تلك الليلة .

وعند الصباح ، فيما كان يهوّم من الأعياء أفاق كرة اخرى على صرير باب غرفة قائمة في اقصى الرواق ، ثم سمع وقع خطى الرجل نفسه الذي ارتقى السلم في الليلة البارحة . واقترب ذلك الوقع . ووثب من سريره ، ووضع عينه على ثقب الباب ، وكان كبيراً ، رجاةَ ان يلمح الشخص ، كائناً من كان ، الذي اتخذ سبيله الى ذلك البيت في موهن من الليل والذي استرق السمع لدى بابه . كان رجلاً ، في الواقع ، ذلك الذي مرّ بغرفة جان فالجان ، ولكن من غير ان يتوقف هذه المرة . وكان الرواق لا يزال مظلماً الى حدّ لم يمكّنه من ان يتبين وجهه ؛ ولكن حين وصل الرجل الى السلم انعكس عليه من الخارج شعاع جعله يبرز مثل صورة مظللة سوداء ، ورأى جان فالجان ظهره رؤية كاملة . كان الرجل طويل القامة ، يرتدي ريدنغوتاً طويلاً ، ويحمل تحت ذراعه هراوة ضخمة . كانت تلك هيئة جافير الرهيبة .

وكان في ميسور جان فالجان ان يلقي عليه نظرة اخرى من خلال نافذته المطلة على الجادة ، ولكن ذلك كان يقتضيه ان يفتح هذه النافذة ، وهذا ما لم يجرؤ عليه .

كان واضحاً ان هذا الرجل قد دخل الى البناء وفي يده مفتاح ، وكأنه يدخل الى بيته . من الذي اعطاه هذا المفتاح ؟ وما معنى هذا ؟

وعند الساعة السابعة صباحاً ، حين اقبلت المرأة العجوز لتنظف الغرفة ، رمقها جان فالجان بنظرة حادة ، ولكنه لم يوجّه اليها ايما سؤال . وبدت المرأة الطيبة في حال طبيعية .

وفيما هي تكنس ، قالت :

— « لعل سيدي سمع شخصاً ما ، يدخل البيت الليلةَ البارحة ؟ » في مثل تلك السنّ ، وعلى تلك الجادة كانت الثامنةُ مساء هي الليل الاشدّ حلكةً .

واجابها في جَرْس ليس اكثر منه طبَعية :

— « بالمناسبة ، هذا صحيح . من كان ذلك الشخص ؟ »

فقالت المرأة العجوز :

— « إنه مستأجر جديد وَفدَ على المنزل . »

— « وما اسمه ؟ »

— « لم اعد اذكر ذلك . ديون أو دومون . شيء من هـذا القبيل . »

— « ومن هو ، مسيو دومون هذا ؟ »

وتأملته العجوز ، لحظةً ، بعينيها النَّمسيتين * الصغيرتين ، وأجابت :

— « إنه رجل يعيش على دخلِه ، مثلك انت . »

وجائز ان لا تكون العجوز قد رَمَتْ الى شيء ، ولكن جان فالجان اعتقد أنها استهدفت بملاحظتها تلك أمراً ما .

وحين مضت لسبيلها نضد ستة من الفرنكات ، كانت في احد الادراج ، على شكل إصبع ، ووضعها في جيبه . وعلى الرغم من الحذر البالغ الذي اصطنعه في هذا العمل لكي لا يُسمَع رنين الفضة ، فأن قطعة نقدية من ذوات الخمسة الفرنكات افلتت من قبضته ، وكرّت ضاجّةً فوق ارض الغرفة .

وعند الغسق ، هبط السلم ، وأجال طرفه في طول الجادة وعرضها . ولم يقع نظره على احد . لقد بدت الجادة مهجورةً هجراً كاملاً . صحيح ان من الجائز ان يكون رجلٌ ما ، مختبئاً خلف شجرة .

وارتقى السلم من جديد .

وقال لكوزيت :

— « تعالي ! »

وأمسك بيدها ، وغادرا المكان .

---

* الشبيهتين بعيني النمس .

الكتاب الخامس

المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قصاصة

١

خطوط الستراتيجية المتعرجة

لكي نفهم الصفحات التي سوف تلي مباشرة ، وصفحات اخرى سنقع عليها في ما بعد ، يتحتم علينا هنا ان ننص على هذه الملاحظة :

انقضت سنوات طوال ومؤلف هذا الكتاب — الذي يجد نفسه ، في أسف ، مضطراً الى التحدث عن نفسه — غائب عن باريس . ولقد تغيّرت باريس ، منذ ذلك الحين ، تغيراً كبيراً . إن مدينة جديدة قد نشأت ، هي عنده ، بمعنى من المعاني ، مجهولة . وهو في غير حاجة الى القول انه يحب باريس ؛ فباريس هي « مسقط رأس »

روحه . ومن طريق الهدم وإعادة البناء أصبحت باريسُ شبابهِ - باريس التي يحتفظ بها ، بخشوع ، في ذاكرته - باريساً قديمة ترقى الى عهد ماضٍ . فلندْعهُ يتحدث عن باريس تلك وكأنها لا تزال قائمة . فقد يقود المؤلف قراءه الى بقعة ما ، قائلاً : « في الشارع الفلاني كان البيت الفلاني » ثم يتفق ان لا يكون قد بقيَ ، بعدُ ، لا شارع ولا بيت . ولسوف يتحرى القراء الحقيقة ، اذا أحبوا ان يتجشموا عناء ذلك . اما هو فيجهل باريس الجديدة ، وهو يكتب ، وباريس القديمة ماثلة نصب عينيه في صورة خادعة أثيرة لديه . إن ما يوقع في نفسه شعوراً عذباً ان يتخيل أنه لا يزال ثمة ، وراءه ، شيء مما رآه حين كان في وطنه ، وان كل شيء لم يَزُلْ ولم يتلاش . ذلك بأن المرء ، حين ينعم بالعيش في ارض الوطن ، يتوهم ان هذه الشوارع لا تعنيه في قليل او كثير ، وان هذه النوافذ ، وهذه السقوف ، وهذه الابواب ، ليست عنده بشيء ، وان هذه الجدران اجنبية بالنسبة اليه ؛ وان هذه الاشجار لا يميزها شيء عن الاشجار الاخرى ، وان هذه البيوت التي لا يدخلها البتة لا غَناء فيها ؛ وان حصباء الطريق التي يمشي عليها ليست غير حجارة . ولكنْ في ما بعد ، حين يُحرم المرء نعمة العيش في الوطن ، يجد ان هذه الشوارع عزيزة جداً ؛ وان هذه السقوف ، وهذه النوافذ ، وهذه الابواب قد ضاعت من يديه ، وان هذه الجدران ضرورية له ، وان هذه الاشجار غالية على فؤاده ، وان هذه البيوت التي لم يدخلها قط كان يدخلها كل يوم ، وانه قد خلّف شيئاً من احشائه ، ومن دمه ، ومن قلبه ، فوق حصباء الطريق تلك . عندئذ يجد المرء ان جميع تلك المواطن التي لم يعد يراها ، والتي قد لا يراها كرة اخرى ابداً ، والتي احتفظ بصورتها في مخيّلته ، تكتسب فتنةً موجعة ، وتعاوده بمثل كآبة الشبح ، وتجعل الارضَ المقدسة تتراءى لناظريه ، فهي اذا جاز التعبير فرنسة نفسها .

ويجد أنه يحبها ، ويستحضرها كما هي ، كما كانت ، ويتشبث بها ، غير راغب في ان يغيّر شيئاً ، لأن الانسان يتعلق بصورة الوطن كما يتعلق بوجه امه .

فليُسمح لنا اذن ان نتحدث عن الماضي في الحاضر . والآن ، نلتمس من القارىء ان يأخذ علماً بهذا ، ونستأنف الحديث .

كان جان فالجان قد غادر الجادة في الحال ، وشرع يجوب الشوارع في حذر ، مكسّراً خطوط سيره ما وسعه تكسيرها ، مرتداً فجأة على آثاره لكي يستيقن انّ احداً لا يتعقبه .

وهذه المناورة من شيمة الأيّل المطارَد . وفي البقاع التي تخلّف القدم أثراً فيها تتمتع تلك المناورة – الى جانب حسناتها الاخرى – بالقدرة على خداع القانصين والكلاب من طريق الآثار المضادّة . وذلك ما يُدعى ، في علم القنص بالكلاب ، « عودة الأيّل الزائفة الى كناسه » .

كان القمر بدراً . ولم يكن جان فالجان مغضباً لذلك . فقد فصّل القمر ، وهو ما يزال جدّ قريب من الافق ، مواشير ضخمة من الضوء والظلّ في الشوارع . وكان في ميسور جان فالجان ان ينساب في محاذاة المنازل والجدران ، في الجانب القاتم ، وان يراقب الجانب المضيء . ولعله لم يُدرك إدراكاً كافياً ان الجانب القاتم ، قد فاتَهُ . ومع ذلك ففي جميع الشوارع الصغير المهجورة المجاورة لشارع بوليفو ، كان على مثل اليقين من ان احداً لا يلحق به

ومشت كوزيت من غير ان تسأل أيا سؤال . كانت آلام السنوات الستّ الأولى من حياتها قد أدخلت شيئاً من روح الطاعة العمياء الى طبيعتها . والى هذا – وهذه ملاحظة سوف نرجع اليها في اكثر من مناسبة – فقد أَلِفَتْ ، من غير ان تعيَها وعياً كاملاً ، صِفات صديقها الطيب الفارقة وغرائب القَدَر . وفوق ذلك كله ، فقد كانت

تستشعر الأمن ، ما دامت الى جانبه .

ولم يكن جان فالجان يدري ، اكثر من كوزيت ، الى اين كان يقصد . كان مفوّضاً أمره الى الله ، كما فوّضت هي أمرَها اليه . لقد بدا له أنه يمسك ، هو ايضاً ، بيدِ كائنٍ اكبر منه . لقد استشعر ان كائناً غير منظور ، يقوده . واخيراً ، فلم تكن عنده أيما فكرة محدّدة ، أو أيما خطة ، أو أيما مقصد . بل إنه لم يكن واثقاً كل الثقة من أن ذلك الرجل هو جافير . والى هذا ، فقد يكون هذا الرجل جافير ، من غير ان يعلم انه جان فالجان . ألم يكن متنكراً ؟ ألم يعتقد القوم أنه قد مات ؟ ومع ذلك ، فقد حدثت اشياء غريبة منذ بضعة ايام . إنه في غير ما حاجة الى مزيد من ذلك . لقد وطّن العزم على ان لا يدخل بيت غوربو كرةً اخرى . وكالحيوان المطرود من مأواه ، راح يبحث عن ثقب يختبيء فيه ريثما يجد ثقباً يقيم فيه .

واجتاز جان فالجان متاهات عديدة متباينة في حي موفتار الذي كان قد أوى حتى في تلك اللحظة الى الرقاد ، وكأنه لا يزال يحيا في ظل نظام القرون الوسطى ، وتحت نير منع التجول ليلاً . لقد احدث مزاوجات مختلفة في استراتيجية حكيمة ما بين شارع سانسييه وشارع كوبو ، وشارع باتوار سان فيكتور وشارع بوي ليرميت . ان ثمة بيوتاً في تلك البقعة ، ولكنه لم يدخل اياً منها لعدم وقوعه على ما يلائمه منها . وكان موقناً من انهم اذا كانوا يقتفون اثره ، اتفاقاً ، فلا ريب في انهم قد اضاعوه الآن .

وحين اعلنت ساعة « سان ايتيين دو مون » الحادية عشرة عَبَرَ شارع بونتواز أمام مكتب مفوضية البوليس الذي يحتل المبنى رقم ١٤ . وبعدبضع لحظات دعته الغريزة التي تحدثنا عنها من قبل الى ان يلتفت الى الوراء . وفي تلك اللحظة رأى في وضوح — بفضل مصباح المفوضية الذي نمّ عليهم —

ثلاثة رجال كانوا يتبعونه عن كثب يرون واحداً إثر واحد تحت ذلك المصباح في الجانب المظلم من الشارع . ودخل احد هؤلاء الرجال المجازَ المؤدي الى بيت المفوضية . ولقد بدا له الرجلُ السائر في الطليعة مريباً على نحو لا يحتمل الشك .

وقال لكوزيت :

– « تعالي ، يا بنيّتي ! »

وسارع الى مغادرة شارع بونتواز .

وقام بدورةٍ ، وطاف حول « مجاز البطاركة » الذي كان موصداً بسبب من انتصاف الليل ، وأغذّ السير في شارع الـ « إيبيه دو بوا » وشارع الـ « آرباليت » ، وغاص في « شارع البريد » .

وكانت ثمة ساحةٌ ، حيث تقوم اليوم كلية رولين ، وحيث ينشعب شارع « نوف سانت جانفييف » .

(ولسنا في حاجة الى القول إن شارع « نوف سانت جانفييف » هو شارع قديم ، وان مركبة بريد واحدة ما كانت تجتاز ، مرةً كل عشر سنوات ، « شارع البريد » ! وكان شارع البريد هذا ، في القرن الثالث عشر ، آهلاً بالخزّافين ، واسمه الحقيقي هو شارع الخزف .)

وسفح القمر اشعة مشرقة على هذه الساحة . واختبأ جان فالجان في مدخل بيت من البيوت ، مقدّراً ان في ميسوره ، اذا ما كان هؤلاء الرجال يواصلون مطاردته ، أن يراهم على وجه التأكيد رؤية واضحةً وهم يجتازون هذه الرقعة المضاءة .

والواقع ان اولئك الرجال ما لبثوا ان برزوا بعد ثلاث دقائق أو أقلّ . كانوا الآن أربعة . كانوا كلهم ذوي قامات طويلة ، وكانوا يرتدون سترات طويلة سمراء ، ويعتمرون بقبعات مدوّرة ، ويحملون هراوات ضخمة بأيديهم . ولم تكن قاماتهم الطويلة وقبضاتهم العريضة

اكثر ترويعاً من سيرهم المشؤوم في الظلام . كان يخيّل للمرء أنهم اربعة اشباح تنكـرت بملابس المواطنين .

وكفوا عن السير في وسط الساحة وشكلوا حلقةً اشبه بحلقات الناس حين يتبادلون الرأي . كانت تبدو عليهم سيما التردد . واستدار ذلك الذي تراءى انه يقودهم ، واشار بيده اليمنى ، اشارة كلها عزم ، نحو الجهة التي كان جان فالجان فيها . وبدا واحد من الآخرين وكأنه يشير في شيء من العناد الى الجهة المعاكسة . ولحظةَ استدار قائدهم اضاء القمر وجهه إضاءةً تامة ، وتبيّن جان فالجان وجهَ جافير تبيّناً كاملاً.

٢

من حسن الطالع ان في ميسور العربات ان تجتاز جسر اوسترليتز

ونفِدَ الشك عند جان فالجان . ولكنه لم ينفد ، لحسن الحظ ، عند اولئك الرجال . وأفاد من تردّدهم . كان ذلك وقتاً يضاع بالنسبة اليهم ، ووقتاً يُكتسب بالنسبة اليه . وبارحَ المدخل الذي كان يختبيء فيه ، واغذّ السير في « شارع البريد » متجهاً نحو « حديقة النبات » . وبدأت كوزيت تستشعر التعب . فرفعها بين ذراعيه ، وحملها . لم يكن في الشوارع احد ، ولم تكن المصابيح العامة قد اضيئت بسببٍ من القمر .

وضاعفَ سرعته .

وفي بضع خطىً ، وصل الى معمل غوبليه الخزفي ، وكان على واجهته خطٌ قديم ، جعلته أشعة القمر مقروءاً في وضوح :

« هنا مصنع ابن غوبليه ؛
تعالوا واختاروا جراراً وأباريق ،
وأصصاً للزهور ، وانابيب ، وآجرّاً .
ولكلّ وافد يبيع القلب مربّعات من بلاط . »

وخلّف وراءه « شارع المفتاح » ، ثم عَبَر « سان فيكتور » ، ومضى في محاذاة « حديقة النبات » ، سالكاً الشوارع المنخفضة ، حتى انتهى الى رصيف النهر . وهناك اجال البصر في ما حوله . كان الرصيف مهجوراً ؛ وكانت الشوارع مهجورة . ولم يكن احد خلفه . وتنفس الصعداء .

وانتهى الى جسر اوسترليتز .

وكانت السلطة لا تزال تتقاضى رسماً من عابري ذلك الجسر .

وقدّم نفسه الى موظف المكوس ، في مكتبه ، ودفع اليه فلساً .

فقال الموظف :

– « ينبغي ان تدفع فلسين . انك تحمل طفلةً تستطيع ان تمشي . إدفع رسماً عن شخصين . »

ودفع ، وقد غاظه ان يلفت عبوره النظرَ . إن كل فرار يجب ان يكون انزلاقاً .

كانت كارّةٌ ضخمة تعبر الـ « سين » في تلك اللحظة عينها ، وكانت مثله متخذةً الضفةَ اليمنى . وذلك شيء يمكن ان يُفيد منه جان فالجان . إن في ميسوره ان يجتاز الجسر كله في ظلّ تلك الكارّة .

وحوالى منتصف الجسر رغبت كوزيت ، وقد خدِرت رجلاها ، في أن تسير . فأنزلها الى الارض ، وأمسك بيدها .

واذ اجتاز الجسر لمح اكداساً من الخشب قائمةً امامه ، منحرفة قليلاً الى ناحية اليمين . فمضى في ذلك الاتجاه . وكان عليـــه لكي يبلغ ذلك المكان ، ان يغامر في اجتياز رقعة واسعة من الارض ، مكشوفة مضاءة.

ولم يتردد . كان واضحاً أن اولئك الذين تعقبوا خطواته قد أضلّوا السبيل .
واعتقد جان فالجان انه امسى في نجوة من الخطر . هذا صحيح ، ولكن احداً لم يكن يتبعه .

وأطلّ على شارع صغير ، هو شارع « شومان فير سان انطوان » ، يمتدّ بين مستودعين للخشب مطوّقين بجدران . وكان هذا الشارع ضيقاً ، مظلماً وكأنه صنع خصيصاً من أجله . وقبل ان يدخله ، التفت الى وراء . ومن موقفه ذاك كان في ميسوره ان يرى جسر اوسترليتز بطوله .

وفي تلك اللحظة ، دخل الجسرَ اربعة أشباح .

وسرت في اوصال جـان فالجان رعدة كتلك التي تسري في جسم الطريدة حين ترى الى الكلاب تتعقبها من جديد .

كان قد بقي عنده أملٌ واحد ، وهو ان يكون هؤلاء الرجال لمّا يدخلوا الجسر ، ولم يلمحوه لحظةَ اجتاز الرقعة الواسعة المضاءة ممسكاً بيد كوزيت .

في تلك الحال ، يكون في ميسوره ــ اذا ما انـدفع في الشارع الصغير المنبسط أمامه ، واذا ما وفق الى بـلوغ مستودعي الخشب ، والمستنقعات ، والحقول ، والاوض الفضاء ــ ان ينجو بنفسه .

لقد بدا له ان في إمكانه ان يفوّض أمره الى هذا الشارع الصامت . فدخله .

٣

انظر مخطط باريس عام ١٧٢٧

وبعد ان خطا نحواً من ثلاثمئة خطوة بلغ نقطة افترق فيها الشارع . لقد انشعب الى شارعين ، ينعطف احدهما ، منحرفاً ، نحو الشمال ،

وينعطف الآخر ، منحرفاً ، نحو اليمين . كان امام جان فالجان مثل فرعيْ حرف Y ، فأيّ الفرعين يختار ؟

ولم يتردد قطّ . وانعطف نحو اليمين .

لماذا ؟

لأن الفرع الايسر يقود الى الضاحية ، يعني الى المناطق الآهلة بالسكان ؛ ولأن الفرع الايمن يقود الى البرية ، يعني الى المناطق المهجورة .

ولكنهما ما عادا يمشيان ، الآن ، في سرعة . لقد أعاقت خطوات كوزيت خطوات جان فالجان .

ورفعها عن الارض حاملاً اياها من جديد . وأسندت كوزيت رأسها الى كتف الرجل الطيب ، ولم تنبس ببنت شفة .

وكان يستدير ، بين الفينة والفينة ، وينظر خلفه . وكان يحرص على ان يلتزم الجانب المظلم من الشارع أبداً . كان الشارع مستقيماً وراءه . وفي المرتين الاوليين او المرات الثلاث الاولى التي استدار فيها ، لم يَرَ شيئاً . كان الصمت عميقاً ، ولقد واصل سيره في شيء من الاطمئنان . وفجأة ، بدا له ، حين استدار كرّة اخرى ، انه رأى شيئاً يتحرك بعيداً في الظلام ، عند ذلك الجزء الذي اجتازه من الشارع .

وانطرح الى الامام ، ولا نقول مشى ، راجياً ان يجد شارعاً جانبياً يفرّ من خلاله ، ويروغ كرة اخرى من مطارديه .

ووصل الى جدار .

بيد ان هذا الجدار لم يحل بينه وبين الذهاب الى ابعد . كان جداراً يحيط بزقاق معترض ينتهي به الشارع الذي كان جان فالجان فيه آنذاك .

وهنا ايضاً تعيّن عليه ان يقرر : أينطلق الى اليمين ام ينطلق الى الشمال ؟

ونظر الى اليمين . كان الزقاق يمتد الى بقعة قائمة بين بعض الابنية التي كانت إما سقائف أو أهراء ، ثم ينتهي فجأة . كان آخر هذا الزقاق غير النافذ بادياً للعيان — جدار ضخم ابيض .

ونظر الى الشمال . كان الزقاق من هذه الناحية مفتوحاً ، وكان يتصل ، على بعد مئتي خطوة تقريباً ، بشارع كان هو رافداً من روافده . وفي ذلك الاتجاه بالذات كانت السلامة .

ولحظةَ قرّر جان فالجان ان ينعطف شمالاً ، لكي يحاول بلوغ الشارع الذي رآه عند نهاية الزقاق ، لمح عند زاوية الزقاق والشارع الذي كان على وشك الانطلاق نحوه شبه تمثال اسود جامد .

كان شخصاً ما — رجلاً — كُلّف بالوقوف هناك من غير شك ، وكان ينتظره قاطعاً الطريق عليه .

وأجفل جان فالجان .

وهذا الجزء من باريس الواقف فيه جان فالجان اللحظة ، والواقع بين ضاحية سان أنطوان ولا « لارابيه » ، واحد من تلك الاجزاء التي غيّرتها الاعمال الحديثة من قمة الرأس الى اخمص القدم ، مبشّعةً اياها في زعم بعض الناس ، مجمّلةً اياها في زعم بعضهم الآخر . لقد ولت جنائن الخُضَر ، ومستودعات الخشب ، والابنية العتيقة . وحلت محلها اليوم شوارع واسعة جديدة ، ومدرجات ، وسيركات ، وميادين سباق ، ومحطات السكة الحديدية ، وسجن ، هو سجن مازاس. يعني التقدّم ، كما نرى ، وملطّفاته

منذ نصف قرن ، كانت البقعة التي انتهى اليها جان فالجان تدعى في اللغة الشعبية الدارجة التي تصرّ على اطلاق اسم « الامم الأربع » على « مؤسسة فرنسة » واسم « ا « فايدو » على « الاوبرا كوميك » — نقول كانت تلك البقعة تدعى « ا « بيكبوس الصغير » في هذه اللغة .
« باب سان جاك » ؛ « باب باريس » ؛ « حاجز الرقباء » ؛ « ا « بورشيرون » ؛ « ا « غالبوت » ؛ « ا « سيليستين » ؛ « ا « كابوسين » ؛

الـ « مايل » ؛ الـ « بورب » ؛ « شجرة الكاركوفي » ؛ « بولونيـة الصغيرة » و « بيكبوس الصغير » ، تلك هي اسماء باريس القديمة التي تعوم فوق الاسماء الجديــدة . إن ذاكرة الشعب لتطفو فوق حطام الماضي هذا .

وكان لا « بيكبوس الصغير » - الذي لم يكن له في الواقع وجود حقيقي إلا بشق النفس ، والذي لم يكن اكثر من تصميم حيٍّ مـن أحياء السكنى - ذلك المظهر الرهباني الذي لمدينةٍ اسبانية تقريبـاً . كانت الطرق معبدة تعبيداً رديئاً ، وكانت الشوارع مُنشأة عـلى نحو هزيل . فوراء الشارعين او الثلاثة الشوارع التي نوشك ان نتحدث عنها لم يكن ثمة غير الأسوار والوحشة . فلا دكانٌ ، ولا عربةٌ . بـل لا شمعةٌ مضاءة ههنا وهناك ، في النوافذ ، الا نادراً . كانت الانوار كلها تطفأ بعد السـاعـة العاشرة . جنائن ، وأديرة ، ومسـتودعات خشب ، وغياض ، وبضعة منازل منخفضة متناثرة ، وجدران ضخام لا تقــلّ ارتفاعاً عن المنازل .

كذلك كان هذا الحيّ في القرن الماضي . ولكن الثورة غيّرت معالمه تغييراً كبيراً . كانت السلطات الجمهورية قد هدمت بعض ابنيته وشقّت الشوارع اليه ومن خلاله . لقد اقيمت مستودعـــات النفايات هناك . ومنذ ثلاثين سنة وهذا الحيّ يُمحى محواً تدريجياً بأنشاء أبنية جديدة . أما اليوم فقد شُطِب نهائياً . والـ « بيكبوس الصغير » الذي لا يحتفظ أيما مخطّط من المخططات الحاضرة بأثر من آثاره كان يحتل مكانه على نحو واضح في مخطط عام ١٧٢٧ الذي نشره في مدينـــة باريس دونيز تيري ، شارع سان جاك ، تجاه شارع بلاتر ، وفي مدينة ليون جان جيرين ، شارع ميرسيير ، في الـ « برودانس » . وكان لا « بيكبوس الصغير » ما دعوناه منذ لحظة ٧ شوارع ، مؤلفة من شارع « شومان فير سان انطوان » منشعباً الى فرعين اثنين ، ومتخذاً في ناحية اليسار

اسم بيكبوس الصغير ، وفي ناحية اليمين اسم شارع بولونسو . وكان فرعا الـ Y متصلين عند قمتها بمثل قضيب معدني . وكان هذا القضيب المعدني يدعى شارع « دروا مور » . وهناك كان ينتهي شارع بولونسو . أما شارع بيكبوس الصغير فكان يمضي الى أبعد ، مصعّداً نحو سوق لينوار . وكان الوافد من الـ « سين » حين ينتهي الى اقصى شارع بولونسو يجد الى يساره شارع « دروا مور » منعطفاً انعطافاً حاداً على شكل زاوية قائمة ، ويجد أمامه سور ذلك الشارع ، والى يمينه امتداداً أبتر لشارع « دروا مور » من غير منفذ ، يدعى زقاق جانرو .

في تلك النقطة كان جان فالجان .

لقد أجفل ، كما ذكرنا من قبل ، حين لمح ذلك الشكل الاسود الواقف وقفة الحرس عند زاوية « دروا مور » وشارع بيكبوس الصغير . لم يكن ثمة شك . كان ذلك الشبح يراقبه .

ما الذي يجب أن يفعله ؟

لم يبق ثمة متسع من الوقت للارتداد. وإن ما رآه يتحرك في الظلام ، على مسافة ما خلفه ، في اللحظة السابقة ، كان من غير شك جافير وزمرته . ولعل جافير قد انتهى الآن الى أول الشارع الذي كان جان فالجان في نهايته . وكان جافير ، كما تؤذن القرائن كلها ، يعرف هذا الشَرَك الصغير ، وكان قد اتخذ احتياطاته بأن ارسل واحداً من رجاله ليحرس المنفذ . وفجأة ، عصفت هذه الأحداس الشديدة الشبه بالحقائق في دماغ جان فالجان القلق ، مثل حفنة من الغبار تتطاير في وجه ريح مفاجئة . لقد تأمل زقاقَ جانرو ؛ كانت ثمة اسوار عالية . وتأمل شارع بيكبوس الصغير ؛ كان ثمة حرس . لقد رأى هذه الصورة الكالحة تتكرر سوداءَ فوق بلاط الطريق الابيض المغمور بأشعة القمر . كان التقدم الى أمام يعني الانقضاض على ذلك الرجل . وكان الارتداد

الى وراء يعني إلقاء نفسه بين يدي جافير . واستشعر جان فالجان وكأنه مطوّق بسلسلة كانت تضيّق الخناق عليه شيئاً بعد شيء . ورفع عينيه الى السماء في يأس .

٤

جان فالجان يتلمس

في الظلام سبيله الى النجاة

لكي نفهم الصفحات التالية يتعين علينا ان نكوّن فكرة دقيقة عن زقاق دروا مور ، وبخاصة الزاوية التي يشكلها الى يسارك وانت تغادر شارع بولونسو لتدخل هذا الزقاق . وكان زقاق « دروا مور » مطوقاً من ناحية اليمين تطويقاً كاملاً تقريباً ، حتى شارع بيكبوس الصغير ، بمنازل تبدو عليها سيما الفقر ، ومن ناحية الشمال ببناء مفرد ذي خطوط قاسية مؤلف من عدة بيوت كانت ترتفع تدريجياً دوراً أو دورين ، فيما هي تقترب من زقاق بيكبوس ، بحيث أن هذا البناء الشديد الارتفاع من ناحية زقاق بيكبوس كان شديد الانخفاض من ناحية شارع بولونسو . هناك ، عند الزاوية التي تحدثنا عنها ، أمسى البناء منخفضاً الى حد جعله مجرد حائط ليس غير . ولم يكن هذا الحائط ينتهي ، على نحو متعامد ، الى الشارع . لقد بدا وكأنه شِقة جدار بُترت على نحو منحرف تاركة فسحة عريضة تحجبها زاويتاها عن اعين المراقبَين اللذين قد يتفق ان يقف احدهما على مسافة ما في شارع بولونسو ، والآخر على مسافة ما في شارع « دروا مور » .

ومن زاويتي الشقة المبتورة هاتين ، كان الجدار يمتدّ على شارع

بولونسو حتى منزل يحمل رقم ٤٩ ؛ وعلى شارع « دروا مور » ، حيث كان ارتفاعه اقلّ بكثير ، حتى ذلك البناءِ الكالح الذي تحدثنا عنه ، قاطعاً حائط جملونه المثلث الجانبيّ ، محدثاً بذلك زاوية منعكسة جديدةً في الشارع . وكان لجدار الجملون هذا مظهر كئيب . لم يكن المرء ليرى ثمة ، غير نافذة واحدة ، او على الاصح مصراعين محجوبين بصفيحة من الزنك ، موصدين ابداً .

إن أوضاع المواطن التي نصفها هنـــا دقيقة الى حدّ صارم ، وهي توقظ من غير شك ذكرى غالية جداً في اذهان سكان الحيّ القدماء .

وكان يملأ شقة الجدار المبتورة هذه شيء يشبه جداراً هائلاً حقيراً . وكان ذلك مجتمعاً واسعاً غير منسّق من الواح عمودية ، أعلاها أعرض من أدناها ، وقد شدّ بعضها الى بعض بسيور من حديد طويلة معترضة . والى جانب ، كان باب العربات ذو أبعاد عـادية ، لا يرقى انشاؤه ، من غير شك ، الى أبعد من خمسين عاماً .

ورفعت شجرة زيزفون اغصانها فوق شقة الجدار المبتورة ، وكان الجدار مغطى باللبلاب من ناحية شارع بولونسو .

وفي الخطر الداهم الذي كان يحيط بجان فالجان تكشّفت هذه البناية الكالحة عن وجه منعزل غير آهل لفت نظره اليها ، وأجال طرفه فيها على نحو خاطف . وقال فيما بينه وبين نفسه إنه إذا ما وفّق الى دخولها فقد ينعم بالسلامة . وعاوده الامل حين خطرت له هذه الفكرة .

وعند منتصف واجهة البناء المطلة على شارع « دروا مور » احاطت بنوافذ الادوار كلها انابيب رصاصية عتيقة . وكانت فروع هذه الانابيب الممتدة من أنبوب رئيسي الى كل منها ترسم على الواجهة شبه شجرة . ولقد بدت تشعّبات هذه الانابيب بمرافقها المئة مثل قضبان الكرمـــة المجرّدة من أوراقها ، والملتفة على واجهات البيوت الريفية القديمة .

وكان هذا العريش العجيب ذو الاغصان المؤلفة من صفائح وحديـد

اول ما لفت انتباه جان فالجان . فأجلس كوزيت ، مسنداً ظهرها الى أحد الاعمدة ، طالباً اليهـا ان تلزم السكون ، ومضى الى حيث يمسّ الانبوب بلاط الشارع ، لعله يجـــد وسيلة تساعده عـلى ان يتسلق الجدار ، من هناك ، ويدخل المنزل . ولكن الانبوب كان متصدّعاً بعيدَ عهدٍ بالاستعمال ، ولم تكن مثبّتاته لتمسك به إلا بشق النفس . والى هذا ، فقد كانت نوافذ هذا البيت الصامت ونوافذ الغرف القائمة تحت السقف نفسها ، مسلحة بقضبان حديـدية غليظة . ثم ان القمر كان يضيء هذه الواجهة إضاءة كاملة ، وخليق بالرجل الذي كان يراقبه مـن اقصى الشارع أن يراه يتسلق الجدار . وأخيراً ، ما الذي يفعـــله بكوزيت ؟ كيف يرفعها الى قمة بيت ذي ثلاثة أدوار ؟

واطّرح فكرة التسلّق بواسطة الأنبوب ، ودبّ على طول الجدار الى شارع بولونسو .

وحين بلغ شقة الجدار المتورة حيث ترك كوزيت ، لاحظ أن أحداً لا يستطيع أن يراه هناك . لقد تخلّص ، كما شرحنـا اللحظةَ ، من النظرات جميعاً أياً كان مصدرها . والى هذا ، فقد كان الظـــلام يلفـّه . وأخيراً ، فقد كان ثمة بابان . لعلهم أن يقتحموهما . وكان واضحاً أن الجدار ، الذي رأى فوقه الزيزفون واللبلاب ، يطـل على حديقة كان في ميـوره ان يختبيء فيها على الاقل – على الرغم من ان الاشجار ما تزال مجرّدة من الاوراق – ويمضي بقية الليل هناك .

كان الوقت ينقضي . إن عليه ان يعمل في سرعة .

وجرّب بابَ العربات ، فوجد في الحال أنه موصدٌ مـــن الداخل والخارج .

واقترب من الباب الكبير الآخر وقد غمَرَ فؤاده أمل أعظم . كان هرماً الى حدّ مروّع ، وكان حجمهُ الهائل قد جعله حتى أقلّ صلابة . كانت ألواحه الخشبية عفنة ، وأربطته الحديدية – وهي ثلاثة – صدئة . لقد

بدا اختراق هذا النطاق النخِر أمراً ميسوراً .
حتى اذا امتحن هذا البابَ رأى أنه لم يكن باباً . فليس فيه رزّات ، أو صفائح حديدية ، أو قفل ، أو خَصاص في الوسط .
وكانت العصائب الحديدية تطوقه من جانب الى جانب على غير انقطاع .
ومن صدوع الألواح الخشبية لمحَ رضماً * وحجارة ألحم ما بينها بالملاط على نحو أخرق ، كالتي كان لا يزال في ميسور عابري السبيل ان يروها منذ عشر سنوات . لقد اضطر الى الاعتراف في انشداه ان هذا الباب الكاذب لم يكن غير زخرف زُيِّن به ذلك الجدار . وكان يسيراً عليه ان ينزع لوحاً خشبياً ، ولكنه سوف يجد نفسه ، عندئذ وجهاً لوجه مع جدار من الجدران .

٥

وهو ما كان متعذراً لو ان الشوارع أضيئت بالغاز

في تلك اللحظة بدأت ضجة مخنوقة نظامية تعلن عن نفسها على مسافة ما . وغامر جان فالجان فأتلع عنقه حول زاوية الشارع . كانت مفرزة مؤلفة من سبعة جنود او ثمانية جنود قد انعطفت اللحظة نحو شارع بولونسو . لقد رأى وميض حرابهم . كانوا مقبلين في اتجاهه .
وتقدّم الجند ، وقد تبيّن على رأسهم قامة جافير الطويلة ، في تؤدة وفي حذر . وبين الفينة والفينة كانوا يقفون . كان واضحاً انهم يستكشفون كل زاوية من زوايا الجدران ، وكلَّ فُرجة من فُرَج

* الرضم الحجارة غير المنحوتة .

الابواب والازقة .

وإنما كان هؤلاء الجنود – وهنا لا سبيل الى ان نُخدع الحدس – يؤلفون دورية من العسس التقاها جافير ، وطلب اليها ان تضع نفسها بتصرّفه .

وسار مساعدا جافير بين صفوفهم .

وكانوا في حاجة الى ربع ساعة تقريباً ، بسبب من بطئهم وكثرة توقفهم ، حتى يبلغوا البقعة التي تطأها قدما جان فالجان . كانت لحظة مروّعة . إن بضع دقائق لتفصل جان فالجان عن تلك الهاوية المخيفة التي فغرت فاها ، امامه ، للمرة الثالثة . ولم يعد سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الآن ، سجن الاشغال الشاقة وحسب . لقد امسى ذلك السجن ضياعَ كوزيت الى الابد . يعني حياة شبيهة بباطن القبر .

كان ثمة الآن شيء واحد ممكن .

وكانت لجان فالجان هذه الميزة التي تمكننا من القول انه كان يحمل جرابين في آن معاً . فأما الجراب الاول فكان ينطوي على افكار قدّيس ؛ وأما الجراب الثاني فكان ينطوي على المواهب الرهيبة التي يتمتع بها محكوم عليه بالاشغال الشاقة . ولقد كان يلتمس العون من واحد من هذين الجرابين ، تبعاً لما يقتضيه المقام .

والى جانب براعاته الاخرى ، كان قد أمسى – كما نذكر جيداً ، وبفضل هروبه المتكرر من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طولون ، استاذاً في ذلك الفنّ الذي لا يُصدّق والذي يجعل المرء قادراً على ان يرفع نفسه ، من غير سلالم ، ومن غير كلاليب ، بالقوة العضلية وحدها ، ومن طريق الاستناد الى مؤخر عنقه ، والى كتفيه ، ووركيه وركبتيه ، مستعيناً او يكاد ببعض نتوءات الحجر النادرة – ان يرفع نفسه على هذا النحو ، عند زاوية جدار قائمة ولو الى اعلى الدور السادس من بناية ما عند الحاجة . وهو فن جعل زاوية ساحة الكونسييرجيري

بباريس رهيبةً وشهيرة ، بعد ان فرّ منها « باتومول » المحكوم عليه بالاشغال الشاقة .

وقاس جان فالجان ، بعينيه ، الجدار الذي رأى اغصان شجرة الزيزفون فوقه . كان ارتفاعه يبلغ ثمانية عشر قدماً تقريباً . وكانت الزاوية التي شكّلها مع حائط جملون البناية الضخمة ملأى ، في جزئها الادنى ، بركام من الحجارة مبنيّ على شكل مستطيل لعل القصد من اقامته كان صيانة هذه الخلوة الملائمة من غارات ذلك الضرب من الطيور التي ندعوها عابرة السبيل . والواقع ان هذا الملء الوقائي لزوايا الجدران كثير الشيوع في باريس .

وكان ارتفاع هذا الركام يبلغ نحواً من خمسة أقدام . ومن قمته ، كانت المسافة الواجب اجتيازها للوصول الى الجدار لا تزيد على اربعة عشر قدماً .

وكان الجدار مغطى بطبقة من الحجارة المسطحة لا نتوء فيها على الاطلاق .

كانت كوزيت هي العقبة . فكوزيت ما كانت تعرف كيف تتسلق جداراً . أيتخلى عنها ؟ إن ذلك لم يخطر في بال جان فالجان . وما كان حملها أمراً ممكناً . فأن كامل قوة المرء ينبغي ان تُحشد للقيام بمثل ذلك التسلق العجيب . ولا ريب في ان أقلّ عبء خليق بان يفقده مركز ثقله ، ويهوي به الى الأرض .

كان الموقف يقتضي حبلاً . ولم يكن عند جان فالجان شيء من ذلك. وأين يستطيع ان يجد حبلاً ، عند منتصف الليل ، في شارع بولونسو ؟ ويقيناً ، لو كان لجان فالجان في تلك اللحظة مملكة ، اذن لتنازل عنها من أجل حبل .

إن لجميع الحالات القصوى بُروقها التي تُعمينا في بعض الاحيان ، وتلهمنا في بعض الاحيان .

والتقت نظرة جان فالجان اليائسة بعمود المصباح العام في زقاق جانرو. في ذلك العهد لم تكن شوارع باريس تضاء بغاز الاستصباح . فما إن يهبط الليل حتى تُنار مصابيح الشارع ، التي كانت مُقامة على مسافات معيّنة ، والتي كانت تُرفع وتُخفض بحبل يخترقه الشارع من أقصاه الى أقصاه ، ويجري عبر ثقوب الأعمدة . وكان الملوَى الذي يلتفّ حوله هذا الحبل مخبوءاً ، تحت المصباح ، في صندوق حديدي صغير يحتفظ به الموظف المكلف إنارةَ المصابيح ، وكان الحبل نفسه مصوناً ، حتى ارتفاعٍ بعينِهِ ، في بيت معدني .

وبقوة صراعٍ أممي ، اجتاز جان فالجان الشارعَ بوثبة واحدة ، واقتحم الزقاقَ ، وكسر لسانَ قُفل الصندوق الصغير برأس مُديته ؛ وما هي الا لحظة حتى انقلب الى كوزيت كرةً اخرى . كان معه حبل . إن مخترعي الحِيَل اليائسين هؤلاء لينطلقون ، في صراعهم مع القدر ، انطلاقاً خاطفاً ، عند الحاجة .

وفي غضون ذلك كانت الساعة ، والمكان ، والظلمة ، وانهماك جان فالجان ، وسلوكه العجيب ، ورواحه ومجيئه — كانت هذه كلها قد شرعت تقلق كوزيت . ولقد كان خليقاً بأيما طفلة غيرها ان تطلق ، منذ فترة بعيدة ، صيحات عالية . أما هي فاكتفت بأن جذبت جان فالجان من ذيل سترته الطويلة . كانت ضجة الدورية المقتربة تُسمَع أوضحَ فأوضحَ على نحوٍ موصول .

وقالت ، في همس :

— « أبي ، انا خائفة . من القادم ؟ »

فأجابها الرجل التعس :

— « هش ! إنها السيدة تيناردييه ! »

وارتعدت كوزيت .

واضاف :

« لا تقولي كلمة . دعيني أعمل . واذا صرختِ ، واذا بكيتِ ، فعندئذ تسمعك السيدة تيناردييه . لقد جاءت لكي تستردّكِ . »

ثم إنّ جان فالجان — من غير ما تعجّل ، ولكن من غير ان يكرّر عملاً ما مرّةً ثانية ، وفي عزم ثابت ومريع ، وهو شيء يكون ادعى الى الدهش حين نذكر ان دورية العسس وجافير قد ينقضّان عليه في ايّ لحظة — نزع رباط عنقه ، وأمرّه حـــول جسد كوزيت تحت الذراعين ، محاذراً ان يصيب الطفلة اذىً ما ، وشدّ رباط الرقبة هذا الى طرف الحبل بواسطة العقدة التي يدعوها الملاحون « عقـــدة السنونو » ، وعضّ على طرفه الآخر باسنانه ، ونزع نعليه وجوربيه طارحاً اياها فوق الجدار ، وارتقى ركامَ الحجارة المبنية على شكل مستطيل ، وشرع يرفع نفسه عند زاوية الجدار وحائط الجلون في صلابة وثقة بالغتين وكأن تحت عقِبَيْه ومرفقيه مراقيَ وسلالم . ولم تكـــد تنقضي نصف دقيقة حتى كان على ركبتيه ، فوق الجدار .

وراقبته كوزيت ذاهلة ، من غير ان تنبس بكلمة . فقد كان في وصية جان فالجان وفي اسم السيدة تيناردييه ما أصابها بالبكم ، وفجأةً ، سمعت صوت جان فالجان يدعوها في همس :

— « أسندي ظهرك الى الجدار . »

وأطاعت .

فأضاف جان فالجان :

— « لا تنطقي بكلمة ، ولا تخافي . »

واستشعرت انها ترتفع عن الارض .

وقبل ان تجد متسعاً من الوقت للتفكير اين كانت ، ألفت نفسها عند قمة الجدار .

وأخذها جان فالجان بين يديه ، ووضعها على ظهره ، وامسك يديها الصغيرتين بيده اليسرى وانبطح على بطنه ، ودبّ فوق قمة الجدار حتى

انتهى الى الزاوية المبتورة . وكما سبق له ان قدّر ، كان ثمـة بنايةٌ يتحدّر سطحها من أعلى السياج الخشبي الى قريب جداً من الارض ، تحدّراً رفيقاً ينتهي به الى ان يمس شجرة الزيزفون .

وكانت تلك ظاهرةٌ سارة ، لأن الجدار كان في ذلك الجانب أعلى مما كان في جانب الشارع بكثير . ولمـح جان فالجان الارض ، من تحته ، على عمق بعيد .

كان قد بلغ سطح السقف المنحدر ، ولمّا يغادر قمة الجدار ، حين أعلنت جلبةٌ عنيفة وصول دورية العسس . وسمع صوت جافير الراعد :

— « فتشوا في الزقاق ! إن شارع « دروا مور » تحت الحراسة ، وكذلك شارع بيكبوس . اؤكد لكم أنه في الزقاق ! »

واندفع الجنود الى زقاق جانرو .

وانزلق جان فالجان هابطاً السطح ، متشبثاً بكوزيت حتى بلغ شجرة الزيزفون ، ووثب الى الارض . وسواء أكان ذلك ثمرة الذعر أم ثمرة الشجاعة ، فان كوزيت لم تهمس همسة واحدة . كانت يداها قد خُدشتا بعض الشيء .

٦

بدء احجية

ووجد جان فالجان نفسه في شبه حديقة واسعة جـداً وذات مظهر فريد ؛ حديقة من تلك الحدائق المحزونة التي تبدو وكأنها جُعلت لكي تُرى في الشتاء وفي موهن من الليل . كانت تلك الحديقة مستطيلة الشكل ، في اقصاها صفٌّ من شجر الحور الضخم ، وفي زواياها أدواح فارعات الطول ، وفي وسطها فسحة غير ظليلة ، حيث تنهض شجرة منعزلة بالغة

العِظَم ، ثم بضع شجرات مثمرة ملتوية شعثاء مثل عواسج ضخـــام ، ومساكب من الخضر ، ومَبْطَخَة * كانت الاواني الزجاجية التي تُغطي ثمراتها تلتمع تحت اشعة القمر ، وبئر قديمة . وكان هنا وهناك مقاعد حجرية بدت سوداء من اثر الطحلب . وكانت الممرات محوطة بشجيرات كثيبة ، بالغة الاستقامة . لقد غطى العشب نصفها ، والطحلب الاخضر سائرها .

وكان الى جانب جان فالجان البنايةُ التي مكّنه سطحها من الهبوط ، وركامٌ من الخشب ، وخلف الخشب ، في محاذاة الحائط تماماً ، تمثال من حجر لم يعد وجهه الابتر غير قناع شائه ٍ بدا على نحـــو ضبابيّ في غمرة الظلام .

وكان البناء خراباً ، ولكن بعض الغرف المهدّمة كان يمكـــن ان تميَّز فيه . وكانت احدى تلك الغرف غاصة بما فيها ، بما يؤذن بـــأن القوم يتخذون منها سقيفة .

وكانت بناية شارع « دروا مـــور » الكبيرة المرتجعة على شارع بيكبوس الصغير تطلّ على هذه الحديقة بواجهتين مربعتين . وكانت هاتان الواجهتان الداخليتان أشدّ كآبة من الواجهات الخارجية نفسها . كانت جميع النوافذ مقضّبة بالحديد . ولم يكن ثمـــة ضوء ما . وفي الأدوار العليا كانت مصاريع كالتي توجـد في السجون . وكانت احدى هاتـــين الواجهتين تلقي بظلها فوق الأخرى ، فينطرح على الحـديقة مثل قطعة ضخمة من قماش أسود .

وما كانت العين لتقع على أيا منزل آخر . كان اقصى الحـــديقة مضمحلاً في الضباب وفي الظلام . ومع ذلك فقـد كان في ميسور المرء ان يتبيَّن ، على نحو غامض ، جدراناً تتقاطـــع ، وكانت وراء ذلك اراضٍ مزروعـــة اخرى ، وان يتبيّـــن ايضاً سطوح شارع بولونسو المنخفضة .

---

* المطخة زاوية من الحديقة تفرد لزراعة البطيخ .

وليس في ميسور الانسان ان يتخيّل شيئاً اكثر ضراوة واشدّ انعزالاً من هذه الحديقة . فلم يكن ثمة احد ، وهو امرٌ طبيعي بسببٍ من تقدّم الليل . ولكن المكان بدا وكأنه لم يُجعَل لكي يمشي فيه إنسان ما ، حتى في رائعة النهار .

وكان أول هموم جان فالجان ان يبحث عن حذائه وأن ينتعله . ثم ان يدخل السقيفة مع كوزيت . والحقّ ان الرجل الذي يحاول الهرب لا يستشعر أبداً انه محجوب على نحو كافٍ عن اعين مطارديه . وإذ كانت الطفلة تفكر بتيناردييه الزوجة تفكيراً موصولاً فقد شاركته غريزتَهُ ، فربضت اكثر ما استطاعت أن تربض .

وارتعدت كوزيت ، والتصقت به . وسمعا جلبة الدورية التي كانت تجوس خلال الزقاق والشارع بحثاً عنهما ، وصدى التماسّ بين بنادقهم وبين الحجارة ، ونداءات جافير للحرس الذين أقامهم هنا وهناك ، ولعناتِه الممتزجة بكلمات لم يكن في ميسورهما ان يتبيّناها .

وبعد ربع ساعة ، بدا وكأن هذه الزمجرة العاصفة قد شرعت تنأى . ولم يأخذ جان فالجان نفَساً .

كان قد وضع يده ، في رفق ، على فم كوزيت .

ولكن العزلة التي وجد نفسه فيها كانت ساكنة سكوناً عجيباً الى درجة جعلت تلك الجلبة المروّعة ، المهتاجة الى أبعد الحدود ، القريبة الى ابعد الحدود ، لا تُلقي عليها ولو ظلّاً من كدَر . لقد بدا وكأن هذه الجدران مبنية من تلك الحجارة الصمّ التي يتحدث عنها الكتاب المقدس .

وفجأة ، وفي غمرة من هذا السكون العميق ، ارتفعت ضجة جديدة ، ضجة سماوية ، السّنية ، لا سبيل الى وصفها ، ضجة فاتنة بقدر ما كانت تلك مروّعة . كانت ترنيمةً انبثقت من الظلام ، مزاجاً مذهلاً من الصلاة والتناغم في صمت الليل القاتم المخيف ، أصواتاً نسائية ،

ولكنها أصوات تحمل نبرات العذارى الصافية ، ونبرات الاطفال الساذجة ، تلك الاصوات غير الارضية الشبيهة بالتي لا يفتأ الوليد يسمعها ، والتي تتردد في مسمعي المرء ساعة الاحتضار . وانما انطلقت هذه الاغنية من البناية الكالحة المطلة على الحديقة . وفي تلك اللحظة التي تباعدت فيها جلبة الأبالسة لم يكن عجيباً ان يُخيل الى السامع أنها جوقة من الملائكة تقترب تحت جنح الظلام .

وركعت كوزيت وجان فالجان على رُكبَيهما .

انهما لم يعرفا ماهيّة ذلك ، إنهما لم يعرفا اين كانا ، ولكنهما كليهما ، الرجل والطفلة ، التائب والبريئة ، استشعرا ان عليهما ان يجثوا على رُكبَيهما .

ومن عجب ان هذه الاصوات لم تمنع البناية من ان تبدو موحشة . كانت أشبه بأغنية خارقة في منزل مهجور .

وفيما كانت هذه الاصوات تغني ، استغرق جان فالجان فيها استغراقاً تاماً . إنه لم يعد يرى الليل . لقد رأى سماء زرقاء . لقد بدا وكأنه يحسّ بانبساط هذه الاجنحة التي نملكها كلنا في باطننا .

وخمدت الاغنية . ولعلها ان تكون قد استمرت فترةً طويلة . فلم يكن في ميسور جان فالجان ان يدري . إن ساعاتِ النشوة الروحية ليست أبداً غير دقيقة واحدة .

وغرق كل شيء في الصمت كرةً اخرى . لم يبق شيء في الشارع ، ولم يبق شيء في الحديقة . لقد تلاشى كل شيء ، ذاك الذي كان يتهدّد ، وذلك الذي كان يوقع الطمأنينة في النفس . وداعبت الريحُ العشبَ الجاف فوق قمة الجدار ، محدثةً ضجة خفيضة ، رفيقةً ، كئيبة .

٧
الأحجية تستمر

كانت ريح الليل الشمالية قد هبت ، وهو ما آذنَ بأن الساعة كانت تتراوح من غير شك ما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً . ولم تنطق كوزيت المسكينة بكلمة ما . واذ كانت قد جلست الى جانبه ، واسندت رأسها اليه ، فقد ظن جان فالجان انها نائمة . وانحنى قليلاً ، ونظر اليها . كانت عيناها مفتوحتين على مداهما ، وكانت ترينُ على وجهها سيماء أوجعت فؤاد جان فالجان .

كانت لا تزال ترتجف .

فقال جان فالجان :

— « هل انت ناعسة ؟ »

فأجابت :

— « انا اشعر ببرد شديد . »

وبعد لحظة ، اضافت :

— « ألا تزال هناك ؟ »

فقال جان فالجان :

— « من ؟ »

— « مدام تيناردييه . »

وكان جان فالجان قد نسي الوسيلة التي اصطنعها ليضمن سكوت كوزيت . وقال :

— « اوه ! لقد ذهبت . لا تخافي شيئاً بعد الآن . »

وتنهدت الطفلة ، وكأنّ ثقلاً قد رُفع عن صدرها .

كانت الارض رطبة ، وكانت السقيفة مشرعة من جنباتها جميعاً ،

وكانت الريح تزداد برودة لحظة بعد لحظة . ونزع الرجل الطيب سترته الطويلة ولفّ كوزيت بها .

– « هل تحسين بالدفء ، الآن ، اكثر من ذي قبل ؟ »

– « اوه ، نعم ، يا أبتِ ! »

– « حسن ، انتظريني هنا لحظةً . سوف ارجع في الحال . »

وغادر المكان الخرِب ، ومضى في محاذاة البناية الكبيرة ، التماساً لمأوى افضل . لقد وجد ابواباً ، ولكنها كانت كلها موصدة . وكانت جميع نوافذ الدور الارضي مقضّبة بالحديد .

وفيما هو يجتاز زاوية البناء الداخلية ، لاحظ انه انتهى الى بضع نوافذ مقنطرة لمح عندها بصيصاً من النور . ونهض على رؤوس اصابعه ، وحدق من خلال إحدى تلك النوافذ . كانت جميعها تنفتح على قاعة واسعة ، مفروشة ببلاطات عراض ، تشطرها عقود واساطين ، حيث لم يكن في وسع المرء ان يتبين غير وميض ضئيل وظلمات كثيفة . وكان ذلك الوميض ينبعث من قُنَيْديل مضاء في احدى الزوايا . كانت القاعة مهجورة ، وكان كل شيء ساكناً . ومع ذلك فقد وقع في نفسه انه رأى ، بإنعام النظر ، شيئاً منبسطاً على ارض القاعة ، شيئاً بدا وكأنه مغطىً بكفن -- وكأن له شكلاً إنسانياً . كان منبطحاً على بطنه ، مستقبلاً الارض بوجهه ، متصالب الذراعين ، جامداً جمود الموت . ولقد كان خليقاً بالرائي أن يقول ، بسبب من شبه افعى كانت تزحف فوق ارض القاعة ، ان حبلاً كان يطوّق عنق ذلك الشكل المشؤوم .

وكانت القاعة كلها غارقة في ذلك الضباب الذي يرينُ على الاماكن الباهتة الاضاءة ، والذي يضاعف الذعر .

وكثيراً ما قال جان فالجان منذ ذلك الحين إنه ، على الرغم مما شاهده خلال حياته من مشاهد كئيبة لا تكاد تُحصى ، فان بصره لم يقع على ما هو افظع وادعى الى الرعب من تلك الصورة المُلْغَزة

المحققة لسرٍّ عجيب ما ، ليس يعرفه ، في ذلك الموطن الكالح ، والتي تلمع على هذا النحو الضبابي في الليل . كان مما يروّع المرء ان يفترض أنها قد تكون ميتة ، وكان مما يروّعه اكثر ان يظن انها قد تكون على قيد الحياة .

وآنس من نفسه الجرأة على ان يضغط جبينه على الزجاج ، وان يراقب ليرى ما اذا كان ذلك الشيء سوف يتحرك . وقضى على هذا فترة طويلة ، في ما بدا له ، ولكنْ على غير طائل . ان الشكل المنبطح لم يُبدِ حراكاً . وفجأةً ، عصف به ذعر يجلّ عن الوصف ، وولى فراراً . لقد انطلق نحو السقيفة من غير ان يجرؤ على النظر الى وراءه . فقد بدا له أنه اذا ما التفت فسوف يرى تلك الصورة تعدو خلفه في خطىً واسعة ، هازّةً بذراعيها .

وبلغ السقيفة الخربة مبهوراً منقطع النفَس . وخذلته ركبتاه ، وتحلّب العرق البارد من مسامّ جسده جميعاً .

اين كان ؟ مَنْ ذا الذي قدّر له يوماً أن يتخيل أيما شيء مثل هذا الضرب من القبر في قلب باريس ؟ ما هذا البيت الغريب ؟ بناء حافل بالاسرار الليلية ، ينادي الارواح ، تحت جنح الظلام ، بأصوات الملائكة ، حتى اذا اقبلتْ فاجأها بمثل هذا المشهد الرهيب – يَعِدُ بفتح باب الجنة المشعّ ، ويفتح باب القبر المخيف . أكان ذلك بناء حقاً ، بيتاً ذا رقم في الشارع ؟ ألم يكن هذا حلماً ؟ كان في حاجة الى ان تتقرّى يداه الجدران باللمس لكي يصدّق ذلك .

كان البرد ، والقلق ، والاهتياج ، وما عاناه في تلك الليلة من آلام – كانت هذه كلها توقع في جسده حمّى حقيقية . وانشأت افكاره كلها تتصادم في دماغه .

واقترب من كوزيت . كانت نائمة .

٨
الاحجية تتعقد

كانت الطفلة قد القت رأسها على حجر واستسلمت للرقاد .

وجلس قربها ، ونظر اليها . وشيئاً بعد شيء ، فيما هو يتأملها ، هدأ روعه ، واستعاد صفاء ذهنه .

كان واضحاً انه ادرك هذه الحقيقة ، التي أمست أساس حياته منذ اليوم ، وهي أنها ما دامت على قيد الحياة ، وما دامت الى جانبه فلن يكون في حاجة الى شيء ابداً إلا من أجلها ، ولن يخشى شيئاً ابداً إلا بسبب منها . إنه لم يحسّ حتى بذلك البرد الشديد الذي كان يستبد به وقد نزع سترته الطويلة ليغطيها بها .

وفي غضون ذلك ، ومن خلال التأمل الحالم الذي استغرق في خضمّه ، طرقت سمعَهُ ، فترةً ما ، ضجة فريدة ، كانت أشبه بصوت جُلْجُلٍ* يتمايل . وإنما انبعثت تلك الضجة من الحديقة . وسمعت في وضوح ، على الرغم من انها كانت واهنة : لقد أشبهت تلك الموسيقى البدائية الغامضة التي تعزفها جلاجل البقر ، ليلاً ، في مراعيها .

تلك الضجة حملت جان فالجان على الالتفات .

ونظر ، فرأى ان في الحديقة شخصاً ما .

كان مخلوقٌ شبيه بالرجل يمشي وسط الاواني الزجاجية التي تغطي غمرات البطيخ ، ناهضاً حيناً ، منحنياً حيناً ، متوقفاً حيناً ، كل ذلك في حركات نظامية وكأنما كان يسحب او يبسط شيئاً على الارض . وكان ذلك المخلوق اعرج في ما يبدو .

وارتعد جان فالجان بارتعاشة المساكين الموصولة . إنهم يجدون كل

---

* الجلجل : الجرس الصغير . وجمعه جلاجل .

شيء معادياً ومريباً . فهم يحذرون النهار لأنه يساعد رجال السلطة على رؤيتهم ، ويحذرون الليل لأنه يساعد اولئك الرجال على مباغتتهم . منذ لحظة ، كان يرتعد لان الحديقة خالية ؛ وها هو ذا الآن يرتعد لأن ثمة شخصاً فيها .

وانتقلَ كرةً اخرى من خضمّ المخاوف الوهمية الى خضمّ المخاوف الحقيقية . وقال في ذات نفسه : لعل جافير وجواسيسه لمّا يغادروا المكان ، وأنهم قد خلّفوا من غير ريب شخصاً ما ليراقب الشارع ، وانه اذا ما اتفق لذلك الشخص ان اكتشف وجوده في هذه الحديقة فسوف يستعدي الناس على اللص ، ويسلمه الى السلطة . وفي رفق ، رفع كوزيت النائمة ، بين ذراعيه ، وحملها الى أقصى زاوية من زوايا السقيفة خلف ركام من الأثاث القديم لم يَعُدْ موضع الاستعمال . ولم تتحرك كوزيت .

ومن هناك ، راقب حركات ذلك المخلوق الذي كان يمشي في الرقعة المزروعة بطيخاً . ومن عجب ان صوت الجلجل كان يتبع كل حركة من حركات هذا الرجل . فاذا ما اقترب الرجل ، اقترب الصوت . واذا ما ابتعد الرجل ، ابتعد الصوت . وحين كان الرجل يأتي بحركة مفاجئة ، كان يصاحب تلك الحركة ارتجافٌ في الصوت . وحين كان يتوقف ، كانت تلك الضجة تنقطع . لقد بدا واضحاً أن الجلجل كان مشدوداً الى ذلك الرجل . ولكنْ ، ايّ معنى يمكن ان يُستفاد من ذلك ؟ ايّ رجل هو ذاك الذي يُعلَّق في عنقه جلجل ، كما يُعلق في عنق كبش او ثور ؟

وفيما هو يفكر في هذه الاسئلة ، لمسَ يدي كوزيت . كانتا مثلوجتين .

وقال :

– « آه ، يا الـهي ! »

وناداها في صوت خفيض :

– « كوزيت ! »
فلم تفتح عينيها .
وهزّها في قوّة .
ولم تستيقظ .
فقال :
– « أيمكن ان تكون قد ماتت ؟ »
ووثب واقفاً ، وهو يرتعد من قمة رأسه حتى اخمص قدميه .
واندفعت الى عقله ، كيفما اتفق ، أفظع الافكار وأدعاها الى الذعر . فثمة لحظات تحاصرنا فيها الافتراضات البشعة المخيفة مثل جمهرة من آلهة الجحيم ، وتقتحم ابواب دماغنا . وحين يكون اولئك الذين نحبهم في خطر يخترع قلقنا مختلف ضروب الحماقـات . وتذكّر ان النوم في الهواء الطلق ، وفي الليالي الباردة ، قد يكون مُهلكاً .
كانت كوزيت شاحبة ، وكانت قد انطرحت على الارض ، عند قدميه ، من غير ان تأتي بحركة .
وأصغى الى انفاسها . كانت تتنفس ، ولكنْ تنفساً بدا له واهناً وعلى وشك ان يخمد .
ما السبيل الى تدفئتها ؟ ما السبيل الى ايقاظها ؟ لقد طُرد كل شيء من تفكيره ما خلا هذا . واندفع في يأس الى خارج المكان الخرب .
كان ضرورياً جداً ان توضع كوزيت في فراش ما ، وتُضرَم النار الى جانبها ، وان يتم ذلك في مدى لا يتجاوز ربع ساعة .

٩

الرجــــل ذو الجلجل

ومضى مباشرةً الى الرجل الذي رآه في الحديقة . كان قـد حمل بيده لفّة المال التي كانت في جيب صدرته .

وكان ذلك الرجل مطأطئاً الرأس . فلم يره مقبلاً نحوه . وما هي الا بضع خطوات حتى كان جان فالجان على مقربة منه .

وحاذاه جان فالجان هاتفاً :

— « مئة فرنك ! »

وأجفل الرجل ، ورفع عينيه .

وتابع جان فالجان :

— « مئة فرنك تكسبها ، اذا آويتني هذه الليلة . »

واضاء القمر وجه جان فالجان الذاهل إضاءة كاملة .

وقال الرجل :

« ماذا ! هذا انت ، ايها الاب مادلين ! »

وكان في هذا الاسم الملفوظ هكذا ، في تلك الساعـــة المظلمة ، وفي ذلك المكان المجهول ، وعلى لسان ذلك الرجل المجهول ، ما جعل جان فالجان يرتدّ الى وراء .

كان مستعداً لكل شيء عدا هذا . فقد كان المتكلم رجلاً عجوزاً ، متقوّس الظهر ، أعرج ، مرتدياً ثياباً هي اشبه بثياب الفلاحين ، وعلى ركبته اليسرى واقية للرُكب جلدية يتدلى منها جرس ضخم بعض الشيء.

أما وجهه فكان في الظل ، فليس من سبيل الى ان يتبيّنه المرء .

وفي غضون ذلك كان الرجل الساذج قـــد نزع قلنسوته ، وهتف وهو يرتجف :

– « آه ، يا الـهي ! كيف جئت الى هنـــا أيها الأب مادلين ؟ من اين دخلت ، أوه ، ايها الرب يسوع ! هـل هبطتَ من السماء ؟ اذا كنت قد هبطتَ من مكان ما فليس من ريب في انك هبطتَ من هناك . وما الذي دهـاك ؟ فأنت لا ترتدي رباط عنق ، ولا تعتمر بقبعة ، وليس على جسدك سترةٌ ما ؟ اتدري انك كنتَ جديراً بأن تروّع اي امريء لا يعرفك ؟ لا سترة ؟ يا الـهي ! أيجنّ القديسون في هذه الايام ؟ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟ »

ولم تكن ايّ من كلماته لتنتظر الاخرى . كان الرجـــل العجوز يتحدث في ذلاقة ريفية لم يكن فيها ما يقلق . ولقد قيل ذلك كله في مزيج من الانشداه والطيبة الساذجة .

وسأله جان فالجان :

– « من انت ؟ وما هذا البيت ؟ »

فصاح الرجل العجوز :

– « اوه ، حقاً ، هذا حسن . انا الرجل الذي وظّفتَهُ هنا ، وهذا البيت هو المكان الذي وظّفتني فيه . ماذا ؟ انت لا تتذكرني ؟ »

فقال جان فالجان :

– « لا . وكيف اتفق ان عرفتني ؟ »

فأجاب الرجل :

– « لقد أنقذتَ حياتي . »

والتفت ، فأضاءت اشعة القمر صفحة وجهه ، فعرف جان فالجان أنه فوشلوفان العجوز .

وقال جان فالجان :

– « آه ! هذا أنت ؟ أجل ، أنا أذكرك . »

فقال الرجل العجوز في نبرة عتاب :

– « هذا سارّ جداً . »

واضاف جان فالجان :

— « وماذا تفعل هنا ؟ »

— « أوه ! أنا أغطي بطيخاتي . »

وفي الحق ان فوشلوفان كان يحمل في يده ، لحظةَ دنا منه جان فالجان ، طرفَ حصير من قصب كان منهمكاً في نشره فوق مسكبة البطيخ . وكان قد نشر على هذا النحو عدداً من الحُصُر خلال الساعة التي قضاها في الحديقة . كانت هذه العملية هي التي حملته على القيام بتلك الحركات الخاصة التي لاحظها جان فالجان من السقيفة .

واضاف :

— « لقد قلت لنفسي : القمر نيّر ، ولسوف تُصقِعُ الارضُ . لعل من الخير أن ألبس بطيخاتي ستراتها . و ... »

وهنا نظر الى جان فالجان ثم اضاف مُرسلاً ضحكة عالية :

— « ... لقد كنتَ تحسن صنعاً لو انك عُنيتَ بنفسك مثل هذه العناية ! ولكن كيف جئتَ الى هنا ؟ »

واذ وجد جان فالجان ان ذلك الرجل يعرفه ، باسم مادلين على الاقل ، فقد اطّرح ما كان يلتزمه من حذر شديد . وضاعفَ اسئلته . فبدا — ويا للعجب ! — انهما قد تبادلا دوريهما . لقد قام هو — المتطفّل — بدور المستجوب .

— « وما هذا الجلجل المعلّق بركبتك ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

— « هذا ؟ إن الغرض منه ان يجتنبني القوم . »

— « كيف ؟ لكي يجتنبك القوم ؟ »

وغمزه فوشلوفان بعينه على نحو لا سبيل الى وصفه .

— « آه ، يا الّهي ! ليس يوجد في هذا البيت غير النساء . غير عدد كبير من الفتيات . ويبدو ان من الخطر الالتقاء بي . ان الجلجل

يحذّرهن . فحين اجيء يذهَبْن . »

— « ما هذا البيت ؟ »

— « ولكنْ ، انت تعرف جيداً ! »

— « لا ، انا لا أعرف . »

— « ولكنك أنت الذي جعلتني بستانياً في هذا المكان ! »

— « أجبني وكأنني لا أعرف شيئاً البتة . »

— « حسناً ، انه اذن دير بيكبوس الصغير . »

وتذكّر جان فالجان . كانت المصادفة ، يعني العناية الالـٰهية ، قد قذفت به على وجه الضبط في دير حيّ سان انطوان هذا حيث كان فوشلوفان العجوز قد أُدْخِل ، بناء على توصية منه ، بعد ان أقعده السقوط من عربته ، قبل عامين اثنين . وكرّر وكأنما كان يخاطب نفسه :

— « دير بيكبوس الصغير ! »

واستأنف فوشلوفان :

— « ولكن ، يا للشيطان ! كيف استطعت ، حقاً ، ان تدخل الىَ هنا ، انت ، ايها الاب مادلين ؟ عبثاً تحاول إقناعي بانك قديس . أنت رجل ، ومحظورٌ على الرجال ان يدخلوا الى هنا . »

— « ولكنك هنا . »

— « ليس هنا رجلٌ غيري . »

فأردف جان فالجان :

— « ومع ذلك فينبغي ان أبقى هنا . »

فصاح فوشلوفان :

— « آه ، يا الـٰهي ! »

واقترب جان فالجان من الرجل العجوز وقال له في جَرْس فاجع :

— « ايها الاب فوشلوفان ، لقد انقذتُ حياتك . »

فأجابه فوشلوفان :

– « لقد كنتُ انا اول من تذكّر ذلك . »

– « حسناً ، في استطاعتك ان تقدّم اليّ اليوم مثل تلك الخدمة التي قدمتُها اليك بالامس . »

وأمسك فوشلوفان بيديه الهرمتين المتجعدتين المرتجفتين يدي جان فالجان القويتين . وانقضت بضع ثوانٍ قبـــل ان يوفـّق الى الكلام . واخيراً صاح :

– « أوه ! اذا استطعتُ أن اردّ اليـــك بعض جميلك ، فسوف يكون ذلك فضلاً من عند الله . انا ! انا انقذ حياتك ! سيدي العمدة ، ان الرجل العجوز تحت تصرفك ! »

لكأنّ حبوراً رائعاً قد غلب على وجه هذا العجوز فتهلـّل به . لقد بدا وكأن شعاعاً قد انبثق من وجهه .

وأضاف :

– « ما الذي تطلب اليّ ان أعمله ؟ »

– « سوف اشرح لك ذلك . أعندك غرفة ؟ »

– « عندي كوخ منعزل ، هناك ، خلف خرائب الدير العتيق ، في زاوية لا يراها احد . إنّ هناك ثلاث غرف . »

وكان الكوخ ، في الحق ، محجوباً خلف الخرائب وفي منأىً عن اعين الرقباء الى حد جعل جان فالجان يعمى عنه .

وقال جان فالجان :

– « حسن . سوف اسألك ، الآن ، امرين . »

– « ما هما ، يا سيدي العمدة ؟ »

– « اولاً ، ان لا تقول لأحد ما تعرفه عني . وثانياً ، ان لا تحاول ان تعرف من ذلك شيئاً إضافياً . »

– « كما تريد . أنا أدري انك لا تستطيع ان تفعل الا ما يشرّف

وانك كنت دائماً رجلاً من رجال الله . والى هذا ، فأنك انت الذي وضعتني هنا . هذا المكان لك . وانا طوع أمرك . »

— « حسن جداً . والآن ، تعال معي . سوف نذهب لنأتي بالطفلة . »

فقال فوشلوفان :

— « آه ! هناك طفلة ! »

ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ، وتبع جان فالجان كما يتبع كلب سيده .

وفي أقل من نصف ساعة كانت كوزيت قد أمست وردية اللون بفضل اللهب المنبعث من نار قوية ، ونامت في سرير البستاني العجوز . وكان جان فالجان قد عاود ارتداء رباط عنقه وسترته الطويلة . وكانت قبعته التي قذف بها من فوق الجدار قد وُجدت ورفعت عن الارض . وفيما كان جان فالجان يلبس سترته الطويلة كان فلوشلوفان قد نزع واقية ركبته ذات الجلجل ، وعلقها بمسمار قرب مصرع النافذة ، فهي تزين الجدار . كان الرجلان يتدفآن ، وقد اسندا مرفقيهما الى مائدة كان فوشلوفان قد وضع عليها قطعة من جبن ، وشيئاً من الخبز الاسمر الدُّون وزجاجة خمر ، وكأسين . وقال العجوز لجان فالجان واضعاً يده على ركبته :

— « آه ! ايها الاب مادلين ! انك لم تعرفني لأول وهلة ! انت تنقذ الناس ، ثم تنساهم ! اوه هذا غير حسن ! انهم يذكرونك . أنت جاحد تنكر الجميل ! »

١٠

وفيه يتضح كيف أضاع جافير الطريدة

والواقع ان الاحداث التي رأينا اللحظةَ وجهها الآخر ، اذا جـاز التعبير ، انما تمّت في ظل ابسط الاحوال والملابسات .

عندما فرّ جان فالجان – في ليل ذلك اليوم نفسه الذي اعتقله جافير خلاله قرب سرير فانتين المحتضرة – من سجن مونتروي سور مير البلدي ، قدّر البوليس ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة الهارب من وجه العدالة قد اتجه ، من غير شك ، نحو باريس . فباريس دردور صاخب يضيع فيه كل شيء . وكل شيء يختفي في دوّامة العالم هذه كما يختفي في دوامة البحر . وليس من غابة تستطيع ان تخبىء رجلا كما يخبئه هذا الحشد . والفارّون على اختلاف اصنافهم يعرفون ذلك . إنهم يذهبون الى باريس وكأنهم يذهبون الى مكان يغمرهم ؛ فثمة بالوعاتٌ تُنجي وتنقذ . ورجال الشرطة يعرفون ذلك ايضاً ، فهم إنما يبحثون في باريس عمن اضاعوه في ايما مكان آخر . ولقد بحثوا هنـاك عن عمدة مونتروي سور مير السابق . ودعي جـافير الى باريس ليساعد الشرطة في مباحثها . والحق ان جـان فالجان قد ساعد ، في قوة ، على اعتقال جان فالجان من جديد . ولقد أشاد مسيو شابوييه ، امين سر الشرطة في عهد الكونت آنغليز ، بالحمية والذكاء اللذين تكشّف عنهما جافير في تلك المناسبة . ومن ثم وفّق مسيو شابوييه ، الذي سبق له ان أسبغ حمايته على جافير ، الى ان ينقل مفتش مونتروي سور مير الى مركز الشرطة بباريس . وهناك ، أثبت جافير بطرائق مختلفة أنه – ولنقلها برغم ان الكلمة تبدو غريبة لم يُسمع بمثلها في الكلام على مثل تلك المصلحة – عظيم الفائدة باستقامة وشرف .

وكان قد اطّرح التفكير في جان فالجان نهائياً – فعند كلاب القنص هذه الموكّلة ابداً بطرائدها يطمس ذنب اليوم على ذكرى ذنب الأمس – عندما قرأ في كانون الاول عام ١٨٢٣ صحيفة ما ، وهو الذي لم يقرأ الصحف في يوم من الايام . ولكن جافير جعل من همّه – بوصفه ملكياً – ان يعرف تفاصيل دخول « الامير القائد العام » * المظفّر الى بايون . حتى اذا أتم قراءة المقالة التي اثارت اهتمامه لفت نظره في الاسطر الدنيا من احدى الصفحات اسم من الاسماء ، هو اسم جان فالجان . لقد اعلنت الصحيفة ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة جان فالجان قضى نحبه . وانما سيق الخبر في عبارة جازمة الى حد جعل جافير لا يشك في صحته البتة . لقد اكتفى بالقول : « إن هذا يضع حداً للمسألة » ، ثم القى الصحيفة جانباً ، وأقلع عن التفكير في ذلك .

وبعد فترة اتفق ان حُوّلت مذكرة بوليسية من مديرية شرطة ال « سين ايه واز » الى مديرية شرطة باريس عن حادث اختطاف طفلة وقع ، كما قيل ، في ظروف خاصة ، في قضاء مونفيرماي . وقد نصت تلك المذكرة على ان طفلة صغيرة في السابعة او الثامنة من العمر كانت أمها قد عهدت في تربيتها الى فندقيّ من اهل المنطقة ، قد سرقها من ذلك الفندق رجل مجهول . وكانت هذه الطفلة الصغيرة تُعرف بكوزيت . وكانت ابنة فتاة تدعى فانتين ، ماتت في المستشفى ، وليس ثمة من يعرف متى كانت وفاتها أو اين . وانتهت هذه المذكرة الى جافير ، فلم تكد عيناه تقعان عليها حتى استغرق في التفكير .

كان هذا الاسم ، فانتين ، معروفاً عنده جيداً . لقد ذكر ان جان فالجان جعله ينفجر ، هو جافير ، بالضحك حين سأله مهلة ثلاثة ايام لكي يذهب التماساً لابنة هذه المخلوقة . وذكر ان جان فالجان اعتُقل في باريس لحظة كان يصعد الى مركبة مونفيرماي العمومية . ولقد قادته

* يقصد دوق آنغوليم الذي قاد حملة اسبانية ، وقد ورد ذكرها في الجزء السابق .

بعض الدلائل الى الاعتقاد ، آنذاك بأن هذه كانت المرة الثانية التي امتطى فيها متن هذه العربة ، وانه كان قد قام ، الليلة البارحة ، برحلة اخرى الى ضواحي تلك القرية لأن احداً لم يره في القرية نفسها . ايّ شيء كان يعمله في منطقة مونفيرماي هذه ؟ ذلك ما لم يستطع احدٌ ان يحزره . ولكن جافير فهمه الآن . كانت ابنة فانتين هناك . ولقد ذهب جان فالجان التماساً لها . وها قد سرق رجل مجهول تلك الطفلة . من عساه يكون هذا الرجل المجهول ؟ أيمكن ان يكون جان فالجان ؟ ولكن جان فالجان قد مات . ومن غير ان يقول كلمة لاحد ، امتطى جافير متن العربة العمومية عند « بلاديتين » ، زقاق بلانشيت ، وسافر الى مونفيرماي .

لقد توقع ان يجد ايضاحات هامة هناك ، ولكنه لم يجد غير غموض كبير .

ففي الايام الاولى كان تيناردييه وزوجته قد أذاعا ، في غمرة من غيظهما ، نبأ ذلك . وأحدث اختفاء القبّرة ضجة في القرية . وفي الحال اتخذت القصة عدة اشكال ، ورُويت روايات مختلفة ، انتهت بأن أمست حادثة اختطاف . ومن هنا مذكرةُ البوليس التي اشرنا اليها . وأياً ما كان ، فحين همدت الفورة الاولى ادرك تيناردييه في غير ابطاء ، تحدوه غريزته الرائعة ، أن ليس من مصلحته أن يستعدي النيابة العامة الملكية ، وانّ أولى نتائج شكاواه في ما يتصل باختطاف كوزيت ، سوف تكون تركيز عين العدالة الثاقبة عليه هو ، تيناردييه ، وعلى كثير من متاعبه التجارية . إن آخر ما تتمناه البُوم هو ان تُحمل اليها شمعة . وقبل كل شيء ، كيف يفسر الخمسة عشر الف فرنك التي تسلمها ؟ وغيّر وجهته بغتةً ، وكمّ فم زوجته ، وتظاهر بالدهش كلما حدثه امرؤ عن الطفلة المسروقة . إنه ما كان يعرف عن ذلك شيئاً . ولا ريب في أنه تشكّى ، في الحال ، أن « تُنتزَع » منه تلك الفتاة

الصغيرة العزيزة بمثل هذه السرعة ؛ ولقد كان يفضل ، بدافـــع من الحنان المحض ، ان يحتفظ بها يومين اضافيين او ثلاثة ايام إضافيـــة . ولكن جدّها هو الذي جاء يطلبها ، وهو شيء طبيعي اكثر من اي شيء آخر في العالم . كان قد اضاف الجَد الى القصة ، وهو ما بدا سائغاً في الآذان . على هذه الحكاية وقع جافير في مونفـــيرماي . وكان في ذكر الجدّ ما استبعد جان فالجان ، وأخرجه من الحساب .

ومع ذلك فقد طرح جافير بعض الاسئلة ، وكأنها مسابـــير * في رواية تيناردييه : « من كان هذا الجد ، وما اسمه ؟ » وأجاب تيناردييه في بساطة : « انه مزارع غني . لقد رأيت جواز سفره . انا اعتقد انه يدعى مسيو غييوم لامبير . »

إن لامبير اسم وقور جداً يوقع الطمأنينة في الفؤاد . ورجع جافير الى باريس .

وقال مخاطباً نفسه :

— « إن جان فالجان ميتٌ حقاً . وإني لمعتوه . »

وكان قد شرع ينسى هذه القصة كلها ، عندما سمع بعضهم يتحدث ، خلال شهر نوار ١٨٢٤ ، عن رجل غريب يقطن في ابرشية سان ميدار ، ويدعى « الشحاذ الذي يوزّع الصدقات . » وكان هذا الشخص ، كما قيل ، رجلاً يحيا على دَخْلِهِ ، وليس يعرف احدٌ اسمه تماماً — رجلاً يعيش وحده مع فتاة صغيرة في الثامنة ، لا تدري من أمرها غير شيء واحد وهو أنها أقبلت من مونفيرماي . مونفيرماي ! إن هـذا الاسم ليتكرر دائماً ، وإنه ليلفت انتباه جافير . واضاف جاسوس عجوز من جواسيس الشرطة المتسولين — وهو مستخدم قديم في احدى الكنائس كان ذلك الشخص يتصدق عليه — معلوماتٍ جديدة ، فقال : « هذا الرجل شديد النفرة من الناس ، فهو لا يغادر منزله إلا ليلاً ، وهو لا يتحدث

* جمع مسبار وهو ما يمتحن به غور الماء ليعرف مقداره .

الى احد ، ما عدا الفقراء في بعض الاحيان ، ولا يدع أحداً يتعرّف إليه . إنه يرتدي سترة عتيقة صفراء مخيفة تساوي عدة ملايين ، لأنها محشوة" كلها بالاوراق النقدية . » واثار ذلك فضول جافير من غير ريب . ولكي يرى الى هذا الغنيّ الغريب عن كثب من غير أن يُجفله ، فقد استعار ذات يوم من المستخدم في الكنيسة ملابسه الرثة والمكان الذي تعوّد جاسوس الشرطة العجوز ان يجلس فيه القرفصاء كل مساء مخنخناً بأدعيته ، متجسساً من خلال صلواته .

وفي الواقع فقد وفدَ « الشخص المريب » ، الى جافير المتنكّر على هذا النحو ، وتصدّقَ عليه . وفي تلك اللحظة رفع جافير رأسه . وأصابَه ، إذ اعتقدَ انه عرف جان فالجان ، مثلُ تلك الصدمة التي اصابت جان فالجان اذ اعتقد انه عرف جافير .

ومع ذلك ، فلعلّ الظلمة قد خدعته ؛ فقد كان موت جان فالجان أمراً مثبتاً عند السلطات . ولكن تثبت في نفس جافير شكوك ، وشكوك جدية . وفي حال الشك ، ما كان جافير – وهو الحذِر الذي يسعى جهده لاجتناب الخطأ – ليأخذ بخناق أيما رجل على الاطلاق .

ولحق بصاحبه حتى بيت غوربو . وأغرى « المرأة العجوز » بالكلام ، وهو أمر لم يكن عسيراً قط . وأيدت العجوز رواية السترة المحشوّة بطانتُها بالملايين ، وقصّت عليه حكاية الورقة النقدية ذات الألف فرنك . لقد رأتها ! لقد لمستْها ! واستأجر جافير غرفة . وفي تلك الليلة نفسها نزل فيها . واسترق السمع عند باب المستأجر الغريب ، راجياً ان يبلغ أذنيه جَرْسُ صوته ، ولكن جان فالجان لمح شمعته من خلال القفل ، وأحبط سعي الجاسوس بالتزام الصمت .

وفي اليوم التالي ، ارتحل جان فالجان . ولكن العجوز سمعت صدى قطعة الخمسة الفرنكات التي أفلتت منه وهي تجري على الارض ، فخطر لها انه على وشك الرحيل ، وسارعت الى إعلام جافير بالأمر قبل حدوثه .

وفي الليل ، حين غادر جان فالجان الغرفة ، كان جافير يترصده خلف شجرات الجادة مع رجلين اثنين .

وكان جافير قد سأل مديرية الشرطة أن تمدّه بقوة اضافية ، ولكنه لم يصرّح باسم الشخص الذي كان يرجو القاء القبض عليـــه . كان ذلك سرّاً من أسراره ، ولقد احتفظ به لثلاثة اسباب : أولاً ، لأن اقل افشاء للسرّ خليق به ان يحذر جان فالجان . وثانياً ، لان اعتقـــال محكوم بالاشغال الشاقة قديم فارٍ معدودٍ بين الاموات – مجرمٍ كانت سجلات العدالة قد صنّفته الى الابد بين الاشرار الذين هم من الضرب الاشد خطراً – سوف يكون فوزاً رائعاً لن يتركه رجال الشرطة الباريسية القدماء ، من غير شك ، لوافد جديد مثل جافير ؛ ولقد كان يخشى ان ينتزعوا منه طريده الهارب من سجن الاشغال الشاقة . واخيراً ، لأن جافير – بوصفه فناناً – كان مولعاً بالمفاجآت . لقد كان يكره تلك الانتصارات المبشّر بها والتي يزيل بهاءها طولُ التحدث عنها مقدماً . كان يحب ان يُتقن روائعه في الظلام ، ليكشف النقاب عنها بعد ذلك فُجاءَةً .

كان جافير قد تعقّب جان فالجـان من شجرة الى شجرة ، ثم من زاوية شارع الى زاوية شارع ، ولم يدعـــه يغيب عن ناظريه لحظة واحدة . وحتى في تلك اللحظات التي استشعر جان فالجان خلالها انه على اعظم ما يكون من الامن والسلامة ، كانت عين جافير مسمّرة عليه .

لماذا لم يلقِ جافير القبض على جان فالجان ؟ لأنـه كان لا يزال في ريب من أمره .

وينبغي ان نذكر ان الشرطة ، في ذلك العهد ، لم تكن تستشعر الراحة والقدرة على حرية التصرف . كانت الصحافـــة الحرة تضايقها . والحق ان بعض الاعتقالات الاعتباطية التي أعلنتها الصحف تردّد صداها

حتى في قاعة البرلمان ، مما جعل مديرية الشرطة جبانة مخلوعة الفؤاد . كان الاعتداء على الحرية الشخصية شيئاً خطيراً . وكان ضباط البوليس يخشون ارتكاب الاخطاء . لقد جعلتهم المديرية مسؤولين عن ذلك ، فاذا ما وقع ضابط في خطأ خسرَ وظيفته . ولنتخيل الاثر الجدير بهذه الفقرة الموجزة المكررة في عشرين صحيفة ان تتركه في باريس : « أمس ، القي القبض على رجل عجوز اشتعل رأسه شيباً ، وهو مثرٍ محترم كان يقوم بنزهة مع حفيدته البالغ عمرها ثمانية أعوام ، وسيق الى سجن الشرطة كمحكوم عليه بالاشغال الشاقة فارّ من وجه العدالة ! »

ولنكرر ، الى هذا ، ان جافير كانت له وساوسه . وانضافت وصايا ضميره الى وصايا مدير الشرطة . لقد كان في ريب من أمر الرجل حقاً .

وأدار جان فالجان ظهره ، وراح يمشي في الظلام .

وكان الحزن ، والقلق ، والخطر النفسي ، وثقل الهموم ، وهذا الشقاء الجديد الذي اكرهه على الفرار تحت جنح الظلام والى البحث من غير تبصّر عن مأوى في باريس يلجأ اليه هو وكوزيت ، واضطراره الى ان يكيّف خطوته وفقاً لخطوة طفلة صغيرة — كل ذلك كان قد غيّر مشية جان فالجان ، وهو لا يدري ، وطبع هيئته بطابع الشيخوخة الى حد جعل في الامكان خداع البوليس نفسه ، المتجسّد في جافير . وكان في تعذر المغالاة في الاقتراب منه ، وملابسه التي تذكّر بمؤدّب عجوز مهاجر ، وفي تصريح تيناردييه الذي جعله جَدّاً ، واخيراً في الاعتقاد بأنه قد لقي حتفه في سجن الاشغال الشاقة ، ما عزّز الشك المتعاظم في ذهن جافير .

وخطر له ، لحظة ، ان يطلب اليه فجأة ابراز أوراقه . ولكن اذا لم يكن هذا الرجل جان فالجان ، واذا لم يكن هذا الرجل مثرياً عجوزاً محمود السيرة فاغلب الظن انه لص متصل اتصالاً عميقاً بارعاً بشبكة

الجريمة الباريسية الغامضة ، او رئيس عصابة خطيرة من عصابات قطاع الطرق يتصدق على الفقراء إخفاء لمواهبه الاخرى ، وهي حيلة قديمة . ولا ريب في انه كان له رفاق ، وشركاء في الجريمة ، وملاجيء قريبة يفزع اليها . وكل هذا اللف والدوران الذي كان يقوم به في الشوارع يبدو وكأنه يدل على انه لم يكن رجلاً بسيطاً صالحاً . فالقاء القبض عليه باسرع مما يجب من باب « قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً » . واي بأس في الانتظار ؟ كان جافير موقناً احسن اليقين من انه لن يفرّ .

وهكذا واصل تقدمه في كثير من الارتباك ، موجهاً الى نفسه عشرات من الاسئلة عن هذه الشخصية اللغز .

ولم يتأكد من ان الرجل هو جان فالجان من غير ريب إلا بعد ذلك بكثير ، في شارع بونتواز ، وبفضل ضوء ساطع تدفق من احدى الحانات .

إن في هذا العالم مخلوقين يستطيع الطرب ان يعصف بهما في قوة وعنف : الأم التي تجد ولدها الضائع ، والنمر الذي يهتدي الى فريسته من جديد . لقد احسّ جافير بهزة الطرب هذه .

ولم يكد يتحقق بما لا يحتمل الشك ان الرجل العجوز هو جان فالجان ، الاشغاليّ * الرهيب ، حتى انتبه الى انه على رأس قوة لا تعدو رجلين اثنين ، وعندئذ طلب من مفوضية بوليس شارع بونتواز أن تمدّه بقوة اضافية . فقبل ان يمسك المرء بقضيب ذي أشواك يغلف يديه بقفاز .

وكان في هذا التأخر والوقوف في ساحة رولين للتشاور مع رجاله ما جعله يفقد الأثر . ومع ذلك ، فسرعان ما حزر أن جان فالجان

* تصطنع هذه الصيغة ، أحياناً ، لتقوم مقام « المحكوم عليه بالاشغال الشاقة » حين يتعذر إلحاق النعت بذلك التعبير المؤلف من اربع كلمات .

راغب في ان يتخذ من النهر حائلاً بينه وبين مطارديه . ونكس رأسه وفكّر ، مثل كلب ضخم يضع انفه في التراب لكي يستيقن بأنه على جادة الصواب . واندفع جافير ، بسداد غريزته البالغ ، اندفاعاً مباشراً نحو جسر اوسترليتز . وطرح سؤالاً على مأمور المكوس أطلعه على جليّة الأمر – « هل رأيت رجلاً يصطحب فتاة صغيرة ؟ » فأجابه المأمور : « لقد دفّعته فلسين . » ووصل جافير الى الجسر في الوقت المناسب ، فبصر بجان فالجان على الضفة الاخرى من النهر ، يقود كوزيت بيده عبر الارض الفضاء التي كانت أشعة القمر تنيرها . لقد رآه يدخل شارع « شومان فير سان انطوان » ؛ وفكّر في زقاق جانرو القائم هناك مثل شرَك من الاشراك ، وفي المنفذ الوحيد من شارع « دروا مور » الى شارع بيكبوس الصغير . وعمل على ان « يضمن المسالك الامامية » ، كما يقول الصيادون فسارع الى ارسال احد رجاله ، من طريق فرعية ، لحراسة ذلك المنفذ . ومرت دورية من العسس عائدة الى مخفر دار الصناعة ، فصادرها وحملها على مرافقته . ففي مثل هذه اللعب يُعتبر الجند اوراقاً قوية رابحة . والى هذا فالقاعدة تقول بأن اصطياد الخنزير البري يقتضي علم القانص وقوة الكلاب . حتى اذا أتمّ هذه الاستعدادات واستشعر ان جان فالجان قد وقع في الشرك المؤلف من زقاق جانرو الى اليمين ، ومساعده الى الشمال ، ومنه هو نفسه ، جافير ، في المؤخرة – عندئذ تناول قبصة * من السوط .

ثم إنه بدأ يلعب . لقد استمتع بلحظة نشوى تمور بالخبث . فترك طريده يمضي أمامه ، عارفاً أنه اسيره ، راغباً في ان يرجىء – اكثر ما يستطيع الارجاء – لحظة اعتقاله ، سعيداً بان يستشعر أنه قد وقع في قبضته وبأن يراه حراً طليقاً ، ناظراً اليه في مثل لذة العنكبوت التي تدع الذبابة تطنّ ، والهرة التي تدع الفأرة تعدو . إن المخلب والبرثن ليجدان

* القبصة (بالصاد المهملة) : ما تناولته بأطراف اصابعك .

متعة ضخمة في اختلاجة الحيوان الواقع في قبضتهما . اي بهجةٍ ينطوي عليها ذلك الخنق !

كان جافير محبوراً . لقد كانت حلقات شبكته محكمة التلاحم ، وكان واثقاً من النجاح . لم يبق عليه ، الان ، غير إطباق يده .

وإذ صحبه ذلك النفر من رجال الشرطة ، فقد كانت فكرة المقاومة مستحيلة مهما يكن جان فالجان نشيطاً ، شديد البأس ، يائساً .

وتقدّم جان فالجان في تؤدة ، جاساً في طريقه جميع زوايا الشارع الخفية ، فاحصاً إياها ، كما يفعل المرء بجيوب لص من اللصوص .

حتى اذا وصل الى وسط النسيج الذي حاكه ، لم يجد الذبابة هناك .

فتصوّرْ حنقه وسخطه .

لقد استجوب الحارس الذي أقامه عند شارعي « دروا مور » و « بيكبوس » . إن ذلك الشرطي ، الذي لزم مركزه من غير ان يبدي حراكاً ، لم يرَ الرجل يمرّ .

قد يتفق في بعض الاحيان ان يسترد أيِّلٌ حريته ورأسه مغطّىً ، يعني أنه يفرّ على الرغم من ان كلب القنص جاثم فوقه ، وعندئذ لا يدري أقدم الصيادين ما يقولون . إن دو فيفييه ، وليني فيل ، وديبريز * ليصابون بالذهول . وفي مناسبة مشابهة تنضح بخيبة الامل صاح آرتونج : « إنه ليس أيّلاً . إنه ساحر ! »

كان جافير يتمنى لو يُطلق مثل هذه الصيحة .

وعرفت خيبة أمله لحظة من اليأس والغيظ الشديد .

من الثابت ان نابوليون ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب ضد الروسيا ، وان الاسكندر ارتكب اخطاء كثيرة في حروبه بالهند ، وان قيصر ارتكب اخطاء كثيرة في الحرب الافريقية ، وان كوروش

* وهم صيادون مشهورون . وكذلك آرتونج .

ارتكب اخطاء كثيرة في حربه ضد سيثية ، وان جافير ارتكب اخطاء كثيرة في هذه الحملة ضد جان فالجان . لعله قد أخطأ بتردده في إثبات هوية الأشغاليّ العتيق ، فقد كانت النظرة الاولى خليقة بأن تكفيه . ولقد اخطأ إذ لم يلق القبض عليه ، بكل بساطة ، في ذلك البيت المتداعي . ولقد اخطأ إذ لم يعتقله حين عرفه معرفةً يقينية في شارع بونتواز . ولقد اخطأ إذ تشاور مع مساعديه ، والقمر بدر ، في ساحة رولين . صحيح ان طلب النصح مفيد ، ومن الخير ان يعرف المرء ويستجوب من بين كلابه ذلك النفر الجدير بالاعتماد . ولكن القانص لا يستطيع ان يتخذ من الاحتياطات اكثر مما ينبغي حين يطارد حيوانات قلقة جزوعة كالذئب والمحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجافير بانهماكه الشديد في وضع كلابه السلوقية على الطريق ، نبّه فريسته الى الخطر إذ جعلها تستروح المطاردة ، وأغراها بالفرار . ولقد اخطأ فوق ذلك كله إذ لعب ، بعد ان اهتدى الى الاثر من جديد في جسر اوسترليتز ، تلك اللعبة الرهيبة الصبيانية التي قضت بأن يُمسك مثلَ هذا الرجل بالطرف الاقصى من الخيط . لقد حسِبَ نفسه أقوى مما كان في الواقع ، واعتقد ان في استطاعته ان يلاعب الأسد كما تُلاعَب الفأرة . وفي الوقت ذاته ظنّ نفسه أضعف مما ينبغي عندما قدّر ان من الضروري ان يلتمس المدد من مديرية الشرطة . فقد كان ذلك الاحتياط مشؤوماً ، بما اضاع عليه من وقت ثمين . لقد ارتكب جافير جميع هذه الاخطاء ، ومع ذلك فقد كان واحداً من اكثر رجال البوليس السريّ حكمةً واشدّهم استقامة في التاريخ كله . لقد كان ، بأقوى معاني الكلمة ، ما يُدعى في فن القنص بالكلاب « كلباً حكيماً » . ولكنْ من ذا الذي يتصف بالكمال ؟

إن لكبار المتمرسين بقيادة الجيوش نصيبهم من الخور ، والاخفاق .

والحماقات الكبرى تتألف عادةً ، كالحبـال الضخام ؛ من جمهرة من الخيوط . خذِ الحبل الضخم خيطاً خيطاً ، خذ جميع الدوافع الصغيرة المقرِّرة كلًا على حدة ، تقطّعها واحدةً اثر واحدة ، وعندئذ تقول : « هذا كل ما هنالك ! » . ولكنِ اضفرْها وأحكم إبرامها تصبح قوة جسيمة . إنها آتّيلا * يتردّد بين مارسيان ** في الشرق وفالانتينيان *** في الغرب ؛ وهنيبعل يتأخر في كابوا ؛ ودانتون يستسلم للرقـــاد في « آرسيس سور أوب » .

وأياً ما كان ، فحتى في اللحظة التي أدرك جافير خلالها ان جـــان فالجان أفلت من يده لم يفقد صوابه . واذ كان واثقاً من ان الاشغاليّ الفارّ لا يستطيع ان يكون بعيداً ، فقد بثّ الارصاد ، وأقام الاشراك والمكامن ، وجاس خلال الحيّ طول النهار . وكان اول ما رآه ، ذلك التغير الطاريء على مصباح الشارع العمومي الذي قُطع حبله — أمارةٌ ثمينة ولكنها أضلته السبيل ، مع ذلك ، بان جعلته يوجه مباحثه كلها نحو زقـــاق جانرو . فقد كان في ذلك الزقـــاق جدران شديدة الانخفاض تطل عـــلى حدائق كانت حدودها تمتدّ الى بعض الاراضي الواسعة غير المزروعة . وكان واضحاً ان جان فالجان قد فرّ في ذلـك الاتجاه . والحق ان جان فالجان كان خليقاً بان يفعل ذلك ، لو انـه تقدّم الى أبعد قليلًا في زقاق جانرو ، وعندئذ يتعذر العثور عليـــه . وراد جافير تلك الحدائق والاراضي وكأنه يبحث عن ابرة ضائعة .

---

* Attila ملك الهون ، وقد تغلب على عـدد من اباطرة الشرق والغرب . ثم ارتدّ اخيراً على ضفاف الدانوب ، حيث توفي عام ٤٥٣ م .

** Marcien مارسيانوس فلافوس امبراطور الشرق الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٥٠ الى عام ٤٥٧ .

*** Valentinien الثالث امبراطـــور الغرب الروماني وقد دام حكمه من عام ٤٢٥ الى ٤٥٥ .

وعند الصباح ابقى في ذلك المكان رجلين ذكيين عهد اليهما في أمر الرقابة ، وانقلب الى مديرية الشرطة خجلاً مثل جاسوس من جواسيس الشرطة اعتقله لص من اللصوص .

الكتاب السادس

بيكبوس الصغير

١

شارع بيكبوس الصغير ، رقم ٦٢

لم يكن ثمة ، منذ نصف قرن ، ما يمثل باب العربات النموذجي الكبير ، في ذلك العهد ، اكثر من باب العربات المؤدي الى البناء ذي الرقم ٦٢ في شارع بيكبوس الصغير . وكان هذا الباب مُشْرَعاً على نحو نصفيّ مغرٍ الى ابعد حدود الاغراء ، كاشفاً عن شيئين ليسا فاجعين جداً : فِناءٌ مطوّق بجدران مزدانة بالعرائش ، ووجهُ بوّابٍ يقطّع الوقت متنقلاً من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين . وفوق الجدار الخلفي كان المرء يرى شجرات كبيرة . وحين تُبهج اشعة الشمس

الفِناء ، وتبهج كأس من الخمر البوابَ يكون من العسير عليك ان تمر برقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير ، من غير ان تنصرف حاملاً فكرة ضاحكة . ومع ذلك فقد كان ذلك الذي لمحتَهُ موطناً قاتماً .

لقد انقسم الجدار . أما المنزل فصلّى وبكى .

ولو قد وُفّقتَ ، وهو امرٌ ليس باليسير ، الى ان تتخطى البوابَ — وهو يكاد يكون مستحيلاً على الكثرة المطلقة من الناس لانه كانت ثمة كلمة سرٍّ سحرية يجب ان تعرفها — نقول اذا وفقت الى تخطّي البواب فعندئذ تدخل من ناحية اليمين دهليزاً صغيراً يؤدي بك الى سلم محصورة بين جدارين ، ضيقةٍ الى حدٍّ يجعلها لا تتسع لصاعدَين اثنين في وقتٍ واحد . واذا لم تسمح لنفسك بأن يروّعها ورقُ الجدران الأصفر ذو الاساس الشوكولاتيّ اللون الممتدّ على طول السلّم ، واذا غامرتَ في الصعود ، تصلُ الى منبَسط أول ، ثم الى منبَسط ثانٍ ، وتبلغ الدورَ الثاني برواقٍ يتبعك فيه الصّبغُ الاصفر والقاعدة الشوكولاتية في عنادٍ وديع . إن السلم والرواق مضاءان بنافذتين جميلتين . وفجأة ينعطف الرواق ، ويمسي مظلماً . فاذا تجاوزت ذلك الرأسَ انتهيت ، بعد بضع خطوات ، الى باب يزيده غموضاً وأسراراً كونهُ غيرَ موصد إيصاداً كاملاً . وتدفع البابَ ، فتجد نفسك في غرفة صغيرةٍ تبلغ مساحتها نحواً من ستة اقدام مربعة ، مفروشةٍ ارضُها بالبلاط ، مغسولةٍ ، نظيفةٍ ، باردةٍ ، مزدانة الجدران بورق نانكين ذي الزهيرات الخضراء ، الذي تُباع اللفّة الواحدة منه بخمسة عشر سو . إن ضوءاً أبيض باهتاً يُقبل من نافذة عريضة ذات الواح زجاجية صغيرة كانت الى اليسار ، وكانت تستغرق عرض الغرفة كله . وتنظر ، فلا ترى احداً . وتصغي ، فلا تسمع خطوةً ما ، أو صوتاً بشرياً ما . ان الجدار عارٍ . وليس في الغرفة أثاث ، حتى ولا كرسي واحد .

وتَرْجِعُ البصرَ كرةً اخرى فترى في الجدار الذي يواجه الباب

فتحةٌ مربعة الزوايا تبلغ مساحتها نحواً من قـدم مربع ، مغطاة بحاجز من القضبان الحديدية المتعارضة ، السوداء ، الصلبة ، ذات العُقد ، التي ألّفت مربّعات – وكدتُ أقول خلايا شبكة – يقلّ طولها عن إنش واحد . إن زهيرات ورق نانكين الخضراء لتتقدّم في هدوء وفي نظام حتى هذه القضبانِ الحديدية من غير ان يروّعها أو يشتتها ذلك الاحتكاك الفاجع . ولو قد فرضنا ان كائناً حياً كان من المزال بحيث يحاول ان يدخل الفتحة المربعة او يخرج منها إذن لحال ذلك الحاجز بينه وبين ما يبتغي . إنه ما كان يجيز للجسد ان يدخل ، ولكنه كان يجـيز ذلك للعين ، يعني للعقل . ويبدو ان القوم قد فكروا في هذا ، بدليل أنهم أردفوا الحاجزَ بصفيحة من التنك رُكّبت في الجدار المتخلّف عنـه بعض الشيء وتناثر فيها ألفٌ من الثقوب هي اكثر ميكروسكوبيةً من ثقوب المِرغاة . وفي ادنى هذه الصفيحة كانت فرجةٌ اشبه ما تكون بفم علبة من علب البريد . وكانت شريطةٌ عريضة تتصل بجرس معلق الى يمين الفتحة المقضّبة .

وتحرّك هذه الشريطةَ ، فيرنّ جرسٌ ، وتسمع على مقربة دانيـة منك صوتاً تُجفل منه وترتعد .

ويسأل الصوت :

– « مَنْ هناك ؟ »

إنه صوت امرأة ، صوت عذبٌ ، عذبٌ الى درجة جعلتْه فاجعاً . وهنا ايضاً كانت ثمةَ كلمة سحرية يجب ان تعرفها . فاذا جهلتها لم تسمع الصوت كرةً اخرى ، ويرتدّ الجدار صامتاً من جديد وكأن ظلمة القبر الموحشة كانت في الجانب الآخر .

أما اذا عرفتَ الكلمة فعندئذ يضيف الصوت :

– « أُدخل الى اليمين . »

وبعد ذلك تلاحظ الى يمينك ، تجاه النافذة ، باباً مزجّجاً يعـلوه

إطار مزجج ايضاً مدهون باللون الرمادي . وترفع المزلاج ، وتجتاز الباب ، وتحسّ بمثل ذلك الشعور الذي يغلب عليك حين تدخل مقصورة ذات شبّاك ، في احد المسارح ، قبل أن يُخفض الشباك وتضاء الأنوار . انك في الواقع في شبه مقصورةٍ مسرحيةٍ ما يكاد يضيئها نور الباب الزجاجي الباهت ، ضيقةٍ ، مؤثثة بكرسيين هرمين ، وحصير من قصب مقطّع الأوصال – مقصورةٍ حقيقية واجهتُها في ارتفاع المتّكأ يعلوها لوح من خشب أسود . وكانت تلك المقصورة ذات شبّاك ، إلا أنه لم يكن شبّاكاً من خشب مذهّب ، كشبابيك الاوبرا ، ولكنْ شباكاً من اعمدة حديدية تداخلت على نحو مخيف ورُسّخت في الجدار بمثبّتات تشبه كل منها جُمعَ كفٍّ منشبة الاظفار .

وبعد بضع دقائق ، حين تبدأ عيناك تألفان هذه العتمة الكهفيـــة ، تحاول ان تنظر من خلال القضبان الحديدية ولكنك لا ترى الى ابعد من ستة إنشات ليس غير . هناك تبصر حاجزاً من مصاريع النوافــذ السوداء وقد ثُبّتت ودُعمّت بعوارض خشبية مدهونة بلون خبز الزنجبيل . وكانت هذه المصاريع ذات مفاصل ، وكانت تنقسم الى أضلاع هزيلة متطاولة ، وتغطي عرضَ القضبان الحديدية بكامله . إنها كانت موصدة ابداً .

وبعد بضع لحظات تسمع صوتاً يناديك من وراء هـذه المصاريع ، قائلاً :

– « أنا هنا . ماذا تريد مني ؟ »

إنه صوت محبّب الى النفس ، وقد يكون في بعض الاحيان صوتاً تهيم به القلوب . ولا ترى احداً . وما تكاد تسمع تردّد نَفَسٍ من الانفاس . لقد بدا وكأنه كان صوتاً شبحياً يتحدث اليك من خلال باب القبر . ولو قد برزَتَ هناك في بعض الاحـوال الضرورية ، وهي نادرة جداً ، فعندئذ ينفتح امامك ضلع ضيق من اضلاع تلك المصاريـــع ،

ويغدو الصوت الشبحيّ طيفاً . فخلف القضبان الحديدية ، وخلف المصراع ، ترى على مقدار ما تسمح القضبان الحديدية ، رأساً لا تلمح منه غير الفم والذقن . أما سائره فمحجوبٌ بنقاب أسود . وتلمح قميصاً نسائياً أسود ، وشكلاً غير واضح المعالم يجلّله كفنٌ اسود . ويتحدث هذا الرأس معك ، ولكنه لا ينظر اليك ، ولا يبتسم لك البتة .

ان النور المنبعث من ورائك مركّز على نحو يجعلك ترى الرأس في النور ، ويجعله يراك في الظلّ . إنه نورٌ رمزيّ .

وفي الوقت نفسه ، تحدق عيناك في لهفة من خلال هذه الفرجة التي انفتحت ، الى ذلك المكان المحجوب عن أعين الرقباء .

إن ظلمة كثيفة لتغلّف هذا الشكل اللابس ثوب الحِداد . وتبحث عيناك في هذه الظلمة ، وتحاول ان تستبين أيّ شيء يحيط بالطيف . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تدرك أنك لا ترى شيئاً . إن ما تراه هو الليل ، والفراغ ، والظلمات ، وضباب الشتاء ممزوجاً ببخار القبور ، ضربٌ من الهدوء المروّع ، وصمتٌ لا تقع فيه على شيء ، حتى على الزفرات نفسها – ظلام لا تتبيّن فيه شيئاً ، حتى الاطياف .

إن ما تراه عيناك هو الجزء الداخلي من دير .

إنه الجزء الداخلي من ذلك البيت الصارم المظلم الذي يدعى دير البرناردينات للسجود السرمدي . وهذه المقصورة ، التي كنت فيها ، هي غرفة الاستقبال . وهذا الصوت ، الذي خاطبك أول مرة ، هو صوت البوّابة القاعدة ابداً ، جامدةً صامتةً ، عند الجانب الآخر من الجدار ، قرب الفتحة المربّعة ، تصونها القضبان الحديدية والصفيحة ذات الالف ثقب ، مثل قناع خوذةٍ مزدوج .

أما الظلمة التي غرقت فيها المقصورة المقضّبة فناشئة عن ان غرفة الاستقبال ذات النافذة المطلة على العالم الخارجي لم يكن لها أيما نافذة تطل على ناحية الدير . إن الأعين الدنيوية ينبغي ان لا ترى شيئاً من

هذا المكان المقدس .

بيد أنه كان ثمة شيء وراء هـذا الظلام ؛ كان ثمة نور ؛ كان ثمة حياة في هذا الموت . وعلى الرغم من ان هـذا الدير كان أمنَع من ايما دير آخر ، فسوف نحاول ان ندخله ، وان نأخذ القارىء معنا ، فنروي بأوسع ما نستطيع مـن الاسهاب شيئاً لم يرَهُ أصحاب القَصَص قط ، فلم يُقدَّر لهم بالتالي أن يَزوروه في يوم من الايام .

٢

راهبات الطاعة لمارتن فيرغا

هذا الدير الذي كان قد سلخ ، عام ١٨٢٤ ، دهراً طويلاً في شارع بيكبوس الصغير ، كان لجماعة من الراهبات البرنارديات اللواتي يدنّ بالطاعة لمارتن فيرغا .

وهكذا فهؤلاء البرنارديات لم يكنّ يُنسبن الى كليرفو ، مثل البرنارديين ، ولكنّ الى سيتو ، مثل البنيدكتيين . وبكلمة ثانية فانهنّ كنّ من رعايا القديس بنيديكت (بينوا) لا من رعايا القديس برنارد .

وكل مطّلع على الكتب القديمة يعلم أن مارتن فيرغا انشأ عام ١٤٢٥ رهبانية من البرناديات ـ البنيدكتيات ، وانه جعل سلمنكة مقرّها الرئيسي ، وأسس في آلكالا فرعاً لها .

ثم ان فروع هذه الرهبانية انتشرت في جميع بلدان اوروبة الكاثوليكية .

وتلقيح رهبانية ما برهبانية اخرى على هذا النحو ليس شيئاً غير مألوف في الكنيسة اللاتينية . ونحن نجتزىء بالاشارة الى رهبانية واحدة

هي رهبانية القديس بينوا التي نتحدث عنها هنا . فهذه الرهبانية تتشعب منها ، باستثناء راهبات الطاعة لمارتن فيرغا ، أربع أخويات ، اثنتان في ايطالية ، هما اخوية الـ « مون كاسان » واخوية « سان جوستين » في بادُوا ، واثنتان في فرنسة ، همـا اخوية « كلوني » وأخوية « سان مور » ، وتسع رهبانيـات هي « فالومبروزا » ، و « غرامون » و « السماويون » ، و « الكامالدوليون » و « الـكرتوزيون » ، و « المتصنّعون » ، و « الاوليفيتـون » ، و « السيلفيستريون » ، واخيراً رهبانية « سيتو » . لان رهبانية « سيتو » نفسها ، وهي اصلٌ لرهبانيات اخرى ، لا تعدو ان تكون فرعاً من رهبانية القديس بينوا . إن رهبانية سيتو ترقى الى عهد القديس روبير ، راهب موليسم ، في ابرشية لانغر ، عام ١٠٩٨ ؛ على حين ان الشيطان الذي اعتزل الناس وانزوى في صحراء سوبياكو (كان عجوزاً ، فهل أمسى ناسكاً ؟) إنما طُرد ، سنة ٥٢٩ ، من هيكل أبولو القـديم حيث كان مجيا الى جانب القديس بينوا البالغ عمره آنذاك سبع عشرة سنة .

والواقع ان الأنظمة التي تخضع لها راهبات مارتن فيرغا البرنارديات البنيدكتيات هي أقسى الأنظمة الرهبانية على الاطلاق ، باستثناء أنظمة الكرمليين الذين يمشون حفاةً ، ويطوّقون حناجرهم بقطعة من خيزران ، والذين لا يجلسون أبداً . انهنّ يتشحن بالسواد ، ويرتدين قميصاً يرتفع وفقاً لأمر القديس بينوا الصريـح ، حتى الذقن ، وثوباً من نسيج صوفي غليظ ذا ردنين واسعين ، وحجاباً صوفياً كبيراً ، والقميصَ الذي يرتفع الى الذقن وقد شُقّ على شكلٍ مربّع فوق الصدر ، وعصابـةَ الرأس التي تنخفض حتى العينين . تلك هي ملابسهن ، وكلها سوداء ، ما خلا عصابة الرأس فهي بيضاء . والراهبات الحديثات العهد بالترهّب يرتدين الملابس نفسها ، مع فارق وحيد هو ان ملابسهنّ هـذه بيضاء كلها . اما الراهبات ذوات النذور فيتميزن فوق هـذا بسُبْحة تحملها

كل منهن بجنبها .

وتقوم راهبات مارتن فـيرغا البرنارديات – البنيدكتيات بالسجود الرمدي على غرار الراهبات البنيدكتيات المعروفات بـ « سيدات سرّ القربان المقدس » ، اللواتي كان لهن في باريس ، عند مطلع هـذا القرن ، ديران احدهما في الـ « تامبل » والآخر في « شارع نوف سانت جانفييف » . وفي ما عدا ذلك فان راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات – البنيدكتيات اللواتي تتحدّث عنهن كنّ يؤلفن رهبانية مستقلة تمام الاستقلال عن « سيدات سرّ القربان المقدس » الحبيسات في « شارع نوف سانت جانفييف » ، وفي الـ « تامبل » . كانت ثمة فروق كثيرة بين أنظمة الجماعتين ، وكان ثمة بعض الفروق في الزيّ . كانت راهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات – البنيدكتيات يرتدين قميصاً اسود ، على حين كانت بنيدكتيات سرّ القربان المقدس وشارع نوف سانت جانفييف يرتدين قميصاً أبيض ويزيّن صدورهن الى ذلك بتمثال للمصلوب مصنوع من الفضة او من النحاس المذهب يبلغ طوله نحواً من ثلاث بوصات . ولم تكن راهبات بيكبوس الصغير يحملن تمثال المصلوب هذا . والحق ان السجود الرمدي ، المشترك بين دير بيكبوس الصغير ودير التامبل ترك الرهبانيتين مختلفتين كل الاختلاف . فثمة تشابه في هذه الناحية فقط بين سيدات سر القربان المقدس وبرنارديات مارتن فيرغا كما كان ثمة تشابهٌ في درس وتمجيد جميع الجوانب المتصلة بطفولة يسوع المسيح وحياته وموته ، وبالعذراء ، بين رهبانيتين منفصلتين أتمّ الانفصال ومتعاديتين في بعض الاحيان : رهبانية الـ « اوراتوار » الايطالية التي أسسها في فلورنسة فيليب النّيري ، ورهبانية الـ « اوراتوار » الفرنسية التي أسسها في باريس بيير دو بيرول . و « أوراتوار » باريس تدّعي حق التصدر ، اذ كان فيليب النيري مجرد قديس ، على حين كان بيرول كاردينالاً .

ولنعد الى انظمة مارتن فيرغا الاسبانية الصارمة .

ان راهبات هذا الدير البرناردييات - البنيدكتيات يمتنعن عن اكل اللحم طوال العام ؛ ويصمن الصوم الكبير واياماً اخرى كثيرة خاصة بهن ؛ وينهضن من نومهن الاول في الساعة الواحدة صباحاً لكي يقرأن كتاب فرض الكهنة ، وينشدن صلاة السَّحَر حتى الساعة الثالثة ؛ وينمن في فُرُش من قش وعلى شراشف من نسيج صوفي غليظ في جميع فصول السنة ؛ ولا يدخلن الى الحمام ابداً ؛ ولا يشعلن ناراً البتة ؛ ويعاقبن انفسهن يوم الجمعة من كل اسبوع ؛ ويلتزمن قاعدة الصمت ، فلا تتحدث احداهن الى الاخرى إلا في اوقات الاستراحة ، وهي قصيرة جداً ؛ ويلبسن قمصاناً صوفية خشنة طوال ستة اشهر ، من ١٤ ايلول ، وهو عيد ارتفاع الصليب ، حتى عيد الفصح . وهذه الستة الاشهر تنطوي على تخفيف ؛ فالنظام يقضي بأن يكون ذلك على مدار العام كله . ولكن قميص الصوف الخشن هذا ، غير المحتمل في حر الصيف ، كان يورث لابساته ضروباً من الحمّى والتشنج العصبي . فكان ضرورياً أن يصار الى تحديد استعماله . وحتى مع هذا التلطيف ، فقد كانت الراهبات يُصَبن بعد الرابع عشر من ايلول ، حين يرتدين هذه القمصان ، بحمّى تستمر ثلاثة ايام او اربعة ايام . الطاعة ، الفقر ، العفة ، الثبات على الحياة الرهبانية - تلك هي نذورهن التي كانت انظمتهن تجعل الوفاء بها اشد صعوبة وعسراً .

فكانت رئيسة الدير تُنتخَب من قبل « الامهات » اللواتي كن يسمّين « الامهات الصوتيات » لأن لهن صوتاً في مجلس الراهبات . ولم يكن القانون ليجيز اعادة انتخاب الرئيسة اكثر من مرتين ، وهذا ما جعل أطول ولاية ممكنة لرئيسةٍ ما لا تعدو تسع سنوات .

وما كن يرين قط الكاهن المحتفل بالقداس ، الذي كان محجوباً عنهن ابداً بستار صوفي يبلغ ارتفاعه تسعة اقدام ، وكن في اثناء العظة حين

يكون الكاهن في الكنيسة ، يسبلن حجبهن على وجوههن . إن عليهن دائماً ان يتحدثن في صوت خفيض ، ويمشين وقد غضضن من ابصارهن ، وطأطأنَ رؤوسهن . ولكن رجلاً واحداً يستطيع ان يدخل الدير ، هو كبير اساقفة الابرشية .

والحق ان ثمة رجلاً آخر قادراً على ذلك ، هو البستاني . ولكنه دائماً رجل عجوز ؛ ولكي يكون وحده في الحديقة على نحو موصول ، ولكي تحذّر الراهبات منه فيجتنبنه ، فقد عُلق بركبته جرس صغير .

وهن يدنّ للرئيسة بخضوع مطلق اعمى . انه الخضوع المطابق للقوانين الكنسية بكل ما ينطوي عليه من انكار للذات . الخضوع للايماءة ، للاشارة الاولى *ad nutum, ad primum signum* ، وكأنما هو امتثال لصوت المسيح ، *ut voci Christi* ؛ الخضوع في الحال ، في سعادة ، في مواظبة ، وفي ضرب من الطاعة العمياء *promptè, hilariter, perseveranter et caeca* ، كالمبرد في يد العامل *quasi limam in manibus fabri* ، *quadam obedientia* فهنّ لا يستطعن ان يقرأن او يكتبن شيئاً مهما يكن من غير اذن واضح صريح *legere vel scribere non addiscerit sine expressa superioris licentia* .

وكانت كل منهن تؤدي ، بدورها ، ما يسمينه « الاستغفار » . والاستغفار صلاة يُقصد بها التكفير عن جميع الخطيئات ، وجميع الاخطاء التي تُقترف فوق سطح الارض ، وعن كل خلل ، وكل مخالفة ، وكل بَغْيٍ وكل جريمة تُرتكب فيها . فطوال اثنتي عشرة ساعة متعاقبة ، من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة الرابعة صباحاً ، او من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، تظل الراهبة « المستغفرة » راكعة على الحجر ، امام القربان المقدس ، مشبوكةَ اليدين ، مطوّقة العنق بحبل . حتى اذا غدا التعب غير محتمل انطرحت على بطنها ، متصالبةَ الذراعين ، مستقبلةً الارض بوجهها . ذلك كل نصيبها من الراحة .

وفيا هي على هذا الوضع تصلي من اجل جميع المذنبين في الكون . إن هذا لشيء عظيم حتى الاعجاز .

واذ كانت الراهبات يقمن بهذا الصنيع أمام وتد تحترق في أعلاه شمعة طويلة فقد كن يقلن من غير تمييز « **ادت صلاة الاستغفار** » او « **ركعت امام الوتد** » . بل ان الراهبات ليؤثرن ، بدافع من الضعة والخشوع ، هذا التعبير الأخير المنطوي على معنى من العقوبة والاذلال .

واداء صلاة الاستغفار عملية تستغرق فيهـا النفس كلها . فالراهبة الجاثية امام الوتد لا تلتفت ولو سقطت خلفها صاعقة .

والى هذا ، فهناك ابداً راهبة راكعة امام القربان المقدس . وهذا الركوع يستمر ساعة من زمان . وهن يتناوبن هذه المهمة كالجنود في اثناء العمل . وذلك هو السجود السرمدي .

والرئيسة و « الامهات » يحملن دائماً ، تقريبـاً ، اسماء ذات جلال خاص تذكّر ، لا بالقديسين والشهداء ، ولكن بلحظـات من حياة يسوع المسيح ، مثل الأمّ « ميلاد » ، والأمّ « حَمْل » ، والأمّ « تَقْدِمة » ، والأمّ « آلام » . بيـد ان اسمـاء القديسات ليست محظورة .

وحين ترى اليهن لا تبصر غير أفواههن . وكلهن ذوات اسنـان صفراء . فما دخلت فرشاة اسنان الى الدير قط . ان تنظيف الاسنان بالفرشاة بمثابة الدرجة العليا من سلمٍ ادنى درجاتها خسارة النفس .

وكل منهن لا تضيف ، في كلامها ، شيئـاً ما الى ضمير المتكلم المفرد ، فهن لا يملكن شيئـاً ، ولا ينبغي أن يتعلقن بشيء . انهن يُضفن الاشياء كلها الى ضمير جماعة المتكلمين فتقول الواحدة منهن : حجابنا ، وسبحتنا . واذا تحدثت عن قميصهـا قالت : « **قميصنا** » . وفي بعض الاحيان كنّ يولعن بشيء من الاشياء الصغيرة ، بكتاب صلاة ، بأثر نفيس ، بعدالية مقدسة . فما ان يدركن انهن قد شرعن يهمن بذلك

الشيء ، حتى يتعيّن عليهن اطّراحه . إنهن يتذكرن كلمة القديسة تيريز التي قالت لها سيدة عظيمة ، لحظة دخولها في رهبانيتها : « اسمحي لي ، يا أمّ ، ان ابعث في طلب نسخة من الكتاب المقدس أنا شديدة التعلق بها » . فاجابتها بقولها : « آه ، أنت شديدة التعلق بشيء ! وإني افضل ، والحالة هذه ، ان لا تدخلي الى ديرنا . »

ومحظور على ايّ منهنّ ان تنزوي – ان يكون لها بيت ، أو غرفة. إنهن يعشن في قلايا* مفتوحة . وحين تلتقي احداهن بالاخرى تقول : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس ! » فتجيبها زميلتها : « الى الأبد ! » وتجري المجاملة الاحتفالية نفسها حين تطرق أحداهن باب الاخرى . فما إن يُمس الباب حتى يُسمع من الجانب الآخر صوت عذب يقول في عجلة بالغة : « إلى الابد ! » ومثل جميع الطقوس يصبح هذا الصنيع ، بسبب من العادة ، ميكانيكياً . وقد تقول احداهن في بعض الاحيان « إلى الابد ! » قبل ان تجد الاخرى متسعاً من الوقت لكي تنطق بهذه الجملة الطويلة حقاً : « الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس! »

وعند « راهبات الزيارة » تقول الراهبة التي تدخل : « *Avé Maria* » ** فتجيبها تلك التي دُخل عليها في قَلِيّتها : « *Gratiâ plena* » *** . ذلك هو سلامهن ، وهو « ممتلىءٌ نعمةً » حقاً .

وفي كل ساعة من ساعات اليوم يقرع ناقوس كنيسة الدير ثلاث دقّات إضافية . وعند هذه الاشارة تقطع الرئيسة ، والامهات الصوتيات ، والراهبات ذوات النذور ، والراهبات القائمات بالاعمال اليدوية ، والراهبات المستجدات ، وطالبات الترهب – عند هذه الاشارة يقطعن ما كنّ يَقُلْنه ، او ما كنّ يفعلنه ، او ما كنّ يفكرن فيه ،

* القلايا : جمع قلية ، وهي الصومعة .

** السلام عليك يا مريم .

*** الممتلئة نعمة .

ويقلنَ جميعاً في صوت واحد ، اذا كانت الساعةُ الخامسةَ مثلاً : « في **الساعة الخامسة ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الاقدس !** » فاذا كانت الساعةُ الثامنةَ قلنَ : « **في الساعة الثامنة ، وفي كل ساعة الخ** ... » وهكذا ، وفقاً للساعة كائنةً ما كانت .

وهذه العادة ، المقصود بها أن تقطع التفكير وأن تردّه دائماً الى الله ، معروفة في كثير من الرهبانيات . ولكن الصيغة هي التي تختلف ليس غير . وهكذا فانهم في رهبانية « الطفل يسوع » يقولون : « **في هذه الساعة ، وفي كل ساعة ، فليُضْرِم حبُّ يسوع فؤادي !** »

وراهبات مارتن فيرغا البنيدكتيات – البرناردينات ، اللواتي كنّ حبيسات « بيكبوس الصغير » لخمسين سنةً خلتْ ، ينشدن قدّاساتهنّ الاحتفالية في نبراتٍ ثقيلة ، وترتيل كنسيّ صافٍ ، رافعاتٍ أصواتهن دائماً طوال القداس . وحيثما وُجدت في كتاب القداس نجمةٌ فاصلة ، يقفْنَ ويقلن في صوت خفيض : « يسوع – مريم – يوسف » . وفي الصلاة على الميت يُنشدن في نبرة منخفضة الى درجة يكاد يتعذر على الاصوات النسائية ان تهبط اليها . وإنما يُحدث ذلك أثراً مؤلماً فاجعاً .

وكانت راهبات « بيكبوس الصغير » قد جعلن كُهَيْفاً تحت مذبحهن المرتفع لدفن مَنْ يتخطّفه الموت من اعضاء الرهبانية . والحكومة ، كما كنّ يسمّينها ، ما كانت لتجيز وضع الجثث في هذا الكُهَيْف . وهكذا كُنّ يفارقن الدير عند الوفاة . وكان ذلك يَحْزُنهنّ ويروّعهن وكأنه مخالفة للشريعة .

وكنّ قد فزنَ – وتلك تعزية ضئيلة – بامتياز يتيح لمنّ أن يُدفنّ في ساعة مخصوصة ، وفي مكان مخصوص في مقبرة « فوجيرار » القديمة الواقعة في ارض كانت من قبلُ ملكاً لرهبانيتهنّ .

وكل خميس يسمع هؤلاء الراهبات القداس الصارخ ، وصلاة المساء ، وجميع الصلوات ، فِعلهنّ يوم الأحد من كل اسبوع . والى هذا ،

فهن يتقيّدن في ضبط كليّ بجميع الاعياد الصغيرة التي لا يعرفها أبناء الحياة الدنيا ، والتي كانت الكنيسة سخية بها في ما مضى في فرنسة ، ولا تزال سخية بها في اسبانية وايطالية . ولا نهاية لذهابهن الى الكنيسة . أما عدد صلواتهن والمدة التي تستغرقها فليس ثمة ما يمكّننا من أن نقدّم فكرةً حسنة عنها خيراً من ان ننقل هذه الكلمة الساذجة التي صدرت عن واحدة منهن : « **ان صلوات طالبات الترهب مروّعة ، وصلوات الراهبات الحديثات العهد بدخول الدير أسوأ ، وصلوات الراهبات ذوات النذور أسوأ وأسوأ .** »

ومرةً كل اسبوع يلتئم مجلس الراهبات ، فتدير الرئيسة الاجتماعَ ، وتشهده « الامهات » . وتُقبل كل راهبة بدورها ، وتركع على الحجر وتعترف ، في صوت عالٍ ، أمامهنّ جميعاً ، بالاخطاء والآثام التي ارتكبتها في اثناء الاسبوع . وتتشاور « الأمهات » ، إثر كل اعتراف ويُعلِنَّ العقوبة جهاراً .

وبالاضافة الى الاعتراف العلني الذي يحتفظن له بجميع الاخطاء الخطيرة ، بعضَ الشيء ، كان عندهن للاخطاء غير المميتة ما يسمينه « عقاب الخطيئة » . وإنما يقضي ذلك العقاب بأن تنطرح الراهبة على وجهها ، أثناء الصلاة ، أمام رئيسة الدير حتى تشير هذه الاخيرة – التي لا تتحدث عنها الراهبات إلا بقولهنّ « أمّنا » – الى الراهبة المعاقَبَة ، بضربةٍ رفيقة على كرسيها الخشبي ، أنّ في ميسورها ان تنهض . ويُنزَل « عقاب الخطيئة » بالراهبة لاتفه الاسباب ، كأن تكسر كأساً ، او تمزق حجاباً ، او تتأخر في الصلاة بضع ثوان على نحو غير اراديّ ، او تخرج على اللحن في الكنيسة – إن أياً من هذه الآثام يكفي لانزال « عقاب الخطيئة » . و « عقاب الخطيئة » تلقائيّ مئةً بالمئة . فالمذنبة

نفسُها (وهذه الكلمة هي في محلّها من وجهة النظر الاشتقاقية *) هي التي تحاكم نفسها ، وهي التي تُنزل العقاب بنفسها . وفي الاعياد وأيام الأحد تنشد الصلوات اربع من الامهات المرتلات امـــام مِقرأ كبير ينتظم اربعة مقـاريء فرعية . وذات يوم استهلت احـدى الامهـات المرتلات مزموراً يبدأ بـ *Ecce* ، وبدلاً من ان تلفظ *Ecce* لفظت هذه العلامات الموسيقية الثلاث في صوت مرتفع : *ut , si , sol* ولقد خضعت ، بسبب من شرود الفكر هذا ، لعقاب استغرق فترة الصلاة بكاملها · ومما جعل الغلطة ضخمة ً جداً أن مجلس الراهبات لم يتمالك عن الضحك عند حدوثها .

وحين تُدعى احدى الراهبات الى غرفـــة الاستقبال ، ولو كانت الرئيسةَ نفسها ، فأنها تُسْدل حجابها ، كما نذكر ، على نحو لا يُبدي من وجهها غير الفم .

والرئيسة وحدها تملك حق الاتصال بالغرباء . أما سائر الراهبات فلا يستطعن أن يَرَيْنَ غير اقربائهنّ الأدْنَين ، وفي مناسبات نادرة جداً . واذا اتفق ان وفدَ شخص ما ليرى راهبة كان يعرفها او يحبها قبل دخولها الدير اقتضى ذلك مفاوضةً رسمية . فاذا كان الزائر امرأة فقد يُجاز لها هذا في بعض الاحيان . وعندئذ تُقبل الراهبة ، فتتحدث اليهـا المرأة من خلال المصاريع التي لا تُفتح أبداً إلا لأمٍّ او لأخت . ولا نحتاج الى القول ان الزائرين من الرجال لا يحظون بذلك الاذن البتة .

ذلك هو نظام القديس بينوا ، وقد جعله ماوتن فيرغا اكثر صرامة .

إن هؤلاء الراهبات لسنَ مرحات ، متوردّات ، ناضرات ، شأنَ فتيات الرهبانيات الاخرى عادةً . إنهن شاحبات الوجوه ، آخـذات بأسباب الجِدّ . وبين سنة ١٨٢٥ وسنـــة ١٨٣٠ أصيبت ثلاث منـهن بالجنون .

---

* على اعتبار ان كلمة « الخطيئة » او « عقاب الخطيئة » *Coulpe* وكلمة المذنب *Coupable* مشتقتان في الفرنسية من جذر واحد ، كما ترى .

٣

ضروب من القسوة والصرامة

وتسلخ المرشحة لدخول الدير سنتين على الاقل ، بوصفها طالبة ترهّب ، واربع سنوات في الغالب قبل أن تصبح عضواً في الرهبانية . ثم تقضي اربع سنوات أخرى بوصفها راهبةً مستجدة . ونادراً ما تعلن النذور النهائية قبل ثلاث وعشرين سنة أو اربع وعشرين سنة . إن راهبات مارتن فيرغا البرنارديات – البنيدكتيات لا يقبلن في رهبانيتهن أرملة مـــا .

وهن يُخضعن انفسهن ، في قلاياهن ، لضروب من الأماتة المجهولة التي التي لا يحق لهن أن يتحدثن عنها ابداً .

ويومَ تُتمّ الراهبة المستجدة نذورها الرهبانية تُجلى في أحسن زينة ، ويُحلّى رأسها بالزهر الابيض ، ويُصقل شعرها ويجعّد . ثم إنها تُكبّ على وجهها ، ويُنشر فوقها حجاب كبير أسود ، وتُنشد صلاة الموتى . وعندئذ تنقسم الراهبات صفّين ، يمرّ احدهما على مقربة منها قائلاً في نبرةٍ نائحة : « لقد ماتت اختنا ! » ، فيجيبه الآخر في صوتٍ مرنان : « إنها تحيا في السيد المسيح ! »

وفي الفترة التي ترقى اليها هذه القصة ألحِقتُ بالدير مدرسة داخلية ، تضمّ عدداً من الفتيات النبيلات ، كان معظمه من الموسرات . وكانت من ابرز هؤلاء الآنستان « دو سانت أولير » و « دو بيليسين » ، وفتاة انكليزية تحمل اسم « تالبوت » الكاثوليكي الشهير . وإنما شبّتْ هاته الفتيات – اللواتي نشأتهن الراهبات بين اربعة جدران – على الخوف من العالم ومن العصر . فقد قالت احداهن لنا ذات يوم : « إن النظر الى حصباء الطريق جعلني ارتجف من قمة رأسي الى اخمص قدميّ » . وكنّ يرتدين ملابس زرقاء ، ويعتمرنَ بقلنسوة بيضاء ، ويزيّنّ صدورهن بصلبان من فضة او نحاسٍ مذهّب . وفي بعض الاعياد الكبرى ، وبخاصة يومَ عيد القديسة مارتا ، كان يُسمح لهنّ كنعمةٍ عظمى وسعادة قصوى ، أن يرتدين ملابس الراهبات ويؤدين صلوات القديس بينوا وطقوسه يوماً كاملاً . وفي البدء كانت الراهبات ذوات النذور يُعرنهنّ ملابسهنّ السوداء . ولكن ذلك بدا تدنيساً للقدسيات ، فحظّرته الرئيسة . ولم تُجِزْ هذه الأعارة إلا للراهبات المبتدءات . ومما يلفت النظر أن هذا التمثيل – الذي كان يُتسامح به ويُشجَّع في الدير بروح تبشيرية خفية من غير شك ، ولكي يُغرس في نفوس هؤلاء الفتيات الصغار حبٌ قَبْليٌ للملابس المقدّسة – كان متعة حقيقية وسلوى صحيحة للطالبات . كنّ يتلهّيْن به ليس غير . كان شيئاً جديداً ، كان تغييراً للجو . وإنهما لسببان طفليان ساذجان لا يوفّقان على أية حال الى جعلنا نفهم ، نحن الدنيويين ، تلك السعادة التي ينطوي عليها الامساك بنضحة الماء المقدس ، والوقوف ساعات وساعات على القدمين ابتغاء الانشاد على نحو رُباعيّ امام مِقرأ من المقارئ .

والطالبات يخضعن لجميع طقوس الدير ، خلا ضروب التقشف والأماتة . وهناك فتيات عُدنَ الى العالم ؛ وعلى الرغم من أنهن سلخن عدة سنوات من الزواج فانهن لمّا يُوفقن الى الاقلاع عن عادة القول في سرعة بالغة كلما قرع امرؤ بابهنّ : « إلى الابد ! » . ومثل الراهبات ، كان

محظوراً على الطالبات الداخليات ان يرين احداً غير انسبائهن ، في غرفة الاستقبال . وحتى أمهاتهنّ لم يكن يجاز لهن ان يعانقنهــــنّ . وحسبك دليلًا على الشدة التي اصطُنعت في تطبيق هذه القاعدة ان فتاةً زارتها أمها مصطحبةً اختاً لها صغيرة في الثالثة من العمر . وبكت الفتــــاة ، فقد كانت شديدة الشوق الى تقبيل اختها . مستحيل . والتمست ان يُسمح للطفلة بأن تمرّ يدها الصغيرة ، على الاقل ، من خلال القضبان الحديدية لـكي يكون في ميسورها ان تقبّلها . ولكنهنّ أبيْنَ ذلك عليها ، وفي نبرة تـكاد ترشح بالسخط .

٤

مباهج

ومع ذلك فقد ملأت الفتيات الصغيرات هذا البيت المهيب بذكريات فاتنة .

ففي بعض الساعات ، كانت الطفولة تلتمع في هذا الدير . لقد دقت ساعة الاستراحة ، ودار بابٌ على مفاصله . وقالت الطير : حسن ! هوذا سرب من الفتيات الصغيرات ! إن فيضاً من الفتوّة قد أغرق هذه الحديقة التي تخترقها ممرّات على شكل صليب ، مثل كفن من الاكفان . وإن وجوهاً مُشعّة ، وجباهاً بيضاً ، وعيوناً ساذجة تطفح بالضياء البهيج ، وضروباً من الفجر مختلفات ، قد تناثرت في تلك الظلمة . فبعد ترتيل المزامير ، وقرع النواقيس ، ودقّ أجراس الحزن ، وأداء الصلوات انفجر ، فجأةً ، أزيز هؤلاء الفتيات الصغيرات أحلى وأعذبَ من أزيز النحل . لقد فُتح قفير الجذل ، ولقد حملَتْ كلٌ عسلَها . لقد لعبنَ ؛ لقد تنادَيْنَ ؛ لقد شكّلن جماعاتٍ ؛ لقد ركضْنَ . وهذرت في الزوايا أسنان صغيرة جميلة بيضاء . ومن بعيد راقبت الحُجُبُ ضحكَ الضاحكات : ظلال تتجسّس على الاشعة ؛ ولكن ما ضرّهنّ ! إنهن يتلألأن ويضحكن . وهذه الجدران الاربعة المحزونة كانت لها لحظات من الافتتان ايضاً . لقد شاركت ، هي الاخرى — وقد أضيئت على نحو باهت بما انعكس عليها من ابتهاج غامر — في دوران النحل العذب هذا . وكان ذلك اشبه شيء بوابل من الرياحين يهطل على هذه الجنازة . لقد اخذت الفتيات الصغيرات بأسباب المرح والعبث تحت أعين الراهبات ؛ إن نظرات العصمة لا تُزعج البراءة . وهكذا ، فبفضل هؤلاء الاطفال كانت ثمّةَ ساعةٌ غير متصنّعة وسط

جمهرة من الساعات العابسة الصارمة . لقد وثبت الصغيرات ، ورقصت الكبيرات . ففي هذا الدير امتزجت البهجة بالسماء . ولم يكن ثمة شيء احفل بالفتنة والبهاء من هذه النفوس الناضرة . ولو قد رأى هوميرو هذا المشهد إذن لضحك مع بيرّو * ولقد كان في هذه الحديقة السوداء من الصّبا ، ومن الصحة ، ومن الضجّة ، ومن الصياح ، ومن السعادة ما يكفي لازالة التجعدات عن وجوه السيدات العجائز جميعاً ، سواء منهن عجائز الملحمة او عجائز الحكاية ، عجائز العرش او عجائز الكوخ ، من هيكوب ** الى « الأوزّة الأمّ » ***

وفي هذا البيت ، اكثر من أيما مكان آخر في ما يبدو ، كانت تُسمع « نفثات الاطفال » هذه التي تمور بالطلاوة والتي تجعل المرء يضحك ضحكاً حافلاً بالتفكير . فضمن هذه الجدران المأتمية الأربعة صاحت طفلة في الخامسة من عمرها ذات يوم : « **أماه ! إن فتاة كبيرة قالت لي اللحظة إني لن أبقى هنا ، بعدُ ، اكثر من تسع سنوات وعشرة أشهر . ما أعظم سعادتي بذلك !** »

وهناك ، ايضاً ، دار هذا الحوار المأثور :

احدى الامهات الصوتيات . — « لماذا تبكين ، ايتها الطفلة ؟ »

الطفلة (وعمرها ست سنوات) متنهدةً . — « لقد قلتُ لأليس إني اعرف درس تاريخ فرنسة . فقالت لي بل انتِ لا تعرفينه . وأنا أعرفه حقاً . »

* Charles Perrault (١٦٢٨ — ١٧٠٣) كاتب فرنسي وضع عدة حكايات عن الجن خلدت اسمه .

** Hécube زوجة بريام ، وام هيكتور وباريس وغيرهما . وقد خسرت في خلال حرب طروادة جميع اولادها تقريباً البالغ عددهم تسعة عشر ، ورأت زوجها العجوز بريام وزوجها بوليكسين وابنتها وحفيدها يذبحون تحت عينيها ...

*** هي الزاوية الخرافية لحكايات بيرو الدائرة كلها حول الجن ، وقد نشرت هذه الحكايات اول مرة عام ١٦٩٧ .

أليس (وعمرها تسع سنوات) . – « لا ؛ إنها لا تعرفه . »
الأم . – « كيف ذلك ، يا بُنيّتي ؟ »
أليس . – « لقد قالت لي ان أفتح الكتاب عند أي موضع منه ، وأن أسألها ايّ سؤال من اسئلة الكتاب ، قائلةً إن في استطاعتها ان تجيب عنه . »
– « ثم ماذا ؟ »
– « إنها لم تُجب عن السؤال . »
– « حسن . ماذا سألتِها ؟ »
– « لقد فتحتُ الكتاب كيفما اتفق ، طبقاً لقولها ، ووجهتُ اليها اول سؤال وقعتُ عليه . »
– « وما كان ذلك السؤال ؟ »
– كان : « وما الذي حصل في ما بعد ؟ »
وهناك ، ايضاً ، أبديتْ هذه الملاحظة العميقة حول ببغاء نهمة بعضَ الشيء كانت لاحدى السيدات العاملات في المدرسة الداخلية :
– « أليست لطيفة ؟ إنها تأكل أعلى قطعة الخبز المدهونة بالزبدة مثل سيدة من السيدات ! »
ومن فوق بلاطة من بلاطات هـذا الدير التُقط هذا الاعتراف ، الذي كتبته مقدّماً ، لكي لا يُنسى ، خاطئة صغيرة في السابعة من العمر :
– « أبتِ ، أنا اتهم نفسي بأني كنت بخيلة .
« أبتِ ، انا اتهم نفسي بأني قد زنيت .
« أبتِ ، أنا أتهم نفسي بأني رفعت عينيّ نحو الرجال . »
وفوق مقعد من مقاعد هذه الحديقة المعشوشبة ارتجل هذه القصة فمٌ ورديّ في السادسة من العمر ، وسمعتها أعينٌ زُرْق في الرابعة والخامسة من العمر :

– « كانت ثلاثة ديوك صغار تعيش في بلد مليء بالازهار . فقطفت الديوك تلك الازهـار ووضعتها في جيوبها . وبعد ذلـك قطفت الديوك الأوراقَ ووضعتها في لُعَبها . وكان في البلد ذئب ، وكان فيه غابات كثيرة . وكان الذئب في الغابات ، ولقد أكل الديوكَ الصغار . »

وكذلك ، هذه القصيدة الاخرى :

– « كانت هناك ضربة عصا .

« إن بوليشينيل * هو الذي سدّدها الى المرة .

« ولم يُفِدْه ذلك شيئاً . ولكنه أوجعها .

« ثم جاءت سيدة فوضعت بوليشينيل في السجن . »

وهناك ، ايضاً ، قيلت هذه الكلمات الرقيقة الممزّقة للقلب على لسان لقيطة صغيرة كان الدير ينشئها ابتغاء وجــــه الله . لقد سمعت الفتيات الاخريات يتحدّثن عن امهاتهن فهمست في زاويتها قائلةً :

– « أما أنا فأن أمي لم تكن هناك عندما وُلدتُ ! »

وكانت في الدير بوّابة بدينة كان المرء يراها دائمـاً تجتاز الاروقة في سرعــــة ، حاملةً حزمة مفاتيحها ، وكان اسمها الاخت آغاتة . وكانت الفتيات الكبيرات الكبيرات ، وهن اللواتي يزيد عمرهن عـلى العاشرة ، يناديها آغاتوكليس ** .

وكانت قاعة الطعام غرفةً واسعة متطاولة ومربّعة لا ينفذ اليها النور إلا من نافذة رواقٍ ذات حنيّة نائتة النقش في مستوى الحديقة . وكانت مظلمةً رطبة ، وملأى – كما قالت الفتيات الصغيرات – بالبهائم . ذلك بأن جميع المواطن المجاورة كانت تزوّدها بأنصبتها من الحشرات . ولقد أطلق على كل من زواياها الأربع ، في لغــــة الطالبات ، اسمٌ خاصٌ

* عَلَمٌ على المهرج ، عند الفرنسيين ، ويقابله في عاميتنا « كراكوز » و« عيواظ » .

** Agathoclès طاغية سيراكيوس احدى مدن صقلية . وكان عدواً لدوداً للقرطاجيين (٣٦١ – ٢٨٩ ق . م)

معتّبر . فهنــاك زاوية العناكب ، وزاوية الأساريــع * ، وزاوية قوارض الخشب ، وزاوية الصراصــير . وكانت زاوية الصراصير قرب المطبخ ، وكانت تحظى بأجلال كثير ، بسببٍ من انها كانت أدفأ من سائر الزوايا . ومن قاعة الطعام ، انتقلت هــذه الاسماء الى المدرسة وساعدت هناك ، كما ساعدت في كلية مازاران القديمة ، على التمييز مـا بين أربع أمم . وكانت كل طالبة تنتمي الى احدى هذه الأمم الأربع تبعاً للزاوية التي تجلس فيها الى المائدة في غرفة الطعام . وذات يوم ، فيما كان كبير الاساقفة يقوم بزيارتــه الرعائية ، رأى فتاةً صغيرة جميلة متوهجة الخدين ذات شعر أشقر فاتن تدخل الى الصف الذي كان يمرّ به . فسأل طالبةً اخرى ، وكانت سمراء ساحرةً ذات وجنتين نضرتــين ، اتفق ان كانت قريباً منه :

– « مَن هذه الفتاة الصغيرة ؟ »

– « إنها عنكبوت ، يا صاحب السيادة . »

– « عجيب ! وتلك ؟ »

– « إنها صرصور . »

– « وتلك ؟ »

– « إنها أسروع . »

– « حقاً . ومن أنت ؟ »

– « انا قارضة من قوارض الخشب ، يا صاحب السيادة . »

ولكل بيت من هذا الضرب فرائده . ففي مطلع هذا القرن كانت إيكووين موطناً من تلك المواطن الجميلة الصــارمة حيث نمت ، في ظل يكاد يكون جليلاً ، طفولة الفتيات الناضرات العود . ففي إيكووين يميّز عند تنظيم موكب القربان المقدس بين العــذارى وزارعات الرياحين . وكانت ثمة ايضاً « المظلات » و « المباخر » ، وقد حمل الاولون حبال

* دود ابيض الابدان ، ينسلخ فيصير فراشاً . واحده أسروع ويسروع .

المظلة ، وأرجع الآخرون المباخر امام القربان المقدس . وكانت الرياحين تُماد الى زارعاتها لا ينازعهن في ذلك احد . وكانت اربع « عذارى » يمشين في مقدمة الموكب . وفي صبيحة اليوم العظيم لم يكن من غير المألوف أن تسمع هذا السؤال في حجرة النوم :

– « ايكنّ عذراء ؟ »

وتروي السيدة كامبان ان « فتـاة صغيرة » في السابعة من العمر قالت لـ « فتاة كبيرة » في السادسة عشرة ترأست الموكب ، على حين ظلت هي ، الفتاة الصغيرة ، في المؤخرة :

– « أنتِ عذراء ، أنتِ . اما أنا فلست كذلك ! »

٥
شواغل

وفوق باب حجرة الطعام كُتبت باحرف سوداء ضخمة هذه الصلاة التي كانت تدعى « **الصلاة الربانية البيضاء** » ، والـتى كانت تملك القوة على ان تقود الناس الى الجنة مباشرة :

– « الصلاة الربانية البيضاء التي صاغهـا الله ، والتي قالها الله ، والتي وضعها الله في الجنة . في الليـل ، حين أويت الى الفراش ، أوجدت (كذا) * ثلاثة ملائكة مستلقين على سريري ، أحدهم عنـد قدَم السرير ، والآخران عند مقدّمه ، ومريم العذراء الطيبة في الوسط ، وقد قالت لي إن عليّ أن أنام ، وان لا ارتاب في شيء . إن الرب الرحيم

* في الاصل Je trouvis بدلاً من Je trouvais أي « وجدت » فالخطأ يتمثل في كيفية صياغة الفعل الماضي من « وجد » ولما لم يكن من سبيل الى التعبير عن ذلك في العربية فقد رأينـا أن نؤدي المعنى المطلوب بوضع فعل « أوجد » بدلاً من فعل وجد ، أي استعمال صيغة الفعل الرباعية بدلاً من صيغته الثلاثية .

هو ابي ، والعـذراء الطيبة هي أمي ، والرسـل الثـــلاثة هم إخوتي ، والعذارى الثلاث هن أخواتي . إن القميص الذي ولد فيه الالـه ليلفُّ جسدي . وان صليب القديسة مارغريت لمكتوبٌ على صدري . وتمضي السيدة العذراء عبر الحقول ، باكـيةً من اجـل الرب ، وتلتقي بالسيد القديس يوحنا . سيدي القديس يوحنا ، من اين أقبلت ؟ لقد اقبلت من « آف سالوس » . انت لم ترَ الرب الالـه ، اليس كذلك ؟ إنه على شجرة الصليب ، متدليَ القدمين ، مسمَّرَ اليدين ، وعلى رأسه قبعة صغيرة من الشوك الابيـض . إن كل من يردد هذا ثلاث مرات عند المساء ، وثلاث مرات عند الصباح ، يفوز بالجنة في آخر الامر . »

وفي سنة ١٨٢٧ كانت هذه الصلاة المميَّزة قد طمست تحت طبقة من الورق مثلثة أُلصقت على الجدار . وهي تذوى حتى هذه الساعة في ذاكرة بعض فتيات ذلك العهد الصغيرات ، وقد امسين الآن سيدات عجائز .

وكان تمثال ضخم من تماثيـل المصلوب معلق على الباب ، يُتمّ زخرف غرفة الطعام هذه التي كان بابها الوحيد ينفتح ، كما نحسب اننا قد ذكرنا ، على الحديقة . وكانت طاولتـــان ضيقتان ، يحيط بكل منهما مقعدان خشبيان ، تمتدان في خطين متوازيين من اقصى قاعة الطعام الى اقصاها . وكانت الجدران بيضاء ، والطاولتان سوداوين ، فقد كان هذان اللونان الحِدادیان هما مظهر التنوّع الأوحد في الاديرة . وكانت وجبات الطعام خشنة ، وكانت اغذية الصغيرات أنفسهن صارمة . فكانت الوجبة المترفة عبارة عن طبق واحد يتألف من شيء من اللحم والخضر مجتمعين ، او من سمك مملح . بيد ان هذه اللائحة الموجزة ، التي تُخص بها الطالبات الداخليات وحدهن ، كانت شيئـــاً نادراً جداً . وانما كانت الفتيـــات الصغيرات يأكلن في صمت ، تحت عيني « الأم » المكلفة مراقبتهن ذلك الاسبوع ، والتي كانت تفتح وتغلق ، بين الفينة والفينة ، وفي ضجة ، كتاباً خشبياً ، كلما خطر ببال ذبابة ان تحوّم أو تطنّ خلافاً للقاعدة .

والواقع ان هذا الصمت كان يُتَبَّل بسِيَرِ القديسين تتلى بصوت عال من كرسي صغير ذي مِقرأ قائم عند قدمي تمثال من تماثيل المصلوب . وكانت القارئة طالبة كبيرة تُختار لاداء هذه المهمة طوال اسبوع كامل . وكانت توضع على الطاولة المجردة ، وعلى مسافات بعينهـــا ، آنية فخارية مموهة كانت كل طالبة تغسل فيها قدحها المعدني وصحنها بنفسها ، وكنَّ احياناً يُلقين في تلك الآنية بعض النفايات ، كقطعة من لحم قاسية او سمكة فاسدة ؛ وكان ذلك يعرضهن للعقاب . وكانت تلك الآنية تدعى **البرك المستديرة** .

وكانت الطفلة التي تقطع حبـــل الصمت « ترسم بلسانها صليباً » . اين ؟ عـلى الارض . كانت تلحس ارض الحجرة . كان التراب ، تلك النهايةُ الواضعةُ حداً لجميع المباهج ، يُكلَّف بمعاقبة أكمام الرياحين الصغيرة المسكينة هذه حين تُتهم بالزقزقة .

وكان في الدير كتاب لم يطبع منه في ايما يوم من الايام غـــير نسخة وحيدة محظورةٍ قراءتها . ذلك هو نظام القديس بينوا ؛ سرٌ ينبغي ان لا تنفذ اليـــه عين من الاعين الدنيــــوية غير الطاهرة .

Nemo regulas seu, constitutiones nostras, externis communicabit .

ووفقت الطالبات ، ذات يوم ، الى سرقة هذا الكتاب ، فأخـــذن يقرأنه في لهفة قراءةً كثيراً ما قوطعت بالخرف من ان تفاجئهن احدى الراهبات على تلك الحال ، وهكذا اضطررن الى إغلاق المجلد في سرعة بالغة . إنهن لم يَفزن من هذه المخاطرة الكبيرة بغير متعة ضئيلة . ولقد اعتبرن بعض الصفحات المبهمة الباحثة في آثام الصِّبْيَة الصغار « اكـــثر صفحات الكتاب إمتاعاً » .

لقد لعبن في ممر من ممرات الحديقة نهضت على طوله بضع شجرات مثمرة مهزولة ، ورغم المراقبة الشديدة وقسوة العقوبات كُن يوفقن ،

* كلام لاتيني معناه : لا يجوز لاحد أن يبوح بأنظمتنا وقوانيننا الى الغرباء .

في بعض الاحيان ، حين تهزّ الريح الاشجار ، الى ان يلتقطن ، خلسةً تفاحةً فجة ، أو مشمشة فاسدة ، أو إجاصة يسرح فيهـــا الدود . وسوف أترك الكلام الآن لرسالة موجودة بين يديّ ، رسالة كتبتها منذ خمس وعشرين سنة طالبة سابقة ، هي اليوم السيدة دوقة ... ، احدى نساء باريس الاكثر أناقة ، فقد جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد : « كانت الواحدة منا تخبيء إجاصتها أو تفاحتها ما وجدت الى ذلك سبيلًا . حتى اذا صعدنا لنضع الشراشف على الاسرّة في انتظار طعام العشاء وضعَتْها تحت وسادتها ، ثم أكلتها ليلًا في سريرها . فاذا لم تتمكن من ذلك أكلتها في الكنيف . » كانت تلك احدى مُتعهنّ الاكثر حيوية .

وذات مرة ، عند زيارة رئيس الاساقفة للدير ايضاً ، راهنت احدى الفتيات الصغيرات ، الآنسة بوشـــار ، وهي متحـــدرة من اسرة مونمورينسي ، على انها سوف تسأله ان يمنح الطالبات عطـلة يوم ، وهو شيء مروِّع في مجتمع كالح الى هذا الحد . وقُبِل الرهان ، ولكـــن أياً من اولئك اللواتي اشتركن فيه لم تعتقد أنها سوف تجـرؤ على ذلك . وحين سنحت الفرصة ، فيما كان رئيس الاساقفـــة يستعرض الطالبات انبثقت الآنـــة بوشار من الصفوف ، مثيرةً ذعر رفيقاتها التي لا يوصف ، وقالت : « مونسينيور ، عطلة يوم واحـــد . » وكانت الآنـة بوشار طويلة القامة ، ناضرة العود ، ذات وجه ورديّ صغير ليس في العـــالم اجمل منه . وابتسم مسيو دو كيلين وقال : « **وكيف ، ايتها الطفـلة العزيزة ، تطلبين عطلة يوم واحد ليس غير ؟ خذي ثلاثة ايام ، اذا شئت . أنا أمنحكن عطلة ثلاثة ايام .** » ولم تستطع الرئيسة ان تفعل شيئاً ، فقد تكلم رئيس الاساقفة . كانت فضيحـةً بالنسبة الى الدير . ولكنها كانت بهجةً بالنسبة الى المدرسة الداخلية . وفي ميسور القراء ان يتخيلوا النتيجة .

بيد ان هذا الدير الفظّ لم يكن من شدة التحصين بحيث تعجز حياة

العالم الخارجي العاطفية ، وبحيث تعجز المأساة وتعجز المغامرة الحبّيّة نفسها ، عن النفاذ اليه . ولاثبات ذاك نجتزىء بالنصّ ، في اختصار على واقعة حقيقية لا مراء فيها ، وإن لم يكن لها في ذاتها صلة بقصتنا هذه إذ لا يربطها بها أيما خيط على الاطلاق . وإنما نشير الى هذه الواقعة لكي نتمّ صورة الدير في ذهن القارىء ، ليس غير .

حوالى تلك الحقبة كانت في ذلك الدير امرأة غريبة ليست براهبة – امرأة كانت تعامل في احترام كبير ، وتدعى **مدام آلبيرتين** . إن احداً لم يكن يعرف عنها شيئاً غير أنها معتوهة ، وان العالم الخارجي كان يفترض أنها ميتة . ولقد كان وراء هذه القصة ، كما قيل ، بعض الترتيبات المالية الضرورية لزواج ضخم .

كانت هذه المرأة البالغة الثلاثين من العمر أو تكاد ، السمراء المليحة ، تحدّق بعينيها السوداوين الواسعتين تحديقاً ضارياً . أكانت ترى ؟ لا أحد يدري . وكانت تنزلق انزلاقاً اكثر مما تمشي مشياً . وما كانت لتتكلم . ولم يكن الناظر اليها ليثق ثقةً كاملة من انها تتنفس . فقد كان منخراها رقيقين شاحبين وكأنها لفظت اللحظة آخر نفس من أنفاسها . وكان لمس يدها اشبه شيء بلمس الثلج . وكانت على رقة شبَحية عجيبة . فحيثما دخلتْ أوقعت البرد في أوصال الجمع . وذات يوم رأتها احدى الراهبات مارةً فقالت لزميلة من زميلاتها : « إن الانسان ليحسبها ميتة . » فأجابتها هذه بقولها : « لعلها كذلك ! »

لقد رُويت قصص كثيرة عن مدام آلبيرتين . كانت موضوع فضول الطالبات الداخليات الدائم . وكان في الكنيسة سدّة تدعى الكوة . وفي هذه السدة ، حيث لم يكن يوجد غير فتحة مستديرة واحدة هي كوة من الكوى ، كانت مدام آلبيرتين تشهد الصلوات والخدمات الدينية . وكانت تستقلّ بذلك المكان عادةً ، لأن الواعظ أو الكاهن المحتفل بالقداس كان يرى من تلك السدة المرتفعة ، وهو امرٌ محظور

على الراهبات . وذات يوم ارتقى المنبر كاهن شاب ذو رتبة رفيعة هو دوق دو روهان ، عضو المجلس الاعلى الفرنسي ، الذي كان ضابطاً في فرقة « الفرسان الحمر » عام ١٨١٥ ، عندما كان أميرَ ليون ، والذي توفي بعد ذلك ، عام ١٨٣٠ كاردينالاً ورئيس اساقفة بيزانسون . وكانت هذه اول مرة يعظ فيها مسيو دو روهان في دير بيكبوس الصغير . وكان من دأب مدام آلبيرتين ان تستمع الى العظات وتشهد الخدمات الدينية في صمت عميق وسكينة كاملة . اما في ذلك اليوم فأنها لم تكد ترى مسيو دو روهان حتى نهضت نصف نهضة وصاحت وسط سكون الكنيسة الشامل : « ماذا ؟ اوغوست ؟ » وبُهتت جماعة الراهبات كلها ، والتفتن الى الوراء . ورفع الواعظ عينيه ، ولكن مدام آلبيرتين كانت قد ارتدّت الى جمودها الصامت . إن نفَساً من العالم الخارجي ، إن التاعة من حياة كانت قد مرّت ، لحظة ليس غير ، أمام هذا الشكل الميت المثلوج ، ثم تلاشى كل شيء ، وانقلبت المجنونة ، كرة اخرى ، الى جثة .

ومع ذلك فان هاتين الكلمتين أطلقتا لسان كل قادرة على الكلام في ذلك الدير . فما اكثر الاشياء التي انطوت عليها تلك الـ « ماذا ؟ أوغوست ؟ » وما اكثر الايحاءات ! فقد كان اسم مسيو دو روهان ، في الواقع ، هو أوغوست . وكان واضحاً ان مدام آلبيرتين تنتسب الى ارقى طبقة في المجتمع ، ما دامت قد عرفت مسيو دو روهان ، وانها كانت تحتل هي نفسها مكانة رفيعة ما دامت قد تحدثت بمثل هذه الدالة عن نبيل على مثل هذا العِظَم كله ، وانه كانت لها صلة ما به ، لعلها صلة قرابة ، ولكنها حميمة جداً من غير شك ، ما دامت تعرف « اسمه الصغير » .

وكانت دوقتان قاسيتان جداً ، هما مدام دو شوازيل ومدام دو سيران ، كثيراً ما تزوران الدير ، الذي كان يفتح ابوابه لهما ،

من غير شك ، بفضل مكانتهن النسوية الرفيعة ، فتوقعان الذعر الشديد في المدرسة الداخلية . فما ان تمر السيدتان العجوزان حتى ترتجف الفتيات الصغيرات البائسات وتخفض اعينهن .

وفوق هذا ، فقد كان مسيو دو روهان ، من غير ان يدري ، موضوع انتباه الطالبات واهتمامهن . وكان قد عُيّن في تلك الفترة بالذات ، بانتظار رفعه الى كرسي الاسقفية ، نائباً لرئيس اساقفة باريس . وكان من عادته ان يكثر من المجيء الى الدير لينشد في اثناء الخدمات الدينية المقامة في معبد راهبات بيكبوس الصغير . ولم يكن في ميسور أيّ من الحبيسات الصغيرات ان تراه بسبب من الستارة الصوفية الغليظة ، ولكنه كان ذا صوت عذب ، ورقيق بعض الشيء ، فما انقضت برهة حتى أصبحن يعرفنه ويميزنه من سائر الاصوات . لقد كان فارساً من حاشية الملك . والى هذا فقد قيل انه كان شديد الحب للزينة ، وإن رأسه كان مكسواً بشعر كستنائي جميل مُصفّفٍ دوائرَ دوائرَ ، وانه كان يتمنطق بنطاقٍ عريض متموج رائع ، وإن ثوبه الكهنوتي كان على نحو ليس له في الاناقة ضريب . لقد شغل الى ابعد الحدود جميع هذه المخيلات الفتية التي لا تزيد اعمار صاحباتها على الستة عشر ربيعاً .

ان صوتاً ما لم ينفذ من الخارج الى قلب الدير ، ومع ذلك فقد انقضتْ سنةٌ نفذَ فيها اليه صوتُ فلوتٍ او ناي . كان ذلك حَدثاً ذا خطر ، ولا تزال طالبات ذلك العهد يذكرنهُ الى اليوم .

كان نايا يعزف عليه شخصٌ ما في جوار الدير ، وكان ذلك الناي يعزف اللحن نفسه دائماً ، وهو لحن غدا اليوم نسياً منسياً : **يا حبيبتي زيتولبا ، تعالي وتربّعي على عرش روحي !** وكن يسمعنه مرتين او ثلاث مرات يومياً .

وأنفقتِ الفتيات الصغيرات ساعاتٍ في الاستماع الى ذلك اللحن ؛ واضطربت الامهات الصوتيات ؛ وعصف الدوار بالرؤوس ؛ وهطلت

العقوبات تهطالاً . ودام ذلك عدة أشهر . وتدلّهت الفتيات كلهن ، قليلاً أو كثيراً ، بحبّ الموسيقيّ المجهول . فقــد تخيّلت كلّ منهن انها زيتوليا . وكان صوت الناي يُقبل من ناحية شارع « دروا مور » . وكنّ على اتم الاستعداد لأن يقدّمنَ كل شيء ، لأن يضحــين بكل شيء ، لأن يحاولن كل شيء ، لكي يَرَيْن ولو ثانيــةً واحدة ليس غير — بل لكي يلمحْنَ هذا « الشاب » الذي كان يعزف هذا العزف العذب على ذلك الناي ، والذي كان يتلاعب في الوقت نفسه ، من غير أن يدري ، بقلوبهنّ جميعاً . والواقع ان بعض الفتيات كنّ يهربن من باب خلفيّ ، ويصعدن الى الدور الثالث المطـلّ على شارع « دروا مور » محاولاتٍ أن يرينه ، معرّضات أنفسهن لأيام بكاملها من العـــذاب . ولكن عبثاً . وذهبت إحداهن الى حدّ ان تمدّ ذراعها فوق رأسها من خلال القضبان الحديدية وتلوّح بمنديلها الأبيض . وخطــتْ فتاتان خطوةً أوسع في ميدان الجرأة . فقد وجــدتا وسيلة للتسلق الى اعلى السطح ، فخاطرتا بنفسيهما ، ووفّقتا آخر الأمر الى رؤية « الشابّ » . كان رجلاً عجوزاً مهاجراً ، مكفوف البصر مهدّماً ، يعزف على الناي في عِليّته قتلاً للضجر .

٦
الدير الصغير

كانت ضمن سور « بيكبوس الصغير » هذا ثلاثة أبنية متميّزة كل التميّز : الدير الكبــير حيث تحيا الراهبات ، والمدرسة الداخلية حيث تــنزل الطالبات ، وأخيراً ما كان يدعى **الدير الصغير** . وإنما كان هــذا بناء منفصلاً ذا حديقة ، تتقاسم السكنى فيه عدةُ راهبات عجائز ينتسبن الى

رهبانيات مختلفة ، بقايا أديارٍ خرّبتها الثورة ؛ مجموعة من كل الالوان ، السوداء ، والرمادية ، والبيضاء ، من مختلف الجماعات وجميع الاصناف الممكنة ؛ وهو ما نستطيع ان ندعوه ، اذا جاز مثل هذا التزاوج بين الكلمات ، ضرباً من « الدير اللابس ثوباً متعدد الالوان كثوب المهرّج ».

فمنذ عهد الامبراطورية أجيز لجميع هؤلاء العوانس البائسات ، المشتّتات ، المشرّدات ، أن يجدن مفزَعاً تحت أجنحة الراهبات البنيدكتيات — البرناورديات . وعيّنت الحكومة لهنّ جعالةً صغيرة ؛ ولقد استقبلتهن راهبات « بيكبوس الصغير » في لهفة . وكان ذلك خليطاً عجيباً . وكانت كل منهنّ تتّبع نظامها الخاص . وفي بعض الاحيان ، كان يُجاز للطالبات ، كتسلية كبرى ، أن يقمن بزيارتهن ، حتى لقد احتفظت هذه الذواكر الفضّة ، في جملة ما احتفظت به ، بذكرى الأم باسيل الطاهرة ، والأم سكولاستيك الطاهرة ، والأم يعقوب .

ووجدت احدى هذه اللاجئات نفسها في بيتها تقريباً . كانت راهبة من راهبات « سانت أور » ؛ وكانت هي الراهبة الوحيدة التي عُمّرت من بين المنتسبات الى تلك الرهبانية . وكان دير راهبات « سانت أور » القديم يشغل في مطلع القرن الثامن عشر هذا البيت نفسه الذي امسى في ما بعد ملكاً لراهبات مارتن فيرغا البنيدكتيات . والحقّ أن هذه الراهبة الطاهرة — المعدِمة الى حد لم يمكّنها من ان ترتدي لباس رهبانيتها البهيّ ، وهو ثوب أبيض ذو وشاح قرمزي — كانت قد خلعته ، في تقوىً ، على شخص خشبيّ صغير كانت تريه لزائراتها في رضا وارتياح . حتى اذا حضرتها المنيّة أوصت به للدير . في عام ١٨٢٤ كان قد بقي من هذه الرهبانية راهبة واحدة ، اما اليوم فليس باقياً منها غير دمية .

وبالاضافة الى هؤلاء الامهات الفاضلات كانت بضع عجائز من نساء العالم الخارجي قد حصلن من الرئيسة على إذن يجيز لهنّ ، مثلَ مدام

آلبيرتين ، ان يتنسكن في الدير الصغير . وكانت بين هؤلاء مـــدام بوفور دوتبول ، والمركـيزة دوفرين . واخرى لم تكن ُتعرف في الدير إلا بالضجة الهائلة التي اعتادت ان تحـدثها وهي تتمخّط . وكانت الطالبات يسمينها مدام فاكارميني * . . .

وحوالى سنة ١٨٢٠ او ١٨٢١ التمست مـدام جينليس ، التي كانت تحرر في ذلك العهد مجلة صغيرة تدعى « الجَسُور » ، الاذن باحتـلال غرفة في دير بيكبوس الصغير . وأوصى دوق اورليان بقبولها . وضجّ القفير بالطنين ، وارتعدت الامهات الصوتيات كلهن . فقد سبق لمـــدام جينليس ان ألّفت عدة روايات ، ولكنها اعلنت انهـا كانت اول من يكره هذه الروايات ، وبعد ذلك كانت قد انتهت الى مرحلة تقواهـا الضارية . وساعدها الله ، وساعدها الامير ايضاً ، فدخلت .

وما هي الا ستة اشهر او ثمانية اشهر حتى غادرت الدير ، مبرّرةً ذلك بان الحديقة غير ظليلة . واستبدّ الطرب بالراهبات . فعلى الرغم من بلوغها سن الشيخوخة فقد كانت لا تزال تعزف على القانون ، وفي براعة فائقة .

وعند مغادرتها الدير ، تركت طابعها في َقلّيتها . فقد كانت مدام جينليس مؤمنةً بالخرافات ، مولعة باللغة اللاتينية . والواقع ان هاتين الكلمتين تقدّمان الينا صورةً جانبية حسنةً عنها . وبعد بضع سنوات ، كان لا يزال في ميسور المرء ان يرى هذه الابيات اللاتينية الخمسة الملصقة في خزانة صغيرة في قلّيتها حيث كانت تحفظ اموالها وجواهرها . وإنما كتبت هذه الابيات بخطها ، وبحبر احمر ، على ورقة صفراء ، وكانت تؤمـن بأن في مقدرتها ان تطرد اللصوص وتروّعهم .

---

* تحسن الملاحظة ان لفظة Vacarmine في الفرنسية تفيد معنى الضجة والضوضاء والجلبة فكأن الطالبات قد سمّين تلك الراهبة « السيدة ضجة » .

Imparibus meritis pendent tria corpora ramis:
Dismas et Gesmas , media est divina potestas ;
Alta petit Dismas , infelix , infima , Gesma .
Nos et res nostras conservet summa potestas .
Hos versus dicas , ne tu furto tua perdas .

وهذه الابيات التي ترقى الى القرن السادس تجعل المرء يتساءل ، أكان اسما لصّي "جلجثة ** « ديسماس » و « جيستاس » ، كما يعتقد الناس ، أم « ديسماس » و « جيسماس » ؟ وهذا الرسم الاخير للكلمة خليق به ان ينافي ما ادّعاه الفيكونت دو جيستاس ، في القرن الماضي ، من انه متحدر من اللص المشؤوم . وفوق هذا فقد كان الأيمان بأن هذه الابيات تضرّ وتنفع عقيدةً جوهرية عند « رهبانية المضيفات » او خادمات المرضى .

وكانت كنيسة الدير ، المشيدة على نحو يجعلها تفصل ، جهد الطاقة ، ما بين الدير الكبير والمدرسة الداخلية ، مَعْبداً مشتركاً ، طبعاً ، للمدرسة الداخلية والدير الكبير والدير الصغير جميعاً . وحتى الجمهور ، كان يُجاز له الدخول اليها من شبه مَحْجَرٍ صحي ينفتح على الشارع . ولكن كل شيء كان يُنَظَّم على نحو يجعل من المتعذر على اي من اهل الدير رؤية وجه من الوجوه الخارجية . تخيَّلْ كنيسة تهيمن يدٌ جبّارة على جوقة المنشدات فيها ، وتلويها بحيث لا تشكل ، شأنها في الكنائس العادية ، امتداداً خلف المذبح ، ولكن شبه غرفةٍ او كهف

---

* « هناك ثلاثة اجسام تتدلى باستحقاقات مختلفة ،
ديسماس وجيسماس ، وبينهما السلطة الالـٰهية ،
إن ديسماس يرتفع نحو الاعالي ، اما جيسماس فيهبط الى الهاوية ،
فلتحافظ السلطة الالـٰهية علينا وعلى ممتلكاتنا .
ردّد هذه الابيات إذا أردت ان لا يسرق اللصوص اموالك . »

** جلجثة ، أو موضع الجمجمة ، جبل قرب القدس ، صلب عليه يسوع المسيح . ولصا جلجثة هما اللصان اللذان جُعل احدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وصلبا معه .

مظلم الى يمين الكاهن ؛ تخيّلْ هذه الغرفة وقد أوصدت بالستارة البالغ ارتفاعها سبعة اقدام والتي تحدثنا عنها آنفاً ، وكدِّس في ظلّ هذه الستارة ، وعلى كراسيّ خشبية ، راهباتِ الجوقة الى اليسار ، والطالباتِ الى اليمين ، والراهباتِ القائمات بالاعمال اليدوية والراهبات المستجدات في المؤخرة تَفزْ بفكرة ما عن راهبات « بيكبوس الصغير » حين يشهَدن القداس . وكان هذا الكهف المدعو الجوقة ، يتصل بالدير من طريق مجاز ضيّق . وكانت الكنيسة تستمدّ الضوء من الحديقة . وحين كانت الراهبات يشتركن في احتفالات دينية تفرض انظمتهن عليهن التزام الصمت فيها ، كان الجمهور لا يحس بوجودهن إلا من خلال صوت المقاعد الكنسية المرتفعة حيناً ، المنخفضة حيناً آخر .

٧
بعض الصور المظلمة في هذا الظلام

في مدى الست السنوات التي تفصل عام ١٨١٩ عن عام ١٨٢٥ كانت رئيسة « بيكبوس الصغير » هي الآنسة دو بلومور ، الذي كان اسمها الديني الأم إينوسانت . كانت من اسرة مارغريت دو بلومور ، مؤلفِة « سِيَر قديسي رهبانية القديس بينوا . » وكان قد أعيد انتخابها للرئاسة . امرأة في نحو الستين ، قصيرة ، بدينة ، « تغني مثل القدر المصدوعة » كذلك تقول الرسالة التي سبق ان استشهدنا ببضعة اسطر منها . ولكنها كانت امرأة ممتازة ، وكانت الشخصية المبتهجة الوحيدة في الدير كله ، ومن أجل ذلك حظيت بأعظم الاحترام والاجلال .

وكانت الأم إينوسانت تشبه جدتها مارغريت ، مؤرخة الرهبانية

وعالمتها . كانت حسنة الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عالمة ، بارعة ، شديدة الشغف بالتاريخ ، محشوّة باللاتينية ، متخمة باليونانيـة ، ملأى بالعبرية ، وراهباً اكثر منها راهبة .

وكانت نائبة الرئيسة راهبة اسبانية عجوزاً تكاد تكون مكفوفة البصر ، هي الام سينيريس .

وكانت ارفع « الامهات الصوتيات » مقاماً الامّ سانت هونورين ، الخازنة ، والام سانت جيرترود ، معلمة الراهبات المستجدات الاولى ، والأم سان آنج ، المعلمة الثانية ، والأم « البشارة » ، القيمة على الكنيسة ؛ والأم سان اوغوستين ، الممرضة ، وهي الخبيثة الوحيدة في الدير كله ؛ ثم الأم سانت ميشتيلد (الآنسة غوفان) وكانت غضة العود ذات صوت ساحر ؛ والأم ديزانج (الآنسة درووبه) التي كانت من قبل في دير « راهبات الرب » وفي « دير الكنز » بين « جيزور » و « مانبي » ؛ والأم سـان جوزيف (الآنسة دو كوغولودو) ؛ والأم سانت آديلاييد (الانسة دو فـيريني) والأم « الرحمـة » (الآنسة دو سيفيووانت التي لم تستطع احتمال اسبـاب التقشف والاماتة) ؛ والأمّ « الرأفة » (الآنسة دو لا ميلتيير التي قُبلت في الستين من عمرهـا ، برغم النظام ، وكانت غنية جداً ؛ والأم « العنـاية الالهية » (الآنسة دو لوديني) ؛ والأم « تقدمة العـذراء » (الآنسة سيفوبانزا) التي كانت رئيسة في عام ١٨٤٧ ؛ واخيراً الأم سانت سيليني (اخت المثّال سيراتشي) وقد اصيبت بالجنون ؛ والام سانت شانتال (الآنسة دو سوزون) وقد اصيبت بالجنون ايضاً .

وكان بين اكثرهن جمالاً ، ايضاً ، فتاة فاتنة في الثالثة والعشرين ، من جزيرة بوربون ، وكانت تتحدر من سلالة الفـارس روز . ولقد عرفها الناس في العالم الخارجي باسم الآنسة روز ، على حين دعت هي نفسها الأمّ « انتقال العذراء » .

وكانت الأم سانت ميشتيلد ، المكلفة بالانشاد والجوقة ، تفيـد من

الطالبات ، بسرور ، في هذه المهامّ . كان من دأبها ان تأخذ سلّماً موسيقياً كاملاً منهنّ ، يعني سبع طالبات ، من سنّ العاشرة حتى السابعة عشرة ، متناسقات الاصوات والقامات ، وتدعوهن الى الانشاد واقفاتٍ ، ينتظمهنّ صفٌّ اتخذن مواقعهن فيه وفقاً للسنّ ، فهو يبدأ بالصغرى وينتهي بالكبرى . وكان ذلك يعرض على الانظار شيئاً اشبه بشبّابةٍ من الفتيات الصغيرات ، ضرباً من مصفارٍ حيٍّ مصنوع من ملائكة .

وكانت الطالبات يُحبِبنَ من بين الراهبات القائمات بالأعمال اليدوية ، بخاصة ، الاخت سانت اوفرازي ، والاخت سانت مارغريت ، والأخت سانت مارتا ، التي كانت مضطربة العقل ، والاخت سان ميشيل التي كان أنفها الطويل يُضحكهنّ .

وكان اولئك النسوة جميعاً لطيفاتٍ مع هؤلاء الفتيات جميعاً . كانت الراهبات قاسياتٍ على انفسهنّ ليس غير . فلم تكن النار تُضرَم إلا في المدرسة الداخلية ؛ وكان الطعام المقدَّم في هذه المدرسة ، اذا ما قيس بطعام الدير ، شيئاً فاخراً . والى هذا ، فقد كنّ ينعمن بألف ضربٍ من العناية . كل ما في الأمر أن الراهبة كانت اذا مرّت بها طفلة وألقت عليها التحية ، اعتصمت بالصمت فلم تردّ على تحية الطالبة قط .

وأدت قاعدة الصمت هذه الى هذه النتيجة ، وهي ان الكلام انتُزِعَ ، في الدير كله ، من الكائنات الحية ومُنِحَ للجمادات . ففي بعض الاحيان كان ناقوس الكنيسة هو الذي يتكلم ، وفي بعض الاحيان كان المتكلم هو جُلجل البستاني . وكان ثمة جرسٌ مرنانٌ جداً موضوعٌ الى جانب المرأة البوابة فهو يُسمع في ارجاء البيت كله . وكان هذا الجرس يُفصح بنبراته المتباينة ، التي كانت ضرباً من التلغراف المقوّي للصوت ، عن جميع أفعال الحياة المادية التي يتعيّن القيام بها ، ويدعو الى غرفة الاستقبال ، عند الاقتضاء ، هذه او تلك من أهل الدير . فقد كان لكل شخص ولكل شيء دَقّته الخاصة . فدقة الرئيسة

واحد وواحد . ودقة نائبة الرئيسة واحد واثنان . وكانت ستة وخمسة تُعلن بدء الدرس ، بحيث أنّ الطالبات كنّ لا يقلن إنهن ذاهبات الى الدرس أبداً ، ولكنْ يقلن إنهن ذاهبات الى ستة وخمسة . وكانت اربعة واربعة هي دقة مدام دو جينليس الخاصة . وكانت تُسمع في كثير من الاحيان . فتقول اللواتي لا يحببْنَ القريب أبداً . « وهذا هو الشيطان الرباعيّ » . وكانت الدقات التسع عشرة تعلن حدثاً خطيراً . إنه َفتْح باب الجزء المحرّم من الدير إلا على أهله - صفيحة حديدية مروّعة شائكة بالمزالج لا تدور على مفاصلها إلا امام رئيس الاساقفة

فباستثنائه واستثناء البستاني ، كما قد ذكرنا ، لم يكن في ميسور أيما رجل أن يدخل الى الدير . أما الطالبات فرأين رجلين آخرين : اولهما المرشد ، الأب بانيس العجوز ، القبيح ، الذي كنّ يتمتعن بامتياز النظر اليه أثناء الانشاد ، من خلال قضبان نافذة ما . والثاني معلّم الرسم ، مسيو آنسيو *Ansiaux* ، الذي تدعوه الرسالة التي اقتطفنا بضعة أسطر منها مسيو آنسيو *Anciot* ، وتصفه بقولها إنه **أحدب عجوز راعب** .

ونحن نرى أن جميع الرجال كانوا مختارين .

كذلك كان هذا الدير الغريب .

٨

« بعد القلوب الحجارة » ✲

بعد أن رسمنا ملامح الدير الاخلاقية رسماً أوليا نرى ان من المفيد

✲ وقد ورد في الاصل ، باللاتينية هكذا : *Post Corda Lapides*

أن نقول بضع كلمات في هيئته المادية . ولقد كوّن القارىء حتى الآن فكرةً ما عن ذلك .

كان دير « بيتي بيكبوس سان انطوان » يستغرق ، تقريباً ، كامل المربّع المنحرف الكبير المشكّل من تقاطع شارع بولونسو ، وشارع « دروا مور » ، وشارع بيكبوس الصغير ، والزقاق المسدود المدعوّ في الخرائط القديمة شارع أوماريه . وكانت هذه الشوارع الأربعة تحيط بذلك المربّع المنحرف مثل خندق من الخنادق . وكان الدير مؤلفاً من عدة أبنية وحديقة . وكانت البناية الرئيسية ، اذا ما اعتُبِرتْ جملةً ، مجموعةً من المنشآت النغلة التي تتبدّى ، إن نُظِرَ اليها نظرةَ طائر ، أشبهَ شيء بمشنقة مطروحة على الارض .

كانت ذراع المشنقة الكبرى تمتدّ على طول شقة شارع « دروا مور » الواقعة ما بين شارع بيكبوس الصغير وشارع بولونسو . أما ذراعها الصغرى فكانت واجهةً عالية ، رمادية ، قاسيةً ، مشبّكةً تطلّ على شارع بيكبوس الصغير . وكان باب العربات ، رقم ٦٢ ، هو حدّها الاقصى . وحوالى منتصف هذه الواجهة كان الغبار والرماد قد بيّضا باباً عتيقاً منخفضاً مقنطراً نسجت العناكب خيوطها عليه ، ولم يكن ليُفتح غير ساعة او ساعتين يوم الأحد وفي المناسبات النادرة حين يُخرَج من الدير جثمان راهبة . كان هو المدخل العمومي للكنيسة . وكان مرفق المشنقة قاعةً مربّعة تُصطَنَعُ مكتباً ، وكانت الراهبات يسمينها « بيت المؤونة » . وفي الذراع الكبرى كانت قلايا « الأمهات » و « الاخوات » والراهبات المستجدات . وفي الذراع الصغرى كانت المطابخ ، وقاعة الطعام ، مبطّنةً برواق الدير ، وكانت الكنيسة . وبين الباب رقم ٦٢ وزاوية زقاق أوماريه الموصد كانت المدرسة التي لم يكن في ميسور المرء ان يراها من الخارج . أما بقية المربّع المنحرف فألّفت الحديقة التي كانت أدنى من مستوى شارع بولونسو الى حدّ جعل

الجدران مرتفعة من الداخل اكثر من ارتفاعها من الخارج بكثير . وكان في وسط الحديقة ، المحدَّبة بعضَ الشيء ، وعند قمة رابية صغيرة، شجرة شربين جميلة ، محدّدة الرأس مخروطية الشكل ، تنفصل عنها ، وكأنما تنفصل من نقطة الدائرة في تُرْس ، أربعة ممرات عريضة يتخللها ثمانٍ ضيقةٌ تمتدّ اثنينِ اثنينِ بحيث كانت خريطةُ الممرات الهندسيةُ خليقةً بأن تشبه — لو كان السياج دائرياً — صليباً وُضع على دولاب . وكانت الممرات ، المنبسطة كلها نحو جدران الحديقة غير المتسقة ، ذات أطوال متباينة . وكانت تكتنفها شجيرات عنب الثعلب . وفي طرف الحديقة الاقصى امتدّ صفّ من شجرات الحَور الضخام من خرائب الدير القديم القائمة عند زاوية شارع « دروا مور » إلى بناية الدير الصغير القائمة عند زاوية زقاق اوماريه . وأمام الدير الصغير كان ما يدعى الحديقة الصغيرة . أضف الى هذا المجموع فِناءً ، ومختلفَ ضروب الزوايا التي شكّلتها عدةٌ من الابنية المنفصلة ، وجدراناً كجدران السجون ، وصفّاً طويلاً أسود من السطوح الممتدة في محاذاة الجانب الآخر من شارع بولونسو والتي تشكل المنظر الوحيد والمكان المجاور الوحيد اللذين تُطلّ عليهما المؤسسة ، وعندئذ تستطيع ان تكوّن فكرة كاملةً عما كان عليه ، لخمسٍ واربعين سنةً خلت ، دير بيكبوس الصغير الخاص بالراهبات البرناردينات . لقد بُني هذا البيت المقدس على ارض ملعب للتنس حظيَ بشهرة واسعة ابتداءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر وكان يدعى « ملعب الشياطين الأحد عشر ألفاً . »

والى هذا فقد كانت هذه الشوارع كلها من أقدم شوارع باريس . وهذا الاسمان ، « دروا مور » و « أوماريه » عتيقان جداً . والشارعان اللذان يحملانهما هما أشد عتقاً ايضاً . فقد كان زقاق أوماريه يدعى زقاق موغو ؛ وكان شارع « دروا مور » يدعى شارع الـ « إيغلانتييه » لان الله فتّح الازهار قبل ان يقطّع الانسان

الحجارة . *

٩
قرن من الزمان في زي الراهبات

ما دمنا نفصّل القول في ما كان من قبل دير بيكبوس الصغير ، وما دمنا قد جرؤنا على ان نفتح نافذة على هذا الملاذ المنعزل فأن القاريء سوف يغفر لنا استطراداً آخر غريباً عن موضوع هذا الكتاب ولكنه مميّز ومفيد اذ يعلّمنا أن لرواق الدير المسقوف نفسِه شخصياته الغريبة الشاذة .

فقد كان في الدير الصغير راهبة في المئة من عمرها وفدت من دير فونتيفرو . والواقع انها كانت قبل الثورة من نساء المجتمع الرفيع . ولقد اكثرت من الكلام عن مسيو ميرومسنيل ، وزير العدل في عهد الملك لويس السادس عشر ، وعن سيدة ما ، تُدعى الرئيسة دوبلا ، وكانت تعرفها معرفة جيدة . فقد كان مما يُبهجها ويثير زهوها ان تسوق هذين الاسمين في كل مناسبة . وكانت تروي عجائبَ عن دير فونتيفرو ، وانه كان مثل مدينة من المدن ، وانه كانت في داخله شوارع .

وكانت تتحدث بلهجة بيكاردية أبهجت الطالبات الداخليات . وكلّ عام ، كانت تجدّد نذورها في أبهة . وكان من دأبها ان تقول للكاهن عند حلفها اليمين : « إن مونسينيور القديس فرانسوا أعطاه لمونسينيور القديس جوليان ؛ ومونسينيور القديس جوليان أعطاه لمونسينيور القديس

---

* يحسن بالقارىء ان يعلم ان كلمة إيغلانتيه Eglantier تعني النسرين ، وهو زهر ، وان كلمة « مور » Mur تعني الجدار ، وإنما تشاد الجدران من حجارة .

اوزيب ؛ ومونسينيور القـديس اوزيب أعطاه لمونسينيور القـديس يروكوب الخ . الخ ، وهكذا فاني اعطيك إياه ، يا أبتِ ! » وعندئذ كانت الطالبـات يضحكن ، لا في أردانهن" كما يقولون ، ولكن في حُجُبِهِن" ، ضحكاتٍ صغيرة ساحرة مكبوحـة كانت تحمل « الأمهات » على العبوس والتقطيب .

وذات يوم كانت الراهبة المئوية تروي بعض الحكايات . فقالت : **إن الرهبان البرناردين كانوا في أيام صباها لا يسمحون لفرسان الملك بأن يتقدموا عليهم في المجالس** . كان قرن من الزمان يتكلم ، ولكنه كان القرنَ الثامن عشر . وتحدّثت عن عادة الخمور الاربع التي كانت شائعة في شامبانْي وبورغونْي قبل الثورة . فحين كانت شخصية كبيرة ، مـن مثل مارشال فرنسة ، او امـير من الامراء ، او دوق من الدوقات ، او عضو في المجلس الاعلى ، يمر بمدينة من مدن بوغورنْي او شامبانْي كانت هيئة المدينة تستقبله ، وتخطب بـين يديه ، وتقدّم اليه أربع كؤوس فضية صُبّت فيها اربعة ضروب من الخمر . وكان منقوشاً على الكأس الأولى : **خمر القرد** ؛ وعلى الثانية : **خمر الاسد** ؛ وعلى الثالثة : **خمر الخروف** ، وعلى الرابعة : **خمر الخنزير** ، وكانت هذه النقوش الاربعة تعبّر عن درجات السُّكر الاربع المنحدرة : الاولى تلك التي تُبهج ، والثانية تلك التي تَهيج ، والثالثة تلك الـتي تخبّل ، والاخيرة تلك التي تجعل الشارب وحشياً .

وكان لديها في احدى الخزائن المقفلة شيء غريب كانت شديـدة الهيـام به . ولم يكن نظام دير فونتيفرو ليحظّره . وكانت لا تُري هذا الشيء لامرىء ما . فقد كان من دأبهـا ان توصد الابواب عـلى نفسها – وهو أمرٌ يُجيزه نظامها – وتختبىء كلما أرادت النظر إليه . حتى إذا سمعت وَقْعَ أقدام في الرواق اغلقت الخزانة أسرعَ مـا تستطيع إغلاقها بيديها الهرمتين . وما إن يتحدث اليها احد في ذلك حتى تعتصم

بالصمت ، على الرغم من ولوعها بالكلام . وكان أكثر النسوة فضولاً ينقلبن خائبات أمام صمتها ، وأكثرهن إصراراً ينقلبن خائبات امام عنادها. وكان هذا ، ايضاً ، موضوع تعليق عند كل عاطلة عن العمل وكل من أصابها السأم في الدير . إذ ما الذي يمكن أن يكونَهُ ذلك الشيء ، النفيس جداً ، السرّي جداً ، الذي كان كنزَ الراهبة المثوبة هذه ؟ لا شك في أنه كتاب مقدس ما ، أو سبحة فريدة ، أو ذخيرة مثبتة . لقد تهنَ في مفازة من الأحداس والافتراضات . حتى إذا توفيت العجوز المسكينة هرعن إلى الخزانة بأسرع مما يقضي به العرف ، في ما يبدو ، وفتحنها . فوجدن موضوع فضولهن تحت نسيج قطني ثلاثيّ مثل كأس مقدسة على شكل صحفة صغيرة . كانت صُحَيْفةً من صحاف فينزا * تمثّل أحبّة شرعن في الطيران وقد طاردهنّ غلمانٌ صيادلةٌ مسلّحون بحاقن ضخام . والمطاردة ملأى بالايماءات المضحكة والأوضاع الهزلية . ولقد أثخن أحد الأحبة بالطعنات ، فهو يناضـــل ، وهو يهزّ جناحيه الصغيرين ، محاولاً أن يعاود الطيران ، ولكن الغلام الطافر مرحاً يُطلق ضحكة شيطانية . المغزى : ـ الحب مهزوماً بالمغص . وهذه الصُحَيْفة الغريبة جداً فوق ذلك ، والتي ربما كان لها شرف الايحاء بفكرة ما الى موليير ، كانت لا تزال موجودةً في أيلول ، عام ١٨٤٥ . كانت معروضة للبيع في دكان من دكاكين السّلع المستعملة في جادة بومارشيه .

إن هذه العجوز الطيبة لم تكن ترغب في استقبال زائر يفد من العالم الخارجي لرؤيتها ، **لان غرفة الاستقبال** ـ كما قالت ـ **كانت مظلمة أكثر مما ينبغي .**

* مدينة ايطالية اشتهرت قديماً بصناعة الخزف .

١٠

اصل « السجود السرمدي »

ومع ذلــك فغرفة الاستقبال هذه التي تكاد أن تكون قَبْرية ، والتي حاولنا أن نعطي القارىء فكرة عنها ، مظهرٌ محليّ محضٌ لا نقع على مثله ، بالصرامــة نفسها ، في الأديرة الأخرى . ففي دير شارع الـ « تامبل » على الخصوص ، الذي كان ينتمي في الحق الى رهبانيـــة أخرى ، استعيض عن المصاريع السود بستائر سمراء ، وكانت غرفـــة الاستقبال نفسها صالةً مبلطةً بالخشب ، محجوبةً نوافذُها بالشاش الموصلي الأبيض ، مزدانةً جدرانُها بضروب من الصور ، ومنها رسم راهبـــة بنيدكتية حسرت عن رأسها ، وباقات من الزهر ، بل ورأس رجـــل تركي أيضاً .

وإنما نهضت في حديقة دير شارع الـ « تامبل » نفسها شجرة الكستناء الهندية تلك التي كانت تعدّ أكبر زميلاتها وأجملهن في فرنسة ، والـــتي اشتهرت عند شعب القرن الثامن عشر الطيب بأنها **أُمّ جميع شجرات الكستناء في المملكة** .

وكما ذكرنا سابقاً ، كان يحتلّ ديرَ الـ « تامبل » هذا راهباتُ السجود السرمدي البنيدكتيات ، وهن غير أولئك البنيدكتيات المنبثقات مـــن « سيتو » . ورهبانية السجود السرمدي هذه ليست قديمة جداً ، فهي لا ترقى الى أكثر من مئتي عام . ففي سنة ١٦٤٩ دُنّس القربان المقدس مرّتين متواليتين ، خلال بضعة أيام ، في اثنتين من كنائس باريس ، في كنيسة « سان سولبيس » وكنيسة « سان جان آنغريف » — وهو خرق للقدسيات مروّع ونادرٌ أحدث هزة عنيفة في المدينة كلها . فأقام النائب الأسقفي رئيس دير « سان جيرمان دي بريه » موكباً دينياً مهيباً حشد

له كهانه جميعاً ، وقدّس * فيه سفير البابا . ولكن هذه الكفارة لم تكن كافية في نظر سيدتين نبيلتين هما مدام كورتين ، المركيزة دو بوك ، والكونتس دو شاتوفيو . فهذا الانتهاك لحرمة « سر المذبح البالغ الجلال » رغم أنه عابرٌ ، لم يبرح ذهنَي هاتين النفسين القدسيتين ؛ ولقد بدا لهما أنْ لا سبيل الى أن يُكفَّر عنه الا « بسجود سرمدي » في دير ما . فقدّمتا كلتاهما ، الواحدة عام ١٦٥٢ ، والأخرى عام ١٦٥٣، هباتٍ ضخمة الى الأم كاترين دو بار ، الملقبة بكاترين القربان المقدس ، وكانت راهبة بنيدكتية ، لكي تمكّناها من تأسيس دير تابع لرهبانية القديس بينوا ابتغاء تحقيق هذا الغرض التقيّ . وانما مُنحت الأم كاترين دو بار الاجازة الأولى لانشاء هذه المؤسسة من لدن مسيو دو ميتز رئيس دير « سان جيرمان » شرط « أن لا تُقبل فيها أيّ فتاة لا تحمل الى الدير دخلًا سنوياً قدره ثلاثمئة ليرة ، أي رأس مال مقداره ستة آلاف ليرة » . وبعد رئيس دير « سان جيرمان » أجاز الملك انشاء المؤسسة ببراءة خاصة . ثم ان مجلس المحاسبة والبرلمان أقرّا كلًا من الاجازة الصادرة عن رئيس الدير والبراءة الملكية ، في عام ١٦٥٤ .

ذلك هو أصل الرهبانية البنيدكتية للسجود السرمدي للقربان المقدس ، في باريس ، وهذا هو تكريسها الشرعي . ولقد جدّد البناء الذي احتله أول دير من أديرة هذه الرهبانية ، في شارع كاسيت ، بأموال مدام دو بوك ومدام دو شاتوفيو .

وهذه الرهبانية ، كما نرى ، ينبغي أن لا يُخلط بينها وبين رهبانية البنيدكتيات الملقبات براهبات سيتو . لقد انبثقت من رئيس دير « سان جيرمان دو بريه » كما انبثقت « سيدات القلب المقدس » من الرئيس العام لليسوعيين ، و « راهبات المحبة » من الرئيس العام للّعازاريين .

* قدس الكاهن : أقام القداس .

وهي كذلك مختلفة كل الاختلاف عن راهبات دير « بيكبوس الصغير » البرنارديات اللواتي استعرضنا حياتهن الداخلية من لحظة . ففي سنة ١٦٥٧ أجاز البابا الكسندر السابع لراهبات « بيكبوس الصغير » البرنارديات – ببراءة خاصة – أن يمارسن السجود السرمدي مثل راهبات القربان المقدس البنيدكتيات . ولكن كلاً من الرهبانيتين ظلت ، مع ذلك ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها .

١١

نهاية « بيكبوس الصغير »

منذ عودة أسرة بوربون الى العرش ، شرع دير « بيكبوس الصغير » يذوي ويتلاشى . وكان ذلك جزءاً من موت الرهبانية العام ، تلك الرهبانية التي ولت بعد القرن الثامن عشر كما ولت جميع الرهبانيات الدينية . ان التأمل ، كالصلاة ، ضرورة من ضرورات الانسانية . ولكنه ، مثل أي شيء مسته الثورة ، سوف يتحول ويتغير ؛ وبدلاً من أن يكون معادياً للتقدم الاجتماعي سيصبح مؤاتياً له .

وأقفر دير « بيكبوس الصغير » في سرعة . وفي عام ١٨٤٠ كان الدير الصغير قد زال ، وكانت المدرسة الداخلية قد زالت أيضاً . لم يبق ثمة لا النسوة العجائز ، ولا الفتيات الصغيرات . كانت الأوليات قد قضين نحبهن ، وكانت الأخريات قد مضين لسبيلهن . Volaverunt *

إن نظام « السجود السرمدي » قاسٍ إلى درجة توقع الذعر في النفس . ويتقهقر النداء الرباني ، فلا تنضمّ الى الرهبانية مجنّدات جديدات . ففي سنة ١٨٤٥ كانت الرهبانية لا تزال قادرة على ان تجمع من هنا

* في اللاتينية ؛ ومعناها : لقد رحلن .

وهناك بعض الراهبات القائمات بالاعمـــال اليدوية ، ولكنها عجزت عن أن تفوز بأيٍّ من راهبات الأنشاد الجماعي . منذ اربعين عاماً كان عدد الراهبات مئة تقريباً ، ومنذ خمسة عشر عاماً لم يكن ثمة غير ثمانٍ وعشرين . فكم يبلغ عددهن اليوم ؟ وفي عام ١٨٤٧ كانت رئيسة الدير شابة ، وهذا دليل على ان إمكانية الاختيار كانت محدودة . إنها كانت دون سنّ الاربعين . وكلما تناقص العدد ، تعاظم التعب . إن واجبات كلّ منهن تصبح اشد عسراً ؛ ومن ذلك الحين تقترب تحت ابصارهن ، تلك اللحظةُ التي لن يبقى فيها غير دزينة من الاكتاف الموجِعة المتقوّسة للنهوض بنظام القديس بينوا الثقيل . إن العبء عنيد لا يعرف المرونة، وإنه ليظلّ هو نفسهُ بالنسبة الى العـــدد القليل كما قد كان بالنسبة الى العدد الكثير . إنه يُسِهظ ؛ إنه يسحق . وهكذا َقضيْن َنحْبَهن . ومنذ أن كان مؤلف هذا الكتـــاب لا يزال يعيش في باريس ماتت اثنتان منهنّ ، احداهما كانت في الخامسة والعشرين والاخرى كانت في السادسة والعشرين . وهذه الاخيرة كان في ميسورها أن تقول مع جوليا آلبينولا *Hic Jaceo, vixi annos viginti et tres*٭ وبسببٍ من هذا الانحطاط أقلع الدير عن تعليم البنات .

والحق انه لم يكن في ميسورنا ان نجتاز بهذا البيت المظلم المجهول ، فوق العاديّ ، من غير ان ندخل ونُدخل معنا اولئك الذين يرافقوننا والذين يصغون الينا ونحن نروي — ولربما كان ذلك لفائدة بعضهم — قصة جان فالجان الكئيبة . لقد ألقينا نظرةً على هذه الجماعة المفعمة بممارساتها العتيقة التي تبدو اليوم بالغة الجِـــدة . إنها الحديقـــة المسوّرة . *Hortus conclusus* . ولقد تحدثنا عن هذا الموطن الفريـد في إسهاب منتقِد ، ولكن في احترام ، بقدر ما يمكن التوفيق بين الاحـــترام والانتقاد على الاقل . إننا لا نفهم كل شيء ، ولكننا لا نُهين شيئاً .

٭ في اللاتينية ، ومعناها : هنا أقمت حيث عشت ثلاثاً وعشرين سنة .

فنحن بعيدون عن تهلل جوزيف دو ميتر الذي يذهب الى حد تقديس الجلاّد بُعدَنا عن سخرية فولتير الذي يذهب الى حد التهكم على تمثال المصلوب .

ولنقل ، بالمناسبة ، إن هذه مخالفة للمنطق يقع فيها فولتير . ذلك أن فولتير كان خليقاً به أن يدافع عن يسوع كما دافع عن كالا * . وحتى عند اولئك الذين يُنكرون سرّ التجسُّد اي شيء يمثله تمثال المصلوب ؟ إنه يمثل الحكيم مضرّجاً بدمائه .

إن الفكرة الدينية لتجتاز ، في القرن التاسع عشر ، بأزمة . فنحن ننسى اشياء كثيرة مما تعلّمناه ، وإننا نحسن بذلك صنعاً شرط ان نتعلّم — ونحن ننسى امراً ما — شيئاً غيره . فليس من فراغ في القلب الانساني ! إن بعض الاشكال لتَهْدَم ، ومن الخير ان تُهْدَم شرط ان يعقبها الانشاء .

وفي غضون ذلك فلندرس الاشياء التي زالت . إن من الضروري أن نفهمها ، ولو من أجل اجتنابها ليس غير . إن كل تزوير للماضي ينتحل اسماً ، وإن هذه المزوَّرات مولعة بأن تدعو نفسها المستقبل . والحق ان ذلك الشبح — الذي هو الماضي — كثيراً ما يزوِّر جواز سفره . فلنستعدّ للشَّرَك . فلنأخذ حِذْرنا . ان للماضي وجهاً هو الخرافة ، وقناعاً هو الرياء . فلنشّهر الوجه ، ولنمزّق القناع .

اما الأديرة فتجبهنا بمشكلة مركّبة : مشكلة حضارة ، وهذه تدينها ؛ ومشكلة حرية ، وهذه تحميها .

---

* Jean Calas تاجر من تولوز اتهم خطأ بأنه قتل ابنه لكي يحول بينه وبين الارتداد عن البروتستانتية . وقد حكم عليه البرلمان فقضى تحت دولاب التعذيب عام ١٧٦٢ . وقد اعيد اليه اعتباره سنة ١٧٦٥ بعد ان دافع فولتير عنه دفاعاً مثيراً .

الكتاب السابع

بين هلالين

١

الدير بوصفه فكرة مجردة

هذا الكتاب مأساة بطلها الأول هو اللانهاية .

اما بطلها الثاني فالانسان .

واذ كان الامر كذلك ، فقد تعيّن علينا ، حين وجدنا ديراً في طريقنا ، ان نلجه . لماذا ؟ لأن الدير الذي عرفه الشرق كما عرفه الغرب ، وعرفته العصور القديمة كما عرفته العصور الحديثة ، وعرفته الوثنية كما عرفته البوذية ، وعرفه الاسلام كما عرفته النصرانية لا يعدو ان يكون جهازاً من الاجهزة البصرية التي يسلطها الانسان على

اللانهاية .

وليس هذا هو الموطن المناسب لبسط بعض الآراء بسطاً مسهباً . ومع ذلك ، ففيما نتشبث بتحفّظاتنا ، وبقصور التعبير عندنا ، بل وبسخطنا ايضاً تشبثاً قوياً ، يتعيّن علينا ان نقول إننا كلما وقعنا في الانسان ، على اللانهاية – سواء أأحسن فهمها أم أسيء – استبدّ بنا الاحترام على نحوٍ لا إراديّ . إن في الكنيس ، وفي المسجد ، وفي الهيكل الهندي أو الصيني ، وفي معبد الهنود الحمر جانباً بغيضاً نمقته ، وجانباً رفيعاً نهيم به . فيا له موضوعاً يتفكّر فيه العقل ، ويا له مصدراً لا ينضب من مصادر التأمّل ، انعكاسُ الله ذاك على الجدار الانساني !

٢

الدير بوصفه واقعة تاريخية

من وجهة نظر التاريخ ، والعقل ، والحقيقة ، تقف الحياة الرهبانية موقف المتهم الذي دانته المحكمة .

إن الاديرة ، حين تكثر في بلد من البلدان ، هي عُقَد تعرقل السير ، منشآتٌ معوِّقة ، مراكز كسلٍ حيث ينبغي ان تقوم مراكز عمل . والمؤسسات الرهبانية تمثل بالنسبة الى المؤسسة الاجتماعية العظمى ما تمثله الطفيليات بالنسبة الى شجرة السنديان ، والثآليل بالنسبة الى الجسم البشري . ففي ازدهارها وسمنها إفقار البلاد . واذا كان النظام الرهباني صالحاً في فجر الحضارة ، حين حارب الوحشيةَ بالروحانية مخففاً من وطأتها ، فأنه مؤذٍ في الادوار التي تبلغ فيها الشعوب مبلغ الرجولة . والى هذا ، فحين يسترخي النظام الرهباني ويدخل في دور

التفسخ – وهو الدور الذي نراه فيه ، اليوم – يصبح مهلكاً للاسباب نفسها التي جعلته مُنجياً في دور صفائه .

لقد كان للاعتكاف في الأديار زمانه . فالصوامع برغم ما اسدته من فائدة في المرحلة الاولى من الحضارة الحديثة ، قد عاقت نمو هـذه الحضارة ، وأضرّت بتطوّرها . والأديرة ، بوصفها مؤسسةً ، وبوصفها طريقة من طرائق تثقيف البشر ، كانت صالحةً في القرن العاشر ، وموضعَ خلاف في القرن الخامس عشر ، وإنها لبغيضةٌ في القرن التاسع عشر . والحق ان جُذام الحياة الرهبانية كاد يتأكّل حتى الهيكلِ العظميّ امتين عظيمتين ، الامة الايطالية والامة الاسبانية ، وكانت احداهما نور اوروبة والاخرى مجدها طوال قرون من الزمان . واذا كانت هاتان الامتان الماجدتان قد اتخذتا سبيلهما ، في عصرنا هذا ، الى الشفاء فالفضل في ذلك راجعٌ الى علم حفظ الصحة * السليم الحازم الذي وُضعت قواعده عام ١٧٨٩ .

والدير – دير النساء العتيق ، بخاصة – كما كان يبدو حتى على عتبة هذا القرن ، في ايطالية ، والنمسا ، واسبانية ، ليس غير تخثُّر من أشدّ تخثّرات القرون الوسطى عبوساً وإظلاماً . إنه في تلك البلدان نقطة التقاطع لضروب من المخاوف والاهوال . والديرِ الكاثوليكي ، على الحَصْر ، مليء بأشعة الموت السوداء .

ولكن الدير الأسباني أشدّ مأتميةً من سائر الأديار كلها . هناك ترتفع في الظلمة – تحت عقود ملأى بالضباب ، تحت قباب لا تكاد تبدو بسببٍ من العتمة – مذابح ضخمة مثل برج بابل ، سامقة كالكاتدرائيات . هناك تتدلى من السلاسل في غمرة الظلام تماثيل للمصلوب ضخمة بيضاء . هناك تستلقي ، عاريةً على خشب الأبنوس ، تماثيل للمسيح عاجيّة هائلة ، دامية لا مخضّبة بالدم فحسب ، فظيعة بديعة ،

* يقصد الثورة الفرنسية .

تمّ مرافقها عن عظامها ، وتمّ عظام رُكبها عن أغشيتها ، وتمّ جراحها عن لحمها ، وقد تُوّجت بأشواك من فضة ، وسُمرت بمسامير من ذهب، وبدت على جباهها قطرات دم من ياقوت أحمـر ، وترقرقت في أعينها دموع من ألماس . إن اليواقيت وقطع الألماس لتبدو مبلّلة ، وإنهـــا لتُجري الدموع ، هناك في الاجزاء الدنيـــا ووسط العتمة ، من مآقي مخلوقات محجّبات نُخدّشت خواصرها ومُزّقت بالانـسجة الصوفية الغليظة ، وبالسياط ذوات الرؤوس الحديدية ، وسُحقت أثـداؤها بحُصُرٍ صغيرة مصنوعـة من غصون الصفصاف ، وجُلّفت رُكبهـا بالصلاة الموصولة . نسوة يحسبن أنفسهن زوجاتٍ . أشباح تتخيل أنها في عداد الطبقة العليا من الملائكة . أتفكر هاته النسوة ؟ لا . ألهنّ إرادة ؟ لا . هـــل يعشقن ؟ لا . هل يعشن ؟ لا . لقد تحوّلت أعصابهـــنّ الى عظام ، ولقد تحولت عظامهن الى حجارة . إن حجابهن هو الليـــل منسوجاً . وإن َنفَسهن ، تحت ذلك الحجاب ، يشبه شيئاً لا سبيل الى وصفه : تنفّسَ الليلِ الفاجع ذاته . إن رئيسة الدير ، وهي هامـــةٌ * من الهامات ، تطهّرهن وتروّعهن . إن النقاء هناك ، مقطّباً كالحَ الوجه. تلك هي أديرة أسبانية القديمة – مغاور للعبادة الرهيبة ، أحجارُ عذارى، مواطنُ وحشيةٌ ضارية .

كانت اسبانية الكاثوليكية رومانية اكثر من رومة نفسها . وكان الدير الاسباني هو نموذج الدير الكاثوليكي . هناك ، كان الهواء عابقـــاً بروائح الشرق . وكان رئيس الاساقفة – « كيسلر آغا » ** السماء – يوصد بالحديد سرايَ الارواح هذه التي نـــذرت نفسها لله ، ويتجسس

* الهامة روح الميت او القتيل . وكان الرومان يعتقدون ان أرواح المجرمـين واضرابهم تطوف تائهة في الارض لكي تروّع الأحياء . اما العرب فكانت تزعم ان روح القتيل الذي لم يدرَك بثأره تصبح هامة فتزقو عند قبره تقول اسقوني اسقوني ، فاذا ادرك بثأره طارت .

** تعبير تركي كان يطلق في عهد العثمانيين على رئيس الخصيان السود .

عليها . كانت الراهبة هي محظية السلطان ، وكان الكاهن هو الخصيّ . كانت النسوة المولعات بالعبادة هنّ النسوة المختارات ، في أحلامهن ، وكنّ مُدَلَّهات بالمسيح . ففي الليل ، كان الفتى الجميل العاري ينزل عن الصليب ، ويصبح طرب القَلِيَّة المفرط . إن اسواراً عالية لتذود شواغل الحياة الواقعية جميعها عن « السلطانة » الصوفية التي تنظر الى « المصلوب » نظرتها الى « السلطان » . ذلك بأن نظرة واحدة الى الخارج تُعتبر خيانةً من الخيانة . لقد حل سجن الدير * الأرضي محل الكيس الجلدي . فما كانوا يقذفون به ، في الشرق ، الى البحر ، كانوا يقذفون به ، في الغرب ، الى الأرض . ففي كلتا الناحيتين كانت بعض النساء يَلْتَعن توجّعاً : اللجة لهؤلاء ، والحفرة لأولئك . هنا المُغرَقات، وهناك الموءودات . توازٍ مخيف !

وفي أيامنا هذه ، أمسى من دأب أنصار الماضي ، وقد عجزوا عن انكار هذه الأشياء ، أن يبتسموا لها . لقد صار زياً عندهم ، وهي طريقة ملائمة وغريبة ، أن يكبتوا موحيات التاريخ ، وأن يدحضوا تعليقات الفلسفة ، وأن يحذفوا جميع الحقائق البغيضة ، وجميع المسائل المظلمة . « موضوعات للهجاء » ، كذلك يقول البارعون . فيردد الحمقى : « الهجاء » . فجان جاك ** هجّاء ؛ وديدرو هجّاء ، وفولتير في دفاعه عن « كالا » ، و « لابار » *** ، و « سيرفين » **** هجّاء . ولست

* في الاصل in pace وهو الاسم الذي يطلق على سجن الدير والقائم تحت الارض حيث كانت تحبس الآثمات حتى الموت . والتعبير لاتيني معناه « في سلام » .

** يقصد جان جاك روسو .

*** La Barre نبيل فرنسي (١٧٤٧ – ١٧٦٦) اتهم بتشويه تمثال من تماثيل المصلوب فصدر عليه الحكم بالموت ، ففُصل رأسه عن جسده ، ثم أحرق رغم عدم شرعية المحاكمة واستنكار الرأي العام . وقد دافع عنه فولتير وحاول ان يعيد اليه اعتباره ، بعد الموت ، ولكن عبثاً . ثم ان « المؤتمر الوطني » أعاد اليه هذا الاعتبار (في ٢٥ برومير ، السنة الثانية للجمهورية).

**** Sirven رجل بروتستانتي (١٧٠٦ – ١٧٦٤) حكم عليه برلمان تولوز بالموت بتهمة قتل ابنته لكي يحول بينها وبين اعتناق الكاثوليكية . ولكن دفاع فولتير ادى الى اعادة اعتباره بعد خمس سنوات من إعدامه .

أدري من الذي اكتشف أخيراً أن تاسيت * كان هجّاء ، وأن نيرون كان ضحية ، وأن علينا من غير شك أن نشفق « على هولوفيرن ** المسكين ذاك . »

بيد أن الحقائق عنيدة ، وليس من اليسير التغلب عليها . فقد رأى مؤلف هذا الكتاب ، بعينيه الاثنتين ، على نحو عشرين ميلاً من بروكسل ، نموذجاً من القرون الوسطى ، هو في متناول كل انسان ، في ديرِ فيلار – كوى السجون المظلمة المؤبّدة في وسط المرج الذي كان في يوم من الأيام فِناء الدير؛ كما رأى على ضفاف الـ « ديل » أربعة محابس حجرية مظلمة ضيقة نصفها تحت الارض ونصفها تحت الماء . تلك كانت سجوناً ديرية *in-pace* *** وفي كل من هذه المحابس بقية من باب حديدي ، ومرحاضٌ ، ونافذة مقضبة بالحديد ، هي من الخارج على ارتفاع قدمين عن سطح النهر ومن الداخل على ارتفاع ستة أقدام عن سطح الارض . ان اربعة أقدام من مياه النهر لتجري في محاذاة صفحة الجدار الخارجية . فالتربة المجاورة تظل مبللة أبداً . وهذه التربة المبللة هي الفراش الوحيد الذي تملكه نزيلة ذلك السجن الديري . وفي أحد تلك المحابس لا يزال جزءٌ من غُلّ حديدي مسمّراً على الجدار . وفي محبس آخر كان في ميسور المرء أن يرى شبه صندوق مربّع مصنوع من أربع صفائح من صوان هي أقصر من أن يستلقي فيها كائن بشري ، وأشد انخفاضاً من أن يقف فيها مستقيمَ القامة . هناك في داخل هذا الصندوق كانت توضع مخلوقة بشرية مثلنا ، ثم يوضع فوق رأسها غطاء من حجر . إنه هناك . إن في استطاعتك أن تراه . إن في استطاعتك

---

* المؤرخ اللاتيني الشهير . وقد سبق التعريف به في الاجزاء الماضية .

** احد قواد نبوخذ نصر ، وقد قتلته « يهوديت » بأن دخلت الى خبائه وذبحته وهو نائم منقذة بذلك شعبها اليهودي .

*** راجع الهامش الاول على الصفحة السابقة .

أن تلمسه . هذه السجون الديرية ، هذه المحابس المظلمة ، هذه الزنّات الحديدية ، هذه الأغلال التي تطوّق الاعناق ، هذه الكوى العاليـــة ، القائمة على مستوى مجرى النهر ، هذا الصندوق الحجري المغلق مثل القبر بغطاء صواني ، مع هذا الفارق وهو انّ الميت هنا كان كائناً حياً ، هذه التربة التي هي وحل ، هذا المرحاض ، هذه الجدران التي ترشـــح ... أوه ، يا لها من ألسنة مهيّاءة !

٣

بأي شرط نستطيع

ان نحترم الماضي

إن الحياة الرهبانية ، كما قد كانت في اسبانية ، وكما تبدو في التيبت هي ، بالنسبة الى الحضارة ، ضربٌ من داء السلّ . انها توقف الحياة ، على الفور . إنها بكلمة واحدة ، تُخلي الديار من سكانهـــا . والترهب خِصاء . وفي اوروبة كان الترهب آفة . أضف إلى هذا ، العنفَ الذي يُخضَع له الضمير في كثير من الاحيان ، والدعوات الاجبـــارية الى الحياة الرهبانية ، والنظام الاقطـــاعي المتكىء على الدير ، وحق البكورية * الذي يُفرغ في حياة الترهبِ فائض الاُسرة ، والفظائـــع الوحشية التي وصفناها اللحظة ، وسجون الاديرة ، والافواه الموصدة ، والأدمغة المسوّرة ، وكثيراً من المواهب التعسة الملقاة في محابس النذور السرمدية ، وارتداء الثوب الرهبـــاني للمرة الاولى ، ودفن النفوس وهي حيـــة . اضف ضروب التعذيب الفرديّ هـــذه الى الخراب

* اي حق الولد البكر في امتلاك جميع الميراث دون سائر اخوته .

الذي يصيب الحياة القومية ، وعندئذ تجد نفسك – كائناً من كنت – ترتعد لمشهد ثوب الراهب وحجاب الراهبة ، هذين الكفنين من أكفان الابتداع الانساني .

ومع ذلك ، ففي بعض النقاط وفي بعض المواطن ، على الرغم من الفلسفة ، وعلى الرغم من التقدّم ، تستمرّ الروح الرهبانية في وَضَحِ القرن التاسع عشر ؛ وإن انبعاثاً زهدياً غريباً لَيُدهش العالم المتمدن في هذه اللحظة . والحق ان اصرار المؤسسات الهرمة على البقاء الى الابد أشبه شيء بعناد العطر الزنخ الذي يتشبَّث بشَعْرِك ، ودعوى السمكة الفاسدة التي تُصرّ على ان تُؤكل ، ولجاجة ثوب الطفل الذي يريد أن يكسو الرَّجل ، وحنان الجثث التي تعود لتعانق الأحياء !

إن الثوب ليهتف : « يالكم من ناكرين للجميل ! لقد صُنتكم في عهد ضعفكم فلماذا تتخلَّون عني الآن ؟ »

وإن السمكة لتقول : « لقد كنتُ ذات يوم في أعماق البحر ! »

وإن العطر ليصيح : « لقد كنتُ وردةً من قبل ! »

وإن الجثة لتتمتم : « لقد أحببتك ! »

وإن الدير ليقول : « لقد مدّنتك ! »

وليس لهذا كله غير جواب واحد : « في الماضي . »

فلأن نحلم بتخليد الاشياء الميتة وحُكم الجنس البشري بالتحنيط ، وأن نُرجع العقائد المتهرئة ، ونذهّب صناديق ذخائر القديسين من جديد ، ونجصص اروقة الاديرة ثانية ، ونبارك صناديق بقايا اجساد القديسين كرة اخرى ، ونجدّد الخرافات ، ونعيد تغذية التعصب ، ونضع مقابض جديدة لمناضح الماء المقدّس والسيوف ، ونُنشئ الحياة الرهبانية والروح العسكرية من جديد ، ونؤمن بخلاص المجتمع البشري من طريق مضاعفة الطفيليات ، ونفرض الماضي على الحاضر – كل اولئك يبدو شيئاً غريباً . ومع ذلك فهناك أنصار لهذه النظريات . ولهؤلاء النظريين ،

وهم رجال فكر في النواحي الاخرى ، طريقة بسيطـــة جداً : انهم يخلعون على الماضي طلاءً يدعونه النظام الاجتماعي ، والحق الالـهي ، والاخلاق ، والاسرة ، واحترام الاسلاف ، والسلطة العريقة في القدم ، والتقاليد المقدسة ، والشرعيـــة ، والدين . وهم ينطلقون هاتفين : « انتبهوا ! خذوا هذا ، ايها الناس الطيبون ! » وهـــذا الضرب من من المنطق كان مألوفاً عند القدماء . لقـــد مارسه عرّافوهم . كانوا يفركون عِجلةً سوداء بالطباشير ، ويصيحون : « إنهـا بيضاء ! » *Bos cretatus*

أما نحن فنوزّع احترامنا ههنا وهناك ، ولا نتعرّض للماضي عـلى الاطلاق شرطَ ان يُقرّ بأنه ميت . أما اذا أصر على الزعم بأنـه حيّ فعندئذ نهاجمه ونحاول ان نصرعه .

إن الخرافات ، والتطرف في التقوى ، والمراءاة في التدين ، والآراء المقبولة من غير تحقيق أشبهُ بأطياف الموتى . ومـع ذلك فهي تتشبث بالحياة . إن لها في كيانها الخيالي أسناناً وأظافر ، ويتعيّن علينا أن نشتبك معها في القتال ، جسداً لجسد ، ونشنّ عليها الحرب ، وان نفعل ذلك من غير مهادنة ؛ لأنه قد كُـتِب على الانسانية أن تصارع الأطياف صراعاً سرمدياً . وليس يسيراً على المرء أن يمسك بخنـــاق الظلّ ، ويطرحه أرضاً .

إن ديراً في فرنسة ، في وَضَح القرن التاسع عشر ، هو مجمعٌ من البُوم يواجه النهـار . والدير ، متلبساً بجرم التقشف المشهود ، وسطَ مدينة عام ١٧٨٩ وعام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ — رومة تتفتّح أكمامها في باريس — لا يعدو ان يكون خطأً في تأريخ الحوادث *anachronisme* . وفي الايام العادية ، ليس على من يريد أن يزيل خطأً من أخطاء التأريخ ويمحوه الا ان يحمله على تهجّي السنة المدوّنة عـــلى صفحته . ولكننا لسنا في ايام عادية على الاطلاق .

فلنقاتل .

فلنقاتل ، ولكنْ فلنميّز . فشيمة الحقيقة أنها لا تعرف الافراط ابداً . وما حاجتها الى الغلو ؟ ان ثمة اشياء يجب ان تُهدم ، واشياء ينبغي أن يُسلّط عليها النور وتُدرس ليس غير . أيّ قوة هائلة ينطوي عليها الفحص الملاطف الجدّي ! فلنجتنب ان نحمل النار حيث يكفي النورُ وحده .

واذن ، فما دمنا في القرن التاسع عشر فنحن نقاوم الاعتكاف في الأديرة ، بوجه عام ، وعند كل أمة من الامم ، سواء في آسية او في اوروبة ، في الهند او في تركية . إن من يقول « الدير » فكأنه قال « المستنقع » . إن قابليتها للتعفن واضحة ؛ إن ركودها وبيل ؛ إن تخمّرها يصيب الشعوب بالحمّى وينتهي بها الى الهزال ؛ إن مضاعفتها خليقة بأن تصبح ضربة من ضربات المصريين . وليس في استطاعتنا ان نفكر ، من غير ان نرتعد ، بتلك الديار التي يتكاثر فيها « الفقراء » *fakirs* والكهان البوذيون ، والنساك ، والرهبان اليونانيون ، والمرابطون ، والكهنة البوذيون السياميون ، والدراويش تكاثراً مريعاً كمثل تكاثر الحشرات والهوامّ .

حتى اذا قلنا هذا ، بقيت أمامنا المسألة الدينية . ولهذه المسألة بعض الجوانب الخفية التي تكاد تكون راعبة ، فليُسمَحْ لنا بأن نواجهها على نحو مباشر .

٤
الدير من وجهة النظر المبدئية

يجتمع الناس ويحيون حياة مشتركة . بأي حق ؟ بحق المشاركة .

انهم يوصدون الأبواب من دونهم . بأي حق ؟ بحق كل امرىء في أن يفتح بابه أو يغلقه .

انهم لا يخرجون من محبسهم . بأي حق ؟ بحق الذهـــاب والمجيء الذي ينطوي على حق المرء في البقاء في بيته .

وهناك ، في بيوتهم هذه ، ما الذي يفعلونه ؟

إنهم يتحدثون في صوت خفيض ؛ انهم يسمّرون أعينهم على الارض؛ انهم يتخلون عن العالم ، عن المدن ، عن الملاذ الحسية ، عن المباهج ، عن الاباطيل ، عن الخُيَلاء ، عن المصلحة الذاتية . انهم يرتدون ألبسة مــن نسيج صوفي غليظ أو من نسيج قطني خشن . وليس يملك أيّ منهـم متاعاً مهما يكن . فمن كان منهم غنياً يمسي لحظة دخوله الى الدير فقيراً . إنه يهب الجميعَ ما كان يملكه . ومن كان منهم نبيـــلاً أو شريفاً أو سيداً اقطاعياً ، كما يدعونه ، لا يلبث أن يتساوى مع من كان فلاحاً . إن القليّة هي هي بالنسبة اليهم جميعاً . انهم كلهم يقصون شعرهم عـــلى النمط الاكليركي نفسه ، ويرتدون الثوب الاكليركي نفسه ، ويأكلون الخبز الاسود نفسه ، ويفترشون الحشيّة نفسها ، ويُدفنون في التربة نفسها . ان المِسْح نفسه لعلى كل ظهر ، وان الحبل نفسه ليطوّق كل خصر . فاذا كان النظام يقضي بأن يسير جميع الرهبان حفاة ، ساروا كلهم حفاة . وقد يكون بينهم أمير ؛ ولكن هذا الامير ظِلٌ مثلهم جميعاً . لم يعد ثمة القاب . وحتى أسماء الاسَر نفسها قد زالت . فهم لا يحملون غير الاسماء الصغيرة . انهم جميعاً يرزحون تحت مساواة اسمائهم بالمعمودية . لقد أذابوا أسرة الجسد ، وأقاموا في مجتمعهم أسرة الروح . فليس لهم بعدُ أقرباء غير الجنس البشري كله . انهم يغيثون الفقراء ، ويُعْنَون بالمرضى . وانهم يختارون اولئك الذين يتعين عليهم أن يطيعوهم . وينادي بعضهم بعضاً بقولهم : « أيها الاخ . »

وتعترضني قائلا : « ولكن هذا هو الدير المثالي ! »

حسبي أنه دير ممكن الوجود حتى آخذه بعين الاعتبار .

ومن هنا جاز لي أن أتحدث عن أحد الاديار في الكتاب السابق ، باحترام . انني اذا تركت القرون الوسطى جانباً ، وتركت آسية جانباً ، واعتبرت الامر من وجهة النظر الفلسفية الخالصة ، وراء ضرورات الجدل المقاتل ، وشرط أن تكون الاديار ارادية مئة بالمئة فلا تضم جدرانها غير نساك راغبين في هذا الضرب من الحياة ، فعندئذ لا أستطيع الا أن أنظر الى الجماعة الرهبانية في شيء من الاهتمام الجدي ، وفي بعض الاحيان بشيء من الاهتمام الناضح بالاحترام . فحيث توجد الجماعة الرهبانية فثمة نظام حكم شعبي . وحيث يقوم نظام الحكم الشعبي فثمة عدالة . ان الدير هو ثمرة هذه الصيغة : « المساواة ، الاخاء » . أوه ، ما أعظم الحرية ! ويا له من تحوّل مجيد ! ان الحرية كافية لتحويل الدير الى جمهورية ! .

فلنتابع .

هؤلاء الرجال والنسوة الذين يعيشون ضمن هذه الجدران الأربعة ويرتدون الملابس الصوفية الخشنة السمراء إنما ينعمون بالمساواة وينادي بعضهم بعضاً « ايها الاخ » « وأيتها الاخت » . هذا حسن . ولكن ، هل يعملون شيئاً آخر ؟

نعم .

ماذا ؟

إنهم يحدّقون في الظلمة ؛ إنهم يركعون ؛ إنهم يضمّون يداً الى يد.

ما معنى ذلك ؟

٥
الصلاة

إنهم يصلّون .

لمن ؟

لله .

الصلاة لله . أيّ شيء تعنيه هذه الكلمة ؟

أتوجد لانهاية خارج ذواتنا ؟ وهل هذه اللانهاية مفردةٌ ، فطرية ، سرمدية – وهي ذات ماهيّة بالضرورة ، لانها لانهائيّة ، ولأنه اذا كانت المادة تعوزها فعندئذ تكون محدودة ، وهي عاقلة بالضرورة ، لأنها لانهائية ، ولأنه اذا اعوزها العقل فعندئذ تكون قاصرة ؟ هل توقظ هذه اللانهاية في نفوسنا فكرة الجوهر ، في حين أننا عاجزون عن ان ننسب الى انفسنا شيئاً غير فكرة الوجود ؟ وبكلمة اخرى ، أليست هي المطلق الذي لا نعدو نحن أن نكون منه بمثابة النسبيّ ؟

وفيما تقوم لانهايةٌ خارج ذواتنا ، أليس ثمة من لانهاية في ذات نفوسنا ؟ وهاتان اللانهايتان (ايّ مثنى راعب !) ألا تستقرّ احداهما فوق الاخرى ؟ ألا تقع اللانهاية الثانية تحت اللانهاية الاولى ، اذا جاز التعبير ؟ أليست مرآةَ الاولى وانعكاسها ، وصداها : لجّة مشتركة المركز مع لجّة اخرى ؟ وهذه اللانهاية الثانية ، أهي عاقلة أيضاً ؟ أهي تفكر ! أهي تحبّ ؟ ألها ارادة ؟ واذا كانت اللانهايتان عاقلتين فأن لكل منهما مبدأ ُمريداً ، وإن ثمة « أنا » في اللانهاية العليا ، و « أنا » في اللانهاية السفلى . ان الـ « أنا » السفلى هي النفس ، وان الـ « أنا » العليا هي الله .

وإقامتنا الاحتكاك ، من طريق التفكير ، بين اللانهاية السفلى

واللانهاية العليا هي ما يدعى « الصلاة ».

ينبغي ان لا نطرّح شيئاً من العقل الانساني . فالكبت شر . يجب ان نُصلح ونحوّل . إن بعض مَلَكات الانسان موجّهة نحو المجهول : التفكير ، التأمل ، الصلاة . والمجهول اوقيانوس . ما الضمير ؟ إنه إبرة المجهول المغناطيسية . التفكير ، التأمل ، الصلاة – تلك هي اشارات الأبرة الخفية الكبرى . فلنحترمها . الى اين تتجه إشعاعات النفس المهيبة هذه ؟ نحو الظلمة ؛ يعني نحو النور .

إن عظمة الديموقراطية تتمثل في أنها لا تنكر شيئاً انسانياً ولا تتبرأ من شيء إنساني . فعلى مقربة من حقوق الانسان ، او الى جانبها على الاقل ، تقوم حقوق الروح .

أن نسحق ضروب التعصب وأن نجد اللانهاية – ذلك هو القانون . حذارِ ان نَقصُرَ أنفسنا على السجود تحت شجرة الخليقة ، ونتأمل أغصانها الملأى بالنجوم . إن علينا واجباً : أن نثقّف النفس البشرية ، ان ننصر اللغز على العجيبة ، أن نهيم بما لا يُدرَك وننبذ ما لا يتفق مع العقل ، أن لا نسلّم بشيء لا تعليل له إلا ضمن دائرة الضرورة ، ان نطهّر الايمان ، ان نمحو الخرافة عن وجه الدين ، وأن نزيل الديدان عن جسم الرب !

٦

خيرية الصلاة المطلقة

أما طرائق الصلاة فكلها صالحة ، شرط ان تكون مخلصة . اقلب كتابك ظهراً لبطن وكنْ في اللانهاية .

نحن نعلم ان ثمة فلسفة تُنكر اللانهاية . ولكن ثمة ايضاً فلسفة

اخرى مصنَّفةٌ مَرَضياً ، تُنكر وجود الشمس . هـــذه الفلسفة تدعى العمى .

ولأن نجعل من حاسة لا نملكها مصدراً للحقيقة ضربٌ من الجسارة الرائعة يتكشف عنه الرجل المكفوف .

والغريب في الامر هو الموقف المترفع ، الواشح بالشفقة ، الشاعر بالامتياز ، الذي تقفه هذه الفلسفة – التي تتلمّس طريقها تلمّساً – من الفلسفة التي ترى الله . انها تحمل المرء على ان يفكـــر بجُلُدٍ يصيح : « كم يثيرون شفقتي بحديثهم عن الشمس ! »

نحن نعرف ان ثمة ملحدين مشاهير واقوياء . ولكن هؤلاء الرجال ليسوا في الواقع ، وقد أعيدوا الى الحقيقة بقوّتهم نفسها ، واثقين كل الثقة من انهم ملحدون . ان المسألة ، في ما يتصل بهم ، لا تعدو ان تكون مسألة حدٍّ او تعريف . وعلى اية حـــال ، فاذا كانوا لا يؤمنون بالله فأنهم – لكونهم عقولاً ضخمة – ينهضون دليلًا عـــلى وجود الله .

إننا نحيّي ، فيهم ، الفلاسفةَ ، فيما نحن نخاصم فلسفتهم في غير ما هوادة .

فلنتابع .

وشيء آخر رائع ، هو سهولة تسوية كل شيء – وفقاً لارتياح المرء – من طريق الكلمات . والواقع ان مدرسة ميتافيزيكية شمالية مُشربةً بعض الشيء بالضباب ، تخيلت انها احدثت ثورة في الادراك البشري عندما استعاضت عن كلمة « قوة » بكلمة « ارادة » .

ان قولك « النبات يريد » بدلاً من « النبات ينمو » خليق به أن يكون خصباً بالمعنى اذا اضفت : « الكون يريد » . لماذا ؟ لأن هذا سوف ينبثق منه : النبات يريد ، اذن فأن له « أنا » ؛ الكون يريد ، اذن فأن له الـهاً .

أما نحن ، الذين لا نرفض على نقيض هذه المدرسة ، شيئاً ابتداءً *a priori* فأن التسليم بأن للنبات ارادة ، وهو ما تؤمن به هذه المدرسة ، يبدو أعسر من التسليم بأن للكون ارادة ، وهو ما تجحده هذه المدرسة .

ان انكار ارادة اللانهاية ، يعني الله ، لا يمكن ان يتمّ الا بشرط انكار اللانهاية نفسها . لقد اقمنا البرهان على ذلك .

وانكار اللانهاية يقود الى العدمية . ان كل شيء يصبح « مفهوماً من مفاهيم العقل » .

ومع العدمية يتعذر النقاش . لأن العدمي المنطقي يشك في ان مُحاوره موجود ، وليس واثقاً كل الثقة من أنه هو نفسه موجود .

ومن وجهة نظره ، من الجائز ان لا يكون هو نفسه ، في نظر نفسه ، غير « مفهوم من مفاهيم عقله » .

بيد انه لا يُدرك البتة أنه يعترف جلياً بكل ما انكره بمجرد تلفّظِه بهذه الكلمة : العقل .

والخلاصة ، فأنه ما من سبيل تظلّ مفتوحة للعقل حين يأخذ المرء بفلسفة تجعل كل شيء ينتهي الى نتيجة واحدة ، هي مقطع « لا » المفرد .

وليس لـ « لا » غير جواب واحد هو : « نعم » .

ليس للعدمية مدى .

وليس ثمة عدم . فالصفر لا وجود له . وكل شيء هو شيء . لا شيء هو لا شيء .

والانسان يحيا بالاثبات اكثر مما يحيا بالخبز .

بيد أن النظر ولفت النظر لا يكفيان . فالفلسفة يجب ان تكون طاقة . يجب أن يكون جهدها وغايتها السموّ بالجنس البشري . ينبغي

ان يدخل سقراط في آدم وينشيء ماركوس اوريليوس * . وبكلمة اخرى ، أن يُطلع من إنسان المتعة انسانَ الحكمة ، وأن يحوّل جنة عدْنَ الى كلية . إن العلم ينبغي ان يكون ودياً . المتعة ! يا لها من غاية بائسة ، ويا لها من مطمح مهزول ! ان البهيمة تنعم بالمتعة . التفكير ، ذلك هو انتصار النفس الحقيقي . فتقديم التفكير الى ظمأ الناس ، وإعطاء الجميع فكرة الله بوصفها إكسيراً ، والمؤاخاة عندهم ما بين الضمير والعلم ، وجعلهم أناساً مستقيمين بهذا الجمع العجيب — تلك هي مهمةُ الفلسفةِ الحقيقية . ان الاخلاق هي الحقيقةُ متفتّحةَ الأكمام . وان التأمل يقود الى العمل . والمطلَق ينبغي ان يكون عملياً . والمثل الأعلى ينبغي ان يُجعَل هواء وطعاماً وشراباً للعقل الانساني . والمثل الاعلى له وحده الحق في ان يقول : **تناولوا ، هذا هو لحمي ، وهذا هو دمي** . والحكمة تناولٌ مقدّس . وانما على هذا الشرط تكفّ عن ان تكون حباً عقيماً للعلم لكي تصبح الوسيلةَ الوحيدة والعليا لجمع شمل الانسانية ؛ لقد ارتقت من مستوى الفلسفة الى مستوى الدين .

والفلسفة ينبغي ان لا تكون مجرد برج مراقبة، منشأً على الالغاز ، ابتغاء التحديق اليها منه ، في دعة ، من غير ما نتيجة سوى ارواء الفضول .

أما نحن فنرجيء بسط افكارنا الى مناسبة اخرى مكتفين بالقول اننا لا نفهم ، لا الانسان كنقطة ابتداء ، ولا التقدم بوصفه هدفاً ، من غير هاتين القوّتين اللتين هما المحرّكان الأعظمان : الايمان والحب .

التقدم هو الهدف ، والمثل الاعلى هو الصورة الأصلية .

وما المثل الأعلى ؟ انه الله .

---

* امبراطور روماني (١٢١ – ١٨١ ب . م) وقد اقرّ النظام في الامبراطورية ، وحسّن حالة العبيد الارقاء ، وادى خدمة جليلة الى القانون المدني . واشتهر هذا الامبراطور بالحكمة والاعتدال وحب الفلسفة والأدب .

المثل الأعلى ، المطلَق ، الكمال ، اللانهاية – كل هذه لا تعدو ان تكون مترادفات .

٧

احتياطات يجب ان تُتخذ في اللوم

ان على التاريخ والفلسفة واجبـــات سرمدية هي ، في الوقت نفسه ، واجبات بسيطة : أن يقاوما « َقيافــــا » * أسقفاً ، ودراكون ** قاضياً ، وتريمالسيون متشرعاً ، وتيباريوس *** امبراطوراً . وهـذا واضح ، مباشرٌ ، صافٍ ، لا لبس فيه ولا غموض . ولكنّ الحـق في العيش المعتزل ، برغم أضراره ومساوئه ، يجب ان يُثْبَتَ ويُدْرَس في عناية . فالرهبانية مشكلة انسانية .

اننا حين نتحدث عن الأديرة ، تلك المواطن الغارقة في الخطأ ولكنْ على براءة ، وفي الضلال ولكنْ على حُسْن نية ، وفي الجهـل ولكنْ على تفانٍ ، وفي العذاب ولكنْ على استشهاد – إننا حـين نتحدث عن هذه الاديرة ينبغي ان نقول ، دائماً تقريبــاً ، « نعم » و « لا » .

الديرُ تناقضٌ – فغايته الخلاص ، ووسيلته التضحيـــة . الدير هو اعلى مراتب الانانية مؤديةٌ الى اسمى مراتب إنكار الذات .

تخلٍّ عن العرش لكي تتولى مقاليد الحكم – ذلك في ما يبـدو هو

---

* Caïphe الكاهن اليهودي الذي حكم على يسوع ، واضطهد الرسل .

** Dracon احد الاراخنة والمشرعين الاثينيين ، وكانت أحكامه قاسية الى درجة أنها كُتبت ، في ما زعموا ، بالدم . (اواخر القرن السابع قبل الميلاد .)

*** Tibère تيباريوس الاول ، ثاني الاباطرة الرومان (٤٢ ق . م – ٣٧ ب . م) وكان رجلاً قديراً ولكنه شديد القسوة كثير الشكوك .

شعار الحياة الرهبانية .

في الدير ، يتألم المرء لكي يبتهج . إنه يسحب حوالةً على الموت . إنه يجسمُ النور السماوي في الليل الارضي . في الدير ، تُرتضى جهنم بوصفها ثمناً يُدفع مقدّماً ابتغاء الفوز بميراث السماء الموعود .

ان اصطناع الحجاب او الثوب الرهباني انتحارٌ تعوّض اللانهايةُ من يُقدم عليه .

والذي يبدو لنا أن السخرية ينبغي أن تُطرح حين يُعالج موضوعٌ مثل هذا . ان كل ما يتصل به جديّ ، طيّبهُ وخبيثه على حدّ سواء .

ان الرجل الصالح يزوي ما بين عينيه ، ولكنه لا يبتسم ابداً ابتسامة شريرة . نحن نستطيع ان نفهم الغضب ، ولكنا لا نستطيع أن نفهم اللؤم .

٨

الايمان ـــ القانون

بقيتْ بضع كلمات اخرى .

نحن نلوم الكنيسة حين تكون مشبعةً بالمكائد . نحن نزدري الروحيّ حين يقسو على الزمني . ولكنا نعظّم ، في كل مكان ، الرجل المستغرق في التأمل .

نحن ننحني احتراماً للرجل الراكع .

الأيمان ضرورة انسانية ، والويل لمن لا يؤمن بشيء .

والمرء لا يكون عاطلاً عن العمل لأنه مستغرق في التفكير . ان ثمة جهداً منظوراً ، وجهداً غير منظور .

والتأمل جهد . والتفكير عمل .

ان الاذرع المتصالبة تشتغل ، وان الايدي المطبَقة تعمل . وانّ التحديق الى السماء كدح .

لقد سلخ طاليس أربع سنوات جامداً لا يتحرك . لقـد انشأ فلسفـة .

وعندنا أن الرهبان ليسوا متبطّلين ، وأن الحُبَساء ليسوا كسالى .

ان التفكير في « الظلمة » لهو شيء جديّ .

ومن غير ان ننقض البتة ما قلناه اللحظة ، نعتقد أنّ تذكُّر القبر على نحو موصول مناسبٌ للاحياء . وفي هذه النقطـة يتفق الكاهن والفيلسوف : **ينبغي ان نموت** . ان الأب « لا ترابّ » يجيب « هوراس » .

انّ مزج المرء حياتَهُ بشيء من مثول القبر هو شريعة الرجل الحكيم ، وشريعة الناسك . فمن هذه الجهة يجتمع الناسك والحكيم نحو مركز مشترك .

ان ثمة تقدماً مادياً ؛ نحن نرغب في ذلك . وان ثمة ، ايضاً ، عظمة اخلاقية ؛ ونحن نتشبث بذلك .

إن العقول الطائشة الرعناء تقول :

— « ايّ فائدة لهذه الوجوه الجامدة حيالَ سرّ الكون ؟ اي خدمة تؤدّي ؟ اي شيء تعمله ؟ »

وأسفاه ! في حضرة تلك الظلمة التي تكتنفنا وتتربص بنا ، غير عالمين ما الذي سيفعله بنا تبدُّد الاشياء جميعاً ، نجيب : « جائزٌ ان لا يكون ثمة عملٌ اسمى من ذلك الذي تقوم به هـذه النفوس » .

ونضيف : « وجائز ان لا يكون ثمة جهد اكثر نفعاً . »

إن اولئك الذين يصلّون دائماً ضروريون لاولئك الذين لا يصلّون ابداً .

وعندنا ان قِوام المسألة كلها رهنٌ بمقدار التفكير الذي يمتزج بالصلاة .

إن « لايبنيتز » ، مصلّياً ، لشيءٌ عظيم . وإن فولتير ، عابداً ، لشيءٌ جميل . * Deo erexit Voltaire

نحن للدين ضدّ الأديان .

نحن من اولئك الذين يؤمنون بحقارة الادعية والصلوات ، وبسموّ الصلاة .

والى هذا ، ففي هذه اللحظة التي نجتازها ، وهي لحظة لن تطبع القرن التاسع عشر ، لحسن الحظ ، بطابعها ، وفي هذه الساعة الحافلة بكثير من الناس المنخفضة جباهُهم انخفاضاً كبيراً والمرتفعة نفوسهم ارتفاعاً يسيراً والمستغرقين بأشياء المادة المختصرة المشوّهة ، يبدو جميع الذين نفوا انفسهم بأنفسهم موقّرين في نظرنا . إن الدير تخلٍّ . والتضحية بالنفس حتى حين يُساء توجيهها ، تظلّ هي التضحية بالنفس . ولأن يجعل المرء من خطأ قاسٍ واجباً مفروضاً عليه — هذا الصنيع له عظمته الخاصة .

ولو قد نظرنا الى المسألة في ذاتها ، وعرضناها على محكّ الحقيقة حتى نقلبها من نواحيها جميعاً بحثاً مجرداً نزيهاً اذن لوجدنا ان للدير ، ولدير النساء بخاصة — لأن المرأة في مجتمعنا هي التي تتحمل القسط الاعظم من الآلام ، وفي منفى الدير هذا عنصر احتجاج — بعض الجلال من غير شك .

هذا الوجود الرهباني الكالح المظلم الذي رسمنا بعض ملامحه ليس هو الحياة ، لانه ليس الحرية ، وليس هو القبر لأنه ليس الكمال . إنه ذلك الموطن الفريد الذي نلمح من احدى ناحيتيه وكأننا على قمة جبل عالٍ ، الهوّةَ التي نحن فيها ، ونلمح من الاخرى الهـوّةَ التي سوف

* في اللاتينية ، وتعني : « الرب حرك فولتير الى الثورة » .

نصير اليها . انـــه تخمٌ ضيق كثير الضباب يفصل مـــا بين عالمين يضيئه كلاهما ويُظلمانه في آنٍ معاً ، حيث يمتزج شعاع الحيـــاة الواهن بشعاع الموت المبهم . إنه غسق القبر .

أما نحن الذين لا نؤمن بما تؤمن به هاتـــه النساء ولكنْ نعيش ، مثلهن ، بالايمان فلا نستطيع ان ننظر ، من غـــير ضرب من الذعر الرفيق الورع ، ومن غير ضرب من الشفقة المفعمة بالحسد ، الى هاتـه الكائنات المتفانيات ، الراجفات ولكنِ الواثقات مـن انفسهن – تلك النفوس المتّضعة ولكنِ الجليلة ، التي تجرؤ على العيش على تَخْم اللغز الاعظم نفسه ، منتظراتٍ بين العالم الموَصد دونهن والسماء الـــتي لمّا تُفتح لهنّ ، متلفّتاتٍ نحو الضياء الذي لا يَرَينه وليس لهن من السعادة غير التفكير في أنهن يعرفن أين هو ، وقد وُجّهت آمالهن نحو الهاوية ونحو المجهول ، وسُمّرت أعينهن على الظلمة الجامدة ، راكعـــاتٍ ، مذعورات ، ذاهلاتٍ ، مرتعداتٍ ، نصفَ مرفوعات في بعض الاحيان بنبضات الأبدية العميقة .

الكتاب الثامن

المقابر تأخذ ما يقدم إليها

١

وهو يعالج طريقة الدخول الى الدير

الى هذا البيت بالذات كان جان فالجان قد « هبط من السماء » ، كما قال فوشلوفان .

كان قد اجتاز جدار الحديقة عند زاوية شارع بولنسو . وكانت تلك الترنيمة الملائكية التي سمعها في جوف الليل هي صلاة السَّحَر تؤديها الراهبات ؛ وكانت تلك القاعة التي لمحها في الظلام هي الكنيسة ، وكان ذلك الطيف الذي رآه ممدداً على الارض هو الراهبة المستغفرة ، وكان ذلك الجلجل الذي أدهشه صوته على نحو غريب جداً هو جلجل البستاني

المشدود الى ركبة الأب فوشلوفان .

وحين وُضعت كوزيت في الفراش ، كان جان فالجان وفوشلوفان قد احتسيا ، كما رأينا ، زجاجة من خمر وأكلا قطعة من جبن أمام نار ملتهبة . وإذ كانت كوزيت قد شغلت الفراش الأوحد في الكوخ ، فقد انطرح كل منهما على حزمة من قشّ . وقبل ان يغمض جان فالجان عينيه كان قد قال : « يجب ان أبقى منذ اليوم ، ههنا . » وكانت بعض هذه الكلمات تطارد بعضها الآخر ، في رأس فوشلوفان ، طوالَ الليل .

وفي الحق ، ان أياً منهما لم يكن قد استسلم للرقاد .

فأما جان فالجان ، فقد عَلِمَ علمَ اليقين – وقد استشعر ان أمره قد افتضح ، وان جافير يطارده – أنه هالك هو وكوزيت اذا ما رجعا الى المدينة . ومنذ ان قذفت به تلك الريح الجديدة التي هبّت عليه ، الى هذا الدير لم يَطُفْ في ذهن جان فالجان غير خاطر واحد : أن يبقى هناك . والواقع ان هذا الدير كان ، لرجلٍ في مثل وضعه الشقي ، آمنَ مكانٍ وأخطر مكان في وقت معاً . كان اخطر مكان لأنه محظورٌ على الرجال دخولُه . فاذا ما اكتُشف جان فالجان فيه يُقبض عليه بالجرم المشهود وعندئذ لا يكون عليه إلا ان يخطو خطوةً واحدة من الدير الى السجن . وكان آمنَ مكانٍ ، لأنه اذا وفّق الى الفوز بأذن يجيز له البقاء هناك ، فمن ذا الذي سوف يُقبل الى ذلك المكان بحثاً عنه ؟ إن العيش في موطنٍ ممتنع على الناس هو السلامة عينها .

وأما فوشلوفان فكان يقدح زناد الفكر . لقد بدأ بأن قرر أنه لا يفهم شيئاً من الأمر . كيف تأتّى لمسيو مادلين ان يفِدَ الى هناك برغم هذه الجدران كلها ؟ إن جدران الدير ليس من اليسير تجاوزها . وكيف اتفق أن كان يصطحب طفلة ؟ إن المرء لا يتسلق جداراً شديد الانحدار وبين يديه طفلة . مَنْ هذه الطفلة ؟ مِنْ أين أقبلا كلاهما ؟

فمنذ ان دخل فوشلوفان الدير ، لم يسمع ابدا حديث عن مونتروي سور مير ، ولم يعرف شيئاً مما كان قد حدث . وكانت تغلب على محيا الأب مادلين سيما لا تشجع على طرح الاسئلة ؛ وفوق هذا ، فقد قال فوشلوفان مخاطباً نفسه : « إن المرء لا يستجوب قديساً . » وكان مسيو مادلين قد احتفظ ، عنده ، باعتباره كله . غير ان البستاني اعتقد ان في ميسوره ان يستنتج ، من بعض الكلمات التي ندّت من جان فالجان ، أن من الجائز ان تكون الازمة قد انتهت بمسيو مادلين الى الافلاس ، وان يكون دائنوه يلاحقونه ، او ان يكون قد تورّط في قضية سياسية فهو يلتمس مفزعاً يختبيء فيه ؛ وهو ما لم يُحزن فوشلوفان ، البتة ، الذي كان مثل كثير من فلاحينا الشماليين ذا قلب بونابرتي عريق . واذ كان مسيو مادلين يبتغي الاختباء فقد اتخذ من الدير مفزعاً له ، وكان من الطبيعي ان يرغب في البقاء هناك . ولكن الشيء الذي لم يجد له تفسيراً ، والذي كان فوشلوفان يعاود النظر فيه ويحطّم في حلّهِ رأسه هو ان يكون مسيو مادلين هنا ، وان تكون هذه الفتاة الصغيرة معه . لقد رآهما فوشلوفان ؛ لقد لمسهما ؛ لقد تحدّث اليهما ؛ ومع ذلك فأنه لم يصدّق هذا . كان لغز من الالغاز قد اتخذ سبيله الى كوخ فوشلوفان . وكان فوشلوفان يخبط في غمرة من الظنون والأحداس ، ولكنه لم يرَ على نحو واضح غير هـذا : لقد أنقذ مسيو مادلين حياتي . ولقد كانت هذه الواقعة اليقينية الوحيدة كافيةً ، فاذا هي تحمله على ان يحزم أمره . وقال في ذات نفسه : « لقد جاء دوري الآن . » واضاف في وجدانه : « إن مسيو مادلين لم يفكّر طويلاً الى هذا الحد عندما كان الموقف يقتضيه ان يُقحم نفسه تحت العربة لكي يسحبني من هناك . » ووطّن العزم على ان ينقذ مسيو مادلين .

ومع ذلك ، فقد طرح على نفسه عدة اسئلة وأجاب عنها عدة أجوبة : « بعد الذي أسداه اليّ من معروف ، أيتعين عليّ ان أنقذه

ولو كان لصاً من اللصوص ؟ » — « سيان . » — « واذا كان سفاكاً ، فهل ينبغي لي أن انقذه ؟ » — « سيان . » — « وربما أنه قديس ، فهل سأنقذه ؟ » — « سيان . »

ولكنّ ابقاءه في الدير هو المشكل الاكبر ! ولم ينكص فوشلوفان أمام هذه المحاولة التي توشك ان تكون وهمية . الواقع ان هذا الفلاح البيكاردي المسكين ، الذي لم يكن لديه سلّمٌ غير تفانيه واستعداده لعمل الصالح وقليل من الذكاء الريفيّ القديم الموضوع هذه المرة في خدمة غرضٍ كريم ، أقدم على تسلّق مستحيلات الدير ، ومنحدراتِ نظام القديس بينوا الوعرة . فقد كان فوشلوفان رجلاً عجوزاً سلخ حياته كلها أنانياً ، حتى اذا بلغ أرذل العمر ، أعرجَ عاجزاً ، ولم يعد له من أرب في الحياة وجد متعة في أن يكون معترفاً بالجميل . وإذ لمح مَحْمَدَةً تغريه بالنهوض بها اندفع نحوها ، مثلَ رجل يرى في متناوله على عتبة الموت ، كأساً من خمر جيدة لم يذق مثلها قط من قبل ، فهو يكرعها في نهم . وفي استطاعتنا أن نضيف ان الهواء الذي تنشّقه طوال سنوات عدة في هذا الدير كان قد حطّم شخصيته ، وقدّم اليه آخر الامر ، عملاً صالحاً ضرورياً له .

وصاغ قراره : أن يَنْذُرَ نفسه لانقاذ مسيو مادلين .

لقد وصفناه اللحظة بقولنا انه فلاح بيكارديّ مسكين . ان هذا الوصف صحيح ، ولكنه ناقص . وفي هذه المرحلة التي انتهينا اليها من القصة أمسى من الخير أن نتعرّف الى فوشلوفان تعرّفاً أوثق . كان فلاحاً ، ولكنه كان قبل ذلك كاتباً عدلاً ، وهو ما اضاف الى ذكائه حذاقةً ، والى سذاجته ألمعيّةً . حتى اذا اخفق في اعماله لأسباب مختلفة ، هبط من كاتبٍ عدلٍ الى سائق عربة وعامل . ولكنه كان قد احتفظ ، برغم الشتائم وضربات السياط الضرورية للخيل في ما يبدو ، بشيء من شيمة الكاتب العدل في نفسه . كان لا يخطىء في تصريف الافعال ،

وكان يُحسن الحديث ، وهو شيء نادر في القرية . وكان الفلاحون الآخرون يقولون : انه يتحدث مثل رجل ذي قبعة ، تقريباً . والواقع ان فوشلوفان كان من ذلك الضرب الذي دعته معجمية القرن الماضي الخفيفة الماجنة « **نصف بورجوازي ، نصف ريفيّ** » ، والذي ألصقف عليه الاستعارات الهابطة من القصر الى الكوخ ، في خزائن دناءة النسب ، هذه البطاقات : « **نصف فظّ ، نصف متمدّن – فلفل وملح** » . وكان فوشلوفان ، برغم ان القَدر ابتلاه كثيراً ، وأبلاه كثيراً حتى أمسى اشبه بنفس هرمة بائسة تهرّأت خيوط نسيجها ، كان رجلاً سريعاً الى الانفعال ، ذا قلبٍ مطاوع ، وهي خصلة ثمينة تحول بين المرء وبين ان يكون شريراً في يوم من الايام . وكانت عيوبه ونواحي ضعفه ، اذ كان له نصيبه منها ، سطحيةً غير ذات خطر . واخيراً ، فقد كانت طلعته من ذلك الضرب الذي يلفت انتباه المراقب . فلم يكن في ذلك الوجه العجوز ايّ من تلك التجاعيد البشعة ، التي تكون في أعلى الجبين والتي تنمّ عن الخبث أو البله .

وعند انبلاج الفجر ، وبعد ان رأى في المنام أحلاماً هائلة ، فتح فوشلوفان عينيه ، فأبصر مسيو مادلين جالساً على كومة قشّهِ ، رانياً الى كوزيت المستسلمة للرقاد . ونهض فوشلوفان نصف نهضة ، وقال :

– « والآن وقد أصبحتَ هنا ، ما السبيل التي تمتزم انتهاجها المدخول ؟ »

لقد لخّص هذا السؤال الموقف كله ، وأيقظ جان فالجان من تفكيره الحالم .

وتشاور الرجلان . فقال فوشلوفان :

– « قبل كل شيء ، انك لن تضع قدماً خارج هذه الغرفة . لا أنت ولا الطفلة الصغيرة . ان خطوة واحدة في الحديقة تعني هلاكنا . »

– « هذا صحيح . »

واستأنف فوشلوفان حديثه :

— « مسيو مادلين ، لقد وصلتَ في وقت جيد جـداً ، أعني في وقت سيء جداً . ان احدى هاته الراهبات مريضة على نحو خطر . من أجل ذلك تجد أنهن لا ينظرن كثيراً الى ناحيتنا . لا شك في انهـا تُحتضر . انهن يَتلونَ صلوات الاربعين ساعة . والجماعة كلها في قلق وارتباك . ان ذلك يستأثر باهتمامهن . فالمرأة الموشكة على الرحيل هي قديسة . والواقع ، أننا جميعاً قديسون هنا . كل ما بينهن وبيني من فرق هو انهن يقلن : « قليَّتنا » ، في حين اقول أنا : « كوخي » . انهن يعتزمن اداء صلاة الاحتضار ، ثم صلاة الموت . اننا سوف نكون آمنين اليوم ، في هذا المكان . ولكني لست ادري ما الذي سيحمله الينا الغد . »

فلاحظ جان فالجان :

— « ومع ذلك ، فهذا الكوخ قائمٌ تحت زاوية الجدار . انـه محجوب بضرب من البناء الحرب . ان ثمة اشجاراً . إنهن لا يستطعن ان يرَيْنَه من الدير . »

— « وانا اضيف ان الراهبات لا يقتربن منه البتة . »

فقال جان فالجان :

— « حسناً ؟ »

وكانت علامة الاستفهام التي تبعَت تلك الكلمة تعني : يبدو لي ان في استطاعتنا ان نظلّ مختبئين هنا . وكان جواب فوشلوفان عن علامة الاستفهام هذه ان قال :

— « هناك الفتيات الصغيرات . »

فسأله جان فالجان : !

— « أية فتيات صغيرات ؟ »

ولم يكد فوشلوفان يفتح فمه ليشرح الكلمات التي نطق بها منذ لحظة

حتى سُمع الناقوس يقرع قرعة واحدة .
وقال :
– « لقد ماتت الراهبة . هوذا الناقوس ينعاها . »
وأشار الى جان فالجان بأن يصغي .
وقرع الناقوس مرةً ثانية .
– « انه النعيّ ، يا مسيو مادلين . ان الناقوس سوف يقرع مرةً كل دقيقة ، طوال اربع وعشرين ساعة ، حتى يغادر الجثمان الكنيسةَ . وفي العُطَل ، لا تكاد الكرة تجري الى هنا حتى يندفعن برغم الأنظمة ويبحثن عنها مبعثراتٍ كل شيء . إن هاته الملائكة الفاتنات شياطين حقاً . »
فتساءل جان فالجان :
– « مَنْ ؟ »
– « الفتيات الصغيرات . سوف يُكتَشَفُ أمرك في وقت قريب . انهن سوف يصحن : « ماذا ؟ رَجُل ؟ » ولكن ليس ثمة خطرٌ ، اليوم . لن تُعطى الفتيات عطلة . سوف يخصّص النهار كله للصلاة . أنت تسمع الناقوس . دقة واحدة كل دقيقة ، كما قلت لك . انه النعيّ . »
– « لقد فهمتُ ، ايها الاب فوشلوفان . هناك طالباتٌ داخليات . »
وفكّر جان فالجان في ما بينه وبين نفسه :
– « هنا ، اذن ، تستطيع كوزيت ان تتلقى العلم ايضاً . »
وهتف فوشلوفان :
– « وحقّ الالّه ! لو رأتك الفتيات الصغيرات ! اي صيحة سوف يطلقن حين تقع أعينهن عليك ! وبأية سرعة سوف يولين فراراً . فلأن يكون المرء ، هنا ، رجلاً ، اشبهُ شيء بالطاعون . ألا ترى كيف شدَدْنَ الى رِجلي جلجلاً وكأنني وحش ضارٍ ؟ »
وفكّر جان فالجان أعمق فأعمق . وتمتم :

– « الدير سوف ينقذنا . »

ثم رفع صوته :

– « نعم ، الصعوبة هي في البقاء . »

فقال فوشلوفان :

– « لا . انها في الخروج . »

وأحس جان فالجان بالدم يجري بارداً في عروقه .

– « في الخروج ؟ »

– « اجل يا مسيو مادلين ، لكي تدخل ينبغي ان تخرج . »

وبعد ان انتظر احدى قرعات الناقوس حتى تتلاشى ، استأنف فوشلوفان حديثه :

– « ليس من الخير ان يجدنك ههنا على هذا الشكل . من أين أقبلت ؟ اما انا فأعتقد انك سقطت من السماء ، لأني أعرفك . وأما الراهبات فسوف يعتقدن أنك دخلت من الباب . »

وفجأة سمعا قرعاً معقداً منبعثاً من ناقوس آخر .

فقال فوشلوفان :

– « اوه ! هذا الناقوس يدعو الأمهات الصوتيات . انهن يذهبن الى مجلس الراهبات . ذلك انهن يعقدن مجلساً كلما مات شخص ما . انها لم تمت مع الفجر . والناس انما يموتون عادة ، مع الفجر . ولكن ألا تستطيع ان تخرج من حيث دخلت ؟ دعنا نرى . انا لا استجوبك ، ولكن من اين دخلت ؟ »

وشحب وجه جان فالجان . كان في مجرد التفكير بالهبوط من جديد الى ذلك الشارع الرهيب ما اوقع الرعدة في اوصاله . أخرج من غابة ملأى بالأنمار ، ثم تخيّل ، بعد ان نجوت بنفسك ، ان صديقاً لك ينصحك بالعودة ! وتخيل جان فالجان ان رجال البوليس كلهم لا يزالون يجوبون الشوارع ، وأن الشرطة تتربص به ، وان العسس في كل مكان ،

وأن قبضات رهيبة تمتد للأخذ بخناقه . ولعل جافير ان يكون في زاوية المفرق . »

فقال :

– « مستحيل . إفترض أني هبطت من السماء . »

فأجابه فوشلوفان :

– « آه ! انا اصدّق ذلك ، أنا اصدّق ذلك . لا داعيَ الى ان تخبرني . لا بد ان الله قد اخذ بيدك ، لكي يرى اليك عن كثب ، ثم أفلتك . كل ما في الامر أنه كان يريد ان يضعك في دير للرجال . لقد أخطأ . اسمع ، الناقوس يُقرع مرةً اخرى . هذا تنبيـــه للبوّاب لكي يذهب الى البلدية ويحيط رجالها علماً بالحادث ، لكي يذهبوا ويُعلموا طبيب الاموات فيجيء ويتحقق من ان ثمة امرأة ميتة ، وهـذه كلها طقوس خاصة بالوفاة ، وهؤلاء السيدات الطيبات لا يرحبن بهذه الزيارة كثيراً ، فالأطباء لا يؤمنون بشيء . انهم يرفعون الحجـاب ، بل انهم يرفعون شيئاً آخر ، في بعض الأحيان . ولكن ما اسرعَ ما أعلمنَ الطبيب ، هذه المرة ! فما القصة ، يا ترى ؟ ان صغيرتك لا تزال نائمة . ما اسمها ؟ »

– « كوزيت . »

– « اهي بنتك ، يعني انك جدّها ، اليس كذلك ؟ »

– « نعم . »

– « ان الخروج من هنا سهلٌ بالنسبة اليها . ان عندي باباً خاصاً بي ينفتح على الفناء . سوف أقرعه . فيفتح البواب . ولسوف أحمل سلتي على ظهري ، وفي جوفها الفتاة الصغيرة . ولسوف اخرج . الاب فوشلوفان يخرج حاملاً سلته ، هذا كله هيّن . ولسوف تطلب أنت الى الفتاة الصغيرة ان تلتزم السكينة . ولسوف تكون محجوبة بغطاء . ولسوف اتركها بأسرع ما أستطيع ، عند صديقة لي طيبة عجوز ، بائعة خُضَر وفاكهة ،

في شارع « الطريق الاخضر » . وهذه الصديقة صمّاء ، وعنـدها سرير صغير . ولسوف اصرخ في اذن بائعة الخضر والفاكهة أنها ابنة اخٍ لي ، وأسألها ان تحافظ عليها حتى يوم غد . ثم ان الفتاة الصغـيرة سوف ترجع معك ، لاني سوف اردّها اليك . يجب ان يتم هذا . ولكن كيف السبيل الى الخروج من هنا ؟ »

وهز جان فالجان رأسه .

– « لا تدع احداً يراني ؛ هذا كل شيء ، ايها الاب فوشلوفان . ابحث عن وسيلةٍ ما لاخراجي انا ايضاً ، مثل كوزيت ، في سلة او تحت غطاء . »

وحكّ فوشلوفان أذنه بالاصبع الوسطى من يـده اليسرى ، وهي علامة على الارتباك الشديد .

وألهاها قرع الناقوس ، مرة ثالثة ، بعض الألهاء .

وقال فوشّلوفان :

– « هوذا طبيب الأموات يمضي لسبيله . لقد رآها ، وقرر أنهـا ميتة . هذا حسن . وحين يؤشر الطبيب على الجواز الموصل الى الجنـة يبعث متعهدو مواكب الدفن بتابوت . فاذا كانت « أماً » كفّنتهـا « الامهات » . واذا كانت « أختاً » كفّنتها « الأخوات » . حتى اذا تم ذلك دقّقتُ المسامير في النعش . ان هذا جزء من عـملي كبستاني . فالبستاني ضربٌ من حفار القبور . انهن يضعنها في غرفـة منخفضة في الكنيسة المتصلة بالشارع ، حيث لا يستطيع رجل ما أن يدخـل ، باستثناء طبيب الموتى . أنا لا أعدّ نفسي وحمَلة النعش رجـالاً . وفي تلك الغرفة أدق المسامير في النعش . ويقبل حَمَلة النعش ويأخذونها ، ويُعمل السائق سوطه ! هكذا يذهبن الى الجنة . انهم يجيئون بصندوق ليس فيه شيء ، ثم يعودون به وفي داخله شيء . تلك هي حقيقـة

الدفن . De profundis *

وشعّ خيط من خيوط الشمس المشرقة ، على وجه كوزيت النائمة التي بدت – وقد فتحت فمها نصف فتحة على نحو حالم – وكأنها ملاك يعبّ الضياء عباً . كان جان فالجان ينظر اليها . انه ما عاد يصغي الى فوشلوفان .

ولكن عدم الاصغاء ليس سبباً كافياً الصمت . وهكـــذا واصل البستاني العجوز الصالح لغوَه المعاد ، في تؤدة وهدوء :

– « لقد أُعِدّ الجدث في مقبرة فوجيرار . ويدّعون أن مقـــبرة فوجيرار هذه سوف تلغى . انها مقبرة عتيقة ، لا تنسجم مع الانظمة ، ولا ترتدي اللباس الموحّد ، ولسوف تحال الى التقاعد . أنا آسف من أجل ذلك ، لانها مقبرة ملائمة . ان لي صديقاً هناك ، هو الأب ميتين، حفار القبور . وللراهبات في هذا الدير امتياز يخولهن الحق في أن يُحملن الى تلـــك المقبرة عندما يهبط الليل . ان ثمة أمراً صادراً عن مديرية الشرطـــة ، خاصاً بهنّ . ولكن أيّ شيء قد حدث منذ أمس ! لقد توفيت الأم كروسيفكسيون والأب مادلين ... »

فقال جان فالجان مبتسماً ابتسامة محزونة :

– « قد دُفن . »

ورجّع فوشلوفان الكلمة .

– « يا الهي ، لو قضيتَ حياتك كلها هنا اذن لـكان ذلك دفناً حقيقياً . »

وقُرع الناقوس للمرة الرابعة . فسارع فوشلوفان الى نزع واقيـــة رُكبته ذات الجلجل عن المسمار المعلقة به ، وأعاد شدها حول ركبته .

– « الناقوس يدعوني ، أنا ، هذه المرة . ان الام الرئيسة محتاجة اليّ . حسن ، أنا أخِزُ نفسي بلســان ابزيمي . مسيو مادلـــين ، لا

* تعبير لاتيني معناه : من الاعماق .

لتحرك ؛ انتظرني . هناك شيء جديد . وإذا كنتَ جائعاً فهي ذي الخمر ، والخبز ، والجبن . »

وغادر الكوخ وهو يقول :

— « لقد جئت ! لقد جئت ! »

ورآه جان فالجان يجتاز الحديقة مسرعاً ، على قدر ما تسمح له رجله العرجاء بذلك ، ناظراً في الوقت نفسه الى بطيخاته نظراً جانبياً .

وبعد عشر دقائق ، او اقلّ ، قرع الاب فوشلوفان — الذي كان جلجله يحمل الراهبات على الفرار فيما هو يتقدم — أحدَ الابواب قرعاً رفيقاً ، فأجابه صوت عذب : « الى الابد ! الى الابد ! » ، يعني : « ادخل . »

كان ذلك الباب هو باب غرفة الاستقبال ، المخصص للبستاني يستعمله حين يحتم الموقف الاتصال به . وكانت غرفة الاستقبال هذه ملاصقة لقاعة مجلس الراهبات . كانت الرئيسة جالسة على الكرسي الاوحد ، في غرفة الاستقبال ، تنتظر فوشلوفان .

٢
فوشلوفان يواجه الصعوبة

ان سيماء قلقة رزينة تميز ، في ساعات الحرج ، بعض الطبائع وبعض المهن ، وتميز بخاصة رجال الدين وجماعة الرهبان . ولحظة دخل فوشلوفان غرفة الاستقبال ، كانت آية الهمّ المزدوجة تلك تطبع محيا رئيسة الدير الآنسة « دو بلومور » الفاتنة الواسعة العلم — الأمّ اينوسانت التي كانت مبتهجة الفؤاد عادة .

وانحنى البستاني بتحية جازعة ، ووقف عند عتبة القَلِيَّة . كانت

الرئيسة تمرّ حبات سبحتها تحت ابهامها ، فما إن رآتـــه حتى رفعتْ عينيها وقالت :

– « آه ! هذا أنت ، أيها الاب فوفان . »

كان هذا الاختصار مألوفاً في الدير .

وانحنى البستاني كرة أخرى .

– « ايها الاب فوفان ، لقد دعوتك . »

– « ها أنا ذا ، ايتها الأم الموقـّرة . »

– « اريد ان اتحدث معك . »

فقال فوشلوفان في جراءَة اوقعت الرعب في نفسه هو :

– « وأنا ، من ناحيتي ، عندي شيء أقوله للأمّ الموقـّرة جداً . »

ونظرت الرئيسة اليه :

– « آه ، عندك ما تسرّ به اليّ . »

– « عندي توسُّل . »

– « حسناً ، ما هو ؟ »

كان الرجل الطيب فوشلوفان ، الكاتب العدل السابق ، ينتمي الى ذلك الضرب من الفلاحين الذين لا يعتريهم القلق والاضطراب ابـداً . إن مزيجاً معيّناً من الجهل والبراعة ليؤلف قوةً ؛ انك لا ترتاب فيه ، وإنه ليستحوذ عليك . ففي اقلّ من سنتين سلخهما فوشلوفـان في الدير وُفـّق الى ان يحقق نجاحاً في مجتمع الراهبات ذاك . كان وحده دائماً . وحتى فيما كان يُعنى بحديقته لم يكن لديه في الاعم الاغلب ما يعمله غير أن يكون فضولياً . واذ كان على مبعدةٍ من جميـــع هاته النسوة الغاديات الرائحات فقليلاً ما كان يرى أمامه غير ظلالٍ مرفرفة . وبفضل حسن الانتباه ونفاذ البصيرة نجح في أن يكسو هذه الاطياف كلها رداءً من اللحم ، فاذا بهؤلاء الموتى أحياء في نظره . كان أشبه بأصمّ اكتسب بصرُهُ حدّةً ، وبأعمى غدا سمعُهُ مرهفاً . لقد أفرغ همّتَهُ في استكناه

المعاني التي تنطوي عليها مختلف دقات الناقوس ، فوفّق الى ذلك حتى لم يعد في ذلك الدير الغامض الصموت شيء مخبوءاً عنه . لقد نطق ابو المول هذا ، مثرثراً ، مفرغاً اسراره كافةً في أذنيه . واذ عرف فوشلوفان كل شيء ، فقد اخفى كل شيء . كان ذلك هو فنّه . لقد حسبه الدير كله أبله ؛ وتلك ميزة عظيمة في الدين . و « الامهات » كن يقمن وزناً لفوشلوفان . كان أخرس نادر المثال . وكان يوحي بالثقة . والى هذا ، فقد كان نظامياً ، ولم يكن ليغادر الدير البتة ، إلا اذا دعت الى ذلك حاجة ملحوظة من حاجات الحديقة والبستان . وكان هذا السلوك الرصين موضع اعجاب الراهبات . ومع ذلك فقد اطلع على أسرار رجلين اثنين : بوّاب الدير ، الذي كان يعرف غرائب غرفة الاستقبال ، وحفّار القبور ، الذي كان يعرف فرائد الجبّانة . وعلى هذا النحو فقد كان يملك ضوءاً مزدوجاً ، في ما يتصل بهاته الراهبات . فأما احدهما فسلط على حياتهن ، وأما الآخر فسلط على مماتهن . ولكنه لم يسىء استعمال ذلك . وكانت جماعة الراهبات شديدة الولوع به . هرم ، اعرج ، لا يرى شيئاً . ولعله ان يكون اصمّ بعض الشيء — يا لها من سجايا وافرة ! إن من العسير إحلال امرىء ما محلّهُ .

وفي مثل ثقة الرجل الشاعر بأنه موضع التقدير ، القى الرجل الطيب في حضرة الرئيسة الموقرّة خطاباً ريفياً مطوّلاً جداً ، عميقاً جداً . لقد أسهب في الكلام على عمره ، وعلى أسقامه ، وعلى عبء السنين الذي أمسى منذ اليوم مزدوج الوطأة عليه ، وعلى مطالب عمله المتزايدة ، وعلى اتساع الحديقة ، وعلى الليالي التي يتعيَّن عليه أن يسلخها — شأنه الليلة البارحة مثلاً — حين اضطر الى ان يبسط حُصُر القصب على مساكب البطيخ من جرّاء القمر . واخيراً ختم كلامه بقوله إن له أخاً (وهنا اجفلت رئيسة الدير) ، أخاً ليس شاباً (واجفلت الرئيسة إجفالة ثانية ، ولكنها راسخة) وإن في استطاعة هذا الاخ ان يأتي —

اذا كان ذلك مرغوباً فيه — ويعيش معه ويمد اليه يد المساعدة ، وإنه كان بستانياً ممتازاً ، وان الجماعة تستطيع ان تتوقع منه خدمات افضل من تلك التي يؤديها هو اليها ؛ على حين أنه ، اذا لم يلحَق اخوه بالدير ، فسوف يضطر هو — بوصفه الاكبر سناً ، وقد استشعر الشيخوخة والعجز عن النهوض بعبء العمل — الى مغادرة الدير ، آسفاً لذلك أعظم الاسف ، وإن لاخيه بنتاً صغيرة سوف تصحبه ، وسوف يكون في ميسورها ان تنشأ تحت راية الله في الدير ، ولعلها ان تصبح — فمن يدري ؟ — في يوم من الايام ، راهبة .

حتى اذا انتهى ، كفّت الرئيسة عن إمرار حبّات السبحة من خلال اصابعها ، وقالت :

— « هل تستطيع ، من الآن حتى المساء ، أن تحصل على قضيب حديدي قوي ؟ »

— « لأي غرض ؟ »

— « لكي نتخذ منه مُخْلاً . »

فأجابها فوشلوفان :

— « نعم ، ايتها الأم الموقّرة . »

ونهضت الرئيسة ، من غير ان تضيف كلمة واحدة ، ومضت الى الغرفة التالية التي كانت قاعةَ مجلس الراهبات حيث كانت الامهات الصوتيات مجتمعاتٍ في اغلب الظنّ . وبقي فوشلوفان وحيداً .

٣

الأم اينوسانت

وانقضى ربع ساعة تقريباً . ورجعت الرئيسة وجلست على الكرسي

من جديد .

وبدا كلٌّ منهما مستغرقاً في التفكير . وها نحن ننقل ههنا ، احسن ما نستطيع النقل ، ذلك الحوار الذي تلا :

– « أيها الأب فوقان ؟ »

– « ايتها الام الموقّرة ؟ »

– « انت تعرف الكنيسة جيداً ؟ »

– « إن لي قفصاً صغيراً هناك أسمع منه القـــداس والخدمات الدينية . »

– « وهل دعتك اعمالك الى ان تدخـــل في يوم من الايام الجزءَ الخاص بالجوقة ؟ »

– « مرةً او ثلاث مرات . »

– « إن ثمة حجراً ينبغي ان يُرفع . »

– « أهو ثقيل ؟ »

– « إنها البلاطة الموضوعة الى جانب المذبح . »

– « الحجر الذي يغطّي الكُهَيْف ؟ »

– « نعم . »

– « هذه مناسبة تنهض دليلًا على ان من الخير ان يكون ههنـــا رجُلان . »

– « الأمّ صعود ، القوية مثل الرجال ، سوف تساعدك . »

– « مهما بلغت المرأة من القوة تظلّ اضعف من ان تضاهي الرجل . »

– « ليس عندنا غير امرأة واحدة لتساعدك . وكلٌ يعمل على قَدْر طاقتـــه . إن المعلّم مابيون يعطينا اربعمئة وسبع عشرة رسالة من القديس برنارد ، في حـــين يعطينا ميرلونوس هورستيوس ثلاثمئة وسبعاً وستين ليس غير ، ولكن هـــذا لا يدعـــوني الى احتقار ميرلونوس هورستيوس . »

– « وانا كذلك . »

– « إن قيمة كل منا تقاس بمقدار عمـــله بالنسبة الى قوّته . إن الدير ليس مصنعاً للسفن . »

– « والمرأة ليست رجلاً . إن اخي هو القويّ ! »

– « والى هذا فسوف يكون عندك مُحل . »

– « هذا هو المفتاح الوحيد الذي يناسب ذلك الضرب من الابواب. »

– « هناك حلقة في الحجر . »

– « ولسوف أمرّ الحل من خلالها . »

– « ولقد أقيم الحجر بطريقة تجعله يدور على محور . »

– « حسن جداً ، ايتها الأم الموقرة . سوف أفتح الكهيف . »

– « والامهات الاربع المرتّلات سوف يساعدنك . »

– « وبعد أن يُفتح الكهيف ؟ »

– « يجب ان يُغلق من جديد . »

– « أهذا كل شيء ؟ »

– « لا . »

– « أصدري اليّ اوامرك ، ايتها الأم الموقرة جداً . »

– « فوفان ، إن لنا ثقة فيك . »

– « انا هنا لكي أعمل كل شيء . »

– « ولكي تسكت عن كل شيء . »

– « نعم ، ايتها الأم الموقرة . »

– « وحين يُفتح الكهيف ... »

– « أغلقه من جديد . »

– « ولكنْ قبل ... »

– « ماذا ، أيتها الام الموقرة ؟ »

– « يجب ان يُنزّل شيء الى هناك . »

ورانَ الصمت . وبعد اختلاجة من شفتيهـــا الصغيرة بـدت اشبه بالتردد ، أضافت الرئيسة :

— « ايها الأب فوفان ؟ »

— « ايتها الأمّ الموقرة ؟ »

— « انت تعلم ان احدى « الامهات » توفيت هذا الصباح . »

— « لا . »

— « انت لم تسمع الناقوس اذن ؟ »

— « إن المرء لا يسمع شيئاً في أقصى الحديقة . »

— « حقاً ؟ »

— « إني لا أتبيّن دقة الجرس الخاصة بي إلا بشقّ النفس . »

— « لقد ماتت مع الفجر . »

— « والى هذا ، فان الريح لم تهبّ صوبي ، هذا الصباح . »

— « إنها الامّ كروسيفكسيون . احدى الطوباويات . »

وصمتت رئيسة الدير ، وحركت شفتيها لحظةً وكأنهـا تصلي صلاة ذهنية ، ثم استأنفت كلامها :

— « منذ ثلاث سنوات ، ولمجرّد رؤيتهـا الأمّ كروسيفكسيون ، رجعت امرأةٌ يَنسينيّة * الى الطريق القويم . »

— « آه ، أجل . أنا أسمع النعيّ الآن ، ايتها الأمّ الموقّرة . »

— « لقد حملتها الامهات الى حجرة الموتى ، المؤدية الى الكنيسة . »

— « ادري . »

— « ليس في استطاعة رجل غيرك ان يدخـــل الى تلك الحجرة ، ولا يجوز له أن يفعل . انتبه جيداً . فسوف يكون من المستغرب أن يُرى رجلٌ داخلاً الى حجرة الموتى ! »

* Janséniste من اتباع ينسينيوس Jansénius اللاهوتي الاسباني (١٥٨٥ — ١٦٣٨) وكان له آراء خاصة في النعمة وحرية الارادة اثارت عليه نقمة الكنيسة الكاثوليكية .

– « في الأغلب ! »

– « هيه ؟ »

– « في الأغلب ! »

– « ماذا تقول ؟ »

– « اقول في الاغلب . »

– « اغلب من ماذا ؟ »

– « ايتها الأم الموقرة . انا لا أقول اغلب من ماذا . أنا اقول في الاغلب . »

– « لست أفهمك . »

– « لماذا تقول في الاغلب ؟ »

– « لكي اقول كما تقولين ، ايتها الأم الموقرة . »

– « ولكني لم أقل في الأغلب . »

– « انتِ لم تقوليها . ولكني قلتها لكي أقول كما تقولين . »

وأعلنت الساعةُ التاسعةَ .

فقالت الرئيسة :

– « في الساعة التاسعة من الصباح ، وفي كل ساعة ، الحمد والسجود لقربان المذبح الأقدس . »

فقال فوشلوفان :

– « آمين ! »

ودقّت الساعة في الوقت المناسب . لقد وضعت حداً للنقاش حول « في الاغلب » تلك . ولولا ذلك لكان من الجائز ان لا تُوفّق الرئيسة وفوشلوفان الى الخروج من تلك الورطة أبد الدهر .

ومسح فوشلوفان جبينه .

وتمتمت الرئيسة تمتمةً قلبيّة قصيرة اخرى ، لعلها مقدسة ، ثم رفعت صوتها :

– « كانت الأم كروسيفكسيون تردّ الناس ، في حياتهـــا ، الى طريق الدين القويم . وفي مماتها ، سوف تجترح العجائب . »

– « إنهـا سوف تفعل ! » كذلك اجاب فوشلوفـــان ، مصحّحاً خطوته ، باذلاً جهداً لكي لا يخطىء كرةّ اخرى . »

– « ايهـا الأب فوفـان ، لقد بوركت جماعـــة الدير بفضل الأم كروسيفكسيون . ولا ريب في أنه لم يقيّضْ لجميـــع الناس أن يموتوا مثل الكاردينال دو بيرول وهو يتلو القدّاس الطاهر ، وان يلفظ نفَسه الأخير وهو ينطق بهذه الكلمات : *Hanc igitur oblationem* * . ولكـن من غير أن تنعم الام كروسيفكسيون بهذه السعادة كلها ، فقد حظيت بميتةٍ نفيسة . لقد احتفظت بوعيها حتى النهاية . لقد تحـدثتْ الينا ، ثم تحدثتْ الى الملائكة . لقد اصدرت اوامرها الاخيرة الينا . ولو كانت لك إيمانٌ أكبر بعضَ الشيء ، ولو كان في ميسورك ان تدخـــل الى قليّتها إذن لشَفَتْ رِجلَك بمجرّد لمسها . لقد ابتسمَتْ . ولقد شعرنا بأنها تعود الى الحياة بالربّ . كان ثمّة شيء من الجنة في تلك الميتة . »

وحسِبَ فوشلوفان أنه كان يصغي الى صلاة ، فقال :

– « آمين ! »

– « أيها الأب فوفان ، يجب ان ننفّذ رغبات الموتى . »

وأحصت الرئيسة بضع حبّات من سبحتها ، وكان فوشلوفان صامتاً. ثم تابعت :

– « لقد استشرتُ في هذه المسألة عـدداً من الاكليركيين العاملين في خدمة الرب ، المنصرفين الى اداء المهام الكهنوتية في نجاح كبير . »

– « ايتها الأم الموقّرة ، ان المرء يسمع النعيّ هنـــا أحسن مما يسمعه في الحديقة بكثير . »

– « وفوق هذا ، فأنها اكثر من ميتة . إنها قديسة . »

* عبارة لاتينية تردد عند الشروع في القداس . ومعناها تقدمة القربان .

— « مثلكِ ، أيتها الأم الموقرة . »

— « لقد نامت في نعشها منذ عشرين عاماً ، بأذن خاص من أبينا المقدس بيوس السابع . »

— « ذلك الذي توّج الامبر .... بُوُنابرت . »

وبالنسبة الى رجل حاذق مثل فوشلوفان كانت الذكرى مشؤومة . واغلب الظنّ ان الرئيسة ، المستغرقـــة في تفكيرهـــا ، لم تسمعه . وواصلَتْ كلامها :

— « ايها الأب فوفان ؟ »

— « أيتها الأمّ الموقرة . »

— « لقد رغب القديس ديودوروس ، رئيس اساقفة كابادوسية ، في ان لا تُكتب على قبره غير هذه الكلمة Acarus * ، وهي تعني دودة من ديدان التراب . ونُفّذت تلك الرغبة . هل هذا صحيح ؟ »

— « أجل ، ايتها الأم الموقرة . »

— « وميزوكان المبارك ، رئيس دير آكيلا ، رغب في ان يدفن تحت المشنقة . وقد نفذت تلك الرغبة . »

— « هذا صحيح . »

— « والقديس تيرانس ، أسقف « بور » عند مصب نهر الـ « تيبر » في البحر ، رغب في ان تُحفر على قبره العلامة التي تُوضع على قبور قتلة آبائهم أو امهاتهم ، رجاةَ ان يبصق المسافرون على قبره . ونُفّذت تلك الرغبة . إن علينا ان نطيع الموتى . »

— « ليكن ذلك . »

— « إن جيّان برنارد غويدونيس ، المولود في فرنسة قرب « روش آباي » ، قد حُمِلَ — بناء على رغبته ، وبرغم معارضة ملك قشتالة — الى كنيسة الدومينيكيين في ليموج ، على حين ان برنارد غويـدونيس

* عثة او سوسة .

كان اسقف توري في اسبانية . هل يستطيع احد انكار ذلك ؟ »
— « لا ، ايتها الأم الموقرة . »
— « لقد أثبت ذلك بلانتافيت دو لا فوس . »
وأمرّت بضع حبّات اخرى تحت أصابعها في صمت . ثم استأنفت حديثها :
— « ايها الاب فوفان ، ان الأم كروسيفكسيون سوف تدفن في النعش الذي نامت فيه منذ عشرين سنة . »
— « هذا صحيح . »
— « إنه استمرار في النوم . »
— « سوف اضطرّ الى ان استرها في ذلك النعش اذن ؟ »
— « أجل . »
— « ولسوف نضع نعش الدفّان جانباً . »
— « تماماً . »
— « أنا تحت تصرّف جماعة الدير الموقرة جداً . »
— « إن الامهات الاربع المرتلات سوف يساعدنك . »
— « لدقّ المسامير في النعش ؟ أنا لست محتاجاً اليهنّ . »
— « لا ، لأنزال النعش . »
— « الى اين ؟ »
— « الى الكهيف . »
— « ايّ كهيف ؟ »
— « الذي تحت المذبح . »
وأجفل فوشلوفان :
— « الكهيف الذي تحت المذبح ! »
— « تحت المذبح . »
— « ولكن ... »

- « سوف يكون لديك قضيب حديدي . »

- « اجل ، ولكن ... »

- « ولسوف ترفع الحجر بالقضيب بواسطة الحلقة . »

- « ولكن ... »

- « يجب ان نطيع الموتى . لقد كانت أمنية الأم كروسيفكسيون ان تدفن في الكُهَيْف الذي تحت مذبح الكنيسة - لا أن تذهب الى التربة غير الطاهرة - وان تبقى بعد الممات حيث صلّت في الحياة . لقد طلبت ذلك ، يعني لقد اصدرت أمرها بذلك . »

- « ولكن هذا محظور . »

- « لقد حظّره البشر ، وامر به الله . »

- « واذا اكتُشِف ذلك ؟ »

- « إن لنا ثقةً فيك . »

- « اوه ، من ناحيتي ، انا مثل حجر من حجارة جدارك . »

- « لقد اجتمع مجلس الراهبات . ولقد قررت الامهات الصوتيات ، اللواتي شاورتهن كرةً اخرى ، واللواتي يتذاكرن الان ، ان تُدفن الام كروسيفكسيون ، وفقاً لرغبتها ، في نعشها تحت مذبحنا . تخيّلْ أيها الاب فوفان الوضع اذا ما اجتُرِحت العجائب من هنا ! ايّ مجد في الربّ ستنعم به جماعة الدير ! ان المعجزات تنبثق من القبور . »

- « ولكن ، ايتها الأم الموقّرة ، واذا أقبل شرطيّ مفوضية الصحة ؟ ... »

- « لقد قاوم القديس بينوا الثاني ، في مسألة الدفن ، قسطنطين بوغوناتوس * . »

- « ومع ذلك ، فإن مفوض الشرطة ... »

---

* هو قسطنطين الرابع ، امبراطور ، الامبراطورية البيزنطية الشرقية (٦٤٨-٦٨٥)

– « وإن كونودمير ، احد الملوك الالمان السبعة الذين دخلوا « غالة » في عهد الامبراطور كونستانس ، اعترف في صراحة بحقّ الرهبان في ان يُدفنوا على الطريقة الدينية ، يعني تحت المذبح . »

– « ولكن مفتش الشرطة ... »

– « ان العالَم ليس شيئاً أمام الصليب . ولقد أوصى مارتن ، الرئيس العام الحادي عشر للرهبانية القرطوسية ، أتباعه بهذه الوصية :

Stat crux dum volvitur orbis

– « آمين ! » كذلك قال فوشلوفان ، وهو رابط الجأش في التعبير عن نفسه على هذا النحو كلما سمع شيئاً من الكلام اللاتيني .

ان جماعة من المستمعين ، مهما يكن عدد افرادها ضئيلاً ، لتُرضي من سلخ فترة طويلة من الزمان وهو معتصم بالصمت . فيوم غادر الخطيب جيمناستوراس السجن ، مفعمَ الصدر بذخيرة مكبوتة من البراهين ذوات الحدين والاقيسة المنطقية ، وقف عند أول شجرة التقاها ، وخطب فيها ، وبذل جهداً كبيراً لاقناعها . كذلك نهضت الرئيسة ، الخاضعة عادة لسدّ من الصمت ، بعد أن وجدت في خزانها فائضاً ، وهتفت بمثل ثرثرة سدٍّ فُتح بابه :

– « ان الى يميني بينوا ، والى شمالي برنارد . من هو برنارد ؟ هو أول رئيس لدير كليرفو . و « فونتان » في بورغونيّ بلدٌ مبارك لانه كان مسقط رأسه . كان اسم أبيه تيسلين ، وكان اسم أمه آليت . لقد بدأ في « سيتو » وانتهى الى « كليرفو » . لقد أسند اليه رئاسةَ الدير اسقف « شالون سور ساوون » غييوم دو شامبو . كان له سبعمئة تلميذ ، ولقد أسس مئة وستين ديراً . لقد أفحم آبيّار في مجمع صان ، عام ١١٤٠ ، و « بيير دو بْرُوي » وتلميذه هنري ، وجماعة أخرى من الضالين تُعرف بـ « الوسوليين » . لقد ألقم « آرنو

---

* في اللاتينية ومعناها : الصليب ثابت لا يتزعزع ، والدنيا تدور دورانها .

دو بريس ، حجراً ، وصعق الراهبَ رالف ، ذابح اليهـود ، ورئس عام ١١٤٨ بجمع ريمس ، وحمل الكنيسة على أن تدين « جيلبرت دو لابوريه » أسقف بواتييه ، وحملها على أن تدين « إيبون دو ليتوال » ، وأصلح ما بين الامراء ، ونصح الملكَ لويس الفتى * ، وقـدّم المشورة للبابا أوجين الثالث ، ونظّم « الهيكل » ، ودعا الى الحرب الصليبية ، واجترح مئتين وخمسين عجيبة في حياته ، تمّ له منهـا تسع وثلاثون في يوم واحد . ومن هو بينوا ؟ انه بطريوك مونت كاسينو ؛ انه المؤسس الثاني « للقداسة الديرية » ؛ إنه باسيل ** الغرب . لقد أنجبت رهبانيته أربعين بابا ، ومئتي كاردينال ، وخمسين بطريركاً ، وألفاً وستمئة رئيس أساقفة ، وأربعة آلاف وستمئة أسقف ، وأربعة أباطرة ، واثنتي عشرة امبراطورة ، وستة وأربعين ملكاً ، واحدى وأربعين ملكة ، وثلاثة آلاف وستمئة قديس معلني القداسة ، ولا تزال قائمةً منذ الف واربعمئة سنة . القديس برنارد من ناحية ، وشرطي اللجنة الصحية من ناحية ! القديس بينوا من ناحية ، ومفتش الصحة من ناحية! الدولة ؛ دائرة الطرق العمومية ؛ الانظمة الجنائزية ؛ القوانين ؛ الادارة ؛ هل ندرك هذه الاشياء ؟ إن كلّ امرىء لتثور ثائرته حين يرى الى الطريقة التي نُعامَلُ بها . إنهم يحرموننا حتى من حقنا في ان نقدّم رفاتنا الى يسوع المسيح ! إن لجنتك الصحية هي من اختراعات الثورة . يجب ان يخضع الله لمفوّض الشرطة ؛ ذلك هو منطق هذا العصر . إصمت يا فوفان ! »

ولم يستشعر فوشلوفان الارتياحَ ، تحت وابل هذا التأنيب . وتابعت الرئيسة كلامها :

---

* Louis le Jeune هو لويس السابع وقد حكم فرنسة من عام ١١٣٧-١١٨٠

** القديس باسيل ابو الكنيسة اليونانية (٣٢٩ - ٣٧٩) والمقصود انه بالنسبة الى الغرب بمثابة باسيل بالنسبة الى الكنيسة اليونانية ، الشرقية .

— « إن حقّ الدير في الدفن لا يمكن ان يشك فيه احدٌ . وليس ثمة من يُنكره غير المتعصبين والضالّين . نحن نحيا في عصر بلبلة فظيعة . فالناس يجهلون ما ينبغي لهم ان يعلموه ، ويعلمون ما ينبغي لهم ان يجهلوه . انهم أجلاف ملحدون . وهناك في هذا العصر اناس لا يميزون بين القديس برنارد العظيم وبرنارد المعروف بـ « برنارد الكاثوليك الفقراء »، وهو أحد الرهبان الصالحين من اهل القرن الثالث عشر . وآخرون يجدّفون الى حدٍّ يجعلهم يقارنون ما بين دكة المشنقة التي أعدم بها لويس السادس عشر وصليب يسوع المسيح . إن لويس السادس عشر لم يكن غير ملك . فلنحذَرِ الله إذن ! لم يبقَ ثمة لا مستقيمون ولا زائغون . إنهم يعرفون اسم فولتير، ولكنهم لا يعرفون اسم « سيزار دو بوس » * ومع ذلك فسيزار دو بوس طوباويٌّ سعيد وفولتير شقيٌّ منكود الحظّ . ورئيس الاساقفة الاخير نفسه ، كاردينال بيريغور ، لم يعرف ان شارل دو غوندرين قد خَلَفَ بيرول ، وان فرانسوا بورغوان قد خَلَفَ غوندرين ، وأن جان فرانسوا سينو قد خلف بورغوان ، وان الاب « دو سانت مارتا » قد خلف جان فرانسوا سينو . والناس يعرفون اسم الاب « كوتون » لا لأنه كان أحد الثلاثة الذين عملوا في تأسيس رهبانية الـ « أوراتوار » ، ولكنْ لأنه كان موضوع تجديف للملك الهوغونوتي ** هنري الرابع . وإذا كان القديس فرانسوا دو سال قريباً الى نفوس ابناء هذا العالم فلأنه قد غشّ في القمار . ثم إن الناس يهاجمون الدين . لماذا ؟ لانه كان ثمة كهان أشرار ، لان ساغيتير ، اسقف غابٌ ، كان أخاً لسالون ، اسقف ايمبرون ، ولأن

* Cinar de Bus مؤسس « رهبانية إخوة العقيدة المسيحية » (١٥٤٤-١٦٠٧) وقد ترهّب بعد أن سلخ صدر شبابه منغمساً في الملذات والشهوات .

** الهوغونوت لفظ يطلق على البروتستانت الفرنسيين .

كلاً منهما قد اتّبع « مامون » * وما الذي يمكن ان ينتج عن هذا ؟ هل يمنع ذلك مارتن التوري من ان يكون قديساً ومن ان يقدّم نصف ردائه الى احد الفقراء ؟ إنهم يضطهدون القديسين . إن الناس ليغمضون أعينهم عن الحق . لقد غدت الظلمة شيئاً مألوفاً . وأشد الوحوش ضراوة هي الوحوش المكفوفة البصر . ان احداً لا يفكر في جهنم تفكيراً جدياً . اوه ! يا للشعب الشرير ! إن « باسم الملك » تعني اليوم « باسم الثورة » . ولم يعد الناس يعرفون لا حقوق الاحياء ولا حقوق الاموات . ولقد غدا الموت على نحو مقدس أمراً محظوراً . كما غدا القبر مسألةً مدنية . وهذا شيء رهيب ! لقد كتب القديس ليو الثاني رسالتين مسهبتين ، الاولى الى « بيير نوتير » والثانية الى ملك القوط الغربيين لكي يدفع ويسفّه ، في المسائل المتصلة بالموت ، سلطة الأكسرخوس ** وسيادة الأمبراطور العليا . ولقد قاوم غوتييه أسقف شالون ، في هذه القضية ، اوثونّ دوق بورغونيّ . ولقد سلّم القضاة القدماء بهذا . وفي العهود الماضية كنا نصوّت في مجلس الراهبات حتى على المسائل الزمنية . وكان رئيس دير سيتو ، وهو مقدّم الرهبانية ، مستشاراً وراثياً لبرلمان بورغونيّ . إننا نفعل بموتانا ما يحلو لنا . أليس جثمان القديس بينوا نفسه في فرنسة في دير فلوري المعروف بدير « سان بينوا سور لوار » برغم انه مات في مونت كاسينو بايطالية ، يوم السبت الواقع في الحادي والعشرين من شهر آذار عام ٥٤٣ ؟ إن هذا كله لا يقبل الجدل . أنا امقت جماعة المرتلين ؛ انا اكره رؤساء الاديرة ؛ انا أبغض المراطقة ، ولكني احقد اكثر على أيما شخص يُثبت لي خلافَ ما قلت . وليس عليك إلا ان تقرأ « آرنول ويون » ،

---

* الـه المال عند الاشوريين . وقد أطلق هذا الاسم في « الكتاب المقدس » على شيطان المال خصوصاً ، وعلى الشيطان بصورة عامة ايضاً .

** نائب امبراطور القسطنطينية في ايطالية أو في افريقية .

و « غابرييل بوسلـــين » ، و « تريتيم » ، و « موروليكوس » ، و « دوم لوقا داشري » .

وأخذت رئيسة الدير نفَساً ، ثم التفتت نحو فوشلوفان :

— « ايها الاب فوفان ، هل حُسِمت المسألة ؟ »

— « لقد حُسِمت ، ايتها الام الموقرة . »

— « هل استطيع ان اتكل عليك ؟ »

— « سوف امتثل امرك . »

— « حسن . »

— « إني أتفانى في خدمة الدير كل التفاني . »

— « لقد غدا واضحاً انك سوف تُغلـــق النعش . إن الاخوات سوف يحملنه الى الكنيسة . ولـسوف تُتلى صلاة الميْت . وبعد ذلـك يرجعن الى الدير . وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل سوف تأتي انت ومعك القضيب الحـديدي . ان كل شيء سوف يُصْنع في سرّية كاملة . ولن يكون في الكنيسة غير « الأمهات » الاربع المرتلات ، والأم « صعود » ، وأنت . »

— « والاخت التي ستكون في المركز ؟ »

— « إنها لن تلتفت . »

— « ولكنها سوف تسمع . »

— « انها لن تصغي . والى هـذا ، فان ما يعرفـه الدير لا يعرفه العالم . »

وران الصمت لحظة . ثم استأنفت الرئيسة كلامها :

— « سوف تنزع جلجلك . لا داعي الى أن تلمح الاخت التي في المركز أنك هناك . »

— « أيتها الام الموقرة ؟ »

— « ماذا أيها الاب فوفان ؟ »

« سوف يقوم بها اليوم ، في الساعة الرابعة . لقد قرع الناقوس الذي يدعو طبيب الموتى الى المجيء . ولكنك لا تسمع أياً من دقات الناقوس ، اذن ؟ »

- « أنا لا أنتبه الا لدقاته الخاصة بي . »

- « هذا حسن أيها الاب فوفان . »

- « أبتها الأم الموقرة ، سوف أحتاج الى مخل يبلغ طوله ستة أقدام على الاقل . »

- « من أين ستأتي به ؟ »

- « حيث تكثر النوافذ المشبكة تكثر القضبان الحديدية . ان عندي كومة من الحدائد العتيقة في مؤخرة الحديقة . »

- « قبل منتصف الليل بثلاثة أرباع الساعة . لا تنسَ . »

- « أبتها الام الموقرة ؟ »

- « ماذا ؟ »

- « اذا احتجتِ الى القيام بأي عمل آخر مثل هذا ، في المستقبل ، فان أخي قويّ جداً . انه تركي . * »

- « سوف تقوم بذلك بأسرع ما يمكن . »

- أنا لا أستطيع أن أسرع . انا عاجز . من أجل ذلك طلبتُ أن يكون لي مساعد . اني اعرج . »

- « العَرَج ليس جريمة ؛ انه قد يكون بركة . ان الامبراطور هنري الثاني الذي قاتل غريغوري ، البابا الزائف ، واعاد بينوا الثامن الى الكرسي الرسولي كان له لقبانِ (*surnoms*) : القديس ، والاعرج . »

غمغم فوشلوفان الذي كان ثقيل السمع ، في الواقع ، بعض الشيء :

---

* يطلق لفظ « التركي » في الفرنسية على الرجل القوي جداً .

— « ان ممطفَيْن (*surtouts*) اثنين شيء عظيم ! » *

— « ايها الاب فوفان ، تحيل اليّ ، وقد فكرت في ذلك ، اننا سوف نحتاج الى ساعة كاملة . وهذا ليس بالشيء الكثير . كن قرب المذبح العالي ، حاملاً القضيب الحديدي ، في الساعة الحادية عشرة . إن الصلاة ستبدأ عند منتصف الليل . وينبغي ان يتمّ كل شيء قبل ذلك بربع ساعة او يزيد . »

— « سوف اعمل كل ما يثبت غيرتي على جماعة الدير . لقد تفاهمنا على ما يلي : سوف ادق المسامير في النعش . وعند الساعة الحادية عشرة تماماً سوف اكون في الكنيسة . وسوف تكون الامهات المرتـلات هناك ، وكذلك ستكون الأم « صعود » هناك . لو كان ثمة رجلان لكان افضل . ولكن لا بأس ! سوف يكـون معي مخـلي . سوف نفتح الكهَيْف ، ونُنزل النعش ، ثم نغلق الكهيف من جديد . وبعد ذلك لن يكون ثمة اثر لايما شيء . ان الحكومة لن ترتاب في شيء . ايتها الأم الموقرة ، اهذا كل ما هنالك ؟ »

— « لا . »

— « وماذا بقي بعد ، اذن ؟ »

— « بقي التابوت الفارغ . »

وران الصمت . وفكر فوشلوفان . وفكرت الرئيسة .

— « ايها الاب فوفان ، ما الذي سوف نعمله بالنعش ؟ »

— « سوف ندسّه في التراب . »

— « فارغاً ؟ »

وران الصمت كرة اخرى . واومأ فوشلوفان بيده اليسرى تلك

---

* وضعنا اللفظ الفرنسي بعد كلمتي « لقبان » surnoms « وممطفين » surtouts حتى يلاحظ القارىء السبب الذي جعل فوشلوفان يفمغم بهذا الجواب . ذلك انه ظن أن رئيسة الدير قالت surtouts لا surnoms .

الايماءة الخاصة التي تطرد سؤالاً بغيضاً .

— « ايتها الام الموقرة ، سوف استمرّ النعش في الغرفة السفلى من الكنيسة . وليس في استطاعة احد غيري ان يدخل الى هناك ، ولسوف اغطي النعش بالكفن . »

— « اجل ، ولكن حَمَلة النعش سوف يلاحظون من غير شك ، حين يضعونه في عربة الموتى ، وحين ينزلونه الى القبر ، انْ ليس في داخله شيء . »

فهتف فوشلوفان :

— « آه ، يا للشيْ ... ! »

وشرعت الرئيسة ترسم اشارة الصليب على صدرها ، وحدّقت الى البستاني . لقد علقت الـ « ... طان » * في حلقومه .

وسارع الى التفكير بوسيلة تنسيها ذلك التجديف .

— « ايتها الام الموقرة ، سوف اضع بعض التراب في النعش . إن ذلك سيجعله ثقيلاً وكأن فيه جثماناً . »

— « انت على صواب . التراب لا يختلف عن الانسان في شيء . واذن فسوف تسوي مسألة النعش الفارغ ؟ »

— « سوف ادبر الامر . »

واستعاد وجه الرئيسة صفاءه ، وكان حتى تلك اللحظة مضطرباً مكفهراً . واومأت اليه ايماءة رئيس يسرّح مرؤوساً . فتقدّم فوشلوفان نحو الباب ، وفيما هو يغادر الغرفة رفعت الرئيسة صوتها في رفق :

— « ايها الاب فوفان ، انا راضية عنك . غداً بعد الدفن ، جئني بأخيك ، وقل له ان يصطحب ابنته . »

---

* وهي البقية الباقية من كلمة « شيطان » .

٤
حيث يظهر جان فالجان بمظهر من قرأ اوستين كاستيليجو تماماً

ان خطوات الاعرج اشبه شيء بنظرات الاعور ؛ إنها لا تنتهي الى غايتها في سرعة . وإلى هذا فقد كان فوشلوفان مرتبكاً . لقد احتاج الى ربع ساعة تقريباً للعودة الى كوخه في الحديقة . كانت كوزيت يقظى . وكان جان فالجان قد اجلسها قرب النار . ولحظة دخل فوشلوفان ، كان جان فالجان يُريها سلة البستاني معلقةً على الجدار ، ويقول لها :

— « أصغي الي جيداً ، يا صغيرتي كوزيت . يجب ان نغادر هذا البيت ولكن سوف نعود ، ولسوف نكون سعيدين ههنا . ان الرجل الطيب الذي هنا سينقلك على ظهره . ولسوف تنتظرينني في منزل احدى السيدات . إني ساعود وأصطحبك . وفوق كل شيء ، اذا كنتِ لا تريدين ان تستردكِ تيناردييه الزوجة ، فيجب عليك ان تكوني مطيعة ، وان لا تقولي شيئاً . »

واومأت كوزيت برأسها وقد غلبت عليها الكآبة .

وحين سمع جان فالجان صوتَ فتح فوشلوفان البابَ التفت وقال :

— « خير ؟ »

فقال فوشلوفان :

— « لقد سُوّي كل شيء ، ولم يسوَّ شيء . لقد حصلت على اذن بادخالك ، ولكن قبل ان ادخلك يتعيّن عليّ ان اخرجك . هنا المشكلة . أما الصغيرة فأمرها هيّن . »

— « سوف تخرجها ؟ »

— « وهل ستلزم الصمت ؟ »

- « انا واثق من ذلك . »

- « ولكن انت ، ايها الاب مادلين ؟ »

وبعد صمت مشوب بالقلق ، هتف فوشلوفان :

- « ولكن لماذا لا تخرج من حيث دخلت ؟ »

فاكتفى جان فالجان بأن أجابه ، شأنه من قبل :

- « مستحيل . »

وغمغم فوشلوفان ، مخاطباً نفسه اكثر منه مخاطباً جان فالجان :

- « هناك شيء آخر يقضّ مضجعي . لقد قلت إني سوف أضع هناك بعض التراب . ولكني أعتقد أن وضع التراب فيه بدلاً من الجثة ، لن يجعله يبدو وكأن فيه جثماناً حقاً . ان هذا العمل لن ينجح . ان التراب سوف يهتز . انه سوف يتحرك . وعندئذ يشعر الرجال به . أتفهم ، أيها الاب مادلين ؟ ان الحكومة سوف تكتشف الامر . »

وحدّق جان فالجان اليه ، وظن انه كان يهذي .

واستأنف فوشلوفان حديثه :

- « ما السبيل ، بحقّ الشيْ... طان ، الى خروجك من هنا ؟ لأن هذا كله يجب ان يتمّ غداً . غداً ، سوف أدخلك الى هنا . ان الرئيسة تنتظرك . »

ثم أوضح لجان فالجان ان ذلك كان مكافأة له ، هو فوشلوفان ، على خدمة يؤديها الى الجماعة . وان مهمته تقتضيه ، في جملة ما تقتضيه ، أن يشارك في اعمال الدفن ، وأن يدقّ المسامير في النعوش ، وان يساعد حفار القبور في الجبّانة . وأن الراهبة التي توفيت ذلك الصباح أوصت بأن تدفن في النعش الذي كانت قد اتخذت منه فراشاً ، وان توارى الثرى في الكُهيف القائم تحت مذبح الكنيسة . وأن أنظمة الشرطة تحظّر ذلك ، ولكنها كانت واحدةً من هاتيك الراحلات

اللواتي لا يُردّ لهنّ أمر . وان رئيسة الدير والامهات الصوتيات اعتزمن إنفاذ رغبة الفقيدة . وأن لأمّ الحكومة الهَبَل ! وأنه هو ، فوشلوفان ، سوف يسمّر النعش في القليّة ، ويرفع الحجر في الكنيسة ، ويُنزل الجثمان الى الكهَيْف . وأن الرئيسة سوف تكافئه على ذلك بأن تُدخل أخاه الى الدير ، بوصفه بستانياً ، وابنة أخيه بوصفها طالبة داخلية . وأن اخاه كان مسيو مادلين ، وان ابنة أخيه كانت كوزيت . وأن الرئيسة قالت له ان يجيء بأخيه صباح غدٍ ، بعد ان يتمّ الدفن الكاذب في المقبرة . ولكنه لا يستطيع ان يجيء بمسيو مادلين من الخارج ، اذا لم يكن مسيو مادلين في الخارج . وأن تلك كانت هي الصعوبة الأولى . وأنه كانت ثمة ، بعدُ ، عقبة اخرى : النعش الفارغ . »

فسأله جان فالجان :

— « وما النعش الفارغ ؟ »

فأجابه فوشلوفان :

— « نعش الادارة . »

— « أيّ نعش ؟ وأية ادارة ؟ »

— « حين تموت راهبة ، يأتي طبيب البلدية ويقول : لقد ماتت راهبة . وتبعث الحكومة بنعش . وفي اليوم التالي ترسل عربة موتى ، وبعض الحَمَلة ليأخذوا النعش وينقلوه الى المقبرة . ويُقبل حملة النعش لينقلوه . فلا يكون في داخله شيء . »

— « ضع شيئاً في داخله . »

— « مَنْ ؟ شخصاً ميتاً ؟ ليس عندي ايّ ميت . »

— « لا . »

— « ماذا اذن ؟ »

— « شخصاً حياً . »

— « أي شخص حيّ ؟ »

فقال جان فالجان :

— « أنا . »

فوثب فوشلوفان — الذي كان قد جلس — وكأنّ حُقّة بارود قد انفجرت تحت كرسيه .

— « انت ! »

— « ولِمَ لا ؟ »

وانفرجت شفتا جان فالجان عن احدى تلك الابتسامات النادرة الـتي طفَتْ على محياه مثل وميض في سماء شتاء .

— « انـت تعـرف ، يا فوشلوفـــان ، انـــك قلت : ان الأم كروسيفكسيون قد ماتت . واني اضفتُ : والاب مادلين قد دُفن . ذلك ما سيكون . »

— « آه ، حسن . أنت تهزل . أنت لا تتحدث جادّاً . »

— « جادّاً الى ابعد الحدود . يجب ان اخرج من هنا . »

— « من غير ريب . »

— « ولقد قلت لك ان تبحث عن سلة وغطاء لي انا ايضاً . »

— « ثم ماذا ؟ »

— « ستكون السلة من خشب الصنـوبر ، وسيكون الغطاء مـــن قماش أسود . »

— « قبل كل شيء ، احب ان اصحح الكلام فأقول : مـن قماش ابيض . إن الراهبات يدفنَّ بالبياض . »

— « حسن ، من قماش ابيض . »

— « انت لستَ مثل سائر الرجال ، ايها الاب مادلين . »

وكان في رؤية فوشلوفان هذه الحيل التي لم تكن غير مخترعات سجن الاشغال الشاقة ، الضارية المتهوّرة — نقول كان في رؤية هذه الحيل تنبثق وسط الاشياء الآمنة التي تحيط به وتمتزج بما كان يدعوه غطيـــة

الدير التافهة ، ما اوقع في ذات نفسه انشداهاً أشبه بانشداه عابر سبيل يرى زُمّج ماء * يصطاد في ساقية شارع « سان دونيز » .

وتابع جان فالجان :

— « المقصود ان اخرج من هنا من غير ان يراني احد . هذه وسيلة . ولكن ، قبل كل شيء ، أعلمني . كيف يجري ذلك ؟ اين هذا النعش ؟ »

— « النعش الفارغ ؟ »

— « نعم . »

— « تحت . في ما يُدعى حجرة الموتى . إنه فوق صقالتين وتحت الكفن . »

— « ما طول النعش ؟ »

— « ستة اقدام . »

— « وما هي حجرة الموتى هذه ؟ »

— « إنها حجرة في الدور الاسفل ذات نافذة مقضّبة تطلّ على الحديقة ، وتوصد من الخارج بمصراع وبابين ، احدهما يؤدي الى الدير ، والآخر يؤدي الى الكنيسة . »

— « أية كنيسة ؟ »

— « الكنيسة التي على الشارع . الكنيسة التي يدخل اليها كل انسان . »

— « اعندك مفتاحا هذين البابين ؟ »

— « لا . عندي مفتاح الباب المؤدي الى الدير . أما مفتاح الباب المؤدي الى الكنيسة فهو مع البوّاب . »

— « ومتى يفتح البواب ذلك الباب ؟ »

— « حين يقبل الحمَلَة لنقل النعش ، ليس غير . وما يكاد النعش يخرج حتى يُغلَق الباب من جديد . »

* goéland وهو طائر بحري ابيض اللون .

– « ومن الذي يدق المسامير في النعش ؟ »

– « انا . »

– « ومن يغطيه بالقماش ؟ »

– « انا . »

– « هل انت وحدك . »

– « ليس ثمة رجل آخر – غير طبيب الشرطة – يستطيع ان يدخل الى حجرة الموتى . بل إن ذلك مكتوب على الجدار نفسه . »

– « هل تستطيع الليلة بعد ان ينام كل امرىء في الدير ان تخبئني في تلك الحجرة ؟ »

– « لا . ولكني استطيع ان اخبئك في حجيرة مظلمة تؤدي الى حجرة الموتى حيث أحتفظ بأدواتي الخاصة بالدفن . إنها حجيرة انا حارسها وحامل مفتاحها .

– « ومتى ستقبل عربة الموتى لنقل النعش غداً ؟ »

– « حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . إن الدفن سوف يتم في مقبرة فوجيرار ، قبيل المساء . إنها ليست قريبة جداً . »

– « سوف ابقى مختبئاً في حجيرة ادواتك طول الليل وطول النهار . ومسألة الطعام ؟ سوف أحس بالجوع . »

– « اني سأحمل اليك ما تأكله . »

– « في استطاعتك ان تأتي وتوصد النعش علي ، بالمسامير ، في الساعة الثانية . »

وأجفل فوشلوفان واخذ يقضقض عظام اصابعه .

– « ولكن هذا مستحيل ! »

– « دع عنك ذلك . كل ما عليك ان تفعله هو ان تتناول مطرقة وتدق بعض المسامير في لوح خشبي . »

ونحن نكرّر هنا ان ما بدا غريباً لم يُسمَع بمثله عند فوشلوفان

كان يسيراً عند جان فالجان . فقد سبق ان وجد جان فالجان نفسهُ في مآزق اسوأ . وكل من دخل السجن يعرف ذلك الفن الذي يمكّن صاحبه من ان ينكمش وفقاً لابعاد المكان الذي يلجأ اليه ابتغاء الهرب . والسجين عرضة للفرار ، كما ان المريض عرضة للأزمة التي تشفيه او تصرعه . والفرار شفاء . واي شيء لا يحتمله المرء لكي يشفى ؟ ولأن تُدَقّ عليه المسامير ، ويُحمَل في صندوق كما يُحمل الطرد ، ولان يعيش فترة طويلة في علبة ، ويجد الهواء حيث لا هواء ، ويقتصد في التنفس ساعات بكاملها ، ويعرف كيف يختنق من غير ان يموت — ذلك كان جزءاً من مواهب جان فالجان الكالحة .

وانى هذا فان نعشاً ينطوي على كائن حيّ ، تلك الحيلة التي ابتدعتها مخيلة المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هو حيلة امبراطورية ايضاً . فاذا كان لنا أن نصدّق الراهب اوستين كاستيليجو كانت هذه هي الوسيلة التي اصطنعها شارل الخامس — وقد رغب بعد تنازله عن العرش في ان يرى « لا بلومب » للمرة الاخيرة — لكي يجيء بها الى دير « سان جوست » ثم يُخرجها منه .

وهتف فوشلوفان وقد ثاب الى رشده :

— « والتنفس ، كيف تستطيع ان تحلّ عقدته ؟ »

— « سوف اتنفس . »

— « في ذلك الصندوق ؟ ان مجرد التفكير بهذا يميتني اختناقاً . »

— « لا ريب في ان عندك مخرزاً . وفي استطاعتك ان تحدث بعض الثقوب ، حوالى الفم ، ههنا وهناك . وفي استطاعتك ان تسمّر النعش من غير ان تشدّ اللوح العلوي شدّاً محكماً . »

— « حسن ! واذا اتفق ان سعلتَ او عطستَ ؟ »

— « إن الهارب لا يسعل ولا يعطس بحال من الاحوال . »

قال جان فالجان ذلك ثم أضاف :

– « ايها الاب فوشلوفان ، يجب ان اقرّر : إمـا ان أداكم هنا ، وإما ان ارتضي الخروج بعربة الموتى . »

لقد لاحظ الناس جميعاً ولوع المررة بالوقوف عنـد الابواب نصف المغلقة والتردّد امامها . ومن منا لم يسبق له ان قال لهرة ما : « لماذا لا تدخلين ؟ » . وثمة اناس ينزعون هم ايضاً ، حين تنفتح الفرصة لهم بعض الشيء ، الى أن يظلوا مترددين بين قرارين اثنين ، معرّضين انفسهم بذلك الى ان يُسحقوا بيد القدَر الذي يُوصِد الفرصة إيصاداً مفاجئاً . والواقع أن المبالغين في التروي ، برغم انهم هررة ، بل لانهم هررة ، كثيراً ما يتعرضون للخطر اكثر من الجسورين . ولقد كان فوشلوفان من اصحاب هذه الطبيعة المترددة . ومع ذلك فأن رباطة جأش جان فالجان أعدَته بالرغم منه . فغمغم :

– « هذا صحيح . ليس هناك طريقة اخرى . »

واستأنف جان فالجان كلامه :

– « الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ذلـــك الذي سوف يجري في المقبرة . »

فهتف فوشلوفان :

– « ذلك هو الشيء الذي لا يقلقني عـلى وجه الضبط . إذا كنتَ واثقاً من إخراج نفسـك من النعش ، فسوف اكون واثقاً من إخراجك من القبر . فحفـار القبور سكّير ، وصديق من اصدقـائي . إنه الاب ميتيين . ابنُ عجوزٌ من ابناء الكرمة العجوز . إن حفار القبور يضع الموتى في الجدث ، وأنا أضع حفار القبور في جيبي . سأقول لك ما الذي سوف يحدث . إننا سوف نصل قبل الغسق بقليـل ، قبل ان تُغلق ابواب المقبرة بثلاثة ارباع الساعة . ولسوف تمضي عربة الموتى الى القبر . ولـسوف أتبعها : تلك هي مهمتي . وسيكون في جيبي مطرقـة وازميـــل ، وبعض الكلاّبات . وتقـف عربة الموتى ، ويشدّ الحمَلة

وثاق نعشك بحبل ، ويتزلونك الى الحفرة . ويتـلو الكاهن الصلوات ، ويرسم إشارة الصليب ، وينضح المـاء المقدس ، ويمضي لـسبيـله . وأبقى وحدي مع الاب ميتيين . إنه صديقي ، اقول لـك . وثمة واحد من امرين : إما ان يكون سكران ، واما ان لا يكون سكران . فاذا لم يكن سكران ، فسوف أقول له : « تعال واشرب كأساً قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة ابوابها » . واذهب به ، وأسكره . إن الاب ميتيين لا يحتاج إسكاره الى وقت طويل ، فهو ابداً في سبيله الى السُّكْر . وأضعه تحت الطاولة ، وأنتزع بطاقته لكي اعود بها الى المقبرة ، وارجع بدونه . ولن يكون لك بعدُ أيا عمل مع غيري . واذا كان سكران ، فسوف أقول له : أغرب من هنا ، سوف أقوم بعملك . ويمضي لسبيله ، وعندئذ أخرجك من الحفرة . »

وبسط جان فالجان يده ، فطرح فوشلوفان نفسه عليها في دفقةٍ ربفية من التفاني المؤثّر .

– « اتفقنا ، ايها الاب فوشلوفان . كل شيء سوف يجري على ما يرام . »

وقال فوشلوفان ، في ما بينه وبين نفسه :

– « شرط ان لا يختل شيء . ويا لفظاعة ذلك الاختلال لو حدث ! »

٥
ليس يكفي ان تكون سكيراً
لكي تكون مخلّداً

وفي اليوم التالي ، فيما كانت الشمس تجنح للغروب ، رفـع عابرو

السبيل المتناثرون في « بولفار دو مـــين » فتبعاتهم لدن مرور عربة موتى عتيقة الزيّ ، مزدانة برؤوس المنية ، وعظام الساق ، والدموع . وفي عربة الموتى تلك كان نعش مغطى بغطاء ابيض يختال فوقه صليب اسود ضخم أشبه ما يكون بمومياء هائلة تتدلى ذراعها على جانبيهـــا . وكانت تتبع هذه العربة عربة مجللة بالجوخ كان باستطاعة المرء ان يلمح فيها كاهناً يرتدي قميصاً من قمصان الاكليروس الفوقية ، وغلاماً مـن غلمان الجوقة يرتدي بنطلوناً قصيراً احمر . وعن يمين عربة الموتى وشمالها مشى حاملان من حملة النعـوش في ملابسهم الرمادية الموحّـــدة ذات الحواشي السوداء ، وفي المؤخرة كان رجل عجوز في ثياب العمال يتقدم في خطى عرجاء . لقد مضى الموكب في اتجاه مقبرة فوجيرار .

وكان في ميسور النظارة ان يروا مقبض مطرقة ، ومثفره إزميـــــل خاص بالحديد البارد ، ومقبضين مزدوجين لزوج من الكلابات ، وقد أطلعت رؤوسها من جيب ذلك الرجل .

كانت مقبرة فوجيرار نسيجَ وَحدِها بين مقابر باريس . كانت لهـا تقاليدها الخاصة ، كما كان لها بابها الخاص بالعربات ، وبُوَيبها النغـــل الذي كان عجائز الحيّ المتشبثون بالكلمات العتيقة يدعونه باب الفرسان وباب المشاة . وكانت راهبات « بيكبوس الصغـــير » البرناردينات البنيدكتيات قد حصلنَ ، كما قلنا سابقاً ، على الحق في ان يُـــدفنّ هناك في زاوية منفردة ، وتحت جنح الظلام ، باعتبار ان هذه الارض كانت من قبلُ ملكاً لرهبانيتهنّ . واذْ حتّمَ ذلك على حفاري القبور بأن يعملوا في المقبرة مساءً – أيام الصيف – وليلاً – ايام الشتـــاء – فقد أخضعوا لنظام فريد . كانت مقابر باريس توصد ابوابها ، في ذلك العهد ، عند المغيب ، واذ كانت اوامر البلدية هي الـــتي قضت بذلك الاجراء ، فقد خضعت له مقبرة فوجيرار مثل سائر المقابر . وكان باب الفرسان وباب المشاة متجاورين مقضّبين بالحديد ، وكان في جوارهـــا

سرادق بناه المهندس المعاري بيرونيه حيث يقطن بواب المقبرة . واذن فقد كان هذان البابان الحديديان يدوران ، في تصلّب ، على رزّاتهما لحظة تتوارى الشمس خلف قبة الأنفاليد . ولو قد تخلّف في تلك اللحظة احد حفاري القبور في المدفن اذن لكانت بطاقته المهنية الصادرة عن ادارة المواكب الجنائزية هي سبيله الاوحد الى الخروج . وكان في شبّاك البواب ضرب من علبة للبريد ، فكان حفار القبور يلقي بطاقته في هذه العلبة ، فيسمعها البواب تسقط ، فيجذب الحبل ، فينفتح باب المشاة . فاذا اتفق ان كان حفار القبور غير حامل بطاقته فعندئذ يذكر اسمه ، فينهض البواب من فراشه — ذلك انه قد يكون نائماً في بعض الاحيان — ويحاول التحقق من هوية حفار القبور ، ويفتح الباب بالمفتاح . وهكذا يخرج حفار القبور ، ولكن بعد ان يدفع غرامة مقدارها خمسة عشر فرنكاً .

والواقع ان هذه المقبرة ، بغرائبها الخارجة على القاعدة ، عطّلت تناغم الادارة واتّساقها . ولقد أُلغيت بعد سنة ١٨٣٠ بقليل . وإنما خلفتها مقبرة مونبارناس ، المعروفة بمقبرة الشرق ، وورثت عنها تلك الحانةَ الشهيرة المحاذية لمقبرة فوجيرار ، والتي تعلوها سفرجلة رُسمت على صفيحة — فهي تُطلّ من ناحية على موائد الشاربين ، وتطلّ من ناحية أخرى على القبور — والتي تحمل هذا الاسم : **السفرجلة الطيبة** .

وكانت مقبرة فوجيرار ما يمكن أن ندعوه مقبرة عفنة . لقد أخنى عليها الدهر ، فالعفن يغزوها ، والرياحين تفارقها . وكان الاثرياء من المواطنين قليلاً ما يرغبون في ان يدفنوا في فوجيرار ، فقد كانت روائح الفقر تفوح منها . أما مقبرة الأب لاشيز فرائعة جداً ! فلأن تُدفَنَ في مقبرة الأب لاشيز اشبهُ شيء بامتلاك أثاثٍ مصنوع من خشب البلاذُر أو الماهوغاني . إن ذلك لينمّ عن الاناقة . لقد كانت مقبرة فوجيرار حظيرةً ذات جلال منسّقة على طريقة الحدائق الفرنسية

القديمة . ممرّات مستقيمة ، وشجرات بَقس * ، وشجرات سَنْدروس ** ، وشجرات شرّابة الراعي ، وقبور عتيقة تحت شجرات طقسُوس *** هرمة ، وعشب فارع الطول . وكان الليل رهيباً جداً هناك . كانت ثمة ظلال تقبض الصدر الى حد بعيد .

ولم تكن الشمس قد غربت عندما دخلت عربة الموتى ذات الغطاء الابيض والصليب الاسود شارعَ مقبرة فوجيرار . ولم يكن الرجل الاعرج الذي يتبعها غير فوشلوفان .

وكان دفن الأم كروسيفكسيون في الكهَيْف الذي تحت المذبح واخراج كوزيت من المكان ، وادخال جان فالجان الى حجرة الموتى — كان ذلك كله قد أتمّ من غير ما عائق ومن غير ان يمسه الاخفاق .

ونحب ان نقول ، بالمناسبة ، ان دفن الأم كروسيفكسيون تحت مذبح الدير هو ، في اعتقادنا ، شيء عرضي يمكن اغتفاره ، في كثير من اليسر . واحد من تلك الاخطاء الشبيهة بواجب من الواجبات . لقد قامت الراهبات به ، لا من غير قلق فحسب ، ولكن في ضمير مصفّق ايضاً . فما يدعى « الحكومة » لا يعدو ، في الدير ، ان يكون تدخلاً في السلطة ، تدخلاً هو أبداً موضع الشك . الانظمة اولاً ؛ اما القانون ، فسوف نرى . أيها الناس ، ضعوا ما شئتم من القوانين ، ولكن احتفظوا بها لانفسكم . إن المكوس التي تُدفع الى قيصر ليست بحال من الاحوال غير البقية الباقية من المكوس التي تُقدَّم الى الله . فالأمير ليس شيئاً في حضرة المبدأ .

وعرجَ فوشلوفان خلف عربة الموتى ، في ارتياح عظيم . كانت مؤامرتاه التوأمان ، وإحداهما مع الراهبات والاخرى مع مسيو مادلين ،

---

* البقس Buis شجر كالآس ورقاً وحباً تتخذ منه المغالق والابواب لمتانته .
** ضرب من الصنوبريات دائم الخضرة . (Thuya) .
*** ضرب من السرو او الشربين (ifs) .

الاولى للدير والثانية ضد الدير ، قد نجحتا على حد سواء . والواقع ان مكينة جان فالجان كانت من ذلك الضرب الجبار الذي يُعدي . فلم يبق عند فوشلوفان ايما شك في النجاح . أما الاشياء التي ما يزال من الضروري القيام بها فلم تكن ذات خطر . فلقد أسكر عشر مرات ، خلال سنتين ، حفار القبور الطيب الأب ميستيين ، وهو رجل بدين ساذج . لقد كان يعبث بالأب ميتيين عبثاً . كان يفعل به ما يشاء . كان يصفف له شعره وفقاً لارادته وهواه . وكان ميتيين يرى من خلال عيني فوشلوفان . كانت سلامة فوشلوفان كاملة .

ولحظة دخلت الجنازة الشارع المؤدي الى المقبرة نظر فوشلوفان مبتهج الصدر الى عربة الموتى ، وفرك يديه الضخمتين قائلاً في صوت خفيض :

— « هي ذي مهزلة ! »

وفجأة وقفت عربة الموتى . لقد انتهت الجنازة الى الباب . وكان من الضروري أن تُبرَز إجازة الدفن . وتهامس الدفّان مع بواب المقبرة . وفي اثناء هذه المحادثة ، التي تسبب دائماً تأخراً يستغرق دقيقة او دقيقتين ، أقبل رجل مجهول ووضع نفسه خلف عربة الموتى ، الى جانب فوشلوفان . كان اشبه بعامل من العمال يرتدي كساءً طويلاً ذا جيوب واسعة ، ويحمل تحت ذراعه معولاً .

ونظر فوشلوفان الى هذا الرجل المجهول .

وسأله :

— « من انت ؟ »

فأجاب الرجل :

— « حفار القبور . »

ولو قد اصابت قذيفة مدفع رجلاً في صدره فلم تقضِ عليه ، اذن لكان محيّاه اشبه بمحيّا فوشلوفان في تلك اللحظة .

— « حفار القبور ؟ »

- « نعم . »
« انت ! »
- « انا . »
- « إن حفار القبور هو الأب ميتيين . »
- « لقد كان . »
« كيف ! لقد كان ؟ »
« لقد مات . »

كان فوشلوفان مستعداً لكل شيء ، ما خلا هذا : أن يكون في استطاعة حفار القبور أن يموت . ومع ذلك ، فهذا صحيح . إنّ حفاري القبور أنفسهم يموتون . إنهم بالانصباب على حفر القبور للناس يحفرون قبورهم الخاصة .

ولم يحر فوشلوفان جواباً . إنه لم يجد ، إلا بشقّ النفس ، القوة التي تمكّنه من ان يتلجلج :

« ولكن هذا غير ممكن ! »
- « هذا هو الواقع . »

فكرر في وَهَن :

« ولكن حفار القبور هو الأب ميتيين . »
- « بعد نابوليون ، لويس الثامن عشر . وبعد ميتيين ، غريبييه . ايها الفلاح ، إن اسمي غريبييه . »

وغلب الشحوب على وجه فوشلوفان . وحدق الى غريبييه .

كان رجلاً طويل القامة ، مهزولاً ، ازرق ضارباً الى السواد ، مأتمياً بكل ما في الكلمة من معنى . كانت تبدو عليه سيما طبيب افتقر فأمسى حفار قبور .

وانفجر فوشلوفان ضاحكاً :

- « آه ! يا لها من احداث مضحكة ! لقد مات الاب ميتيين . الاب ميتيين الصغير قد مات ، ولكن فليحيَ الاب لونوار الصغير !

أتدري ما هو الأب لونوار الصغير ؟ إنه كوز الصهباء التي يباع ثمـن القالون منها بستة سو . إنه كوز « سورين » . يا سلام ! « سورين » باريسية حقيقية . وهكذا ، فقد مات ميتين العجوز ! أنا محزون عليه. كان فتىً طروباً . ولكن أنت ايضاً ، انت فـتىً طروب . أليس كذلك ، ايها الرفيق ؟ سوف نمضي ونشرب شيئاً من الخمر معـاً . سوف نمضي في الحال . »

وأجاب الرجل :

– « لقد درستُ . لقد تخرّجت . أنا لم اشرب الخمر في حياتي قط . »

كانت عربة الموتى قد انطلقت . وكانت تتدحرج على مجاز المقبرة الرئيسي الضيّق .

كان فوشلوفان قد تباطأ ، لقد عرج من القلق اكثر مما عرج من عاهتـه .

ومشى حفار القبور أمامه .

وحدّق فوشلوفان ، كرة اخرى ، الى غريبيه غير المنتَظَـر .

لقد كان واحداً من اولئك الناس الذين يبدون ، رغم فتوّتهم ، شيوخاً ، والذين هم ، برغم هزالهم ، على قوة بالغة .

وصاح فوشلوفان :

– « ايها الرفيق ! »

واستدار الرجل .

– « أنا حفار قبور الدير . »

فقال الرجل :

– « زميلي . »

وادرك فوشلوفان ، الحاد الذكاء برغم أميّته ، أنه يواجـه شخصاً رهيباً ، محدّثاً بارعاً .

وغمغم :

- « هكذا اذن . لقد مات الاب ميتيين . »

فأجاب الرجل :

- « تماماً . لقد راجع الرب الرحيم لائحة سنداته المستحقة الأداء . كان الدور دور الاب ميتيين . وهكذا توفي الاب ميتيين . »

فردّد فوشلوفان على نحو آليّ :

- « الرب الرحيم . »

فقال الرجل في سلطان :

- « الرب الرحيم . ما يدعوه الفلاسفة الأبَ الأزليّ . وما يدعوه اليعاقبة الكائن الأسمَى . »

فتلجلج فوشلوفان :

- « ألن نتعارف ؟ »

- « لقد تم ذلك . أنت فلاح ، وأنا باريسي . »

- « لن نتعارف إلا حين نحتسي الخمر معاً . فمن يُفرغ كأسه يُفرغ قلبه . تعالَ واشرْب معي . انك لا تستطيع ان ترفض . »

- « العمل اولاً . »

فقال فوشلوفان في ذات نفسه :

- « لقد هلكتُ . »

وكان الآن على بضع قصبات ، ليس غير ، من المجاز المؤدي الى زاوية الراهبات .

وتابع حفارُ القبور :

- « ايها الفلاح ، إن لي سبعة اولاد صغار يجب ان أطعمهم . وإذ كانوا مضطرين الى ان يأكلوا فإني مضطرّ الى ان لا اشرب . »

ثم اضاف في ارتياح رجلٍ جدّي يتكلم في زهو وادّعاء :

- « إن جوعهم عدوّ ظمأي . »

واستدارت عربة الموتى حول شجرة سرو ضخمة ، وفارقت المجاز

الرئيسي ، وسلكت مجازاً صغيراً ، ودخلت الجزء المشجّر من المقبرة ، وتوارت وسط أحد الادغال . وكان ذلك يؤذن بأن القبر أمسى جِدّ قريب . وخفف فوشلوفان من سرعة خطوه ، ولكنه لم يستطع ان يخفف من سرعة خطو العربة . ومن حسن الطالع ان التربة الخوّارة ، المندّاة بأمطار الشتاء ، دَبِقت بالعجلات ، فجعلت جَريها ثقيلاً .

واقترب فوشلوفان من حفار القبور .

وغمغم :

– « ان عندهم خمرة آرجانتوْي فاخرة جداً . »

فتابع الرجل :

– « ايها الريفي ، أنا ما كان ينبغي لي ان اكون حفار قبور . لقد كان ابي بواباً في بريتانيه . وكان يُعدّني للحياة الادبية . ولكنه كان سيء الحظ . لقد ضارب في البورصة فخسر ، وكان عليّ ان أتخلى عن حرفة الكتابة ، ومع ذلك ، فانا لا ازال كاتباً عمومياً . »

فأجاب فوشلوفان ، متعلقاً بهذه القشة على وَهنها :

– « ولكنك لستَ حفار القبور اذن ؟ »

« إن احداهما لا تتنافى مع الاخرى ؛ انا اجمع بين الوظائف . »

ولم يفهم فوشلوفان هذا التعبير الأخير .

وقال :

– « دعنا نذهب ، ونشرب . »

وهنا لا بدّ من ملاحظة : إن فوشلوفان ، برغم قلقه الشديد ، اقترح معاقرة بنت الحان ولكنه لم يوضح امراً واحداً : مَن الذي سيدفع ؟

كان من عادة فوشلوفان ان يقترح ، وكان من عادة الأب ميتيين ان يدفع . وواضح ان دعوة الى الشراب قد نشأت عن الحالة الجديدة التي اوجدها حفار القبور الجديد ، وهي دعوة يتعيّن عليه القيام بها ،

ولكن البستاني العجوز ترك أمر الوفاء بالدّين ، عـن تعمد طبعاً ، غامضاً يكتنفه الظلام . إن فوشلوفان ، برغم ما كان يساوره من اضطراب ، لم يكترث بمسألة الدفع .

وتابع حفار القبور كلامه ، في ابتسامة من يستشعر الامتياز :

— « يجب ان نعيش . لقد وضيت ان أخلفِ الاب ميتيين . فمين يُشرف المرء على إنهاء دراسته يصبح فيلسوفاً . لقد أضفتُ الى عمل اليد عملَ الذراع . إن عندي دكان كتابتي الصغير في شارع سيفر ، هل تعلم ؟ في سوق المظلات . ان جميع طاهيات « الصليب الاحمر » يَفِدْنَ اليّ . إني أحررّ لهن ، على عجل ، رسائلهن الغراميـة الى عشاقهنّ . في الصباح اكتب رسائل الحب ، وفي المساء أحفر القبور . هكذا هي الحياة ، ايها الرجل الريفيّ . »

وتقدمت عربة الموتى . وتلفت فوشلوفان ، وقد بلغ اقصى غاية القلق ، الى يمين والى شمال ، والى امام والى وراء . كانت قطرات ضخام من العرق تتحدّر من جبينه .

وتابع حفار القبور حديثه :

— « ومع ذلك فليس في ميسور المرء ان يخدم سيدتين . يجب ان اختار إما القلم وإما المعول . إن المعول يؤذي يدي . »

ووقفت عربة الموتى .

وترجل غلام الجوقة من العربة المجللة بالجوخ ، وتبعَه الكاهن . وارتقت عجلة أمامية من عجلات عربة الموتى كومة من التراب ، وُلي خلفها قبر فاغر الفم .

وكرر فوشلوفان في كآبة بالغة :

— « هي ذي مهزلة ! »

٦
بين اربعة الواح

من كان في النعش ؟ نحن ندري . جان فالجان .

كان جان فالجان قد رتب الاشياء بحيث يستطيع ان يحيا في النعش ويتنفس بعض الشيء .

وفضلاً عن ذلك فعجيب الى أي مدى يستطيع الضمير المطمئن أن يوقع السكينة في النفس . كان التدبير الذي بيّته جان فالجان قد نُفّذ ، ونفـذ في نجاح ، منذ الليلة البارحة . كان يتكل ، مثلَ فوشلوفان ، على الأب ميتيين . ولم يساوره ريب في النتيجة ، البتة . إن ايما حالة لم تبلغ قط من الحرج ما بلغته هذه الحالة ، وان الهدوء لم يكن قط اكثر كمالاً .

كانت ألواح النعش الاربعة توفر ضرباً من الأمن الفظيع . لقد بدا وكأن شيئاً من راحة الاموات قد تسرب الى سكينة جان فالجان .

ومن باطن ذلك النعش كان في ميسوره ان يتابع ، ولقد تابع ، مختلفَ مراحل المأساة الرهيبة التي كان يمثلها مع الموت .

فما إن اتم فوشلوفان تسمير اللوح الاعلى حتى استشعر جان فالجان ان الحَمَلة قد رفعوه ، وأن العربة قد أنشأت بعد ذلك تجري به . حتى اذا خفت الارتجاجات استشعر انه انتقل من البلاط المرصوف الى الارض الموطّأة ؛ يعني أنه غادر الشوارع وانتهى الى الجادّات . * ومن خلال ضجة خافتة قدّر انهم يعبرون جسر اوسترليتز . وعندما وقفت العربة اول مرة ، أدرك انهم دخلوا المقبرة . وعندما وقفت كرة ثانية ، قال في ذات نفسه : « هوذا القبر » .

* جمع جادة وهي « البولفار » .

وأحس بأيدٍ تسارع الى الامساك بالنعش ، ثم أحس باحتكاك مبحوح فوق الالواح . فاستنتج ان ذلك حبل كانوا يطوقون به النعش لكي ينزلوه الى الحفرة .

ثم انه استشعر ضرباً من الدّوار .

لعل حملة النعش وحفار القبور قد امالوا النعش وانزلوا مقدّمه قبل مؤخره . واستعاد وعيه كاملاً حين امسى في وضع أفقيّ ، جامداً عديم الحركة . كان قد مسّ القعر .

وأحس بقشعريرة .

وارتفع صوتٌ فوقه مثاوجاً مهيباً . وسمع بضع كلمات لاتينية لم يفهمها ، تلفظ في بطء مكّنه من ان يلتقطها واحدة إثر اخرى :

Qui dormiunt in terrae pulvere, evigilabunt ; alii in vitam aeternam, et alii in opprobrium, ut videant semper *

فقال صوت طفل :

— *De profundis*. **

وأردف الصوت الوقور :

— *Requiem aeternam dona ei, Domine*. ***

فأجاب صوت الطفل :

— *Et lux perpetua luceat ei* ****

وسمع فوق اللوح الذي يغطيه شيئاً مثل تساقط الرذاذ الرفيق . واغلب الظن ان ذلك كان الماء المقدس .

وقال في ذات نفسه :

---

* الذين يرقدون في تراب الارض ويسكنون هناك ، بعضهم يعيش في الحياة الابدية وبعضهم في العذاب الملم .

** من الاعماق .

*** فامنحهم الراحة الابدية ، ايها السيد .

**** وزورك السرمدي .

-- « سوف ينتهي ذلك عما قريب . اصبر فترة اخرى قصيرة . ان الكاهن على وشك ان يمضي . وان فوشلوفان سوف يقود ميتين الى الخانة . انهم سيفارقونني . ثم يرجع فوشلوفان وحيداً . ولسوف اخرج. إن ذلك سيستغرق ساعة او يزيد . »

واردف الصوت الوقور :

— *Requiescat in pace .* *

وقال صوت الطفل :

— *Amen .* **

وسمع جان فالجان ، مرهفاً اذنه ، صدىً أشبه بصدى الاقدام المتراجعة .

وقال في ذات نفسه :

– « انهم ينصرفون . لقد امسيتُ وحدي . »

وفجأة سمع فوق رأسه صوتاً بدا له وكأنه قصف الرعد .

كان ملءَ مسحاةٍ من التراب يسقط على النعش .

وسقط ملءُ مسحاة آخر .

وسُدّ احد الثقوب التي كان يتنفس منها .

وسقط ملء مسحاة ثالث .

ثم ملء مسحاة رابع .

ان ثمة اشياء أقوى من اقوى رجل . وأغمي على جان فالجان .

---

* ارقدوا في سلام .

** آمين .

٧

حيث سنكتشف اصل قولهم :

لا تضع بطاقتك *

فلننظر ما الذي حدث فوق النعش الذي ضم جان فالجان بين جنباته .

حين مضت عربة الموتى لسبيلها ، وامتطى الكاهن وغلام الجوقة متن العربة وانصرفا ، بَصُرَ فوشلوفان - الذي لم يرفع عينيه قط عن حفار القبور - بهذا الحفار ينحني ويتناول مسحاته التي كانت مغروزة على نحو مستقيم في ركام التراب .

وهنا اتخذ فوشلوفان قراراً رفيعاً .

لقد أقحم نفسه ما بين الحفرة والحفار ، وقال مصالباً ذراعيه :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

فحدّق اليه حفار القبور ، في دهش ، واجاب :

- « ماذا ؟ أيها الفلاح ؟ »

فكرر فوشلوفان :

- « سوف أدفع أنا ثمنها ! »

- « ثمن ماذا ؟ »

- « الخمر . »

- « اية خمر ؟ »

- « خمر الآرجانتويْ »

- « اين خمر الآرجانتويْ هذه ؟ »

---

* يقولون في الفرنسية : أضاع البطاقة perdre la carte بمعنى : اضطرب .

– « في حانة السفرجلة الطيبة . »
فقال حفار القبور :
– « اذهب الى الشيطان ! »
وقذف النعش بملء مسحاة من التراب .
ورجّع النعش صدىً غائراً . واستشعر فوشلوفان أنه يترنح ، وكاد يهوي الى القبر . وفي صوت اخذ يمتزج به اختناق الحشرجة ، صاح :
– « تعال ، ايها الرفيق ، قبل ان تغلق حانة السفرجلة الطيبة أبوابها ! »
ورفع حفار القبور ملء مسحاة آخر من التراب . وتابع فوشلوفان :
– « سوف ادفع . »
وأمسك بحفار القبور من ذراعه .
– « إسمع ، ايها الرفيق . أنا حفار القبور في هذا الدير ، ولقد جئتُ لأساعدك . إنها مهمة نستطيع ان نقوم بها ليلاً . دعنا نشرب كأساً من الخمر أولاً . »
وفيما هو يتحدث ، وفيما هو يتعلق يائساً بهذا الجهد الملحّ ، تساءل في تشاؤم : « وحتى لو شرب ! أواثق أنا من ان السكر سوف يتعتعه ؟ »
وقال حفار القبور :
– « ايها الرفيق ، اذا لم يكن من ذلك بدّ فاني اوافق . سوف نشرب . ولكن بعد إتمام العمل ، لا قبله على الاطلاق . »
وحرّك مسحاته من جديد . وأمسك فوشلوفان به .
– « إنها خمر آرجانتويْ التي يُباع غُمْ الغالون منها بستة سو ! »
فقال حفار القبور :
– « آه ، هكذا . إنك مملّ . دينغ دونغ ، دينغ دونغ ؛ انت لا تعرف أن تقول شيئاً غير هذا . اذهب ، وانصرف الى عملك . »

وقذف بملء المسحاة الثاني .

وكان فوشلوفان قد بلـــغ تلك النقطة التي لا يعرف المرء فيها أيّ شيء يقول .

وأعاد كرةً اخرى :

– « اوه ! تعال ، واشرب كأساً ، ما دمتُ أنا الذي سأدفع . »

فقال حفار القبور :

– « بعد أن نضع الطفل في المهد . »

وقذف بملء المسحاة الثالث .

ثم غرز المسحاة في التراب ، وأضاف :

– « أترى ؟ سوف يكون الجـو بارداً ، الليلة ، ولـوف تصيـح الميتة في إثرنا اذا زرعناها هناك من غير ان نغطيها جيداً . »

وفي هذه اللحظة ، وفيـما كان حفار القبور يُثقل مسحاتـه بالتراب ، انحنى انحناءً شديداً ، ففغر جيبُ كسائه فاه .

واستقرت عـين فوشلوفان الذاهلة استقراراً آلياً على هـذا الجيب ، وظلت مسمّرة هناك .

ولم تكن الشمس قد توارت خلف الافق ، وكان لا يزال ثمة ضوء كافٍ لرؤية شيء ابيض في الجيب الفاغر فاه .

والتمع كاملُ البرق الذي يمكن لعين فـــلاح بيكاردي ان تنطوي عليه ، في حدَقتي فوشلوفان . كانت فكرة جديدة قد خطرت له .

ومن غير ان يلمحه حفار القبور ، الذي كان منهمكاً بمسحاته الملأى بالتراب ، دسّ يـــده من وراء في ذلك الجيب ، واستلّ منه الشيءَ الابيض الذي احتواه .

وقذف حفار القبور بملء المسحاة الرابع الى اللحد .

وفيما كان يستدير ليأخذ الخامس تساءل فوشلوفان وهو ينظر اليه في هدوء عميق :

– « بالمناسبة ، هل تحمل بطاقتك ايها الصديق الجديد ؟ »

وتوقف حفار القبور :

– « اية بطاقة ؟ »

– « الشمس على وشك المغيب . »

– « حسن . دعه * يضع قلنسوة الليل . »

– « سوف يُغلَق باب المقبرة . »

– « حسن . ثم ماذا ؟ »

– « هل تحمل بطاقتك ؟ »

فقال حفار القبور :

– « آه ، بطاقتي ! »

وبحث في جيبه .

حتى اذا لم يجد فيه شيئاً ، بحث في جيبه الآخر . ثم إنه انتقل الى جيب صدرته ، فنقّب فيه ، ثم جعل داخلَ جيبه الآخر خارجَهُ .

وقال :

– « لا ! لا ! أنا لا أحمل بطاقتي . لا شك في أني نسيتها . »

فقال فوشلوفان :

– « خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

وغدا لون حفار القبور أخضر . إن الأخضر هو لونُ الشحوب عند اصحاب البشرة الزرقاء الضاربة الى السواد .

وصاح :

– « اوه ، يا الّهي الطيب الرحيم ، ايّ مجنون أنا ! خمسة عشر فرنكاً غرامة ! »

فقال فوشلوفان :

– « ثلاث قطع من ذوات المئة سو . »

* يقصد « الطفل » أي الدفين .

وأفلت حفار القبور مسحاته .

كان دور فوشلوفان قد جاء .

وقال فوشلوفان :

– « تعال ، تعال ، ايها المجنّد الجديد ، لا داعي لليأس . ليس ثمة ما يحملك على ان تقتل نفسك وتصبح طعاماً للديدان . إن خمسة عشر فرنكاً هي خمسة عشر فرنكاً ، والى هذا فقد تكون غير قادر على دفعها . أنا عاملٌ عتيق ، وانت عامل جديد . انا أعرف جميع حيل الصنعة ، وأشراكها ، ومنعطفاتها ، والتواءاتها . ولسوف أقدّم اليك نصيحة صديق . إن ثمة شيئاً واضحاً ليس غير ، هو ان الشمس في سبيلها الى المغيب ، وان المقبرة سوف تغلق بعد خمس دقائق . »

فاجاب حفار القبور :

– « هذا صحيح . »

– « وخمس دقائق لا تكفيك لطمر القبر ، فهو عميق كالشيطان . من اجل ذلك ارى ان تخرج من هنا قبل ان يُغلق الباب . »

– « انت على صواب . »

– « وفي هذه الحال ستدفع خمسة عشر فرنكاً غرامة . »

– « خمسة عشر فرنكاً ! »

– « ولكن لديك متسعاً من الوقت ... اين تقطن ؟ »

– « على بُعد خطوتين من باب المدينة . على مسيرة خمس عشرة دقيقة ؟ رقم ٨٧ شارع فوجيرار . »

– « سوف يكون لديك متسع من الوقت اذا فررتَ في الحال . »

– « هذا صحيح . »

– « وما تكاد تجتاز الباب حتى تعدو الى البيت ، وتجيء ببطاقتك ، وترجع الى هنا ، فيُدخلك البواب من جديد . وحين تمسي البطاقة في يدك لا يبقى ثمة داعٍ الى ان تدفع شيئاً . وعندئذ تستطيع ان تدفن

صاحبك الميّت * . ولسوف ابقى أنا هنا ، فأحرسه ريثما تعود ، لكي لا يولي فراراً . »

– « أنا مدين لك بحياتي ، ايها الفلاح . »

فقال فوشلوفان :

– « أغرب ، إذن ، أسرع ! »

وصافحه حفار القبور ، وقد غلبته هزة من عرفان الجميل ، وأطلق ساقيه الريح .

وحين توارى حفار القبور وسط الأدغال ، أصغى فوشلوفان حتى تلاشى وقع قدميه ، وعندئذ انحنى فوق القبر ، ونادى في صوت مهموس :

– « ايها الاب مادلين . »

فلم يقع على جواب .

وارتعد فوشلوفان . وتدحرج نحو القبر ، ولا نقول هبط ، وطرح نفسه على مقدّم النعش ، وصاح :

– « أأنت هناك ؟ »

ولكن الصمت كان يسود النعش .

وتناول فوشلوفان إزميله ومطرقته – وقد كاد يعجز عن التنفس بسبب من الرعدة – واقتلع اللوح الفوقيّ . كان في ميسوره ان يرى وجه جان فالجان في الغسق ، وكانت عيناه مغمضتين ، ولونه شاحباً .

وقفّ شعر فوشلوفان . ونهض واقفاً . ثم تمايل مولياً ظهره جانبَ القبر ، مستعداً لان يسقط فوق النعش . ونظر الى جان فالجان .

كان جان فالجان يرقد هناك شديدَ الشحوب ، عديمَ الحركة .

وتمتم فوشلوفان في صوت خفيض كأنه الهمس :

* واضح ان هذه سقطة من سقطات فوشلوفان ، كاد ان يفضح بها السر كله . وكان ينبغي ان يقول : ان تدفن الميتة ...

– « لقد مات . »

ثم تصدّر ، وصالب ذراعية في عنف بالغٍ حتى لقد رنّت قبضتاه المغلقتان فوق كتفيه ، وصاح :

– « تلك هي الطريقة التي انقذته بها ! »

ثم إن العجوز المسكين شرع ينتحب ، موجّهاً الكلام الى نفسه في صوت مرتفع ، لأن من الخطأ ان نعتقد أن مخاطبة المرء نفسَهُ ليست شيئاً طبيعياً . إن الانفعالات القوية كثيراً ما تتكلم بصوت عالٍ .

– « إنها غلطة الاب ميتيين . لماذا مات ، المجنـــون ؟! اي فائدة كانت له في ان يَنفَق * في هذه اللحظة ، حين لم يكن احد يتوقـع ذلك ؟ إنه هو الذي قتل مـسيو مادلين . الاب مادلين ! انه في النعش . لقد استقر ههنا . انتهى كل شيء . والان ، اي معنى لهـذا كله ؟ آه يا الهي ! لقد مات ! أجل ، وبنته الصغيرة ما الذي سأعمله بها ؟ أي شيء ستقوله بائعة الفاكهة ؟ ان يموت رجل مثل هذا ميتة مثل هذه ! اينها السماء ، أيمكن هذا ؟ حين افكر انه أقحم نفسه تحت عربتي ! ... ايها الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! رحمتك يا رب ، لقد اختنق ! لقد قلت له ذلك ولكنه لم يحب ان يصـــدقني . والآن ، هوذا عمـــل ظريف ! لقد مات ! مات هذا الرجل الطيب ، مات اطيب رجـــل خلقه الرب الطيب ! وبنته الصغيرة ؟ انا لن ارجع الى هناك بعـــد . سوف أبقى هنا . انا لا استطيـع ان افكر اني قمت بعمل كهـذا ! يكفي ان نكون شيخين هرمين حتى نكون معتوهين هرمين . ولكن قبل كل شيء ، كيف استطاع ان يدخل الى الدير ؟ من هنا بدأت . مثل هذه الامور يجب ان لا تُعمل . ايها الاب مادلين ! ايهـا الاب مادلين ! ايها الاب مادلين ! مادلين ! مسيو مادلين ! مسيو مادلين ! ايها السيد العمدة ! انه لا يسمعني . أخرج نفسك من هنا ، الان ، اذا شئت . »

---

* نفق : مات . وهي تصطنع في الكلام على البهائم بخاصة .

وانشأ يقطّع شعره .

وعلى مسافة ما من خلال الاشجار ، سُمِع صريرٌ حادّ . كان باب المقبرة يوصد .

وانحنى فوشلوفان مرة اخرى ، فوق جان فالجان ، ولكنه ارتد فجأة الى الوراء بأقصى ما يُستطاع الاندفاع التراجعيّ في قبر من القبور.

كانت عينا جان فالجان مفتوحتين ، وكان يحدق اليه .

إن مشاهدة الموت لمروّعة ، ولكن مشاهدة بعث مفاجىء لا تقلّ عن ذلك ترويعاً . وأمسى فوشلوفان شاحباً مثلوجاً كالحجارة ، ذاهلاً مضطربَ النفس بهذه الانفعالات القوية كلها ، غيرَ عالم ما إذا كان امام حيّ ام امام ميت ، محدّقاً الى جان فالجـــان المحدّق ، بدَوْره ، اليـه .

وقال جان فالجان :

— « كنتُ نائماً . »

ونهض جان فالجان متخذاً وضعاً قاعداً .

وركع فوشلوفان على ركبتيه .

— « أوه ، ايتها العذراء الطيبة ! كم قد روّعتني ! »

ثم نهض وصاح :

— « شكراً لك ، ايها الأب مادلـين ! »

كان قد أغمي على جان فالجان ، ليس غـــير . حتى اذا استنشق الهواء الطلق ثاب الى رشده .

ان البهجة صنو الذعر . ولقد وجد فوشلوفـــان في استعادة رشده مثل ذلك العسر الذي وجده جان فالجان تقريباً .

— « واذن فانت لم تمت ! آه ما اعظم ذكاءك ! لقـد ناديتـــك بصوت مرتفع الى حد جعلك تعود الى صوابك . وحين رأيتك مغمض العينين ، قلت : « حسن ، هوذا قد اختنق . وكنت على وشك أن أمسي

مجنوناً – مجنوناً حقيقياً ذا صدرة كصدرات المتوهين القتبية الضيقة .
ولقد كان جديراً بهم ان يدخلوني الى بيستر * . ما الذي كنت تريدني ان
اعمل لو انك مت ؟ وفتاتك الصغيرة ! كانت بائعة الفاكهة خليقة بأن لا
تفهم شيئاً من ذلك ! طفلة تلقى فجأة في حضنها ، ثم يموت جدها !
يا لها من قصة ! وحق قديسي السماء كلهم ، يا لها من قصة ! آه !
ولكنك حي – هذا خير ما في المسألة . »

فقال جان فالجان :

– « أنا أحس بالبرد . »

وكان في هذه الكلمات ما اعاد فوشلوفان إعادة تامة الى واقع الاشياء ، الذي كان ملحّاً . وإنما استشعر هذان الرجلان من غير ان يدريا ، حتى بعد ان ثابا الى رشدهما ، اهتياجاً فريداً وقلقاً داخلياً عجيباً لم يكونا غير الانشداه المشؤوم الذي أوقعه المكانُ في نفسيهما .

وقال فوشلوفان :

– « فلنخرج من هنا في الحال . »

وأقحم يده في جيبه ، وأخرج قارورة كان قد تزوّد بها وقال :

– « ولكن خذ نقطة من هذه ، اولاً ! »

وأتمت القارورة ما كان الهواء الطلق قد بدأه . وتناول جان فالجان جرعة من العَرَق ، واستشعر انه استعاد قواه بكاملها .

وخرج من النعش ، وساعد فوشلوفان على تسمير اللوح العلويّ من جديد .

وما انقضت ثلاث دقائق حتى كانا خارج القبر .

واطمأنت نفس فوشلوفان بعد ذلك . وأخذ بأسباب التمهّل . كانت المقبرة موصدةً . ولم يكن ثمة خوف من ان يعود غريبيه حفار

---

* مأوى شهير للعجائز والمجانين كان في قرية بيستر ، وقد سبق التعريف به في جزء ماض .

القبور . كان « الجند الجديد » في منزله منهمكاً في البحث عن بطاقته ، وما كان محتملاً ان يعثر عليها ، لأنها كانت في جيب فوشلوفان . واذ لم يكن يحمل بطاقته تلك فليس في ميسوره ان يرجع الى المقبرة .

وتناول فوشلوفان المسحاة ، وتناول جان فالجان المعول ودفنا النعش الفارغ معاً .

وحين طفح القبر ، قال فوشلوفان لجان فالجان :

— « تعال ، فلنذهب . سوف أحتفظ أنا بالمسحاة ، وسوف تحتفظ انت بالمعول » .

وهبط الليل .

ووجد جان فالجان بعض العُسر في الحركة والمشي . كان التصلّب قد اصابه في ذلك النعش ، وكان قد امسى ، الى حد ما ، جثة هامدة . لقد استبدّ به عَسَم * الموت في ذلك الصندوق الخشبي الضيق . وكان يتعيّن عليه ، بمعنى من المعاني ، أن يذيب نفسه من القبر .

وقال فوشلوفان :

— « انت خدر . ومن أسفٍ أني معوجّ الساقين ، والا لكان في ميسورنا ان نعدو بعض الشيء . »

فأجابه جان فالجان :

— « لا بأس . ان بضع خطوات خليقة بأن تعيد الى رجليّ مرونتهما . »

وارتدّا سالكين الممرات التي سلكتها عربة الموتى من قبل . حتى اذا انتهيا الى الباب الموصد والى مقر البواب ألقى فوشلوفان بطاقة حفار القبور ، وكان يحملها في يده ، الى العلبة ، فجذب البواب الحبل

---

* العَسَم : يبس في مفصل الرسغ تعوجّ منه اليد والقدم .

ففتح الباب وخرجا .

وقال فوشلوفان :

— « ما احسنَ ما يسير كل شيء ! أية فكرة بارعة هـذه التي طلعتَ بها ، ايها الاب مادلين ! »

واجتازا حاجز فوجيرار على أيسر نحو في العـالم . ففي ضواحي مقبرة من المقابر يقوم المعول والمسحاة مقام جواز السفر .

كان شارع فوجيرار مقفراً .

وقال فوشلوفان ، فيما كان يتقدم رافعاً بصره الى البيوت :

— « ايها الاب مادلين ، ان عينيك احسن من عيـنيّ . ايها رقم ٨٧ ؟ »

فقال جان فالجان :

— « ها هو ذا بعينه . »

واردف فوشلوفان :

— « ليس في الشارع احد . أعطني المعول ، وانتظرني دقيقتين . »

ودخل فوشلوفان المنزل رقم ٨٧ ، وصعد الى اعلى السلّم ، تقوده الغريزة التي تقود الفقير ، دائماً ، الى العلّية ، وقرع – في الظـلام – باب غرفة قائمة تحت السقف . وأجاب بصوت :

— « أدخل . »

كان صوت غريبييه .

وفتح فوشلوفان الباب . كان منزل حفار القبور ، شأن منـازل المعوزين جميعاً ، بيتاً حقيراً غير مؤثث ولكنه مزدحم بالاشياء المبعثرة هنا وهناك . كان صندوق أمتعةٍ من ضربٍ ما – ولعله ان يكون نعشاً – يقوم مقام خزانة ذات ادراج ؛ وحَشِيّة من قش مقام سرير ؛ وإناء للزبدة مقام حوض مـاء ؛ وكانت ارض الغرفـة تقوم مقام الكراسي والطاولة . وفي احدى الزوايا ، على خرقة كانت من قبـل

مزقة بالية من سجادة ، تكدّست امرأة مهزولة وجمهرة من الأولاد ؛ وكان كل ما في هذا المأوى البائس يحمل آثار بلبلة حديثة العهد . لقد كان في ميسور المرء ان يزعم ان زلزالاً وقع ثمة « لشخص واحد » . كانت اغطية الآنية مبعثرة ، والثياب الباليـــة متناثرة ، والابريق مكسوراً ، والأم تبكي ، والاطفال يتوجعون في أغلب الظن من اثر الضرب . كان كل شيء يؤذن بأن المكان قد خضع منـذ قريب لتفتيش عنيد شكِسٍ . كان واضحاً ان حفار القبور انهمك في البحث عـــن بطاقته انهاكاً ضارياً وحمّل كل ما في العلّية الحقيرة ، من الابريق الى زوجته ، مسؤولية ضياعه . كان اليأس يرين على محيّاه .

ولكن فوشلوفان كان يتعجل الوصول الى نهاية مغامرته تعجّلاً جعله لا يلاحظ هذا الجانب المظلم من انتصاره .

لقد دخل وقال :

– « إني أحمل اليك مسحاتك ومعولك . »

ونظر غريبييه اليه في انشداه :

– « ماذا ؟ هذا انت ، ايها الفلاح ؟ »

– « وغداً صباحاً ، سوف تجد بطاقتك عند بواب المقبرة . »

ووضع المعول والمسحاة على الارض .

وتساءل غريبييه :

– « ما معنى ذلك كله ؟ »

– « هذا يعني انك سمحت لبطاقتك بأن تسقط من جيبك ؛ أني وجدتها على الارض عندما ذهبتَ ؛ أني دفنتُ الجثة ؛ أني ردمتُ القبر ؛ أني أتممتُ مهمتك ؛ أن البواب سوف يعطيك بطاقتك ؛ أنك لن تُضطر الى دفع خمسة عشر فرنكاً . هذا ما يعنيه ذلك كله ، ايها المجنّد الجديد . »

فصاح غريبييه ، في ذهول :

– « شكراً ، أيها الريفي . في المرة القادمة سوف ادفع اثمان الخمر . »

٨
استجواب ناجح

بعد ساعة ، وفي جوف الليل البهيم ، وقف رجلان وطفلة تجاه رقم ٦٢ ، شارع بيكبوس الصغير . ورفع اكبر الرجلين سناً قارعة الباب وخفقه .

كانوا فوشلوفان ، وجان فالجان ، وكوزيت .

وكان الرجلان قد انطلقا التماساً لكوزيت في دكان بائعة الفاكهة بشارع « الطريق الاخضر » حيث كان فوشلوفان قد وضعها الليلة البارحة . وكانت كوزيت قد سلخت تلك الساعات الاربع والعشرين متساءلةً عن معنى ذلك ، ومرتعدةً في صمت . لقد ارتجفت الى درجـــة ذادت عن عينيها الدمع . إنها لم تذق طعاماً البتة ، ولم تنم البتة . وكانت بائعة الفاكهة الفاضلة قد وجهت اليها مئة سؤال وسؤال من غير ان تفوز من الجواب بأكثر من نظرة كئيبة لا تتغيّر على الاطلاق . فقد حرصت كوزيت على ان لا يندّ منها شيء مما سمعته ورأته منذ يومين . كانت قد حزرت أن ازمةً قد نشأت . واستشعرت ، في قرارة نفسها ، ان عليها « أن تكون عاقلة » . ومن ذا الذي لم يعرف الاثر الأرفـــع الذي تنطوي عليه هذه الكلمات الثلاث مهموساً بها ، بجَرْسٍ معيّن ، في أذن كائن صغـــير مروّع : « **حذار أن تتكلم !** » إن الخوف أخرس . والى هذا ، فليس ثمةَ من يصون السرّ مثلَ طفل صغير .

بيد أنها ما إن وقع بصرها كرةً اخرى – بعد هذه الساعـــات الاربـع والعشرين الفاجعة – على جان فالجان حتى اطلقت صيحة فرحٍ .

كان في ميسور أيما امريء مشغول البال ان يستشفّ فيها ، اذا ما سمعها ، نجاة من هاوية .

كان فوشلوفان من اهل الدير ، وكان يعرف كلمات السرّ . كانت الابواب كلها تفتح في وجهه .

وكذلك حُلت تلك المشكلة المزدوجة والمروّعة : مشكلة الخروج ثم الدخول من جديد .

وفتح البوابُ - وكان قد تلقى الأوامر - البُويبَ الجانبي الذي يصل ما بين الفناء والحديقة ، والذي كان لا يزال في ميسور المرء ان يراه ، منذ عشرين سنة ، من جانب الشارع ، في الجدار القائم في اقصى الفناء تجاه باب العربات . واجاز البواب للثلاثة جميعاً أن يدخلوا من هذا البويب ، ومن هناك شخصوا الى غرفة الاستقبال الداخلية الخاصة حيث تلقى فوشلوفان ، الليلة البارحة ، أوامر رئيسة الدير .

كانت الرئيسة تنتظرهم والسبحة في يدها . وكانت احدى الامهات الصوتيات واقفة قربها مُسدَلةَ الجلباب . ولقد اضاءت شمعة كنومٌ غرفة الاستقبال ، او لعلها بدت وكأنها تنيرها .

وتأملت الرئيسة جان فالجان . وليس شيء اقدر على الدرس من عينٍ مغضوضة .

ثم إنها تقدّمت الى سؤاله :

- « أنت اخوه ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

- « نعم ، ايتها الأم الموقرة . »

- « ما اسمك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « أولتيم فوشلوفان . »

لقد كان له اخ متوفى يدعى اولتيم .

— « من اي جزء من البلاد أنت ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « من بيكويني ، قرب آميان . »

— « ما عمرك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « خمسون سنة . »

— « وما صنعتك ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « بستانيّ . »

— « هل أنت مسيحي صالح ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « كل افراد اسرتنا هم كذلك . »

— أهذه هي فتاتك الصغيرة ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « نعم . ايتها الأم الموقرة . »

— « ألأنت أبوها ؟ »

فأجاب فوشلوفان :

— « جدّها . »

وقالت الأم للرئيسة في صوت كالهمس :

— « إنه يجيب اجابة حسنة . »

ولم يكن جان فالجان قد نطق بكلمة ما .

وأنعمت الرئيســة النظر الى كوزيــت ، ثم أسرّت في أذن الأمّ الصوتية :

– « سوف تغدو بشعة . »

وفي صوت خفيض جداً تحدّثت الأمّان ، بضعَ دقائق ، في زاوية من زوايا غرفة الاستقبال ، ثم التفتت الرئيسة وقالت :

– « أيها الأب فوفان ، سوف تُعطى واقية رُكَبٍ اخرى ذات جلجل . نحن نحتاج الآن الى اثنتين . »

وهكذا سُمِع ، في الصباح التالي ، جلجلان يرنّان في الجنينة .

ولم تتمالك الراهبات أن يرفعن احدى زوايا حُجُبهنّ . لقد رأين رجلين يحفران جنباً الى جنب ، في اقصى الحديقة ، تحت الاشجار : فوفان وشخصاً آخر .

حدثٌ ضخم ! وقُطِع حبل الصمت الى حدّ القول :

– « إنه بستانيّ مساعد ! »

واضافت الأمهات الصوتيات :

– « إنه أخو الأب فوفان . »

والواقع ان جان فالجان قُلِّد على نحو نظامي . لقد حُمِّلَ واقية الرُكَب الجلدية والجلجل . ومن ذلك الحين أمسى موظفاً رسمياً . وكانَ يُعرف باسم أولتيم فوشلوفان .

وكان أقوى الاسباب التي قرّرت قبول كوزيت ملاحظة الرئيسة : سوف تغدو بشعة .

وما إن لفظت الرئيسة هذا الحدس حتى غمرت كوزيت بمودتها وافسحت لها مكاناً في المدرسة الداخلية بوصفها طالبة مجانية .

وليس ثمة شيء غير منطقيّ ، البتة ، في ذلك .

وعبثاً تُقصى المرايا عن الأديرة . فالنساء يَعِينَ طلعاتهن . والفتيات اللواتي يعرفن أنهن جميلات لا يترهّبن عن رضا وطيب نفس . واذ كانت النزعة الى الحياة الرهبانية متناسبةً تناسباً عكسياً مع الجمال ، فطبيعيّ ان يُعقد الأمل على القبيحات اكثر مما يُعقد على المليحات . ومن هنا ذلك الولوع

الشديد بالفتيات البشمات .

ورفعت هذه المسألة كلها من معنوية فوشلوفان الطيب العجوز . كان قد أحرز نصراً مثلثاً – في عيني جان فالجان بعد ان انقذه وآواه ؛ وعند حفار القبور ، غريبيه ، الذي قال : لقد خلصني من دفع الغرامة ؛ وفي الدير الذي استطاع بفضله – من طريق الاحتفاظ بنعش الأم كروسيفكسيون تحت المذبح – ان يجتنب قيصرَ ، ويُرضي الرب . كان ثمة نعش ينطوي على جثمان في « بيكبوس الصغير » ، ونعشٌ من غير جثمان في مقبرة فوجيرار . لقد انتُهكت حرمة النظام العام من غير ريب ، ولكن احداً لم يلمح ذلك . اما الدير فكان عرفانه جميلَ فوشلوفان عميقاً . لقد غدا فوشلوفان أحسن الخدم ، وأغلى البستانيين . فعندما قام رئيس الاساقفة بزيارته التالية للدير قصَّت الرئيسة الحادثة على مسامع عظمته من باب الاعتراف ، من ناحية ، ومن باب الاعتزاز من ناحية . حتى اذا غادر رئيس الاساقفة الديرَ أسرَّ بذلك ، في إطراء ، في أذن مسيو دو لاتيل ، معرِّف الشقيق الثاني من أشقاء الملك ، الذي اصبح في ما بعد رئيس اساقفة ريمس وكاردينالاً . وانطلق هذا الثناء على فوشلوفان والاعجاب به الى ابعد من ذلك ، اذ بلغ رومة نفسها . ولقد وقعت تحت عينيّ مذكرةٌ وجّهها البابا المتربع على الكرسي الرسولي آنذاك ، ليو الثاني عشر ، الى احد انسبائه ، السفير البابوي في باريس ، الذي كان يدعى مثله ديلاّ جانغا . لقد انطوت على هذه السطور : « يبدو ان ثمة في احد اديرة باريس ، بستانياً ممتازاً ذا قداسة ، يدعى فوفان . » ولم يبلغ فوشلوفانَ في كوخه شيء من هذه الشهرة التي تمّت له . لقد واصل تطعيم بطيخانه واقتلاع الاعشاب الضارة من حولها وتغطيتها ، من غير ان يعي امتيازه وقداسته اقلّ الوعي . إنه لم يستشعر مجدَهُ اكثر مما يستشعر مجدَه ايُّ ثور من ثيران دورهام أو دو سوري تُنْشر صورته في مجلة « لندن الاسترايتد

نيوز ، وقد كُتِب تحتها : الثور الذي نال الجـائزة في معرض الماشية . »

٩
الخاتمـــة

وفي الدير ، واصلت كوزيت صمتها .

لقد اعتقدت ، على نحو طبيعي جداً ، انها بنت جان فالجان . والى هذا ، فقد كانت لا تعرف شيئاً . ومن هنا لم يكن في ميسورها ان تبوح بشيء . وعلى اية حال ، فقد كان خليقاً بهـا ، حتى لو عرفت ، ان لا تتكلم . فليس ثمة ما يعوّد الاطفالَ الصمتَ ، كما سبق أن قلنا ، مثل الشقاء . فقد لقيت كوزيت من البلاء قدْراً جعلها تخشى كل شيء حتى الكلام ، حتى التنفّس . فـكم من مرة اسقطت كلمة واحدة وابـلًا من الاذى على رأسها ! وكانت قد بدأت ، وما كادت ، تستشعر الطمأنينة منذ ان رافقت جان فالجان . وسرعان ما ألفت حياة الدير . ومع ذلك فقد ظلت تحنّ الى كاترين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك . بيـد انها قالت لجان فالجان ذات يوم :

— « أبتِ ، لو كنت عارفة ، لحملتُها معي . »

وكان على كوزيت ، وقد اصبحت طالبة داخليـة في الدير ، أن ترتدي ملابس الطالبات . ووفّق جان فالجان الى إقناع جماعـة الدير بأن يُعطوه الثياب التي اطّرحتهـا . كانت هي الثياب الحِدادية نفسها التي جاءها بها لترتديها يوم فارقت تيناردييه وزوجته . ولم يكن البـلى قد أصابها . ولفّ جان فالجان هذه الثياب ، وأضاف اليهـا الجورب الصوفي والحـذاء ، ومقداراً وافراً من الكافور وغـيره من ضروب

الطبّيب التي تكثر في الأديرة ، ثم وضعها في حقيبة صغيرة وُفّق الى الحصول عليها . ووضع هذه الحقيبة على كرسي قرب فراشه ، وحرص على الاحتفاظ بمفتاحها في جيبه .

وسألته كوزيت ذات يوم :

– « أبتِ ، ما هذا الصندوق الذي تفوح منه هذه الرائحة الزكية جداً ؟ »

وكوفيء الأب فوشلوفان – الى جانب هذا المجد الذي وصفنا ، والذي لم يكن يعيه ، على صنيعه الحسن . لقد أوقع عمله ذاك السعادة في قلبه ، اولاً ، وخفّف عنه وطأة الشغل ، بعد ان تقاسمه مع جان فالجان . واذ كان شديد الولوع بالتبغ فقد وجد في هذه الزمالة الجديدة نفعاً من ناحية اخرى . لقد اخذ ثلاثة اضعاف نصيبه القديم من التبغ ، وعلى نحوٍ اكثر شراهةً الى حدٍ بعيد ، ما دام مسيو مادلين هو الذي كان يدفع الثمن .

ولم تتبنّ الراهبات اسم أولتيم . لقد دعون جان فالجان فوفان الآخر .

ولو قد كان لهاته النسوة القدسيات عين كعين جافير ، اذن للاحظن ، على مرّ الأيام ، أن فوشلوفان الاكبر سناً ، فوشلوفان العجوز ، العاجز ، الأعرج ، كان هو الذي يهرع الى الخارج كلما قضت مصلحة الحديقة بذلك ، لا الرجل الآخر بحال من الاحوال . ولكن سواء اكانت الاعين المحدّقة ابداً الى الله عاجزةً عن التجسس ، أم كانت منهمكةً على نحوٍ موصول في مراقبة بعضها بعضاً ، فانهنّ لم يلاحظن شيئاً البتة .

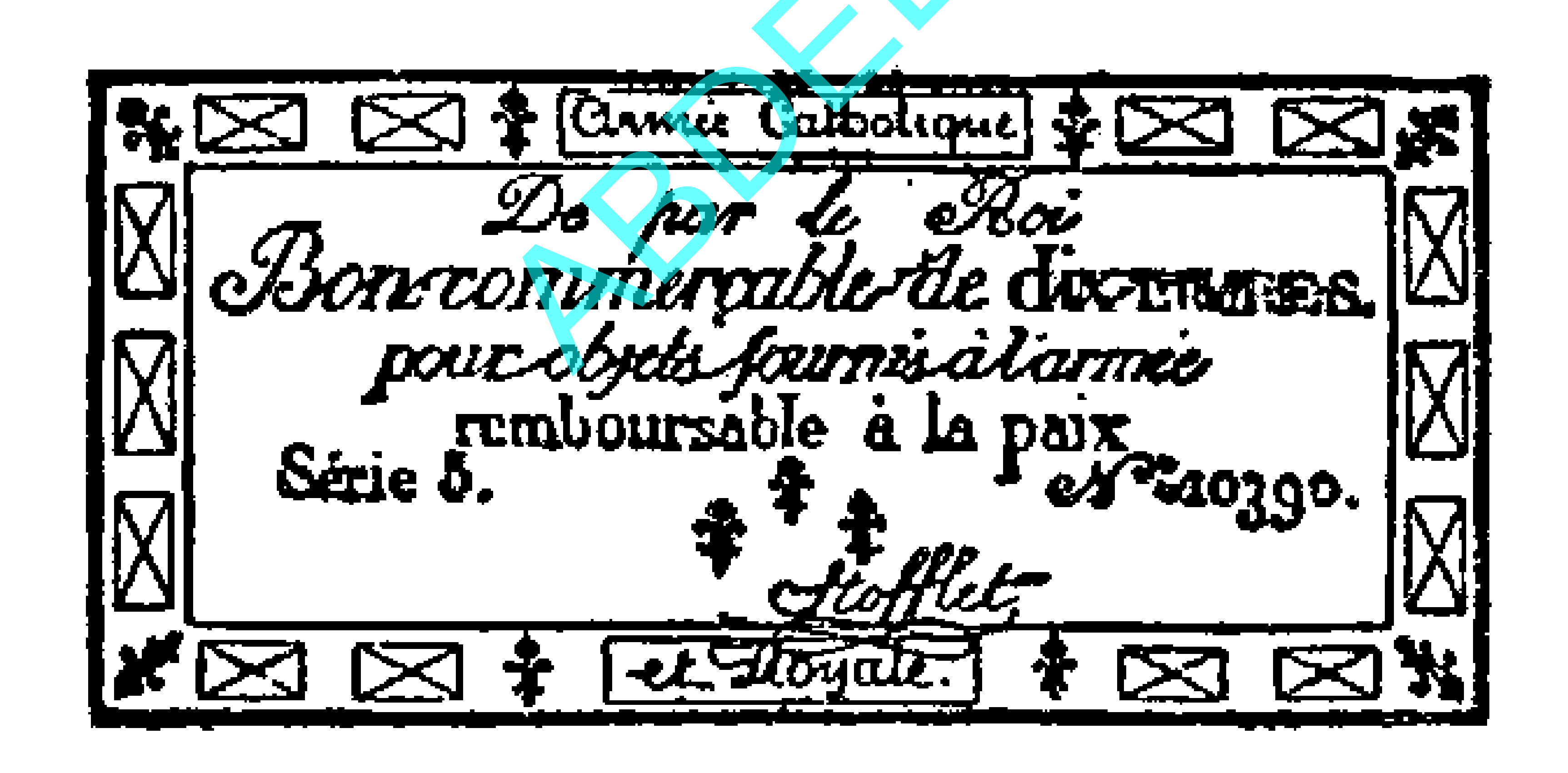
وأياً ما كان ، فقد ارتاح جان فالجان الى الاعتصام بالهدوء والسكينة . وراقب جافير الحيّ شهراً أو يزيد .

كان الدير بالنسبة الى جان فالجان أشبه بجزيرة تحيط بها اللجج . ومن ذلك الحين أمست هذه الجدران الاربعة هي العالم عنده . فضمّنتها

كان في ميسوره ان يرى السماء الى حــد يوقع الطمأنينة في نفسه ، وكوزيت الى حد يثلج فؤاده .

لقد استهل ، من جديد ، حياة سعيدة جداً .

وعاش مع فوشلوفان العجوز في الكوخ الذي في أقصى الجنينة . وكان هذا المأوى الحقير ، المبني من حطام الجبس ، والذي كان لا يزال قائماً عام ١٨٤٥ ، يتألف كما نذكر ، من ثلاث غرف كلها عارية فليس فيها غير الجدران . وكان فوشلوفان قد ضغط على مسيو مادلين حتى أقنعه ، بعد معارضة مخفقة ، بالنزول في الغرفة الرئيسية منهــا . وكان يزين جدارَ هذه الغرفة بالاضافة الى المسارين المخصصين لتعليق الركبية والسلة الكبيرة ، نموذجٌ ملكيّ من الاوراق النقدية الصادرة عـام ٩٣ ، والملصقة فوق الموقد ، والتي نقدّم ههنا صورة طبق الاصل عنها :


Armée Catholique
De par le Roi
Bon remboursable de dix livres.
pour objets fournis à l'armée
remboursable à la paix
Série 5.
N° 20390.
Stofflet
et Royale.

كانت هذه الورقة النقدية التي أصدرت في فانـديه قد سمّرتها على الجدار يدُ البستاني السابق – وهو احد المتمردين القدماء على الجمهورية– الذي توفي في الدير فخلفَهُ فوشلوفان .

وعمل جان فالجان كل يوم في الحديقة ، وكان عظيم الغناء هناك . كان من قبلُ مشـذّب أغصان ، فانقلب الى بستانيّ عن رضا وطيب خاطر . والقراء يذكرون أنـه كان يعرف جميـع ضروب الوصفات

والاسرار الخاصة بالزراعة . ولقد أفاد من ذلك في عمله الجديد . كانت جميع شجرات الحديقة ، تقريباً ، شجرات برية . فلقّحها وجعلها تُعطي ثمراً ممتازاً .

وأجيز لكوزيت أن تفِدَ عليه كل يوم ، وتقضي ساعةً معه . وإذ كانت الراهبات مكتئبات ، واذ كان هو لطيفاً ، فقد قارنت الطفلة ما بينه وبينهن ، وهامت به هياماً شديداً . ففي الساعة المعيّنة ، من كل يوم ، كانت تهرع الى الكوخ . حتى اذا دخلت ذلك المأوى العتيق ملأته بالجنّة . لقد تهلّل جان فالجان ، وأحسّ بسعادته تتعاظم بسبب من السعادة التي أضفاها على كوزيت . والواقع ان للبهجة التي نُدخلها الى قلوب الناس هذه الخاصةَ الساحرة ، وهي أنها — وهي التي لا تعرف النقصان مثل أيّ انعكاس آخر — ترتجع الينا اكثر اشراقاً من ذي قبل . وفي ساعات العطلة ، كان جان فالجان يراقبها — من بعيد — تلعب وتعدو ، وكان في ميسوره ان يميز ضحكها من ضحك رفيقاتها جميعاً .

ذلك بأن كوزيت عرفت الضحك الآن .

وحتى محيّا كوزيت تغيّر بعضَ الشيء . كان الطابع الكئيب قد زال . فالضحك شمس . إنه يطرد الشتاء من الوجه البشري .

وهكذا غدت كوزيت ، وهي التي لم تكن جميلة في يوم من الايام ، فاتنةً من ناحية اخرى . كانت تقول اشياء صغيرة معقولة بصوتها الطفليّ العذب .

حتى اذا انتهت العطلة ، وفارقته كوزيت ، كان من دأب جان فالجان ان يراقب نوافذ غرفة صفّها . أما في الليل ، فكان ينهض من فراشه ، ويلقي نظرة على نوافذ المهجع الذي كانت تنام فيه .

إن لله طرائقه . فقد أسهم الدير ، كما أسهمت كوزيت ، في تثبيت عمل الاسقف وإكماله في نفس جان فالجان . وليس في استطاعة المرء ان

يُنكر ان وجهاً من أوجُـــهِ الفضيلة ينتهي الى الغرور . وعند تلك النقطة يمتدّ جسر بناه الشيطان . ولقد كان جان فالجان ، في ما يبدو ، من غير أن يستشعر ذلك ، على مقربة مـن وجه الفضيلة ذاك عينِهِ ، ومن ذلك الجسر عينِهِ ، حين قذفت العناية الالـهية به الى دير بيكبوس الصغير . كان خليقاً به ، ما دام لا يقارن نفسه إلا بالاسقف ، أن يجد نفسه غير كفوٴ ، وان يظلّ متواضعاً . ولكنه بدأ ، منذ فترة من الزمان ، يقارن ما بينه وبين سائر الناس ، ومن هنا راح الغرور يُطلع رأسه في نفسه . ومن يـدري ؟ لعله كان خليقاً بأن ينتهي الى الارتداد ، تدريجياً ، نحو البغض .

لقد أوقفه الدير عند هذا المنحدر .

كان هذا هو ثاني موطن من مـــواطن الأسْر قُدّر له ان يراه . ففي شبابه ، في ما كان بالنسبة اليه بـــدء الحياة ، وبعد ذلك ، منذ فترة قريبة جداً ، رأى موطناً آخر ، موطناً رهيباً ، موطنـاً فظيعاً كانت ضروب القسوة التي ينطوي عليها تبدو له دائمـاً جَوْرَ العدالة ، وجريمةَ القانون . والآن ، بعد ان رأى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، رأى الدير . وإذ فكّـر انه كان في ما مضى جزءاً من سجن الأشغاليين ، وانه امسى اليوم ، اذا جاز التعبير ، مشاهِـــداً في الدير فقد قابل ما بينهما ، في تأملاته ، بقلق شديد .

وفي بعض الاحيان كان يتكيء على مسحاته ، ويهبط شيئاً بعد شيء معارج الاحلام اللولبية التي ليس لها قرار .

لقد تذكّـر رفاقه القدماء ، ومبلغ ما كانوا يعانونه من بؤس . كانوا ينهضون منذ الضحى ، ويكدحون حتى يهبط الليل . وما كان يُسمَح لهم بالنوم الا نادراً . كانوا ينامون على سرر عسكرية ، ولم يكن ليجاز لهم ان يتخذوا غير حشايا تبلغ سماكتها إنشين ليس غير ، في قاعات ما كانت تدفأ الا في أشهر الشتاء القارسة . كانوا يلبسون أرديـــة حمراء ،

وكانوا يُعطَون ، تكرماً وتلطفاً ، بنطلوناً من نسيج قنّبي حين يبلغ القيظ أشدّه ، ورقعة مربعة من نسيج صوفي يضعونها على ظهورهم في أيام الزمهرير . لم يكن عندهم خمر يحتسونها ، ولا لحم يأكلونه الا يوم يساقون الى عمل « شاق فوق العادة » . لقد عاشوا من غير أسماء – فهم لا يميزون إلا بالارقام ، وقد حوّلوا بمعنى ما الى أصفار – مطرقي الأبصار ، خافضي الاصوات ، حليقي الرؤوس ، تحت العصيّ ، وفي حمأة العار .

ثم ارتدّت أفكاره الى الكائنات اللواتي كنّ أمام عينيه .

لقد عاشت هذه الكائنات ، ايضاً حليقات الرؤوس ، مطرقات الابصار ، مكبوحات الأصوات . إنهن لم يتمرغن في حمأة العار ولكنهن كن محوطات بسخريات العالم ان ظهورهن لم تتقفّع من هراوة السجان ، ولكن اكتافهن كانت ممزقة بالكفارة التي تُنزلها كل منهن بنفسها . واسماؤهن أيضاً قد زالت من بين أسماء الناس ، فهنّ يعشن الآن بنعوت كالحلة ليس غير . انهن لا يأكلن اللحم أبداً ولا يشربن الخمرة ابداً . وكثيراً ما بقين حتى المساء من غير طعام . انهن لم يكنّ يلبسن اردية حمراء ، ولكنْ أكفاناً سوداء من صوفٍ ، غليظٍ في الصيف ، رقيقٍ في الشتاء ، غير قادرات على أن يزدنها او ينقصن منها ؛ غير مالكات حتى حق استبدال معطف من الصوف بثوب من القطن او ثوب من القطن بمعطف من الصوف ، تبعاً للفصول . وطوال ستة اشهر كن يرتدين قمصاناً من انسجة صوفية غليظة تورثهن ضروباً من الحمّى . وكنّ يسكنّ لا في قاعات تدفأ أيام الزمهرير فحسب ، ولكن في قلايا لا توقد النار فيها البتة . وكن ينمن على حشايا تبلغ سماكتها إنشين ، ولكن على التبن . وفوق هذا فلم يكن ليُسمح لهن حتى بالنوم . فما إن يُتممْنَ كدح النهار ، ويرزحن تحت وطأة النعاس ، حتى يُدْعَون كل ليلة – لحظة تكون الواحدة منهن قد بدأت تستسلم للرقاد وأوقعت في جسدها قليلاً

من الدفء – الى الاستيقاظ ، فينهضن ويجتمعن للصلاة في كنيسة مثلوجة مظلمة ، حيث تمس رُكبهن الارض الحجرية .

وفي بعض الأيام كان يتعين على كل من هاته المخلوقات ، واحدة اثر الاخرى ، ان تظل اثنتي عشرة ساعة متعاقبات راكعةً على البلاط ، او مكبّة على وجهها متصالبة الذراعين .

لقد كان اولئك رجالاً ؛ اما هؤلاء فنساء . ما الذي فعله اولئك الرجال ؟ لقد سرقوا ، واغتصبوا ، وسلبوا ، وقتلوا ، وسفكوا الدماء . كانوا قطاع طرق ، ومزوِّرين ، ومسمِّمين ، ومحرِّفين ، وقتلة ، ومريقي دم آبائهم وامهاتهم . وما الذي فعلته هاته النسوة ؟ إنهن لم يفعلن شيئاً .

في ناحية ، كانت السرقةُ ، والغدر ، والخديعة ، والعنف ، والفسق ، والقتل ، وكل ضرب من ضروب تدنيس القدسيات ، وكل صنف من صنوف انتهاك الحرمات . وفي الناحية الاخرى لم يكن غير شيء واحد : – البراءة .

البراءة الكاملة التي تكاد ترتفع ، في انتقال مقدس ، الى الاعالي ، فهي لا تزال مشدودة الى الارض بالفضيلة ، ولكنها توشك ان تمس السماء بالقداسة .

في ناحية ، كان الاعتراف بالجرائم يُرسل في صوت مهموس . وفي الناحية الاخرى كان يُعترف بالخطايا جهاراً . ويا لها من جرائم ! ويا لها من خطايا !

وفي ناحية كانت أبخرة عفنة ، وفي الاخرى كان الطيب الذي يمتنع على الوصف . في ناحية كان الطاعون الاخلاقي ، المراقَب ليلاً ونهاراً ، المسلطة عليه افواه المدافع ، المفترس ضحاياه في بطء . وفي الاخرى ، كانت الارواح كلها تتعانق عناقاً عفيفاً على منبثَق الاشعاع نفسه . هناك الظلمات ؛ وهنا الظلّ ، ولكنه ظلّ مفعم بالنور ، النور المفعم بالاشعة

المتوهجة .

موطنان من مواطن العبودية . ولكنّ في اولهما انعتاقـــاً ممكناً ، فهناك نصبَ العيون ابداً حدّ قانوني ، ثم هناك الفرار . اما في ثانيهما فليس غير الخلود ، وليس من أمل ، عند أقصى حدود المستقبل ، سوى شعاع الحرية الذي يدعوه الناس الموت .

في الموطن الأول ، كان الاسرى يُصفّدون بالاغلال فحسب . وفي الموطن الثاني كنّ يصفّدن بالايمان ليس غير .

ما الذي نشأ عن الموطن الأول ؟ لعنةٌ هائلة ، وصرير الأسنان ، والكراهية ، والخبائة اليائسة ، وصرخة غيظ في وجه المجتمع البشري ، وسخرية من السماء .

وما الذي نشأ عن الموطن الثاني ؟ البرَكة والحبّ .

وفي هذين الموطنين ، المتشابهين جداً المختلفين جـــداً ، كان هذان الضربان من المخـــلوقات ، الشديـــدة التباين ، يقومان بالعمل نفسه : التكفير .

وفهم جان فالجان احسن الفهم تكفير الفئة الاولى ؛ التكفير الشخصي ؛ التكفير من اجل النفس . ولكنه لم يفهم تكفير الفئة الاخرى ، تكفير هذه المخلوقات المنزهات عن اللوم ، المعصومـــات عن الدنس . وساءل نفسه في ارتعاد : « التكفير عن ماذا ؟ أيُّ تكفير هذا ؟ »

فأجابه صوت في وجـــدانه يقول : « انه أقـــدس ضروب الجود الانساني ، التكفير من اجل الآخرين . »

وهنا نحتفظ بنظرياتنا جميعاً . فلسنا غير قاصٍّ من القُصّاص . وإنما نقول ما نقوله من وجهة نظر جـان فالجان ، ونعبّر عن انطباعـاته بمجرد تعبير .

كانت نصبَ عينيه القمةُ العليا لانكار الذات ، قنّةُ الفضيلة الاكثر سمواً ؛ والبـــراءةُ الغافرة للناس آثامهم المكفّرةُ عنهـــا بالنيابة عنهم ؛

والعبودية محتملة ؛ والعذاب مقبولاً ؛ والعقوبة والشقاء وقد ألحت في طلبها نفوس لم تأثم ، لكي تُنجي منها نفوساً آثمة ؛ وحب الانسانية فانياً في حب الله ولكنه باقٍ هناك متميزاً متضرعاً ؛ وكائنات ضعيفات لطيفات تتحمل كل عذاب اولئك الذين أنزلت العقوبة بهم ، وتحتفظ رغم ذلك بابتسامة اولئك الذين فازوا بالمكافأة .

وتذكر أنه تجرأ على الشكوى !

وكان كثيراً ما ينهض من فراشه ، في جوف الليل ، ليصغي الى الانشاد الشكور المنطلق من حناجر هاته المخلوقات البريئة ، المثقلة بضروب القسوة . ولقد استشعر الدم يجري بارداً في عروقه حين فكر ان اولئك المعاقَبين بحق لا يرفعون اصواتهم نحو السماء أبداً إلا لكي يجدفوا ؛ وانه هو – برغم شقائه كله – قد هزَّ جمع كفه في وجه الربّ !

وشيء آخر غريب جعله يمعن في التفكير والتأمل وكأنه وحي همست به في أذنه العناية الالهية نفسها : أن تسوّر الجدران ، واجتياز الأسيجة ، والمخاطرة بالحياة حتى الموت ، والصعود العسير المؤلم ، جميع هذه الجهود التي بذلها في سبيل الخروج من موطن التكفير الاول هي عينها التي بذلها من اجل الدخول الى موطن التكفير الثاني . أيكون هذا رمزاً على قدَره ؟

لقد كان هذا البيت سجناً ايضاً ، وكان يشبه شبهاً كئيباً ذلك المأوى الآخر الذي فرّ منه ؛ ومع ذلك فلم يتخيّل قط من قبل شيئاً مثله .

لقد بَصُرَ كرةً اخرى بالابواب والنوافذ المقضّبة ، وبالمزالج ، وبالقضبان الحديدية . ولكنْ لتحبس من ؟ الملائكة .

وهذه الجدران السامقة التي رآها في ما مضى تطوّق أشراراً ، أمسى يراها ، اليوم ، تطوّق حملاناً .

كان موطنَ تكفير ، لا موطن قصاص . ومع ذلك فقد كان اكثر جهامة ، واكثر كآبة ، واكثر قسوة ، من الموطن الآخر . كانت ظهور هؤلاء العذارى محنيّة في خشونة دونها الخشونة التي حُنيت بها ظهور المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . كانت ريح باردة عنيفة ، الريح التي جعلت شبابه مثلوجاً ، تخترق الخندق المحصّن بالحديد ، وتكبّل العقبان . ولكن ريحاً أشدّ لذعاً واكثر وحشية هبّت على قفص الحمائم .

لماذا ؟

حين فكّر في هذه الاشياء تراجع كل ما كان يعتلج في ذاته أمام سرّ السموّ هذا .

وفي هذه التأملات ، تلاشى الغرور . لقد عاد الى نفسه مرّةً ومرّة . لقد استشعر حقارته البالغة ، وسفح الدمع في كثير من الاحيان . كان كلُّ ما دخل حياته ، منذ ستة اشهر ، قد ردّه نحو وصايا الاسقف القدسية ؛ كوزيت بالحبّ ، والدير بالخشوع .

وبعضَ الاحيان ، حين يهبط الليل عند الغسق ، في تلك الساعة التي تُقفر فيها الحديقة ، كان يُرى راكعاً وسط المجاز المحاذي للكنيسة ، أمام النافذة التي نظر من خلالها ليلة وصوله ، متجهاً الى حيث كانت الاخت المستغفرة ساجدةً مصلية على ما يعلم . وهكذا صلى راكعاً امام هذه الاخت .

لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على الركوع امام الله مباشرة .

ولم يلبث كل ما حوله : هذه الحديقة المطمئنة ، هذه الرياحين العاطرة ، هؤلاء الاطفال الصائحون صيحات البهجة ، هاته النسوة الوقورات البسيطات ، هذا الدير الصامت — لم يلبث كل هذا ان داخَلَ كيانه كله تدريجياً . وشيئاً بعد شيء تكونت نفسه من صمتٍ مثلَ هذا الدير ، ومن عطرٍ مثلَ هذه الرياحين ، ومن طمأنينةٍ مثل هذه الحديقة ، ومن بساطةٍ مثل هاته النسوة ، ومن بهجةٍ مثل هؤلاء الاطفال . ثم فكر ان بيتينِ من

بيوت الله قد استقبلاه ، على التعاقب ، في لحظتي حيـــاته المصيبتين : الاول حين أوصد في وجهه كل باب ونبذه المجتمع البشري ؛ والثـــاني حين طارده المجتمع البشري من جديد وفغر سجنُ الاشغال الشاقة فمه لابتلاعه . وانه لولا الاول لتردّى في مهـــاوي الجريمة كرة اخرى ، ولولا الثاني لتردّى في مهاوي العقاب .

وذاب فؤاده كله اعترافاً بالجميل ، وتعلق بأهداب الحب اكثر فأكثر .

وانقضت على هذا النحو عدة سنوات . وكبرت كوزيت .



فهرست القسم الثاني : « كوزيت »

الكتاب الاول : واترلو

ص

الكتاب الثاني : الدارعة « اوريون »

ص

الكتاب الثالث : الوفاء بالعهد المقطوع للراحلة

الكتاب الرابع : بيت غوربو العتيق

الكتاب الخامس : المطاردة السوداء تحتاج الى كلاب قنص صامتة

الكتاب السادس : بيكبوس الصغير

الكتاب السابع : بين هلالين

الكتاب الثامن : المقابر تأخذ ما يُقدَّم اليها

قالوا ...

● « ... وكان آخر ما أتحفتنا به « قصة مدينتين » لتشارلز ديكنز . فما هالك منها ضخامة في حجمها ، ولا مشقة في تذليل أوابدها. بل آليت على نفسك ان تنقلها « كاملة غير منقوصة » ، فأحسنت بذلك الى نفسك ، والى العربيـة ، والى ديكنز . وكنت اميناً في عملك منتهى الامانة . فـلا تحوير ولا تزوير كما هي الحال مع الكثيرين من المترجمين . وكنت حذقاً ولبقاً في تغلبك على القصيّ من التعابير والمصطلحات الانكليزية ثم في حلمك على الترجمة كلها حلة عربية محكمة النسيج ، لطيفة التفاصيل ، مشرقة اللون ...

وها انك منصرف في هذه الايام الى ترجمة « البؤساء » لهيغو في نصها الكامل. وهو عمل ضخم ، ولكنه ضروري . اذ من الحيف ان لا يعرف العرب تلك الرواية الشهيرة الا في ترجمـة حافظ ابراهيم الممسوخة . ولست اعرف من هو اقدر منك على إنصاف الرواية وصاحبها لدى القاريء العربي ... »

بسكنتا — ميخائيل نعيمة

● « ... والذي يعجبني في ترجمة البعلبكي هو انه قد يفتش عن الكلمـة الملائمـة بالفتيلة والسراج ، واذا لم يجدها فوراً صبر عليها حتى تأتي . فمن فاتته مطالعة الاثار الادبية بلغتها الأم يمكنه ان يعتمد على ترجمة منير فهي اقرب ما

يُترجَم اليوم الى الأصل. قلت « اقرب » لان لكل لغة حلاوتها وطعمها ولونها.
أما سلامة عبارته فقد تكون ، لا بل هي ، اسلم تعبير عن الفكرة الاجنبية التي ينقلها الاستاذ الى العربية، فلا حشو ولا ثرثرة، بل امانة كلية في التأدية ...»

بيروت، « المجالس المصورة » – مارون عبود

● «... اذا كان للمؤلف فضل فللمترجم في اعتقادي فضلان ! لانه متى اراد القيام بالترجمة كما يجب تحتم عليه ان يكون المؤلفَ عينه من جهة ثم ان يكون هو نفسه من جهة ثانية ... هذه الفكرة خطرت لي غبّ قراءتي لترجمة كتاب « الشيخ والبحر » فقد أُعجِبتُ بالتعريب اعجاباً يفوق اعجابي بالقصة . ومنذ ذلك الحين بدأت ارافق صديقي الاستاذ منير البعلبكي في ما ينتج من ترجمات ، واصبحت اقرأ بالعربية ما كنت اقرأه من ادب الانكليز والالمان والروس والاميركان . ثم اعدت النظر في بعض ما كان منير البعلبكي قد ترجمه قبل « الشيخ والبحر » مما فاتني الاطلاع عليه ، فزاد يقيني بأن الترجمة ايضاً من الفنون العالية ما دام عنصر التعب فيها جلياً بمقدار ما هو في الشعر والموسيقى ...»

بيروت – « جريدة الجريدة » – رفيق المعلوف

● «... انت كاتب تربطك بكرامة التعبير ومسؤولية الفكر اسباب واعية، ومن هنا كانت امانتك في الترجمة ، وانت رجل واعٍ لوظيفة الفكر والفن في المرحلة الراهنة من مراحل قوميتنا العربية ، ومن هنا فانت تختار ترجماتك بما يتلاءم مع حاجات الوجدان العربي والذهن العربي على السواء ، مما يساعد على خلق الفرد الواعي لوجوده ، لمشكلاته الحقيقية ، لأبعاد ماضيه وحاضره ومستقبله ...»

القاهرة – رجاء النقاش

● «...اما الاستاذ منير فأن رأيي في انتاجه الرائع هو رأي كل منصف يتذوّق ويميّز الغثّ من السمين . إن ترجماتــه أشبه بالهضاب الوطيدة الشامخة ، بناءً ولغة وفكرةً ، الى جانب غبار من الترجمات تثيره اقلام لو عرفت قدرها لتتلمذت طويلاً على انتاج الأستاذ منـير قبل أن تخطّ جملة عربية او تمسك بزمام فكرة ...»

حلب – سليمان العيسى

● « ... ولا يكتفي منير البعلبكي بمجرد الترجمة ولكن يضيف اليها من الحواشي والتعليقات والشروح ما يرتفع بجهده الى حيث يغدو مشاركة فعليــة في التأليف وليس مجرد نقل من لغة الى لغة فحسب . وهو بهــذه الهوامش الكثيرة جداً التي تنتشر في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً انمــا ييسّر للقاريء العربي ان لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من الاسماء والاماكن والحوادث التي في الكتاب ... وجهد البحث والتنقيب مضافاً اليه جهد الترجمة والمقارنــة بين النسخة الفرنسية والنسخة الانكليزية هو الذي أعنيه بالمشاركة الفعليــة في التأليف ... »

عمان – « جريدة فلسطين » ، عيسى الناعوري

● « ...حريّ بنا اذن ان نكبر في المترجم هذا الدأب الموصول وان نقدّر له فضله في تعريف القاريء العربي الى شوامــخ القصص العالمي التي كان احدثها ترجمة « الشيخ والبحر » لارنست همنغواي ترجمة تكاد ان تكون كاملة بامانتها وصفائها وتلك الروعة التي اضفاها المترجم على اسلوبه ، وما كنت لأقع على مثلها في ترجمة الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية ! »

بيروت – « جريدة الحياة » ، ابن يقظان

انتهى المجلد الثاني

ويليه المجلد الثالث

٢٤٧ / ١٠ / ٥٥ / ٣٠٠٠

